نوبل للآداب
2015

@ketab_n
Follow Me
18.1.2017

سفيتلانا أليكسييفيتش

ليس للحرب وجه أنثوي



ترجمة: د. نزار عيون السود

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سفيتلانا أليكسييفيتش

ليس للحرب وجه أنثوي

ترجمها عن الروسية:

د. نزار عيون السود

Twitter: @ketab_n

ليس للحرب وجه أنثوي

Twitter: @ketab_n

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

У войны не женское лицо

Светлана Алексиевич

ليس للحرب وجه أنثوي

تأليف: سفيتلانا أليكسييفيتش

ترجمها عن الروسية: د. نزار عيون السود

التدقيق اللغوي: عمر الخولي

الإخراج: فايز علام

تصميم الغلاف: ليلى شعيب

ISBN: 3 - 20 - 540 - 9933 - 978

الطبعة الأولى: 2016

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH fb.com /Adwan.Publishing.House

©by Svetlana Alexievich 2013

جميع حقوق الترجمة العربية محفوظة للناشر دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو أو بأية طريقة دون موافقة الناشر الخطية.

Twitter: @ketab_n

المحتويات

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

- «متى شاركت النساء في الجيوش أوَّل مرَّة في التاريخ؟».

* «منذ القرن الرابع قبل الميلاد، شاركت النساء في الجيش اليوناني في أثينا وإسبارطة. وبعد ذلك شاركت النساء في غزوات الإسكندر المقدوني.

كتب المؤرِّخ الروسي نيقولاي كارامزين عن سالفاتنا قائلاً:

كانت تذهب النساء السلافيات، أحياناً، مع آبائهن وأزواجهن إلى الحرب، دون خوف من الموت: ففي أثناء حصار القسطنطينية عام 626، عثر اليونانيون بين القتلى السلافيين على كثير من جثث النساء. حيث كانت الأمَّهات في تربيتهن للأطفال، تعدُّهنَّ لكي يكنَّ مقاتلات».

- «وماذا بالنسبة إلى العصر الحديث؟».

* «بدأوا في إنكلترا للمرَّة الأولى، في الفترة من 1560–1650، بتجهيز المستشفيات الحربية، التي كانت تعمل فيها النساء المجنَّدات».

- «وماذا جرى في القرن العشرين؟».

* «بداية القرن، في الحرب العالمية الأولى، جُنِّدت النساء في القوَّات الجوِّية الملكية البريطانية، وشُكِّل الفيلق الملكي المساعد والفرقة النسائية من المشاة الميكانيكية بتعداد 100 ألف مجنَّدة.

بدأت نساء كثيرات في روسيا وألمانيا وفرنسا في الخدمة في المستشفيات العسكرية والقطارات الصحِّية.

أمَّا في الحرب العالمية الثانية فقد شهد العالم ظاهرة نسائية. شاركت

Twitter: @ketab_n

النساء في جميع صنوف القوّات والأسلحة في كثير من بلدان العالم؛ وبلغ عدد النساء في الجيش البريطاني 225 ألف مجنَّدة، وفي الجيش الأمريكي من 450–500 ألف مجنَّدة، وفي الجيش الألماني 500 ألف مجنَّدة...

كان يحاربْ في الجيش السوفييتي نحو مليون امرأة، وكن يُتقنَّ جميع الاختصاصات العسكرية، بما فيها تلك التي تتطلَّب قوَّة الرجال. حتى أنه ظهرت مشكلة لغوية: كان لا بدَّ من اسم مؤنث لكلمات "عنصر دبَّابات"، و"عنصر مشاة"، و"عنصر رشَّاشات"، حيث لم يكن هناك صفة نسائية لها؛ لأن المرأة لم تمارس سابقاً هذه الاختصاصات. وقد ظهرت التسميات النسائية لها في أثناء الحرب».

من حديث مع مؤرِّخ

Twitter: @ketab_n

الإنسان أكبر من الحرب
(من يوميَّات الكتاب)

ملايين القتلى بثمن بخس
داسوا على الدرب في الظلمة...
(الشاعر أوسيب مندلشتام)
1978-1985

أكتب كتاباً عن الحرب...

أنا لم أحبَّ قراءة الكتب الحربية، مع أن هذه الكتب كانت القراءة المفضَّلة في طفولتي ومراهقتي لدى جميع أترابي. وهذا ليست مستغرباً؛ فنحن أبناء النصر. أبناء المنتصرين. أوَّلاً: ما الذي أذكره عن الحرب؟ إنه حنيني الطفولي بين كلمات مرعبة وغير مفهومة. كنا نتذكَّر الحرب دوماً: في المدرسة وفي البيت، في الأعراس وفي التعميد، في الأعياد وفي المآتم. وحتى في أحاديث الأطفال. سألني ابن الجيران ذات يوم: «وماذا يفعل الناس تحت الأرض؟ وكيف يعيشون هناك؟». نحن أيضاً أردنا معرفة سرِّ الحرب.

آنذاك، فكَّرت في الموت... ولم أتوقَّف عن التفكير فيه أبداً. فقد أصبح الموت سرَّ الحياة الرئيس.

Twitter: @ketab_n

كلُّ شيء بدأ بالنسبة إلينا من ذلك العالم الرهيب والغامض. في أسرتي، جدٌّ أوكراني، والد أمِّي، استشهد على الجبهة، ودُفن في مكان ما على الأراضي المجرية. أمَّا جدَّتي البيلاروسية، والدة أبي، فقد تُوفِّيتْ من مرض التيفوس مع جماعات الأنصار، واثنان من أبنائها خدموا في الجيش، وأصبحوا في عداد المفقودين منذ أشهر الحرب الأولى، ومن أولادها الثلاثة عاد ابن واحد من الحرب، وهو أبي. أحد عشر من أقاربي، مع أولادهم، أحرقهم الألمان أحياء؛ بعضهم في أكواخهم وآخرون في كنيسة القرية. وهكذا كان في كلِّ أسرة، عند الجميع.

كان لا يزال صبيان القرية يلعبون لعبة الحرب "الألمان" و"الروس"، وكانوا يصرخون بالكلمات الألمانية: «ارفع يديك»، «إلى الوراء»، «يسقط هتلر!».

لم نعرف العالم بدون حرب، وكان عالم الحرب هو العالم الوحيد المعروف لنا، أمَّا أُناس الحرب فهم الوحيدون الذين نعرفهم. وأنا، حتى الآن، لا أعرف عالماً آخر ولا ناساً آخرين. وهل كانوا يوماً ما؟

***

إن قرية طفولتي بعد الحرب كانت قرية نسائية. النساء وحدهنَّ. ولا أذكر أصوات الرجال. هذا ما بقي عندي: من يتحدَّث عن الحرب هنَّ النساء. يبكين، يغنِّين، وكأنهنَّ يبكين.

في المكتبة المدرسية، نصف الكتب عن الحرب. وكذلك في مكتبة القرية، ومكتبة مركز المنطقة، حيث كان والدي يتردَّد غالباً من أجل الكتب. الآن، أصبح لديَّ جواب - لماذا؟ وهل هي صدفة؟ فنحن طيلة أوقاتنا إمَّا نحارب، وإمَّا نستعدُّ للحرب. نتذكَّر كيف حاربنا. لم نعشْ أبداً

Twitter: @ketab_n

بطريقة أخرى، وغالباً لا نستطيع بطريقةٍ أخرى. ولا نتصوَّر كيف يمكن العيش بطريقةٍ أخرى. فعلينا طويلاً أن نتعلَّم كيف نعيش بدون حرب.

علَّمونا في المدرسة أن نحبَّ الموت. وكنا نكتب مواضيع التعبير عن رغبتنا في الموت في سبيل... كنا نحلم...

أمَّا الأصوات في الشوارع فكانت تتحدَّث عن شيء آخر، وكانت أكثر إغراءً.

عشت طويلاً في عالم القراءة والكتاب، أمَّا الواقع فكان يخيفني ويغريني. ولعدم معرفتي بالحياة نشأت الجرأة والشجاعة. وأنا الآن أفكِّر في نفسي متسائلة: لو كنت إنسانة أكثر واقعية، هل كان من الممكن أن أرمي نفسي في هذه اللجة؟ ولماذا حدث ما حدث؟ بسبب الجهل؟ أم الشعور بالرحيل والسفر؟ وهذا الشعور موجود لديَّ...

بحثت طويلاً... بأية كلمات يمكنني التعبير عمَّا أسمعه؟ كنت أبحث عن الجنس الأدبي الذي يمكنه أن يناسب رؤيتي للعالم، رؤيتي لحاسَّة بصري وحاسَّة سمعي.

وقع بين يديَّ، ذات يوم، كتاب آ. آداموفيتش، يا. بريل، ف. كوليسنيكوف "أنا من قرية النار". لم أشعر بمثل هذه الصدمة التي شعرت بها إلا عند قراءتي دوستويفسكي. ولهذا الكتاب شكل غير مألوف: رواية جُمعت من أصوات الحياة ذاتها؛ ممَّا كنت أسمعه في طفولتي، ممَّا يتردَّد اليوم في الشارع، وفي البيت، وفي المقاهي، وفي حافلة الترولي! وانغلقت الدائرة. لقد عثرت على ما كنت أبحث عنه. تنبَّأت بذلك.

وهنا أصبح آداموفيتش معلِّمي...

***

عامان كنت فيهما أفكِّر أكثر ممَّا ألتقي وأسجِّل. قرأت الكثير. عن أيِّ

Twitter: @ketab_n

موضوع سيكون كتابي؟ إذاً، كتاب آخر عن الحرب... وعلامَ؟ لقد حدثت آلاف الحروب، قصيرة ومديدة، معروفة ومجهولة. لكن ما كُتب عنها أكثر. كثيرون كتبوا، رجال عن الرجال؛ وهذا ما أدركته على الفور. كلُّ ما نعرفه عن الحرب، نعرفه من خلال "صوت الرجل". نحن جميعاً أسرى تصوُّرات "الرجال" وأحاسيسهم عن الحرب، أسرى كلمات "الرجال". أمَّا النساء فيلذن بالصمت. لم يكن أحد ليسأل، باستثنائي أنا، جدَّتي أو أمِّي. حتى النساء اللواتي كُنَّ في الجبهة، يلذن بالصمت. وحتى إذا ما بدأن يتذكَّرن، فيتذكَّرن حرب "الرجال" وليس حرب "النساء". يتمسَّكن بالقانون. فقط في البيت، يذرفن الدموع مع زميلاتهنَّ في الجبهة، ويشرعن بالحديث عن حربهنَّ، التي لا أعرفها، ولا أحد يعرفها. في جولاتي ومهمَّاتي الصحفية، كنت غير مرَّة الشاهدة الوحيدة، والمستمعة الوحيدة لنصوص وأقوال جديدة كلِّياً. وكنت أشعر بالصدمة، كما في طفولتي. في هذه القصص كانت تظهر التكشيرة الرهيبة للأسرار... عندما تتحدَّث النساء فليس لديهنَّ، أو تقريباً ليس لديهنَّ ما اعتدنا قراءته وسماعه: كيف قتل بعضهم الآخرين، ببطولة، وانتصروا عليهم. أو انهزموا أمامهم. وأية معدات تقنية لديهم وأي جنرالات. القصص والأحاديث النسائية مغايرة تماماً، وعن شيء آخر تماماً. لحرب "النساء" ألوانها الخاصَّة، وروائحها الخاصَّة، وأضواؤها الخاصَّة ومساحات مشاعرها المميَّزة، وكلماتها الخاصَّة. إنها تخلو من الأبطال والمآثر القتالية التي لا تُصدَّق. وفيها لا يشعر الناس وحدهم بالألم والمعاناة، بل وكذلك الأرض، والطيور والأشجار. وكل من يعيش معنا على هذا الكوكب. إنهم يتألَّمون بدون كلمات؛ وهذا أشدُّ وأرهب.

ولكن، لماذا؟ - تساءلت غير مرَّة في نفسي - لماذا لم تدافع النساء، اللواتي دافعن عن أرضهن وشغلن مكانهنَّ في عالم الرجال الحصري،

Twitter: @ketab_n

عن تاريخهن؟ أين كلماتهنَّ وأين مشاعرهنَّ؟ هن أنفسهنَّ لم يصدِّقنَ. ثمَّة عالم كامل مخفيٌّ عنا. لقد بقيت حربهنَّ مجهولة...

أريد كتابة تاريخ هذه الحرب، حرب النساء.

***

بعد اللقاءات الأولى...

أمر غريب: المهن الحربية لهؤلاء النسوة: مرشدة صحِّية، قنَّاصة، رامية رشَّاش، قائدة سلاحٍ مضادٍّ للطائرات، خبيرة ألغام، وهنَّ الآن: محاسبات، مخبريات، دليلات سياحيات، مدرِّسات... أدوار غير متطابقة هناك وهنا. يتذكَّرن، وكأنهنَّ لا يتذكَّرن أنفسهنَّ، بل فتيات أخريات. إنهنَّ يشعرن بالذهول من أنفسهنَّ. وعلى مرأى مني "يتأنسن" التاريخ، ويغدو شبيهاً بالحياة العادية. وتظهر إضاءة أخرى.

تلتقي محدِّثات مذهلات، ثمَّة في حياتهنَّ صفحات يمكنها منافسة أفضل صفحات الأدب الكلاسيكي. الإنسان يرى نفسه بوضوح من الأعلى؛ من السماء، ومن الأسفل؛ من الأرض. أمامه الطريق كلُّه: طريق إلى الأعلى، وآخر إلى الأسفل؛ من الملاك إلى الوحش. ليست الذكريات إعادة سرد عاطفية أو غير عاطفية للواقع الغائب، بل ولادة جديدة للماضي، عندما يتحوَّل الزمن إلى الوراء. بادئ ذي بدء، الذكريات إبداع. ففي ذكرياتهم، يبدع الناس، و"يكتبون" حياتهم. وقد "يكملون" أو "يعيدون صياغتها". هنا، يجب أن تكون على أهبة الاستعداد، أن تكون يقظاً. وفي الوقت نفسه، يذيب الألم أيَّ زيف ويقضي عليه. الحرارة شديدة الارتفاع! اقتنعت بأن النساء البسيطات؛ الممرِّضات، الطبَّاخات، الغسَّالات، يتصرَّفن بصدق وشفافية... وبعبارة أدق، وكأنهنَّ يستخرجن الكلمات من ذواتهنَّ، من أنفسهنَّ، وليس من الصحف والكتب المقروءة. إنهنَّ يستخرجنها من آلامهن ومعاناتهن الشخصية. والغريب في الأمر، أن

Twitter: @ketab_n

مشاعر المثقفَّين ولغتهم تخضع في الغالب لتحوير الوقت ولرمزيته العامَّة، وهي ملوَّثة بالمعارف الثانوية، والأساطير. كثيراً ما اضطررت إلى السير طويلاً، وبدوائر مختلفة، كي أسمع حديثاً عن حرب "النساء"، وليس عن حرب "الرجال": كيف تراجعن، وكيف تقدَّمن، وفي أيِّ قطاع من قطاعات الجبهة... ويحتاج الأمر إلى أكثر من لقاء، وإلى عدَّة جلسات، مثل رسَّام بورتريه ملحاح.

أجلس طويلاً في بيت لا أعرفه، أو شقَّة غريبة، وأحياناً يوماً كاملاً. نشرب الشاي، نقيس البلوزات المشتراة حديثاً، نناقش تسريحات الشعر ووصفات المأكولات. نشاهد معاً صور الأحفاد. وبعد ذلك... بعد كم من الوقت؟ لا تعرف أبداً، ولا تعرف لماذا، فجأة تحلُّ اللحظة التي انتظرتها طويلاً، عندما تنحرف المرأة عن القانون - القانون الجبسي والإسمنتي المسلَّح، مثل نصبنا التذكارية - ترجع إلى نفسها. وفي ذاتها، تشرع بالتذكُّر، ليس تذكُّر الحرب، بل تذكُّر شبابها، تذكُّر قطعة من حياتها... عليَّ التقاط هذه اللحظة، وعدم السماح لها بالهروب! ولكن، غالباً، بعد يوم عمل طويل، طافح بالكلمات والوقائع والدموع، لا يبقى في ذاكرتها إلا جملة واحدة، (ولكن أيُّ جملة!): «لقد ذهبتُ في أوَّل شبابي إلى الجبهة، لدرجة أنني كبرت في الحرب». وأسجِّلها في دفتر يومياتي، مع أنها مسجلَّة بعشرات الأمتار في شريط التسجيل. في أربعة أو خمسة أشرطة...

ما هو العامل المساعد لي؟ ما ساعدني، أننا ألفنا الحياة المشتركة. يجتمع الناس المتشاركون في كلِّ شيء. وكلُّ ما لدينا ظاهر للعالم؛ السعادة والدموع. نحن نتقن المعاناة والحديث عن المعاناة. إن المعاناة تبرِّر حياتنا القاسية والمربكة. الألم فن، بالنسبة إلينا. وعليَّ الاعتراف، النساء يسرن بجرأة على هذه الطريق...

***

Twitter: @ketab_n

كيف يستقبلنني؟

يدعونني: «أيّتها الفتاة»، «يا ابنتي»، «يا صغيرتي»، ولو كنت من جيلهنَّ لعاملنني بطريقة أخرى على الأغلب. بهدوء، وبندِّية. دون فرحة أو دهشة، وهما ما يكسب اللقاء روح الشباب أو الهرم. وهذه لحظة شديدة الأهمِّية، كونهنَّ كنَّ شابَّات في مقتبل العمر آنذاك، أمَّا الآن فهن نساء هرمات يتذكَّرن. يتذكَّرن عبر حياتهنَّ كلِّها، بعد انقضاء أربعين عاماً. يفتحن لي عالمهنَّ بحذر، يشفقن عليَّ: بعد الحرب مباشرة تزوَّجت، اختبأت خلف ظهر زوجي. خلف الحياة اليومية، وخلف حفاضات الأطفال. اختبأت بسرور ورغبة. ورجتني أمِّي: اصمتي! تمسَّكي بالصمت! لا تعترفي. لقد تذكَّرت واجبي تجاه وطني، لكنني أشعر بالحزن، لأنني كنت هناك. لأنني أعرف هذا... أمَّا أنت؛ فأنت فتاة صغيرة. أشعر بالأسف من أجلك... كثيراً ما كنت أرى أنهن يجلسنَّ ويستمعن إلى نفوسهنَّ، إلى صوت أرواحهنَّ. يتحقَّقن بهنَّ من كلماتهن. إن المرء، مع مرور السنين الطويلة، يدرك أنها هكذا كانت الحياة، والآن، لا بدَّ من الاستسلام والاستعداد للانسحاب. ولا يرغب في أن يختفي عبثاً، بشكل عابر، "على الماشي". وعندما يلقي نظرة إلى الوراء، تحضر فيه الرغبة، ليس في أن يتحدَّث عن نفسه فحسب، بل أن يصل إلى سرِّ الحياة. وأن يجيب بنفسه عن سؤال: لماذا حدث معي هكذا؟ إنه ينظر إلى كلِّ شيء نظرة وداع وحزن... وكأنه من هناك... لا سبب يدفعني إلى أن أخدع نفسي وأخدع الآخرين. لقد أصبح مُدركاً، أن لا شيء يمكن كشفه في الإنسان سوى فكرة الموت. إن سرَّ الموت فوق كلِّ شيء.

الحرب معاناة حميمة جدّاً. وهي تجربة بلا نهاية، كحياة الإنسان...

ذات مرَّة، امرأة (قائدة طائرة) رفضت لقائي. وشرحت لي السبب بالهاتف: «لا يمكنني... لا أريد أن أتذكَّر. بقيت في الحرب ثلاث

Twitter: @ketab_n

سنوات... وخلال سنوات ثلاث لم أشعر بنفسي امرأة. لقد تخشَّب جسدي وتيبَّس. بلا دورة شهرية، وبلا أيَّة رغبات أنثوية. في حين أنني كنت فتاة جميلة... عندما عرض عليَّ شابٌّ (زوجي لاحقاً) الزواج... هذا حدث في برلين، قرب الرايخستاغ[1]... قال لي: الحرب انتهت. نحن بقينا أحياء. كنا محظوظين. أطلب يدك للزواج. أردت البكاء، والصراخ، أردت أن أضربه! زواج، أيُّ زواج هذا؟ الآن؟ وسط هذا كلِّه... الزواج؟ وسط الدخان الأسود والطوب الأسود... ألقِ نظرة إليَّ... انظرْ كيف أبدو! بداية، عاملْني كامرأة: أهدِ إليَّ الورد، غازلْني، انطقْ بكلمات جميلة... هذا ما أريده! هذا ما أنتظره! كدت أن أضربه... كان بودِّي ضربه... كان أحد خدَّيه محترقاً أرجوانيَّ اللون، ورأيت أنه فهم كلَّ شيء، وسالت الدموع على خدِّه المحترق. ومن خلال الندبات الطرية... أنا لا أصدِّق نفسي، عندما أجبته: نعم، أنا موافقة على الزواج منك.

اعذريني... لا أستطيع مقابلتك...».

لقد فهمتها جيِّداً. لكن هذه مجرَّد صفحة أو نصف صفحة من كتابي الجديد.

نصوص مكوَّمة من حولي. جمعتها من شقق المدن وأكواخ القرى، ومن الشارع ومن القطار... أصغي إلى هذه النصوص... وأتحوَّل بصورة متزايدة إلى أُذُن ضخمة، متوجِّهة دوماً إلى إنسان آخر! "أقرأ" صوته.

***

الإنسان أكبر من الحرب...

أتذكَّر بالذات، الشيء عندما يكون أكبر، يقوده شيء ما أقوى

[1] – الرايخستاغ: البرلمان الألماني في عهد هتلر. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

من التاريخ. عليَّ أن ألتقط لوحة أوسع؛ أن أكتب الحقيقة عن الحياة والموت عامَّة، وليس الحقيقة عن الحرب وحدها. عليَّ أن أطرح سؤال دوستويفسكي: كم في الإنسان من الإنسان، وكيف يمكن لهذا الإنسان أن يدافع عن إنسانيته؟ لا ريب في أن الشرَّ أكثر إغراءً من الخير، وأكثر جاذبيةً ومهارة. أستغرقُ بعمق أكبر في عالم حرب لا نهاية له، وكل ما عدا ذلك يذبل شيئاً فشيئاً، ويغدو أكثر عادية من العادي. إنه عالم كبير فسيح ومتوحِّش. أفهم الآن عزلة الإنسان العائد من هناك. كما لو أنه من كوكب آخر، أو من العالم الآخر. لديه معرفة لا وجود لها لدى الآخرين، ولا يمكن تحصيلها إلَّا هناك؛ على مقربة من الموت. عندما يحاول التعبير عن شيء ما بالكلمات، يظهر لديه إحساس بالكارثة. إنه يريد أن يروي، والآخرون يريدون أن يفهموا، لكن العجز يسيطر على الجميع.

إنهم دوماً في فضاء آخر، غير فضاء المستمع. يحيط بهم عالم غير مرئي. ثلاثة أشخاص على الأقل يتشاركون في الحديث: ذاك الذي يتحدَّث الآن، وذاك الإنسان نفسه، كما كان آنذاك، في لحظة الحدث، وأنا. هدفي استخراج حقيقة تلك السنوات، بادئ ذي بدء، تلك الأيَّام، دون مشاعر التزوير. لو بعد الحرب مباشرة، لحدَّثنا الشخص نفسه عن حرب أخرى، لأنه بعد عشرات السنين يتغيَّر شيء عنده بالطبع، لأنه يضيف إلى ذكرياته حياته اللاحقة كلَّها، يضيف ذاته كلَّها. ممَّا يضيفه: كيف عاش خلال هذه السنوات، وماذا قرأ، وماذا رأى، ومن قابل، وأخيراً هل هو سعيد أم لا. أتحادث معها منفردة، أو جنباً إلى جنب مع الحاضرين. الأسرة؟ الأصدقاء؟ أيُّ أصدقاء؟ أصدقاء الجبهة هذا شيء، أمَّا الباقون فهذا شيء آخر. الوثائق كائنات حيَّة، إنها تتغيَّر وتتحوَّل مثلنا، ويمكننا أن نستخرج منها إلى ما لا نهاية. يهمُّنا الآن تحديداً، شيء ما جديد، ضروري. في هذه اللحظة، عمَّ نبحث؟ غالباً، لا نبحث عن المآثر والبطولات، بل نبحث عمَّا

Twitter: @ketab_n

هو صغير وإنساني، وهو ما يهمُّنا أكثر من أيِّ شيء آخر. مثلاً، ما الذي يهمُّني معرفته أكثر عن حياة اليونان القديمة... عن تاريخ إسبارطة... بودِّي أن أقرأ، عمَّ كان الناس يتحدَّثون في بيوتهم؟ وكيف كانوا يتوجَّهون إلى الحرب؟ وما العبارات التي كانوا ينطقون بها في اليوم الأخير وفي الليلة الأخيرة لأحبَّائهم وذويهم؟ كيف كانوا يودِّعون المحاربين؟ وكيف كانوا ينتظرون عودتهم من الحرب؟ ليس الأبطال والقادة، بل الشباب البسطاء العاديين...

التاريخ، من خلال حديث لم يلحظه شاهد ولا مشارك. نعم؛ هذا ما يهمُّني، وأريد أن أجعل منه مادَّة أدبية. لكن محدِّثاتي لسن مجرَّد شاهدات، بل هنَّ قبل كل شيء، ممثِّلات ومبدعات. إن من المستحيل الاقتراب من الحقيقة وجهاً لوجه. فبين الحقيقة وبيننا تكمن عواطفنا. أدرك أنني أتعامل مع روايات، ولكلٍّ منهنَّ روايتها، ومن مجموعها، ومن تقاطعاتها، تلد صورة العصر والناس الذين عاشوا فيه. لكن، ليس بودِّي أن يقال عن كتابي: بطلاته واقعيات. وهذا يعني أننا أمام تاريخ. لا أكثر ولا أقل.

لا أكتب عن الحرب، بل عن الإنسان في الحرب. لا أكتب تاريخ الحرب، بل تاريخ العواطف والمشاعر. فأنا مؤرِّخة النفس والروح. أنا، من ناحية، أدرس إنساناً محدَّداً، عاش في وقت محدَّد، وشارك في أحداث محدَّدة. ومن ناحية ثانية، لا بدَّ لي من أن أتبيَّن فيه الإنسان الخالد. أتأمَّل نبض الأبدية. أي أن أنظاري معلَّقة على الإنسان وحده دوماً.

يقال لي: إنها ذكريات - ليست تاريخاً وليست أدباً. إنها، ببساطة، الحياة كما نَثَرتها يد الرسَّام ولم تنظِّفها. مادَّة خام من الحديث، وما أكثرها كلَّ يوم. إنها لَبِنات تتراكم في كلِّ مكان، لكن اللبنات لم تصبح معبداً بعد! أمَّا بالنسبة إليَّ فهي شيء آخر... هناك تحديداً، في الصوت الإنساني

Twitter: @ketab_n

الدافئ، في الانعكاس الحيِّ للماضي تكمن الفرحة الأولى، وتتعرَّى مأساة الحياة التي لا يمكن انتزاعها. هنا تكمن فوضويتها وشغفها. فرادتها واستحالة الوصول إليها. هناك الأصول لم تتعرَّض بعد لأيٍّ تحوير.

إنني أبني معابدَ من مشاعرنا... من الرغبات الدنيا وحالات اليأس. من الأحلام، ممَّا حدث، وما قد ينزلق.

***

من جديد حول الموضوع نفسه... لا يهمُّني الواقع الذي يحيط بنا، بل ذلك الواقع الموجود في داخلنا. لا يهمُّني الحدث نفسه، بل حدث المشاعر، أو بعبارة أخرى، روح الحدث. إن المشاعر بالنسبة إليَّ واقع.

وماذا عن التاريخ؟ التاريخ في الشارع. في الحشد. إنني واثقة من أن في كلٍّ منا قطعة من التاريخ. فواحد في داخله نصف صفحة، ولدى آخر صفحتان أو ثلاث. نحن معاً نخطُّ كتاب العصر. كلٌّ منا يصرخ بحقيقته. كابوس من الظلال. وهذا كلُّه لا بدَّ من الاستماع إليه، وإذابته في هذا كلِّه، ثمَّ يصبح ملكاً للجميع. في الوقت نفسه، عليَّ ألَّا أفقد ذاتي، وأن أجمع بين حديث الشارع والأدب. وجانب من الصعوبة يكمن في أننا نتحدَّث عن الماضي بلغة الحاضر. كيف يمكنني نقل مشاعر تلك الأيَّام؟

***

رنين الهاتف منذ الصباح: «نحن لسنا على معرفة سابقة... لكنني قدمت من القرم، وأتَّصل هاتفياً من محطَّة القطار. فهل هي بعيدة عنك؟ أريد أن أحدِّثك عن حربي...».

هكذا؟!

كنت قد نويت الذهاب مع ابنتي إلى الحديقة العامَّة. كيف أشرح لفتاة

Twitter: @ketab_n

صغيرة في السادسة من عمرها ماذا أعمل؟ سألتني أمس: «ما هي الحرب؟». فكيف أجيب؟ أردت إنزالها إلى هذا العالم، بقلب حنون، وتعليمها أن من غير الممكن قطف الوردة عبثاً. أو دوس الدعسوقة بأذى، أو نزع الجناحين من اليعسوب. ولكن كيف أشرح للطفلة معنى الحرب؟ أو الموت؟ كيف يمكنني الإجابة عن: لماذا هناك يقتلون الناس؟ بل ويقتلون الصغار، مثلها. نحن الكبار، وكأننا متواطئون. ندرك حقيقة المسألة. وماذا بالنسبة إلى الأطفال؟ لقد شرح لي والداي ذات يوم بعد الحرب، لكنني أعجز عن شرحه لطفلتي. عليَّ العثور على الكلمات المناسبة. لم تعد الحرب تروق لنا، ويزداد صعوبة العثور على مبرِّر لها. أمَّا بالنسبة إلينا فهي جريمة قتل. على الأقل هكذا أنظر إليها أنا.

عليَّ أن أؤلِّف كتاباً عن الحرب، بحيث يشعر القارئ بالغثيان منها، وكي تغدو فكرة الحرب ذاتها كريهة مجنونة. كي يشعر الجنرالات أنفسهم بالغثيان...

أصدقائي من الرجال، خلافاً لصديقاتي، مذهولون من هذا المنطق "النسائي". وأسمع من جديد حجَّة "رجولية": «أنت لم تكوني في الحرب». وربَّما هذا أفضل: إنني لا أعرف الشعور بالكراهية. لديَّ حاسَّة بصر طبيعية، غير حربية، "غير رجولية".

في علم البصريات ثمَّة مفهوم "قوَّة الضوء"؛ قدرة العدسة على تسجيل الصورة الملتقطة على نحو أسوأ أو أفضل. والذاكرة النسائية عن الحرب هي "قوَّة الضوء" الأقوى، من حيث توتُّر المشاعر، من حيث الألم. بل ويمكنني القول إن الحرب "النسائية" أشدُّ رهبةً من الحرب "الرجولية". الرجال يختبئون خلف التاريخ، خلف الوقائع، وحربهم تأسرك من حيث هي فعل ومجابهة الأفكار، والمصالح المختلفة. أمَّا النساء فتسيطر عليهن العواطف. إضافة إلى ذلك، يهيِّئون الرجال منذ طفولتهم بأنهم

Twitter: @ketab_n

قد يضطرُّون إلى إطلاق النار، ولا يهيِّئون النساء للشيء نفسه... وليست لديهنَّ نيَّة للقيام بهذا العمل... إنهنَّ يتذكَّرن شيئاً آخر، وبطريقة أخرى. إنهنَّ قادرات على رؤية ما هو مغلق أمام الرجال. وأكرِّر ثانية، إن حربهنَّ ذات رائحة، ولون، بعالم مفصَّل من الوجود: «أعطونا أكياساً قماشية فخِطنا منها تنانير»، «دخلت إلى مديرية التجنيد بفستان، وخرجت من بابٍ آخر بسروال وبلوزة، وقصُّوا جدائلنا، وأبقوا على رؤوسنا غرَّة من الشعر...»، «أطلق الألمان النار على القرية وذهبوا... وصلنا إلى هذا المكان المداس بالرمل الأصفر، وعلى السطح - فردة حذاء طفل...» حذَّروني غير مرَّة (وبخاصَّة زملائي من الكتَّاب-الرجال): «ستبتكر النساء وتخترع الكثير». لكنني اقتنعت: مثل هذا لا يمكن اختراعه أو ابتكاره. ومن أين ينقلنه؟ إذا كان من الممكن نقله فمن الحياة وحدها، فالحياة وحدها لديها مثل هذه المخيِّلة.

مهما كان موضوع حديث النساء، تحضر دوماً عندهنَّ فكرة أن الحرب هي جريمة قتل بادئ ذي بدء، وبعد ذلك العمل القاسي، ومن ثمَّ حياتهنَّ العادية: الغناء، العشق، ولفُّ بكرات الشعر...

وفي مركز اهتمامهنَّ، إن أبعد ما يردنه ويكرهنه هو الموت، وأبعد من هذا عنهن هو القتل، لأن المرأة تعطي الحياة، تهديها، تحملها طويلاً في بطنها، ثمَّ ترعاها. وأدركت أن القتل أشد صعوبة عند المرأة منه عند الرجل.

***

الرجال... لا يدخِلون النساء إلى عالمهم، إلى أراضيهم، إلا على مضض.

في معمل منسك للجرَّارات، بحثت عن امرأة كانت قنَّاصة في الحرب.

Twitter: @ketab_n

كانت قنَّاصة مشهورة، كُتب عنها مرَّاتٍ في صحف الجبهة. أعطتني رفيقاتها في موسكو رقم هاتفها المنزلي، لكنه كان رقماً قديماً. وسجَّلت كنيتها قبل الزواج. ذهبت إلى المصنع الذي أعرفه، كانت تعمل في قسم الموارد البشرية، وسمعت من الرجال (من مدير المصنع ومديرها المباشر): «وهل ينقصك الرجال؟ ولماذا تهتمِّين بقصص النساء؟ بالفانتازيا النسائية...». كان الرجال يخشون أن تتحدَّث النساء عن حرب أخرى.

كنت في شقَّة إحدى الأسر... شارك في الحرب الزوج والزوجة. التقيا وتعارفا في الجبهة، وهناك تزوَّجا: «احتفلنا بزواجنا في الخندق. قبيل المعركة. أمَّا ثوب الزفاف الأبيض فقد خطتُه بنفسي من مظلَّة ألمانية». هو من سلاح المدفعية، وهي عاملة لاسلكي. أرسل الرجل المرأة فوراً إلى المطبخ: «حضِّري لنا شيئاً ما». غلت الماء في إبريق الشاي، وتمَّ تحضير السندويشات، وجلست إلى جانبنا، فدفعها زوجها إلى النهوض قائلاً: «وأين الفراولة؟ وأين الضيافة؟». بعد رجائي وإلحاحي، نهض من مكانه على مضض، قائلاً: «تحدَّثي عمَّا علَّمتك. بدون دموع، وبلا توافه نسائية: أردت أن تكوني جميلة، بكيت عندما قُصَّت جديلتك». بعد ذلك، اعترفت لي همساً: «درَّسني طيلة الليل جزء "الحرب الوطنية العظمى". كان يخاف عليَّ. والآن يعاني من أن أتذكَّر ما هو غير مرغوب، وألَّا أتذكَّر كما يجب».

وهذا حدث غير مرَّة، وفي غير شقَّة.

نعم، إنهنَّ يبكين كثيراً ويصرخن. وبعد رحيلي عنهنَّ يتناولن حبوب خفض الضغط. وقد يستدعين الإسعاف. لكنهنَّ، بالرغم من ذلك، رجونني: «تفضَّلي لعندنا، بالتأكيد تفضَّلي. فقد لذنا بالصمت طويلاً، لذنا بالصمت أربعين عاماً...».

أدرك جيِّداً؛ من المستحيل تحوير البكاء والصراخ، وإلا سيكون تزويراً، وليس بكاءً ولا صراخاً. وبدلاً من الحياة سيبقى الأدب. هذه مادَّة

Twitter: @ketab_n

كتابي، وهذه هي حرارة هذه المادَّة. إنها قابلة دوماً للانفجار. يظهر الإنسان بأكبر درجة، وينفتح بأعلى درجة، في الحرب، وربَّما في الحبِّ أيضاً. إلى أعمق الأعماق، وإلى طبقات داخلية تحت الجلد. أمام وجه الموت، تذبل جميع الأفكار، وينفتح خلود لا يمكن الوصول إليه، ولم يتهيَّأ أحد لبلوغه؛ فنحن ما زلنا نعيش في التاريخ وليس في الفضاء.

وصلني نص، عدَّة مرَّات، مرسل للقراءة الجهرية، مع التذييل التالي: «لا حاجة إلى التوافه... اكتبي عن نصرنا العظيم...». إن "التوافه" هي المهمَّة بالنسبة إليَّ - إنها دفء الحياة ووضوحها: غرَّة الشعر التي تركوها بدلاً من الجدائل، القدور الساخنة من العصيدة والحساء التي لم تجد من يأكلها؛ فمِن مئة شخص لم يعد من المعركة سوى سبعة؛ أو، كيف لم يكن في استطاعتهنَّ، بعد الحرب، الذهاب إلى السوق ورؤية صفوف اللحم الأحمر... حتى لم يكن في استطاعتهنَّ النظر إلى القماش القطني الأحمر اللون... «آه، يا عزيزتي، لقد انقضى أربعون عاماً، ولن تعثري في بيتي على شيء أحمر اللون. بعد الحرب، أصبحت أكره اللون الأحمر!».

***

أُصغي بانتباه إلى الألم... الألم كدليل على الحياة الماضية. ولا وجود لأدلَّة أخرى، ولا أثق بأدلَّة أخرى... فالكلمات حرَّفتنا مرَّات كثيرة عن الحقيقة.

إنني أتأمَّل الألم باعتباره الشكل الأسمى للمعلومة المرتبطة مباشرة بالسرّ؛ بسرِّ الحياة. والأدب الروسيُّ كلُّه عن هذا... فصفحات المعاناة في الأدب الروسيِّ أكثر من صفحات الحب.

وعن هذا يحدِّثنني أكثر...

***

Twitter: @ketab_n

من هنَّ؟ روسيات أم سوفييتيات؟ لا، كُنَّ سوفييتيات. إنهنَّ روسيات وبيلاروسيات، وأوكرانيات وطاجيكيات...

عموماً، كان هناك الإنسان السوفييتي. أعتقد أن مثل هؤلاء الناس لن يكونوا مستقبلاً، وهم أنفسهم يدركون ذلك. حتى نحن، أبناءهم، آخرون ومختلفون. أردنا أن نكون مثل الآخرين، مثل الجميع. ألَّا نكون شبيهين بآبائنا وأمَّهاتنا، أن نكون شبيهين بالعالم. فما بالك عن الأحفاد...

لكنني أحبُّهم، وأفتخر بهم. كان عندهم ستالين وكان عندهم غولاغ[1] وكان عندهم النصر أيضاً، وهم يعرفون هذا.

وصلتني أمس الرسالة التالية:

ابنتي تحبُّني جدّاً، أنا بالنسبة إليها بطلة، وإذا ما قرأت كتابك فستشعر بخيبة أمل كبيرة. القذارة، القمل، الدم المهدور بلا نهاية - كلُّ هذا حقيقة. أنا لا أنكر. ولكن هل الذكريات عنها قادرة على توليد مشاعر نبيلة؟ وعلى التهيئة للمأثرة؟

لقد اقتنعت غير مرَّة:

ذاكرتنا ليست أداة مثالية. فهي ليست تعسُّفية فحسب، بل ومزاجية متقلِّبة، إنها لا تزال مربوطة بالقيد، كالكلب.

إننا ننظر إلى أمس من اليوم، لا يمكننا أن ننظر إليه من دون زمن.

علاوة على ذلك، فهم معجبون ومعجبات بما حدث معهم، لأن الحرب لم تكن وحدها، بل كان شبابهم، وحبُّهم الأوَّل.

***

---

1 - غولاغ: اسم معتقل ستاليني شهير في سيبيريا، واسم رواية شهيرة للكاتب الروسي سولجينيتسين. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

أصغي إلى كلامهن... وأصغي إلى صمتهن... فالكلمات والصمت هما نصٌّ بالنسبة إليَّ.

- «هذا لكِ، ليس للنشر... إن الأكبر سنّاً منا كانوا يجلسون مستغرقين في أفكارهم... حزانى. أذكر، أن ضابطاً برتبة رائد تحدَّث إليَّ ليلاً، عندما استسلم الجميع للنوم، عن ستالين. كان قد شرب كثيراً وثمل، وتجرَّأ، اعترف لي بأن والده في معسكر الاعتقال منذ عشر سنين، دون حقِّ المراسلة. وغير معروف إن كان لا يزال حيّاً أم لا. لقد نطق هذا الرائد بكلمات رهيبة: إنني أريد الدفاع عن وطني، لكنني لا أريد الدفاع عن خائن الثورة هذا، عن ستالين. لم أسمع أبداً مثل هذه الكلمات... شعرت بالخوف. ومن حسن الحظ، أنه اختفى في الصباح. خرج من القطار، غالباً إلى مقصده...».

- «أقول لك سرّاً... لقد تصادقت مع أكسانا، إنها من أوكرانيا. وسمعت منها للمرَّة الأولى عن المجاعة الرهيبة في أوكرانيا. المجاعة بحر بلا حدود. حتى الضفادع والفئران لم يعد لها وجود، الناس أكلت كلَّ شيء. في قريتها نصف السكَّان ماتوا جوعاً. ومات جميع إخوتها الصغار وأبوها وأمُّها، أمَّا هي، فقد أنقذها من الموت علف الخيول الذي سرقته من الحظيرة وأكلته. لم يستطع أحد أكله، أمَّا أكسانا فقد أكلته: العلف ساخناً لا يقبله فم الإنسان، أمَّا بارداً فيمكن أكله. فمجمَّد أفضل، لأن له رائحة التبن».

قلت لها: «أكسانا، الرفيق ستالين يحارب أعداء الشعب. وسيقضي على المغرضين، لكن أعدادهم كثيرة». ردَّت أكسانا: «أنت غبية! أبي كان مدرِّس تاريخ، وكان يقول لي: سيُحاسَب الرفيق ستالين، يوماً ما، على جرائمه...».

ليلاً استلقيت مفكِّرةً: قد تكون أكسانا عدو؟ جاسوسة؟ ما العمل؟ بعد

Twitter: @ketab_n

يومين، استُشهدت أكسانا في المعركة. لم يبقَ لديها أحد من أسرتها، ولم يكن هناك من أحد لترتيب جنازتها...

يتطرَّقون إلى هذا الموضوع نادراً، وبحذر شديد. فهم ما زالوا حتى الآن مشلولين؛ ليس بالتنويم المغناطيسي الستاليني والخوف فحسب، بل وبعقيدتهم السابقة. لا يمكنهم أن يكرهوا حتى الآن ما كانوا يحبُّونه. الرجولة في الحرب ورجولة الفكر هما رجولتان من نوع مختلف. أمَّا أنا، فأعتقد أنهما الشيء نفسه.

***

المخطوطة على طاولة المكتب منذ زمن طويل...

طيلة عامين كاملين، أتلقَّى الرفض من دور النشر. المجلَّات أيضاً لاذت بالصمت. والحكم الصادر هو واحد ومتكرِّر: حرب رهيبة للغاية. كثير من الرعب. إنها النزعة الطبيعية. لا وجود للدور القائد والموجِّه للحزب الشيوعي. وباختصار، ليست تلك الحرب... وأيُّ حرب تلك، وكيف هي؟ هل هي الحرب مع الجنرالات والقادة الحكماء؟ بدون دم وقمل؟ مع الأبطال والمآثر؟ أتذكَّر منذ أيَّام طفولتي: أسير مع جدَّتي مقابل ساحة كبيرة، فحدَّثتْني: «بعد الحرب لم ينبت غصن أخضر في هذه الساحة. تراجع الألمان... لكن معركةً رهيبةً استمرَّت هنا يومين... كان القتلى يرقدون، واحداً بجنب الآخر، كالحُزم. كالعوارض الحديدية على محطَّة السكك الحديدية. الألمان والروس. بعد المطر كانت وجوههم كلُّهم باكية، مغطَّاة بالدموع. استمرَّ سكان القرية في دفنهم شهراً كاملاً...».

كيف يمكنني نسيان هذه الساحة؟

عملي لا يقتصر على الكتابة. إنني أجمع وأتتبَّع روح الإنسان هناك،

Twitter: @ketab_n

حيث المعاناة تحوِّل الإنسان الصغير إلى إنسان كبير. حيث ينمو الإنسان. وعندها يصبح، بالنسبة إليَّ، ليس أخرسَ، وليس بروليتاريَّ التاريخ بلا أثر. تنضج نفسه وروحه. ولكن، أين يكمن نزاعي مع السلطة؟ لقد أدركت أخيراً: إن الفكرة الكبيرة في حاجة إلى إنسان صغير، ولا تحتاج أبداً إلى إنسان كبير. فالرجل الكبير بالنسبة إليها فائض وغير مريح، ويصعب تحويره واستدراجه. وأنا أبحث عنه. أبحث عن الإنسان الصغير الكبير: الإنسان المُهان، المسحوق، المذلول - الذي اجتاز معسكرات ستالين والخيانة، وانتصر رغماً عن هذا كلِّه. لقد حقَّق المعجزة.

لكن تاريخ الحرب استُبدل بتاريخ النصر.

هو نفسه سيحدِّثنا عن هذا.

بعد سبعة عشر عاماً

2004-2002

أقرأ يوميَّاتي القديمة...

أحاول أن أتذكَّر نفسي، أنا الإنسانة، كيف كنت عندما كتبتُ هذا الكتاب. لا وجود لذلك الإنسان، ولا وجود لتلك البلاد التي عشنا فيها آنذاك. ونحن دافعنا عنها، وباسمها متنا واستشهدنا فيما بين العامين الحادي والأربعين والخامس والأربعين. فمن وراء النافذة أصبح كلُّ شيء جديداً: ألفية جديدة، وحروب جديدة، وأفكار جديدة، وسلاح جديد، وبصورة غير متوقَّعة أبداً، تغيَّر الإنسان الروسي (الإنسان الروسي- السوفييتي بعبارة أدق).

Twitter: @ketab_n

بدأت بيريسترويكا[1] غورباتشوف... وقامت عدَّة دور نشر بنشر الكتاب وطباعته على الفور، وصدر الكتاب بعدد نسخ تفوق كلَّ تصوُّر، مليونا نسخة. كانت تلك الفترة مرحلة الأشياء المثيرة المذهلة، ومن جديد انطلقنا بجموح وعنف إلى مكان ما. ومن جديد، نحو المستقبل. لم نكن نعرف (أو ربَّما نسينا) أن الثورة، هي دوماً، وهمٌ، وبخاصَّة في تاريخنا. لكن هذا سيحدث فيما بعد، أمَّا آنذاك فكان الجميع ثملين بهواء الحرِّية. وبدأت تصلني يومياً عشرات الرسائل، وانتفخت أضابيري كلُّها. لقد رغب الناس في الحديث، والحديث إلى النهاية... وأصبحوا أكثر حرِّيةً وصراحة. ولم يبقَ لديَّ أدنى شك في أنني محكومة بأن أكمل كتابة كتابي بلا نهاية. ليس بنقل ما كتبت، بل بتكملة الكتابة. أضع نقطة، وتتحوَّل على الفور إلى عدَّة نقاط...

***

أعتقد أنني كنت اليوم سأطرح أسئلة أخرى، وسأسمع أجوبة أخرى. وربَّما كنت سأكتب كتاباً آخر، ليس آخرَ تماماً، ولكن مغايراً. فالوثائق التي أتعامل معها هي شهود أحياء، لا يجمدون كالفخَّار البارد. ولا يتخدَّرون. إنهم يتحرَّكون معنا. ماذا كان يمكنني أن أسألهم الآن؟ وما الذي كان بودِّي الحصول عليه؟ كان يهمُّني جدَّاً... إني أبحث عن الكلمة المناسبة... الإنسان البيولوجي وليس فقط إنسان الزمن والأفكار. كنت سأحاول إلقاء نظرة أعمق على الطبيعة الإنسانية، في الظلام، فيما تحت الشعور، في سرِّ الحرب.

كان من الممكن أن أكتب كيف ذهبت إلى المرأة المقاتلة السابقة مع

---

1 - بيريسترويكا (إعادة البناء) وهو الشعار الذي أطلقه غورباتشوف بهدف إعادة بناء اقتصاد الاتحاد السوفيتي، وكانت من أسباب انهياره. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

الأنصار... إنها بدينة الجسم، لكنها لا تزال امرأة جميلة. وكانت ستحدِّثني كيف خرجت مجموعتها المقاومة (كانت هي الكبرى وفتاتان مراهقتان) إلى استطلاع العدو، وأوقعت في الأسر أربعة جنود ألمان. ومشين معهم طويلاً في الغابة، فوقعن في كمين. وكان جلياً بأنهن لن يتمكَّنَّ من اختراق الكمين مع الأسرى، واتخذن قراراً بقتلهم. لكن المراهقتان لن تتمكَّنا من قتلهم: فقد سارتا معهم عدَّة أيَّام في الغابة، وإذا ما وجد الإنسان نفسه مع إنسان آخر، ولو كان عدوَّاً، فإنه يألفه، ويقترب منه؛ فقد أصبحت تعرفه، تعرف كيف ينام، وتعرف عينيه ويديه. لا، الفتاتان المراهقتان لن تتمكَّنا من قتلهم. هذا ما أدركته الفتاة الكبرى على الفور. وهذا يعني، أن عليها قتلهم. وها هي تتذكَّر كيف قتلتهم. اضطرَّت إلى خدعهم، وخداع الفتاتين المراهقتين. فذهبت مع أحد الأسرى الألمان، لإحضار الماء، كما قالت، وقتلته من الخلف. في رقبته. واقتادت أسيراً آخر بغصن شجرة مقطوع... لقد أذهلتني كيف كانت تتحدَّث عن هذا بهدوء، باطمئنان.

إن من كان بالحرب يتذكَّر أن الشخص المدنيَّ يتحوَّل إلى شخص عسكريٍّ خلال ثلاثة أيَّام. ولماذا ثلاثة أيَّام كافية؟ أم أن هذه مجرَّد أسطورة؟ غالباً. إن الإنسان هناك لا نعرفه ولا نفهمه.

كنت أقرأ في جميع الرسائل: «لم أحدِّثكِ آنذاك لأنه كان عصراً آخر. لقد ألفنا السكوت عن أشياء كثيرة...»، «لم أثق بكِ ثقة كاملة. في تلك الأيَّام، كان من المستحيل الحديث عن هذا، أو من المشين»، «أعرف حكم الأطبَّاء: لديَّ تشخيص رهيب... أريد أن أروي الحقيقة كلَّها...».

ومنذ أيَّام وصلتْني الرسالة التالية: «الحياة صعبة، بالنسبة إلينا نحن الطاعنين في السن... ومن أجل رواتب تقاعدية حقيرة ومهينة نعاني الأمرَّين. وأكثر ما يجرحنا أننا مطرودون من ماضٍ كبير إلى حاضر صغير

Twitter: @ketab_n

لا يُحتمل. لم نعد نتلقّى أية دعوات لإلقاء كلمات في المدارس، وفي المتاحف. لم يعد هناك من يهتمُّ بنا. وإذا ما قرأت في الصحف، فإن الفاشيِّين أكثر نبلاً، في حين أن جنود الجيش الأحمر أشدُّ رهبة».

العصر هو أيضاً وطن... لكنني أحبُّهم، كما في السابق. لا أحبُّ عصرهم، لكنني أحبُّهم.

***

كلُّ شيء يمكنه أن يصبح أدباً...

أكثر ما كان يهمُّني في أرشيفي دفتر يوميَّاتي؛ حيث سجَّلت تلك المقاطع التي شطبتْها الرقابة، وكذلك حديثي مع رجال الرقابة. هناك عثرت على صفحات رميتها بنفسي، من قبل رقابتي الذاتية، من قبل حظري الشخصي. وتفسيري لسبب شطبي لها إن الكثير ممَّا جاء فيها، وغيره، معروض في الكتاب. لكن هذه الصفحات القليلة أريد تقديمها بصورة منفصلة، إنها وثيقة. إنه طريقي الذي اخترت.

ممَّا شطبته الرقابة:

ليلاً، أستيقظ الآن... وكأن أحداً ما... يبكي إلى جانبي... أنا - في الحرب...

نحن نتراجع... بعد سمولنسك، امرأة ما تقدِّم لي ثوبها، وأتمكَّن من تغيير ثيابي وارتدائه. أسير وحيدة... بين الرجال. للتو كنت أرتدي البنطال، والآن أسير في ثوب صيفي. وفجأة بدأت العادة الشهرية... النسائية. لقد بدأت قبل موعدها بسبب الاضطراب، غالباً. من المعاناة، ومن الاستياء. وأين أعثر هنا على ما أريد؟ أشعر بالخجل! كم شعرت بالخجل الشديد! كنا ننام تحت الشجيرات، في الخنادق، في الغابة على جذوع الأشجار.

Twitter: @ketab_n

كم كان عددنا كبيراً! لدرجة أننا لم نجد مكاناً. كنا نسير مشوَّشات، مضطربات، لم نعد نثق بأيٍّ كان... أين سلاح طيراننا، أين دبَّاباتنا؟ كلُّ ما يطير ويزحف ويهدر ألماني.

هكذا وقعت في الأسر. في اليوم الأخير، قبل وقوعي في الأسر، ضُربت ساقاي الاثنتان... كنت مستلقية وأتبوَّل تحتي... لا أدري من أين جاءتني القوَّة لأزحف ليلاً إلى الغابة. والتقطني عناصر المقاومة بالصدفة...

إنني أشعر بالأسى لكلِّ من سيقرأ هذا الكتاب ومن لن يقرأه...

***

كان وقت مناوبتي الليلية... دخلت إلى قاعة الجرحى ذوي الحالات الحرجة. يرقد نقيب... حذَّرني الأطبَّاء قبل المناوبة من أنه سيموت ليلاً. لن يعيش حتى الصباح... أسأله: «كيف حالك؟ بأيِّ شيء يمكنني مساعدتك؟». لن أنسى مدى الحياة... ابتسم فجأة، تلك الابتسامة المشرقة على وجهه المنهك: «فكِّي أزرار الرداء الطبِّي... أرني ثدييك... لم أرَ زوجتي منذ وقت طويل...». شعرت بحرج شديد، فلم تكن قد مسَّتني يد رجل، ولم يقبِّلني أحد. أجبته بكلمات ما. وخرجت مسرعة لأعود بعد ساعة.

كان يرقد ميتاً. وتلك الابتسامة المشرقة لم تفارق شفتيه...

***

بالقرب من كيرتش، ليلاً وتحت القصف، كنا نسير على البارجة. احترقت مقدَّمة البارجة، ثمَّ زحفت النار إلى ظهر البارجة، وانفجرت الذخيرة... انفجار كبير... كان قوياً لدرجة أن البارجة انحنت إلى جانبها الأيمن وبدأت تغرق. وكان الشاطئ قريباً، ولإدراكنا أن الشاطئ بات

Twitter: @ketab_n

قريباً، رمى الجنود بأنفسهم في الماء. وانطلقت الرشّاشات من الشاطئ. صراخ، أنين، شتائم... كنت أتقن السباحة جيِّداً، وكان بودِّي لو أنقذ أحداً منهم، على الأقل أحد الجرحى... فهذا ماء وبحر وليس أرضاً، والإنسان الجريح يموت على الفور. سيغوص إلى القعر... أسمع على مقربة مني أحدهم يعوم فوق الماء، ثمَّ ينحدر إلى الأسفل. فوق الماء وإلى الأسفل. اغتنمت اللحظة المناسبة، وأمسكت به... كان جسمه بارداً، زلقاً... قرَّرت بأنه جريح، وأن ثيابه مزَّقها الانفجار. لأنني أنا نفسي كنت شبه عارية... في لباسي الداخلي... والظلام دامس من حولنا: «آه! آه». وشتمت... وصلت معه أخيراً إلى الشاطئ... في تلك الأثناء انطلق في السماء صاروخ، ورأيت أنني كنت أسحب سمكة كبيرة جريحة. سمكة كبيرة بحجم إنسان من نوع الحفْش... كانت في النزع الأخير... إنها تموت... انبطحت على مقربة منها، وأطلقت شتيمة كبيرة. بكيت من الاستياء... ومن أن الجميع كان يعاني...

***

خرجنا من الحصار... حيثما توجَّهنا كان الألمان من حولنا. فقرَّرنا: صباحاً سنخرق الحصار بمعركة. سنموت على أية حال، فالأفضل أن نموت بشرف. في المعركة كان معنا ثلاث فتيات. كُنَّ يأتين ليلاً إلى كل شاب، ممَّن كان يرغب... ولم يكن الجميع قادراً طبعاً. أنت تدركين، كيف كانت أعصابهن. ومثل هذا الأمر... كلٌّ واحد كان يهيِّئ نفسه للموت...

لم يسلم في الصباح إلا القليل... نحو سبعة أشخاص، بينما كان عددهم خمسين، إن لم يكن أكثر. قُتلوا بنيران الرشّاشات الألمانية... إنني أتذكَّر هؤلاء الفتيات بكثير من الشكر. صباحاً، لم أجد إحداهن على قيد الحياة... ولم ألتقِ بهن بعد...

***

Twitter: @ketab_n

من حديثي مع الرقيب:

- «من سيذهب للحرب بعد مثل هذا الكتاب؟ أنتِ تهينين المرأة بالنزعة الطبيعية المبتذلة. تهينين المرأة-البطلة، تخلعينها من عرشها... تجعلين منها امرأة عادية. أنثى. بينما هن عندنا مقدَّسات».

* «إن بطولتنا عقيمة، إنها لا تأخذ علم الفيزيولوجيا ولا علم البيولوجيا بعين الاعتبار. أنت لا تثق بها. ولا تعاني الروح وحدها، بل الجسد أيضاً. الغلاف المادي».

- «من أين لكِ هذه الأفكار؟ إنها أفكار غريبة، ليست سوفييتية. أنت تسخرين من الشهداء في المقابر الجماعية. أُتخمتِ بقراءة ريمارك[1]... الروماركية لن تمر عندنا. المرأة السوفييتية ليست حيواناً...».

***

أحد ما خاننا... وعرف الألمان مكان تموضع فصيلة الأنصار، فأحاطوا بالغابة ومداخلها من جميع الجهات. واختبأنا في الأوعية والأطباق البرية. المستنقعات أنقذتنا، حيثما سار السفَّاحون. المستنقعات. إنها تغوص بالسلاح والناس إلى الموت. لأيَّام عدَّة، بل ولأسابيع، كنا نقف في المستنقعات التي تغطينا حتى العنق في الماء. كانت بيننا عاملة لاسلكي. وكانت قد وضعت مولودها قبل فترة قصيرة. الرضيع جائع... يطلب ثدي أمِّه، لكن أمَّه نفسها جائعة، ولا حليب في ثدييها، والرضيع يبكي. والألمان السفَّاحون على مقربة... مع كلابهم... وإذا ما سمعت الكلاب أي صوت فسنهلك جميعنا. الفصيلة بكاملها؛ ثلاثون فرداً... أتدركين هذا؟

---

1 - إريش ماريا ريمارك (1898-1970) كاتب ألماني شهير، اشتهر بروايته «كل شيء هادئ في الميدان الغربي»، وله أيضاً «ليلة لشبونة»، و«السماء لا تحابي أحداً»، وهو من أفضل الكتَّاب الذين فضحوا قذارة الحروب - المترجم.

Twitter: @ketab_n

قائد الفصيلة يتَّخذ القرار...

لا يجرؤ أحد على نقل الأمر إلى الأم، لكنها تخمِّن نفسها مضمونه. تنزل باللفلافة مع الطفل إلى قاع المستنقع وتبقيه في الأسفل طويلاً... يتوقَّف الرضيع عن الصراخ... دون أدنى صوت... لا يمكننا النظر بأعيننا، لا إلى الأم، ولا إلى أحدنا الآخر...

***

أخذنا أسرى، واقتدناهم إلى الفصيلة... لم نطلق عليهم النار، فهو موت سهل بالنسبة إليهم. ضربناهم بأخمص البندقية، كالخنازير، ثمَّ قطَّعناهم تقطيعاً. لقد توجَّهت وشاهدت هذا الموت... كنت أنتظر! انتظرت طويلاً تلك اللحظة عندما تنفجر عيونهم من الألم...

وماذا تعرفين عن هذا؟! فقد أحرقوا بالنار أمِّي وأخواتي أحياءً، في وسط القرية...

***

لم أحتفظ بذاكرتي في الحرب لا بالقطط ولا بالكلاب. أذكر فقط الجرذان، بأعينها الصفراء-الزرقاء... كانت في كلِّ مكان. عندما شفيت بعد الجرح، حُوِّلت من المستشفى العسكري إلى وحدتي القتالية من جديد. وكانت وحدتي في الخنادق بالقرب من ستالينغراد. أمر القائد: «خذوها إلى مخبأ الفتيات». دخلت في المخبأ، وأوَّل ما أدهشني عدم وجود أي شيء فيه. مراقد فارغة من أغصان الصنوبر، هذا كل شيء. لم ينبِّهوني... لقد تركت حقيبة ظهري في المخبأ وخرجت، عندما عدت بعد نصف ساعة، لم أعثر على حقيبتي. لا وجود لأي أثر لها، لا المشط، ولا قلم الرصاص. اتضح أن الجرذان أكلتها...

Twitter: @ketab_n

وفي الصباح، أظهروا لي الأيدي المقروضة للجرحى...

لم أشاهد في أي فيلم سينمائي رهيب، كيف ترحل الجرذان من المدينة قبيل القصف المدفعي. هذا لم يحدث في ستالينغراد، بل بالقرب من فيازما... اندفعت منذ الصباح قطعان الجرذان، وخرجت باتجاه الحقول. لقد اشتمُّوا رائحة الموت. كانت جرذاناً سوداء ورمادية بالآلاف... شاهد الناس، برعب شديد، هذا المشهد الشرِّير، وانكمشوا في بيوتهم. وفي اللحظة ذاتها التي اختفت فيها الجرذان عن الأنظار، بدأ القصف. ظهرت الطائرات وقصفت... ولم يبقَ من البيوت والأقبية سوى الرمل الحجري...

***

بالقرب من ستالينغراد، كانت هناك أعداد هائلة من القتلى، لدرجة أن الخيول لم تعد تشعر بالرهبة من الجثث. عادة تخاف منها. والحصان لا يمكنه أبداً أن يطأ على إنسان ميت. جمعنا قتلانا، أمَّا القتلى الألمان فبقيت جثثهم في كل مكان... متجمِّدة... متجلِّدة... أنا كنت أعمل سائقة، أنقل صناديق ذخيرة المدفعية، كنت أسمع بتكسُّر جماجمهم وعظامهم تحت عجلات السيَّارة... وكنت سعيدة...

***

من حديثي مع الرقيب:

- «نعم، النصر كلَّفنا غالياً جدَّاً، ولكن عليكِ أن تبحثي عن الأمثلة والنماذج البطولية، فهي بالمئات. أمَّا أنتِ، فتعرضين قذارة الحرب. تنشرين الغسيل الوسخ. إن نصرنا يظهر عندك رهيباً... ما الذي تسعين إليه؟».

Twitter: @ketab_n

* «الحقيقة».

- «أتظنِّين أن الحقيقة هي ما هو في الحياة؟ ما هو في الشارع؟ تحت الأقدام؟ الحقيقة، عندك، منحطَّة جدَّاً. أرضية. لا، الحقيقة هي ما نحلم به. وكيف نريد أن نكون!».

***

نحن نهاجم... القرى الألمانية الأولى... نحن شباب. أقوياء. أربع سنوات بدون نساء. في الأقبية نبيذ، ومقبِّلات. أمسكنا بالفتيات الألمانيات و... عشرة شباب اغتصبوا فتاة واحدة... كانت النساء تنقصنا، فالسكَّان هربوا من الجيش السوفييتي، فأخذنا الفتيات الشابَّات... عشرين - ثلاثين سنة... عندما كُنَّ يبكين كنا نضربهنَّ، ونضع في أفواههن شيئاً ما. هنَّ يشعرن بالألم، ونحن نضحك. لا أذكر الآن، كيف أقدمتُ على... صبي من أسرة مثقَّفة... هكذا كنت أنا...

الشيء الوحيد الذي كنا نخشاه، أن تعرف فتياتنا، ممرَّضاتنا بهذا الأمر. كنا نشعر بالخجل أمامهن...

***

وقعنا في الحصار... انتشرنا في الغابات والمستنقعات. أكلنا أوراق الأشجار، ولحاء الشجر، وبعض الجذور. كنا خمسة، واحد منا كان صبياً، استُدعي لتوِّه للخدمة. ليلاً، همس جاري في أذني: «الصبيُّ نصف ميت، وهو سيموت على أيَّة حال. أتفهمني؟».

*«عن أيِّ شيء تتكلَّم؟».

- «حدَّثني محكوم مجرم... أنهم عندما كانوا يهربون من معسكر الاعتقال، كانوا يأخذون معهم شاباً يافعاً خصوصاً... اللحم البشري يُؤكل... وهكذا بقوا على قيد الحياة...».

Twitter: @ketab_n

لم تكن لديَّ قوَّة تكفيني لضربه. في الصباح التقينا برجال المقاومة...

***

جاء رجال المقاومة في النهار إلى القرية على ظهور الجياد. أخذوا من القرية المختار وابنه من بيتهما. وانهالوا بالضرب على رأسيهما بالقضبان الحديدية إلى أن سقطا. وعلى الأرض قاموا بفعلتهم النكراء. كنت جالسة أمام النافذة. رأيت كلَّ شيء... وبين الأنصار كان شقيقي الأكبر... عندما عاد إلى البيت وأراد معانقتي، قائلاً: «شقيقتي الغالية!». صرخت بكلِّ قوَّتي: «لا تقترب! لا تقترب! أنت قاتل!». ثمَّ فقدت صوتي. شهراً كاملاً لم أنطق بكلمة واحدة.

أخي قُتل... ماذا كان سيحدث لو بقي حيَّاً وعاد إلى البيت؟

***

صباحاً، أحرق المجرمون الألمان قريتنا... ولم يبقَ حيَّاً إلا من هرب إلى الغابة. هربنا دون أيِّ شيء، بأيدٍ فارغة، حتى أننا لم نأخذ معنا خبزاً، ولا بيضاً، ولا دهن الخنزير.

ليلاً، جارتنا الخالة ناستيا ضربت ابنتها، لأنها كانت تبكي باستمرار. كان لدى الخالة ناستيا خمسة أطفال. يولشكا، صديقتي، هي الأكثر ضعفاً بينهم. كانت تمرض دوماً... وأربعة صبيان، كلُّهم صغار، وكلُّهم كانوا يطلبون الطعام. فقدتْ الخالة ناستيا عقلها: «أو أو أو... أووو...». ليلاً، سمعت يولشكا تخاطب أمَّها: «ماما، لا تغرقيني. لن أطلب... لن أطلب أبداً منك الطعام بعد الآن. لن أطلب...».

صباحاً، لم يرَ أحد يولشكا...

الخالة ناستيا... عدنا إلى القرية على جمر الحريق... القرية احترقت.

Twitter: @ketab_n

بعد فترة قصيرة، شنقت الخالة ناستيا نفسها على شجرة تفّاح سوداء، في حديقتها. كانت معلّقة بشكل منخفض. وكان الأطفال يقفون قربها ويطلبون الطعام...

***

من حديثي مع الرقيب:

- «إن هذا كذب، زيف! إنه افتراء على جنديّنا الذي حرّر نصف أوروبّا. كذب وافتراء على الأنصار ورجال المقاومة، على شعبنا البطل. لسنا في حاجة إلى تاريخك الصغير، نحن نحتاج التاريخ الكبير؛ تاريخ النصر. أنتِ لا تحبّين أبطالنا! أنت لا تحبّين أفكارنا العظيمة؛ أفكار ماركس ولينين».

* «أجل، أنا لا أحبُّ الأفكار العظيمة. أنا أحبُّ الإنسان الصغير...».

***

ممّا رميته بنفسي:

العام الحادي والأربعون... نحن في الحصار. معنا القائد السياسيُّ لونين... قرأ علينا أمراً يقول إن الجنود السوفييت لن يستسلموا للعدو. وكما قال الرفيق ستالين: ليس لدينا أسرى، لدينا خونة. أحضر الجنود مسدّساتهم... أصدر القائد السياسيُّ أمره: «كلا، توقّفوا. ابقوا أحياء، أيُّها الشباب». وأطلق النار على نفسه...

وفي العام الثالث والأربعين... الجيش السوفييتي يهاجم. كنا نتحرّك في بيلاروسيا. ظهر إلى جانبنا صبيٌّ صغير. ركض إلينا من مكان ما وكأنه من تحت الأرض، من القبو، وصاح: «اقتلوا أمّي... اقتلوها! لقد أحبّتْ ألمانياً...». كانت عيناه مدوّرتين من الخوف. وركضت وراءه امرأة عجوز

Twitter: @ketab_n

سوداء، مرتدية ثياباً سوداء. ركضت وهي ترسم علامة الصليب: «لا تصغوا إلى الصبي! الصبيُّ فقد عقله...».

***

استدعوني إلى المدرسة... تحدَّثت معي المعلِّمة التي عادت من النزوح:

- «أريد نقل ابنك إلى صفٍّ آخر. في صفِّي التلاميذ الأفضل».

* «لكن ابني متفوِّق، وعلاماته تامَّة».

- «هذا لا يهم. الصبيُّ عاش تحت حكم الألمان».

* «نعم، كانت ظروفنا صعبة للغاية».

- «لا أريد الحديث عن هذا الموضوع. كلُّ من كان تحت الاحتلال... جميعهم موضع شبهة».

* «ماذا؟ لا أفهم...».

- «إنه يحدِّث الأطفال عن الألمان. كما أنه يتعتع ويتلعثم».

* «هذا عنده من الخوف. ضربه الضابط الألمانيُّ الذي عاش في شقَّتنا ضرباً مبرحاً. كان غير راضٍ عن تنظيف ابني لجزمته».

- «أترين؟ أنتِ نفسك اعترفت بأنك عشت مع عدو...».

* «ومن سمح لهذا العدوِّ بالوصول حتى حدود موسكو؟ من تركنا هنا مع أطفالنا؟».

أُصبت بحالة هيستريا...

بقيت يومين خائفة من أن تقوم المعلِّمة بالإبلاغ عني. لكنها أبقت ابني في صفِّه...

***

Twitter: @ketab_n

نهاراً كنا نخاف من الألمان ورجال البوليس، ليلاً، كنا نخاف من الأنصار ورجال المقاومة. البقرة الأخيرة أخذها مني رجال المقاومة، وبقي عندنا القطُّ وحده. رجال المقاومة جائعون، أشرار. سرقوا بقرتي، وأنا ركضت وراءهم... نحو عشرة كيلومترات. كنت أرجوهم: أعيدوها. ثلاثة أطفال جائعين تركتهم في الكوخ على الفرن. هم كانوا يهدِّدونني: «ارجعي يا خالة، وإلا سنطلق عليك النار».

***

حاول أن تجد إنساناً جيِّداً في الحرب...

كلٌّ كان يسعى لجماعته. أبناء الكولاك (الإقطاعيون) عادوا من المنفى. آباؤهم قُتلوا، وكانوا يعملون عند السلطة الألمانية. انتقموا. فقد أطلقوا النار في الكوخ على معلِّم كبير السن، جارنا. وكان هذا قد وشى لرجال الأمن عن أبيه. تخلَّى عن الكولاك، كان شيوعياً متحمِّساً.

في البداية، حلَّ الألمان المزارعَ التعاونية، أعادوا للفلَّاحين أراضيهم. التقط الناس أنفاسهم بعد ستالين. كنا نسدِّد الجزية بانتظام... وبعد ذلك، بدأوا يحرقون الناس؛ يحرقوننا ويحرقون بيوتنا. أخذوا الحيوانات، وأحرقوا الناس.

آه! يا ابنتي، إنني أخشى الكلمات. إنها كلمات رهيبة... بالخير أنقذت نفسي، لم أرد شرّاً بأحد. كنت أشفق على الجميع...

***

وصلت إلى برلين مع جيشنا... عدت إلى قريتي بوسامَي المجد، وبميداليات. عشت ثلاثة أيَّام. في صبيحة اليوم الرابع، أيقظتْني أمِّي وأنهضتني من الفراش، بينما الباقون نيام. وقالت: «يا ابنتي، لقد جمعت

Twitter: @ketab_n

لك أشياءك في ربطة. ارحلي... ارحلي... لديك أختان تكبران أصغر منك. ومن سيطلب يديهما للزواج؟ فالجميع يعرف، أنك مكثت أربع سنوات في الجبهة، مع الرجال...».

لا تمسِّي روحي. اكتبي، مثل الآخرين، عن أوسمتي وميدالياتي...

***

في الحرب، كما في الحرب. الحرب ليست مسرحاً...

شكلّنا في المرج فصيلة، وانتظمنا على شكل دائرة. كان في المنتصف ميشا ك. وكوليا م. من شبابنا. كان ميشا عنصر استطلاع جريء، وكان يعزف على الهارمونيكا. أمَّا كوليا فكان أفضل مَن يغنِّي...

قرأوا الحكم طويلاً: في قرية من القرى طلبوا زجاجتين من الفودكا البيتية، وفي الليل... اغتصبوا ابنتَي صاحبة البيت... وفي قرية أخرى: سرقوا معطفاً وآلة خياطة من فلّاح، وشربوا بثمنها عند الجيران...

حُكم عليهما بالإعدام رمياً بالرصاص... الحكم قطعي لا يقبل الاستئناف.

من سيطلق عليه النار؟ لاذت الفصيلة بالصمت... من؟ تمسَّكنا بالصمت... قائد الفصيلة نفسه قام بتنفيذ الحكم...

***

كنت رامية رشَّاش. كم قتلت من البشر!

بعد الحرب، بقيت أخاف فترة طويلة من الحمل والولادة. ولم ألد إلا بعد أن هدأت. بعد سبع سنوات...

حتى الآن، لم أسامِح، ولا أسامح... كنت أفرح عندما أرى الأسرى الألمان. كنت أفرح من الشعور بالشفقة عند رؤيتهم: قطع قماش على

Twitter: @ketab_n

أقدامهم بدلاً من الجزمات، وعلى رؤوسهم قطع قماش... يقتادونهم عبر القرية، وهم يتضرَّعون: «أيَّتها الأم، أعطنا قطعة خبز... قطعة خبز...». وكان يذهلني أن الفلَّاحين كانوا يخرجون من أكواخهم ويعطونهم قطعة خبز أو حبَّة بطاطا... أمَّا الصبْية فكانوا يركضون وراء الطابور ويضربونهم بالحجارة... أمَّا النسوة فكُنَّ يبكين...

يبدو لي أنني عشت حياتين: حياة "رجولية" وأخرى نسائية...

***

بعد الحرب... لم تعد لحياة الإنسان أية قيمة. سأعطي مثلاً... أركب الباص بعد انتهاء يوم العمل، فجأة يعلو الصراخ: «أمسكوا بالسارق! أمسكوا بالسارق! حقيبة يدي...». توقَّف الباص... وعلى الفور تشكَّل حشد. ضابط شابٌّ أمسك بصبيٍّ وأخرجه إلى الشارع، أمسكه من يده ووضعها على ركبته، وطاخ! كسرها من الكوع، ورجع إلى الوراء إلى الباص... وننطلق... لم يدافع أحدٌ عن الصبي، ولم يُستدعَ الشرطي. ولم يُستدعَ طبيب. أمَّا الضابط فصدره مغطًّى بالميداليات والأوسمة الحربية... بدأت أنزل من الباص على الموقف، فنهض على الفور وقدَّم لي يده: «تفضَّلي، يا آنسة...». يا لها من لباقة!

هذا ما تذكَّرته الآن... أمَّا في تلك الأثناء فنحن كلُّنا كنا عسكريين، وعشنا بقوانين الحرب. وهل هي قوانين إنسانية؟

***

عاد الجيش الأحمر...

سمحوا لنا بنبش القبور، والبحث في مكان إطلاق النار على أقربائنا. بحسب العادة القديمة، يجب أن يكون الإنسان في حضرة الموت بلباس

Twitter: @ketab_n

أبيض، وبقميص أبيض. حتى آخر لحظة من حياتي سوف أتذكَّر هذا! سار الناس بمناشف بيضاء... وكانت ثيابهم بيضاء... فمن أين حصلوا عليها؟

بدأوا النبش... كلٌّ من عثر على شيء، اعترف وأخذه. هناك من وضع يداً على عربة، وهناك من وضع جمجمة... لا يبقى الإنسان طويلاً في القبر تحت الأرض بكامل جسمه، فهو يختلط بغيره من الجثث. مع الطين والرمل.

لم أعثر على شقيقتي، بدا لي وكأن قطعة من ثوبها تعرَّفت إليها... عمِّي قال أيضاً: «سنأخذها، وسوف ندفنها». هذه القطعة من الثوب وضعناها في تابوت ودفنَّاها...

بالنسبة إلى والدي، وصلتنا ورقة تقول: مفقود. آخرون وصلتهم وثائق بخصوص من استشهد، أمَّا في مجلس القرية فقد بثُّوا الخوف في نفسي ونفس أمِّي: «لا تستحقُّون أية معونة. فربَّما هو يسكر الآن مع امرأة ألمانية. عدوُّ الشعب».

بدأت البحث عن أبي في عهد خروتشوف. بعد أربعين عاماً. وصلنا جواب في عهد غورباتشوف: «لا اسم له في القوائم...». لكن رفيقه في الفوج استجاب، وعرفت أنه استشهد ببطولة. بالقرب من موغيلوف، رمى نفسه مع قنبلة يدوية تحت الدبَّابة...

للأسف، لم تنتظر أمِّي هذا الخبر السار. فقد ماتت وهي تحمل وصمة زوجة عدوِّ الشعب، زوجة الخائن. ومثلها كثيرات. لكنهن عشن وبلغن الحقيقة. ذهبت إلى قبر أمِّي، حاملة رسالة رفيقه. وقرأتها...

***

كثيرون كانوا مقتنعين، مصدِّقين...

كنا نظن، أن كلَّ شيءٍ سيتغيَّر بعد الحرب، وأن ستالين سيفي بوعده

Twitter: @ketab_n

لشعبه. ولكن، وقبل انتهاء الحرب، كانت القوافل تتوجَّه إلى ماغادان في سيبيريا. قوافل من المنتصرين... فقد أُلقي القبض على كلٍّ من كان في الأسر، وعاش في المعسكرات الألمانية، وكلٍّ من اقتاده الألمان إلى العمل، وكلٍّ من شاهد أوروبًّا. حيث كان في إمكانهم أن يتحدَّثوا كيف يعيش الشعب بدون الشيوعيين، وأية منازل وطرقات وشوارع هناك، وعن أنه لا وجود للكولخوزات (المزارع التعاونية) هناك...

بعد النصر، لاذ الجميع بالصمت. كانوا صامتين وخائفين، كما كانوا قبل الحرب...

***

أنا معلِّمة تاريخ... أذكر أن كتاب التاريخ المدرسي أُعيدت كتابته ثلاث مرَّات. وقد علَّمت الأطفال بثلاثة كتب مدرسية مختلفة...

اسألونا، ما دمنا أحياء، ألن تعيدوا كتابته بدوننا؟ اسألوا...

أتعرفين كم هو صعب قتل الإنسان؟ كنت أمارس المقاومة سرّاً. بعد نصف عام كُلِّفت بمهمَّة: أن أعمل نادلة في مطعم الضبَّاط الألماني... أنا شابَّة... جميلة... وظَّفوني. كان عليَّ أن أنثر السُّمَّ في قدر الحساء، وفي اليوم نفسه ألتحق بالمقاومة. لكنني اعتدت على العمل في المطعم، إنهم أعداء، لكنني أراهم كل يوم، وهم يقولون لي «شكراً جزيلاً... شكراً جزيلاً». هذا صعب... قتل الإنسان صعب. القتل أصعب من الموت...

طيلة حياتي العملية كنت أدرِّس التاريخ... ودوماً لم أكن أعرف، كيف أتحدَّث عن هذا، بأية كلمات...

***

كانت لديَّ حربي الخاصَّة... قطعت طريقاً طويلاً مع بطلاتي. ومثلهنَّ،

Twitter: @ketab_n

لم أكن أصدِّق، أن نصرنا ذو وجهين – وجه رائع، ووجه آخر شنيع. الجميع في الندبات والقروح – منظر كريه للعين. «تصافح الشخص، تقتله وأنت تنظر في عينيه. هذا ليس قنبلة ترميها أو تطلق النار من الخندق». هذا ما روَينه لي.

أن تستمع إلى إنسان يحدِّثك عن كيف كان يقتل الناس، وكيف كان يموت، وأنت تنظر إليه في عينيه...

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لا أريد أن أتذكّر...

منزل قديم في ضواحي منسك، مؤلَّف من ثلاثة طوابق، من تلك الأبنية التي شُيِّدت بعد الحرب مباشرة، وكأنه شُيِّد على عجل ولفترة قصيرة، وقد أحاطت به وبصورة جميلة ومريحة شجيرات الياسمين. من هذا البناء بدأ بحثي الذي استمرَّ سبع سنوات. سبع سنوات مذهلة ومؤلمة، حيث اكتشفت فيها بنفسي عالم الحرب، عالماً لم ندرك معناه إلى النهاية. أشعر بالألم، والكراهية، والإغراء. والحنان والارتباك... أحاول أن أفهم بما يختلف الموت عن القتل، وما هو الحدُّ بين الإنساني واللاإنساني. كيف يمكن للإنسان أن يبقى وحده مع هذه الفكرة المجنونة، بأن يقتل إنساناً آخر؟ بل وعليه أن يقتله. وأكتشف، أنه في الحرب، بالإضافة إلى الموت، ثمَّة أشياء أخرى كثيرة، في الحرب كلُّ شيء، كما في حياتنا العادية؛ فالحرب هي أيضاً حياة. أصطدم بعدد لا يحصى من الحقائق والأسرار الإنسانية. أفكِّر في مسائلَ لم نفكِّر سابقاً في وجودها. مثلاً: لماذا نحن لا نستغرب وجود الشر، ولماذا لا نشعر بالاستغراب تجاه الشر؟

طريق وطرق... عشرات الأسفار في جميع أنحاء البلاد السوفييتية، مئات الأشرطة المسجَّلة، آلاف الأمتار من أشرطة التسجيل. خمسمئة لقاء، وبعدها، أوقفت الحساب، اختفت الوجوه من ذاكرتي، ولم يبقَ غير الأصوات. في ذاكرتي يُسمع كورس. كورس كبير، أحياناً أكاد لا أسمع

Twitter: @ketab_n

الكلمات، النحيب وحده. أعترف: لم أثق دوماً أنني قادرة على السير في هذا الطريق، وأنني سأتمكَّن من تجاوزه، وأصل إلى النهاية. كانت هناك دقائق من الشكوك والخوف، عندما أردت أن أتوقَّف أو أن أبتعد جانباً، لكنني لم أعد أستطيع. لقد أصبحت أسيرة الشر، ألقيت نظرة إلى القاع، إلى اللجة، كي أفهم شيئاً. أمَّا الآن، فيبدو لي أنني اكتسبت بعض المعارف، لكن الأسئلة ازدادت، بينما الأجوبة أصبحت أقل.

ولكن، آنذاك، في بداية الطريق، لم أشك في هذا أبداً...

قادتني إلى هذا المنزل زاوية صغيرة في صحيفة المدينة، أنه منذ أيَّام، أُحيلت على التقاعد كبيرة المحاسبين ماريا إيفانوفنا موروزوفا في مصنع منسك للآليات "أُدارنيك". وجاء في الزاوية الصحفية، أن ماريا كانت في أثناء الحرب قنَّاصة، وحازت على إحدى عشرة جائزة حربية، وأنها قتلت خمسة وسبعين ألمانياً. كان من الصعب عليَّ في شعوري أن أربط بين المهنة العسكرية لهذه المرأة وعملها وقت السلم. ومع صورتها الحالية في الصحيفة، ومع جميع الأمارات العادية.

امرأة صغيرة الحجم، بتاج فتاة صغيرة وجديلة طويلة حول رأسها، جلست في كنبة كبيرة، وقد أغلقت عينيها بيديها: «لا، لا، وهل أعود من جديد إلى هناك؟ لا، لا أستطيع... حتى الآن لا أشاهد الأفلام الحربية. آنذاك كنت فتاة صغيرة. كنت أحلم وأكبر، أكبر وأحلم. حتى أنني أشعر بالشفقة نحوكِ... أنا أعرف ما أقوله... حقيقة، تريدين معرفة هذا؟ أسألك، كما أسأل ابنة لي».

شعرتْ بالاستغراب: «ولماذا أتيت لعندي؟ عليك أن تذهبي إلى زوجي، فهو يحبُّ أن يتذكَّر: أسماء القادة، والجنرالات، وأرقام الوحدات... إنه يتذكَّر كلَّ شيء. أمَّا أنا، فلا أذكر. أذكر فقط ما حدث

Twitter: @ketab_n

معي. الناس من حولي، لكنني كنت دوماً وحيدة، لأن الإنسان دوماً وحيد أمام الموت. أذكر وحدتي المخيفة».

طلبتْ مني إغلاق المسجِّلة: «تهمُّني عيناك، كي أحدِّثك. أمَّا جهاز التسجيل فيزعجني».

لكنها، بعد بضع دقائق نسيت المسجِّلة، ولم تلتفت إليها...

***

ماريا إيفانوفنا موروزوفا (إيفانوشكينا)، جندية برتبة عريف، قنَّاصة:

إنها ستكون قصَّة بسيطة... قصَّة فتاة روسية عادية، ككثيرات من غيرها آنذاك...

هناك، حيث كانت قريتي دياكوفسكوي، شُيِّد الآن حيُّ موسكو البروليتاري. بدأت الحرب، ولم أكمل العام الثامن عشر من عمري. كانت جدائلي طويلة جدَّاً، حتى ركبتيَّ... لم يصدِّق أحدٌ أن الحرب ستطول، كان الجميع يتوقَّعون أنها ستنتهي، ستنتهي قريباً، ونطرد العدو. كنت أعمل في الكولخوز[1]، ثمَّ أنهيت دورات محاسبة، وبدأت أعمل. استمرَّت الحرب... رفيقاتي... صديقاتي قلن لي: «علينا أن نذهب إلى الجبهة». كان هذا حديث الجميع. سجَّلنا أسماءنا في دورات بمديرية التجنيد. ربَّما بعضهنَّ سجَّلن حبَّاً برفيقاتهن، لا أدري. تعلَّمنا هناك إطلاق النار من بندقية حربية، ورمي القنابل اليدوية. في الفترة الأولى، أعترف، كنت أخشى الإمساك بالبندقية في يدي، كنت أشعر بشعور غير مستحب، ولم أستطع أن أتصوَّر أنني سأقتل أحداً ما، كلُّ ما أردته هو الذهاب إلى الجبهة.

1- الكولخوز: المزرعة التعاونية أيَّام الاتحاد السوفييتي. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

كانت حلقتنا تضمُّ أربعين فتاة. من قريتنا وحدها أربع فتيات، صديقاتي، ومن القرية المجاورة خمسة، وباختصار، كانت هناك فتيات من كلِّ قرية، وجميعهنَّ فتيات؛ فالرجال قد سبقونا إلى الحرب، كل من كان في وسعه ذلك. أحياناً، كان يأتي المراسل، ويطلب منا الاجتماع خلال ساعتين، ثمَّ يأخذهن معه. كانوا يأخذون الناس حتى من الحقول (تلوذ بالصمت). لا أذكر الآن، هل كانت هناك حفلات رقص في القرية، لو كانت فالفتاة تراقص فتاة، لم يكن هناك شباب. لقد سيطر الهدوء على قرانا.

سرعان ما انتشر نداء اللجنة المركزية للكومسومول[1] والشبيبة للجميع بأن يهبُّوا ويدافعوا عن الوطن، لأن الألمان أصبحوا على مقربة من موسكو. لن نسمح بأن يحتلَّ هتلر موسكو! هذا ما ردَّده الجميع ولست وحدي... ورغبت جميع الفتيات في الالتحاق بالجبهة. أبي كان يحارب هناك. كنا نظن أننا نحن الفتيات سنكون وحيدات، متميِّزات... وعندما وصلنا إلى مديرية التجنيد وجدنا العديد من الفتيات، فتملَّكني العجب. وتسارعت نبضات قلبي بقوَّة. لكن الانتقاء كان صارماً للغاية. الشرط الأوَّل: يجب أن تكون بحالة صحِّية جيِّدة وبقوَّة بدنية. خشيت ألا يأخذوني، لأنني في طفولتي كنت أمرض كثيراً، كما أن عظامي واهنة، كما كانت تقول أمِّي. ولهذا كانت الفتيات ينعتنني بالصغيرة. وثانياً، إذا لم يكن هناك في الأسرة من الأطفال غير التي كان عليها الالتحاق بالجبهة، فلا يأخذونها عادة، لأنه لا يصح أن تبقى الأمُّ وحدها. يا لأمَّهاتنا! لم تكن الدموع تجفُّ من مآقيهن... كنَّ يؤنِّبننا ويرجيننا... ولكن، كان عندنا في الأسرة شقيقتان صغيرتان وشقيقان أصغر مني بكثير، لكن تم احتسابهم. ثمَّ إن الجميع تركوا الكولخوز، ولم يعد هناك من يعمل، ولم يرغب مدير الكولخوز في

---

1 - الكومسومول: اتحاد الشبيبة الشيوعي. المنظمة الشبيبية الوحيدة أيَّام الاتحاد السوفييتي. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

مغادرتنا. وباختصار، رفضوا أخذنا للجبهة. ذهبنا إلى لجنة الكومسومول المحلِّية، ورُفض طلبنا أيضاً، وعندها توجَّه وفد منا إلى لجنة الكومسومول في المقاطعة. كنا جميعنا متحمِّسات، قلوبنا كانت تنبض بقوَّة. ورُفض طلبنا أيضاً. وبما أننا في موسكو، فقد قرَّرنا الذهاب إلى اللجنة المركزية للكومسمول، إلى أعلى المسؤولين، إلى السكرتير الأوَّل. كنا نتحرق شوقاً لتحقيق ما أردنا... من سيتكلَّم باسمنا، من هي الأكثر جرأة؟ كنا نظن أنه لن يكون هناك أحد غيرنا، ولكن كان من المستحيل المرور في الحشود التي يغصُّ بها الرواق، وليس الاقتراب من السكرتير الأوَّل. فقد توافدت الشبيبة من جميع أنحاء البلاد، فكثير منهم أصبح ضمن المناطق المحتلَّة واستشهد ذووهم، وتشوَّقوا للذهاب إلى الجبهة انتقاماً. من جميع أنحاء الاتِّحاد السوفييتي. نعم، نعم... وباختصار، شعرنا بالحرج بعض الوقت...

مساء، استطعنا الدخول إلى مكتب السكرتير الأوَّل. سألونا: «كيف ستذهبن إلى الجبهة وأنتن لا تعرفن كيفية إطلاق النار؟». أجبنا جميعاً، على الفور: «لقد تعلَّمنا...».

-«أين؟ كيف؟ وهل تعرفن التضميد؟».

* «لقد علَّمنا طبيب المنطقة في دائرة التجنيد».

عندها لاذوا بالصمت، وأخذوا يفكِّرون جدِّياً في شأننا. ثمَّ كانت لدينا ورقة رابحة، فنحن لسنا وحدنا، بل عددنا أربعون فتاة وكلُّنا نعرف استخدام البندقية وتقديم المساعدة الطبِّية الأوَّلية. قيل لنا: «اذهبن وانتظرن. سنلبِّي طلباتكنَّ». عدنا والسعادة تغمرنا، لا يمكنني نسيان هذا...

بعد يومين، وصلت دعوة للالتحاق بالجبهة لكلٍّ منا...

حضرنا إلى دائرة التجنيد. وهنا أدخلونا من باب، وأخرجونا من باب آخر... دخلت بضفيرة جميلة، وخرجت من دونها... بدون ضفيرة...

Twitter: @ketab_n

حلقوا شعرنا على الطريقة العسكرية... وأخذوا فساتيننا. لم أتمكَّن من إرجاع ضفيرتي وفستاني لأمِّي، فقد رجتني أن أترك أثراً مني عندها. وألبسونا على الفور قمصاناً وسراويل، وقبّعات، وزوَّدونا بحقائب ظهر، ونقلونا بقطار الشحن، وأجلسونا على القش. لكن القشَّ كان طازجاً طرياً، تفوح منه رائحة الحقل.

شُحِّنا بمرح. بجرأة. مع الطرائف والنكات. أذكر، كم ضحكنا كثيراً!

إلى أين نحن ذاهبات؟ لا نعرف. وفي نهاية الأمر، لم يكن يهمنا كثيراً أين سنكون. المهم، في الجبهة. الجميع يحاربون، ونحن أيضاً. وصلنا إلى محطَّة شلكوفو، بالقرب منها كانت مدرسة نسائية للقنَّاصات. تبيَّن أنهم نقلونا إليها. شعرنا بالفرح؛ فهذا عمل قتالي حقيقي، وسوف نطلق النار.

وبدأنا نتعلَّم. درسنا النظام الداخلي للخدمة القتالية، الانضباط، التمويه حسب الأماكن، الوقاية من السلاح الكيميائي. ثابرت الفتيات على الدراسة. وتعلَّمن فكَّ وتركيب بندقية القنص بأعين مغمضة، وتحديد سرعة الريح، وحركة الهدف، والمسافة من الهدف، وحفر الحُفر، والزحف على البطن... كل هذا تعلَّمناه. المهم أن نتوجَّه إلى الجبهة بأسرع وقت، إلى النار... نعم، نعم... بعد انتهاء الدورة، حصلت على علامة كاملة في الرمي والمناورة. الأصعب كان، كما أذكر، الاستيقاظ على جرس الإنذار والتهيئة الكاملة خلال خمس دقائق. أخذنا جزماتنا أكبر من مقاسات أرجلنا بدرجة أو درجتين، كي لا نضيع الوقت في ارتدائها. خلال خمسة دقائق، كان علينا ارتداء ملابسنا وتجهيز أنفسنا والوقوف في الصف. حدث عدَّة مرَّات أن ارتدينا فيها الجزمة بدون جوارب. وكادت إحدى الفتيات أن تتجمَّد رجلها في الجزمة. ولاحظ المدرِّب، فوجَّه ملاحظة إلينا وعلَّمنا

Twitter: @ketab_n

كيف نلفُّ أقدامنا بقطعة قماش. كان يقف أمامنا ويهدر: «يا فتياتي، كيف سأجعل منكن جنوداً، وليس هدفاً للضباط؟». فتياتي...فتياتي... الجميع كانوا يحبُّوننا ويشفقون علينا. بينما كنا ننزعج من أنهم يشفقون علينا. أولسنا جنوداً مثل الآخرين؟

وأخيراً، وصلنا إلى الجبهة. بالقرب من أورشا... في الفرقة النارية الثانية والستِّين... قائد الفرقة، كما أذكر، العقيد بورودكين، غضب عندما رآنا: أرسلوا إليَّ فتيات. أي، ما هذه الجوقة النسائية؟ فرقة رقص! هنا حرب وليس حفلة رقص. حرب رهيبة... ثمَّ استدعانا إلى مكتبه، واستضافنا على طعام الغداء. سمعنا أنه يسأل مساعده: «ألا يوجد شيء من الحلويات مع الشاي؟». شعرنا نحن بالاستياء، بالطبع: فمن يحسبنا؟ لقد جئنا لنحارب. أمَّا هو فلم يستقبلنا كجنود بل كفتيات. «ماذا سأفعل معكنَّ يا عزيزاتي؟ من أين جمعوكنَّ؟». هكذا كان يعاملنا. أمَّا نحن فكنا نتصوَّر أننا أصبحنا مقاتلات. نعم، نعم... إنها الحرب!

في صباح اليوم التالي، أجبَرنا على إظهار قدرتنا على إطلاق النار، والتمويه حسب المكان. وكان إطلاقنا للنار جيِّداً، بل وأفضل من الرجال القنَّاصين، الذين أعدُّوهم من الخطِّ الأمامي في دورة لمدَّة يومين، والذين استغربوا أننا ننفِّذ عملهم. إنهم للمرَّة الأولى، غالباً، يشاهدون نساء قنَّاصات. حضر العقيد وشاهدنا كيف نطلق النار، وكيف نقوم بالتمويه حسب المكان... كان ينتقل ويشاهد ساحة الرمي، ثمَّ توقَّف أمام حزمة عشب - لا نرى شيئاً. وهنا أخذت حزمة عشب تتضرَّع: «أيُّها الرفيق العقيد، لن أتمكَّن بعد، إنها ثقيلة». وضحك الجميع. لم يكن يصدِّق أننا يمكننا التمويه على هذا الشكل الجيِّد. وقال: «الآن، أسحب كلماتي السابقة بخصوص الفتيات». لكنه كان يتألَّم... ولم يعتد علينا فترة طويلة...

خرجنا للمرة الأولى إلى "الصيد" (هكذا كان القنَّاصة يدعون عملهم).

Twitter: @ketab_n

كانت شريكتي في الموقع ماشا كوزلوفا. قمنا بالتمويه، مستلقين على بطوننا: أنا أقوم بالمراقبة وماشا تمسك بالبندقية. وفجأة، قالت لي ماشا: «أطلقي النار، أطلقي النار، ألماني...».

أجبتها: «أنا أراقب. أنت أطلقي النار!».

- «بينما نحن نتناقش، سيبتعد» قالت لي.

فأجبتها: «بداية، لا بدَّ من وضع خريطة إطلاق النار، وتحديد نقاط العلَّام: حيث العنبر، شجرة البتول...».

- «ستقومين، كما في المدرسة، برسم الخرائط؟ لقد جئت ليس من أجل رسم الخرائط، بل لإطلاق النار!».

رأيت أن ماشا تغضب مني.

- «وماذا بك، أطلقي النار، ماذا بك؟».

هكذا تجادلنا. وبالفعل، خلال هذه الفترة، أعطى الضابط الألماني الأمر لجنوده. اقتربت عربة، ونقل الجنود فيما بينهم حملاً ثقيلاً. وقف الضابط، وأعطى أمره، ثمَّ اختفى. ونحن نتجادل. أرى أنه ظهر مرَّتين، وإذا ما أفلتناه فقد انتهى كلُّ شيء. سوف نفلته. وعندما ظهر للمرَّة الثالثة، للحظة واحدة - يظهر تارة ويختفي تارة - قرَّرت أن أطلق النار. وفجأة ظهرت في خاطري فكرة: إنه إنسان، وإن كان عدوَّاً، لكنه إنسان. وبدأت أشعر بارتجاف يديَّ، وجسمي كلِّه، وانتابتني قشعريرة وخوفٌ ما... هذا الإحساس لا يزال يراودني في الحلم حتى الآن... كان من الصعب عليَّ إطلاق النار على إنسان حي، بعد تدريبي على إطلاق النار على أهداف خشبية. إنني أراه في عدسة منظار البندقية، أراه جيِّداً. وكأنه قريب مني... وداخلي شيء ما يمنعني... لا يسمح لي، لا يمكنني اتخاذ قرار. لكنني تمالكت أعصابي وضغطت على الزناد... فلوَّح بيديه وسقط. لا أعرف،

Twitter: @ketab_n

قُتل أم لا. لكن قشعريرة أكبر سيطرت عليَّ بعد ذلك، وظهر خوف مجهول: أقتلتُ إنساناً؟! كان عليَّ أن أعتاد على هذه الفكرة. نعم... باختصار: شيء رهيب! لا يمكن أن أنساه...

عندما عدنا إلى الفرقة، وتحدَّثت عمَّا حدث لي في الفصيلة. عقدنا اجتماعاً. كانت عندنا كلافا إيفانوفا سكرتيرة الكومسومول، فبدأت تقنعني: «عليك أن لا تشفقي عليهم؛ بل أن تكرهيهم». فقد قتل الجنود الفاشيون أباها. ما إن نشرع بالغناء، حتى تأتيني راجية: «أيَّتها الفتيات، لا داعي للغناء، سنتغلَّب على هذه السنوات، وبعدها سوف نغني».

ليس على الفور... لم نتمكَّن على الفور. فالكراهية والقتل ليست عملاً نسائياً. ليست عملنا... كان عليَّ أن أقنع نفسي. أن أحث نفسي...

بعد بضعة أيَّام هتفت لي ماريا إيفانوفنا ودعتني إلى صديقتها وزميلتها في الجبهة كلافديا غريغوريفنا كروخينا. سأصغي إليهما من جديد...

***

كلافديا غريغوريفنا كروخينا. رقيب أوَّل - قنَّاصة:

المرَّة الأولى كانت رهيبة... رهيبة جدَّاً...

انبطحنا أرضاً، وأنا أراقب، وألاحظ: ألماني يرتفع من الخندق. ضغطت على الزناد، فسقط. شعرت بجسمي كلِّه يهتز، كنت أسمع كيف تدقُّ عظامي. بدأت أبكي. عندما ضغطت على الزناد، لم أشعر بشيء، أمَّا الآن: لقد قتلت! قتلت إنساناً لا أعرفه. لا أعرف عنه شيئاً، لكنني قتلته.

ثمَّ انتهى كلُّ شيء. وإليك كيف حدث هذا... بدأنا بالهجوم، سرنا مقابل بلدة صغيرة، في أوكرانيا، غالباً. هناك، على مقربة من الطريق رأينا كوخاً أو منزلاً، كان من الصعب معرفة ذلك، لأن كلَّ شيء كان يحترق فيه،

Twitter: @ketab_n

واحترق كلُّ شيء، وبقيت حجارة سوداء. الأساس... كثير من الفتيات لم يقتربن، لكن شيئاً جذبني... وفي هذه الأحجار المتفحِّمة عثرنا على عظام بشرية، وبينها نجوم محترقة، هؤلاء جرحانا أو أسرانا وقد احترقوا. بعد هذا المشهد، لم أعد أشعر بأي شفقة، بعد رؤيتي لهذه النجوم المحترقة...

عدت من الحرب بشعر أبيض. في الحادي والعشرين من عمري، وبشعر أبيض. فقد أصبت بجرح بليغ، وبرضوض، وبأذن تكاد لا تسمع. استقبلتني أمِّي قائلة: «كنت واثقة من أنك ستعودين. كنت أصلِّي من أجلك ليل نهار». أخي استشهد في الجبهة. بكت أمِّي، وهي تقول: «الآن، لا فرق، لو ولدت الأم بنات أم صبيان. لكن أخاك رجل، وهو ملزم بالدفاع عن الوطن، أمَّا أنت: فتاة. لقد رجوت الله، إن كانوا سيشوِّهونكِ فليقتلوك أفضل. كنت دوماً أذهب إلى محطَّة القطار. ذات يوم رأيت فتاة عسكرية بوجه محروق... شعرت بقشعريرة. أنت! بعد ذلك كنت أصلِّي من أجلها أيضاً».

على مقربة من بيتنا، في منطقة شليابنسك، أُجريت آنذاك أبحاث وتفجيرات وتنقيبات عن الثروة الباطنية. وما إن تبدأ التفجيرات - كانت تجري ليلاً، ولا أدري لماذا - حتى أنهض على الفور من سريري وألتقط معطفي وأركض. كان عليَّ أن أهرب إلى مكان ما. فتمسك بي أمِّي، وتضمُّني إلى صدرها وتقنعني مهدئة: «استيقظي... استيقظي. الحرب انتهت. أنت في بيتك». فأعود إلى وعيي من كلماتها: «أنا أمُّك، أمُّك». كانت تتكلَّم بهدوء... بهدوء... كانت كلماتها الكبيرة تخيفني...

الجو دافئ في الغرفة، لكن ماريا إيفانوفنا تغطِّي نفسها بحرام صوفي سميك - كانت تشعر بالبرد. تتابع حديثها: لقد أصبحنا جنديات بسرعة... أتعرفين، لم يكن لدينا وقت للتفكير ومعايشة مشاعرنا...

أسر عناصر الاستطلاع عندنا ضابطاً ألمانياً، وقد استغرب للغاية، أن

Twitter: @ketab_n

كثيراً من جنوده كانوا يصابون في رؤوسهم، وفي مكان واحد تقريباً. وكان يكرِّر قوله، إن القنَّاص غير قادر على إصابة مثل هذا العدد من الجنود في رؤوسهم، وبدقَّة. وقال راجياً: «أروني هذا القنَّاص، الذي قتل هذا العدد الكبير من جنودي. لقد وصلتني إمدادات بشرية كبيرة، وكل يوم كان يُقتل منهم عشرة». أجابه قائد الفوج: «للأسف، لا يمكنني ذلك. لقد كانت هذه فتاة قنَّاصة. إنها كانت ساشا شلياخوفا، استشهدت في معركة بين القنَّاصة. وما الذي أدَّى إلى قتلها؟ إنه الوشاح الأحمر. والوشاح الأحمر في الثلج ظاهر وواضح، إنه مضادٌّ للتمويه». وعندما سمع الضابط الألماني أنها كانت فتاة أُصيب بالذهول، ولم يعرف بماذا يجيب. فلاذ بالصمت طويلاً. وفي التحقيق الأخير قبل إرساله إلى موسكو (تبيَّن أنه ضابط مهم!)، اعترف قائلاً: «لم يسبق لي أبداً أن حاربت النساء. أنتن جميعكن جميلات... أمَّا دعايتنا فتؤكِّد أن الجيش الأحمر لا تحارب فيه نساء بل خِناثٌ...». إنه لم يفهم شيئاً. نعم... هذا لا يُنسى...

كنا نسير أزواجاً، فالجلوس من المساء حتى المساء بالنسبة إلى فتاة الواحدة متعب، والعينان تتعبان، وتظهر فيهما الدموع، ولا يشعر المرء بيديه، والجسد كلُّه يفقد إحساسه من التوتُّر. وهذا خاصَّة في فصل الربيع. فالثلج من تحتِكِ يذوب، وأنت في الماء البارد طيلة اليوم. أنت تعومين، ويحدث أن تتجمَّدي وتنحدري إلى الأرض. فما إن يطلع الفجر نترك مواقعنا، ثمَّ نعود إليها مع حلول الظلام. طيلة اثنتي عشرة ساعة وأحياناً أكثر، ننبطح على الثلج، أو نصعد إلى أعلى شجرة، أو إلى سطح كوخ أو بيت مهدَّم، ثمَّ نقوم بالتمويه، كي لا يلاحظ أحد أين نحن، ومن أين نراقب. كنا نبذل جهدنا في اختيار موقع أقرب: سبعمئة، ثمانمئة متر، وأحياناً خمسمئة متر تفصلنا عن خنادق الألمان. حتى أننا في الصباح الباكر، كنا نسمع كلامهم وضحكهم.

Twitter: @ketab_n

لا أدري، لماذا لم نكن نشعر بالخوف... أنا الآن لا أفهم...

قمنا بشنٍّ هجوم سريع... أُنهكنا للغاية، فالتموين تأخر عنَّا: انتهت الذخيرة، والمواد الغذائية نفدت، والمطبخ تحطَّم بقذيفة. لليلة الثالثة نعيش على الخبز اليابس، جفَّت حلوقنا وألسنتنا، بحيث عجزنا عن التذمُّر. شريكتي قُتلت، وسرتُ مع شريكتي الجديدة على الخطِّ الأوَّل من الجبهة. فجأة شاهدنا على "المنطقة المحايدة" مهراً، جميلاً، بذيل كثيف. كان يتمشَّى بهدوء، وكأن السلام مسيطر، ولا وجود لأية حرب. وسمعنا ضجة صدرت من جانب الألمان، فقد شاهدوه. وجنودنا أيضاً يتبادلون الحديث فيما بينهم: «لو هرب، لحرمنا من حساء لذيذ».

* «لا يمكننا إصابته بالبندقية الآلية».

شاهدنا الجنود: «انطلقت القنَّاصات. سيأتين به... هيَّا، أيَّتها الفتيات!».

لم أجد الوقت للتفكير، سدَّدت كعادتي وأطلقت النار. انثنت أقدام المهر، ووقع على جنبه. بدا لي وكأنها هلوسة، ولكن بدا لي أيضاً أنه كان يصهل.

بعد ذلك، أدركت: لماذا قتلته؟ كان جميلاً، وأنا قتلته، من وراء ظهري، صدرت صيحة إعجاب. نظرت إلى الخلف، كانت شريكتي الجديدة.

- «ماذا بك؟» سألتها.

* «يا حسرتاه على المهر!» كانت عيناها تذرفان دموعاً.

- «يا لطبيعتك المرهفة! ونحن جائعون منذ ثلاثة أيَّام. شعرتِ بالحسرة والشفقة، لأنك لم تدفني أحداً بعد. حاولي أن تسيري في اليوم ثلاثين كيلومتراً مع المعدات القتالية وأنت جائعة. علينا أن نطرد الغزاة أوَّلاً، وبعدها سوف نتعاطف. سنشفق فيما بعد... فهمت، فيما بعد».

نظرت إلى الجنود، كانوا يتحرَّشون بي وحدي ويصرخون، ويرجون.

Twitter: @ketab_n

للتو... قبل بضع دقائق... لا أحد ينظر إليَّ، وكأنهم لا يلاحظوني. كل منهم انشغل بعمله. يدخِّنون، يحفرون... أحد منهم يشحذ شيئاً ما... ولم يلتفت أحد منهم صوبي. لم يبقَ أمامي سوى أن أجلس وأبكي وأسترسل في البكاء! وكأنني سلَّاخة، قتل أيٍّ كان لا يكلِّفني شيئاً. في حين أنني ومنذ طفولتي كنت أحبُّ كلَّ كائن حي. كنت في المدرسة عندما مرضت بقرتنا فذبحوها. بكيتها يومين كاملين، دون فتور. وهنا - بوم! أطلقت النار على مهر بريء. ويمكنني القول... إنه المهر الأوَّل الذي رأيته خلال عامين...

في المساء، حملوا طعام العشاء. هتف الطبَّاخون: «أحسنت القنَّاصة صنعاً! اليوم لحم في القدر». وضعوا لنا شرائح اللحم وخرجوا. والفتيات عندي جالسات، لا يقاربن الطعام. أدركت المسألة؛ وعلى الفور ذرفت دموعي غزيرة من مخبئها... أسرعت الفتيات نحوي، وهدأنني بصوت واحد. وأمسكن بشرائح اللحم بشراهة، وأخذن يأكلن...

أجل، لقد حدث هذا... نعم... لا يمكن أن أنساه.

ليلاً، كنا نتبادل الأحاديث. عن أي شيء نتحدَّث؟ عن البيت طبعاً، كلُّ واحدة تتحدَّث عن أمِّها، فمن كان لديه أب أو إخوة كانوا يحاربون. كنا نتحدَّث عن حالنا بعد الحرب. كيف سنتزوَّج، وهل سيحبُّنا أزواجنا. ضحك قائد الفوج قائلاً: «آه، أيَّتها الفتيات! أنتن في وضع جيِّد، وبعد الحرب سنخاف من الزواج منكن. أيديكن ماهرة، ستسدِّدن الصحون على الجبين وتقتلننا».

أنا لم ألتقِ بزوجي في أثناء الحرب، مع أننا خدمنا في فوج واحد. كان مصاباً بجرحين، ورجَّة دماغية شديدة. لقد شارك في الحرب من البداية وحتى النهاية، وبعد الحرب بقي عسكرياً طيلة حياته. لا حاجة إلى أن أشرح له ما هي الحرب، ومن أين عدت، وكيف رجعت. وإذا ما تحدَّثت

Twitter: @ketab_n

بصوت عال، كان إمَّا لا يلاحظ، أو يلوذ بالصمت. وأنا أعذره وأسامحه. وقد تعلَّمت هذا أيضاً. ربَّيت طفلين، تخرَّجا من الجامعة. ابن وابنة.

وماذا أروي لكِ أيضاً؟ تسرَّحت من الجيش، قدمت إلى موسكو. وبعد موسكو، كان لا بدَّ من وسيلة نقل والسير على القدمين عدَّة كيلومترات. الآن، توجد محطَّة مترو، أمَّا آنذاك فكانت مزارع كرز قديمة، ووديان عميقة. وكان ثمَّة واد كبير، وكان عليَّ اجتيازه. وكان يحلُّ الظلام ريثما أقطعه. بالطبع، كنت أخشى اجتياز هذا الوادي. أقف، ولا أعرف ماذا أفعل: إمَّا أن أعود وأنتظر بزوغ الفجر، وإما أن أستجمع شجاعتي وأخاطر. من المضحك أن أتذكَّر هذا الآن: فالجبهة أصبحت من ذكريات الماضي، وما الذي لم أره: الجثث وأشياء كثيرة، وهنا أشعر بالرهبة من اجتياز الوادي. ما زلت حتى الآن أذكر رائحة الجثث المختلطة برائحة التبغ. لكنني بقيت كما كنت فتاة صغيرة. في عربة القطار، عندما ركبنا القطار في طريق العودة، عدنا إلى بيوتنا من ألمانيا، خرج فأر من حقيبة ظهر أحدهم، فقفزت جميع فتياتنا، وعلى رفوف عربة القطار العلوية كانت الخذاريف تصرصر. وكان معنا نقيب، فاستغرب قائلاً: «لدى كلِّ واحدة منكنَّ وسام، وتخفن من الفئران!».

لحسن حظي، ظهرت شاحنة. فكَّرت في نفسي: سأرفع يدي.

توقَّفت الشاحنة. فصرخت: «أنا ذاهبة إلى دياكوفسكي».

* «وأنا إلى دياكوفسكي» فتح باب السيَّارة سائق شاب.

صعدت إلى قمرة القيادة، ووضع السائق حقيبتي في ظهر الشاحنة، وانطلقنا. وجدني مرتدية للبزَّة العسكرية، وعلى صدري الميداليات. فسألني: «كم ألمانياً قتلتِ؟».

* «خمسة وسبعين» أجبته.

Twitter: @ketab_n

قال ضاحكاً: «تكذبين. ربَّما لم تري بعينيك ألمانياً واحداً».

وهنا، تعرَّفت عليه: «أنت كولكا تشيجوف؟ أنت هو؟ أتذكَّر، لقد ربطت لك ربطة العنق الحمراء؟». كنت قد عملت فترة رائدة طلائع في المدرسة.

* «أنت ماروسكا؟».

- «نعم...».

* «حقيقة؟». قال، موقفاً السيَّارة.

- «أوصلْني إلى بيتي. ما بك أوقفت السيَّارة في منتصف الطريق؟» وظهرت الدموع في عينيَّ. وشاهدت الدموع تظهر في عينيه أيضاً! أيُّ لقاء هذا؟!

وصلنا إلى البيت، فركض مع الحقيبة إلى أمِّي، راقصاً مع الحقيبة: «أسرعي، لقد أحضرت لك ابنتك!».

لا يمكن أن أنسى... وكيف يمكن أن أنسى هذا اللقاء؟

عدت، وعليَّ أن أبدأ حياتي من جديد. تعلَّمت السير بالحذاء النسائي، ثلاثة أعوام كنت أرتدي البوط العسكري. اعتدت على أشرطة البوط المرفوعة دوماً، وبدا لي الآن، وكأن اللباس ثقيل، كالكيس الثقيل، وشعرت بعدم الارتياح. كنت أنظر برعب إلى التنُّورة... إلى الفستان... في الجبهة كنا دوماً بالبنطلون، نغسله مساءً، ونضعه تحتنا، وننام عليه، فيصبح وكأنه مكويّ. حقيقة، لا يكون جافَّاً تماماً، بل مغطَّى بطبقة من جليد. وكيف عليَّ أن أتعلَّم المشي بالتنُّورة؟ أشعر وكأن رجليَّ مشبكتان. أسير في الشارع بالفستان المدني، وبالحذاء النسائي، أصادف ضابطاً، وجهاً لوجه، فترتفع يدي بصورة عفوية لأداء التحية. اعتدنا: الحصَّة الغذائية العسكرية مجانية من الدولة. الآن، أذهب إلى المخبز آخذ من الخبز ما أحتاجه، ثمَّ أنسى

Twitter: @ketab_n

تسديد ثمنه. بائعة الخبز أصبحت تعرفني، وتدرك السبب وتخجل من مطالبتي، وأنا قد أخذت الخبز وغادرت المخبز. لكن ضميري يؤنِّبني فيما بعد، في اليوم التالي آخذ ما أحتاجه من الخبز وأدفع مرَّة واحدة عن كلٍّ ما أخذته. كان عليَّ أن أتعلَّم من جديد كلَّ ما هو عادي، وأن أتذكَّر الحياة العادية، الطبيعية! من أشاركه مشاعري؟ أركض إلى جارتي...إلى أمِّي...

فيمَ أفكِّر أيضاً؟ اسمعي. كم استمرَّت الحرب؟ أربع سنوات. فترة طويلة جدَّاً دون طيور أو ورود. كانت موجودة، بالطبع، لكنني لا أذكرها. نعم، نعم... حقيقة، أمر غريب؟ وهل يمكن أن تكون أفلام حربية ملونة؟ إنها كلها سوداء. باستثناء الدم، له لون آخر. الدم أحمر دوماً...

منذ فترة قصيرة، منذ ثماني سنوات فقط، عثرنا على زميلتنا ماشنكا آلخيموفا. أُصيب قائد مدفعية الفرقة بجرح بليغ، فزحفت لإنقاذه. وأمامها تماماً انفجرت قذيفة... استشهد قائد المدفعية، لم تتمكَّن من الوصول إليه، وتمزَّقت قدماها بشدَّة، بحيث وجدنا صعوبة كبيرة في ربطهما. عانينا الأمرين، بطريقة أو بأخرى. حملناها على النقَّالة إلى الكتيبة الصحِّية، كانت ترجونا: «صديقاتي، أطلقن عليَّ النار... لا أريد أن أحيا هكذا». هكذا كانت ترجونا وتتضرَّع إلينا... هكذا! أرسلناها إلى المستشفى العسكري، ونحن تابعنا هجومنا. وعندما بدأنا نبحث عنها لم نجد لها أثراً. ولم نعد نعرف أين هي وماذا حصل لها؟ سنوات طويلة... كتبنا لمختلف الجهات المسؤولة، ولم نجد أي جواب إيجابي عند أيٍّ كان. وقد ساعدنا في هذا متتبِّعو الأثر من روَّاد المدرسة رقم 73 في موسكو. هؤلاء الشباب والشابَّات...عثروا عليها بعد انقضاء ثلاثين عاماً على الحرب. عثروا عليها في دار المقعدين، في مكان ما في منطقة آلتاي. بعيداً جدَّاً. وطيلة هذه المدة، كانت تنتقل من مشفى إلى آخر، وأُجريت لها عشرات العمليات الجراحية. إنها لم تعترف حتى لأمِّها أنها على قيد الحياة... اختفت عن

Twitter: @ketab_n

أعين الجميع... أحضرناها إلى مكان لقائنا، وغرقنا جميعنا في الدموع. ثمَّ أخذناها لأمِّها... التقيا معاً بعد أكثر من ثلاثين عاماً... كادت أمُّها أن تفقد عقلها: «يا للسعادة! حسناً أن قلبي لم ينفجر من الكارثة قبل أن أراكِ. يا للسعادة!». أمَّا ماشنكا فكانت تردِّد: «الآن لا أخشى لقاءك. لقد أصبحت عجوزاً». نعم... باختصار؛ تلك هي الحرب...

أذكر، أستلقي على الأرض في المخبأ. لا أنام. في مكان ما، تُسمع أصوات المدفعية. جنودنا يطلقون النار. لا أريد أن أموت... أقسمت بشرفي العسكري، بأنني سأضحِّي بحياتي إذا ما تطلَّب الأمر ذلك، لكنني لا أريد أن أموت، لا أريد. ولكن، حتى إذا ما عدت حيةً من هناك، ستبقى روحكِ تتألَّم. والآن أفكِّر: الأفضل أن أصاب بجرح في رجلي أو في يدي، وليصاب جسدي بالمرض. وليس روحي. لقد كبرت واستطالت قامتي خلال الحرب. وقد قاست أمِّي طولي... لقد ازداد طولي عشرة سنتمترات...

عند الوداع، مدَّت لي بحرج يديها الدافئتين، وعانقتني قائلة: «سامحيني...».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ستكبرن أيَّتها الفتيات...
ما زالت أعوادكنَّ خضراء!

أصوات...عشرات الأصوات... انهالت عليَّ فاتحة حقيقة غير مألوفة، وهذه الحقيقة لم تعد تسعها بأي شكل من الأشكال الصيغة القصيرة والمعروفة منذ الطفولة: نحن انتصرنا. لقد حدث تفاعل كيميائي فوري: لقد ذابت الحماسة في النسيج الحي للمصائر البشرية، وتبيَّن أنها السمة الحية الأقصر عمراً. المصير، هذا عندما يكمن هناك شيء خلف الكلمات.

ما الذي أريد سماعه بعد عشرات السنين؟ هل يهمُّني كيف وماذا حدث بالقرب من موسكو أو بالقرب من ستالينغراد، ووصف العمليات القتالية، والأسماء المنسية للقمم والذرى التي تم الاستيلاء عليها؟ هل تهمُّني روايات عن حركة القطاعات والجبهات، عن الانسحاب والهجوم، عن عدد القطارات المنسوفة وعن غارات الأنصار، عن كلِّ ما كُتبتْ عنه آلاف المجلَّدات؟

لا، أنا أبحث عن شيء آخر. إنني أجمع ما يمكن تسميته بمعرفة الروح. أتعقَّب آثار الحياة الروحية، أقوم بتسجيل خلجات النفس والروح. إن طريق الروح، بالنسبة إليَّ، أهم من الحدث نفسه. وليس يهمُّنا كثيراً،

Twitter: @ketab_n

وليس عندي في المقام الأوَّل "كيف حدث هذا؟"، بل يقلقني ويخيفني شيء آخر: "ما الذي حدث مع هذا الإنسان؟ ماذا رأى هناك وماذا أدرك؟ عن الحياة وعن الموت عامَّة؟ وأخيراً، عن نفسه وذاته؟". إنني أكتب تاريخ المشاعر، تاريخ النفس... لا يهمُّني تاريخ الحرب أو الدولة ولا حياة الأبطال، بل تاريخ الإنسان العادي الصغير، الذي انتُزِع من الحياة إلى لجَّة البطولة في حدث كبير، في التاريخ الكبير.

فتيات العام الحادي والأربعين... أوَّل ما أريد السؤال عنه: من أين جئن، من هنَّ؟ لماذا كانت أعدادهنَّ كبيرة؟ كيف عزمن، جنباً إلى جنب مع الرجال، على أخذ البندقية في اليد، وإطلاق النار، والمناورة، ونسف الجسور، ورمي القنابل، والقتل؟

هذا السؤال نفسه، ومنذ القرن التاسع عشر، كان قد طرحه الشاعر الروسي الكبير بوشكين، عندما نشر في مجلة "المعاصر" مقطعاً من مذكَّرات الفارسة – الفتاة ناديجدا دوروفا، التي شاركت في الحرب ضد نابليون: ما هي الأسباب التي أرغمت فتاة شابّة من أسرة نبيلة كريمة على ترك بيت أهلها، والابتعاد عن بنات جنسها، وأخذ أعمال وواجبات على عاتقها تخيف الرجال، والذهاب إلى ساحة المعارك – وأية معارك! معارك نابليونية. ما الذي دفعها؟ أحزان قلبية مكتومة؟ خيال مريض ملتهب؟ ميل ولَّادي لا يقهر؟ حب؟

ما هو، إذاً؟ بعد أكثر من مئة عام يُطرح السؤال نفسه...

حول القَسَم والصلاة

أريد أن أتكلَّم... أن أتكلَّم! كل شيء، حتى النهاية! أخيراً، يريدون الإصغاء إلينا. كم صمتنا سنين طويلة! حتى في بيوتنا كنا نصمت. عشرات

Twitter: @ketab_n

السنين. العام الأوّل، عندما عدت من الحرب، كنت أتحدَّث كثيراً. لم يكن هناك من يسمعني، فلذت بالصمت... حسنٌ أنك أتيتِ. طيلة الوقت كنت أنتظر أحداً ما، كنت أعرف، أن أحداً ما سيأتي. يجب أن يأتي. كنت شابَّة صغيرة السن آنذاك، في مقتبل شبابي. للأسف، أتعرفين لماذا؟ حتى أنني كنت عاجزة عن الحفظ...

قبل بضعة أيّام من الحرب، تحدَّثت مع صديقتي عن الحرب. كنا واثقات - لَن تكون هناك أية حرب. ذهبت وصديقتي إلى دار السينما، قبل عرض الفيلم، عُرضت المجلة الإخبارية: ريبنتروب ومولوتوف[1] يتصافحان. ورسخت في ذهني عبارة المذيع، أن ألمانيا هي الصديق المخلص للاتِّحاد السوفييتي.

لم يمضِ شهر واحد، حتى أصبحت القوّات الألمانية على مقربة من موسكو...

عندنا ثمانية أطفال في الأسرة، الأربعة الكبار بنات، أنا كنت البنت الكبرى. جاء أبي ذات يوم من العمل وهو يبكي: «كنت قد فرحت ذات يوم، أن الكبار من أولادي فتيات. جاهزات للخطبة. والآن، من كلِّ أسرة أحد ما يذهب إلى الجبهة، وليس عندنا من أحد... أنا كبير السن، لن يأخذوني للقتال، وأنتنَّ فتيات، أمَّا الصبيان فما زالوا صغاراً». عانينا كثيراً من هذا في أسرتنا.

قاموا بتنظيم دورات للممرِّضات، واقتادنا إليها أبي، أنا وأختي. كان عمري خمسة عشر عاماً، وأختي أربعة عشر عاماً. وقال: «هذا كل ما

1- ريبنتروب: وزير خارجية ألمانيا النازية. مولوتوف: وزير خارجية الاتحاد السوفييتي. وقعا معاهدة عدم اعتداء بين البلدين عام 1941، لكن ألمانيا الهتلرية نكثت المعاهدة وهجمت على الاتحاد السوفييتي بعد فترة قصيرة جداً من توقيعها. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

يمكنني تقديمه من أجل النصر: بناتي». لم تكن هناك آنذاك فكرة أخرى.

بعد عام وجدت نفسي في الجبهة...

ناتاليا إيفانو فنا سير غييفا، ممرِّضة

في الأيّام الأولى... سادت الفوضى والارتباك في المدينة. كانوا يمسكون بالجواسيس باستمرار. كان أحدنا يقنع الآخر: «يجب عدم الخضوع للاستفزاز». لم يكن هناك أحد يجرؤ على التفكير في أن جيشنا تكبَّد هزيمة ماحقة، ودُمِّر خلال بضعة أسابيع. كانوا يعلِّموننا أننا سوف نحارب في أرض العدو. لن نسلِّم شبراً واحداً من أراضينا... وفجأة نتراجع.

قبل الحرب، سرت شائعات تقول، أن هتلر يستعد للهجوم على الاتِّحاد السوفييتي، لكن هذه الشائعات كانت تُقاطع. تُقاطع من الأجهزة المختصَّة... أنت تفهمين، أية أجهزة هذه؟ المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية... ضبَّاط الأمن... وإذا ما كان الناس يتهامسون، ففي بيوتهم، في المطبخ، أمَّا في الشقق الجماعية ففي غرفهم وحدها، خلف الأبواب المغلقة، أو في الحمَّام بعد فتح صنبور الماء. ولكن عندما نطق ستالين... خاطبنا قائلاً: «إخوتي وأخواتي...». هنا نسي الجميع استياءهم... خالي، شقيق أمِّي، سجن في معسكر الاعتقال، كان عاملاً في السكك الحديدية، شيوعي قديم. اعتُقل في مركز عمله... هل فهمت من هم المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية... كنا نثق ثقة كبيرة بخالنا العزيز، وكنا نعرف أنه بريء. كنا نثق به. وكانت لديه مكافآت منذ الحرب الأهلية... ولكن، بعد خطبة ستالين، قالت أمِّي: «سندافع عن وطننا، وبعدها سنتفاهم». الجميع كانوا يحبُّون وطنهم.

Twitter: @ketab_n

ركضت على الفور إلى دائرة التجنيد. وكنت مريضة بالتهاب الحنجرة، ولم تنخفض حرارتي المرتفعة بعد. لكنني لم أستطع الانتظار...

يلينا أنطونوفنا كودينا، جندية، سائقة

في أسرتنا، لم يكن هناك أبناء عند الوالدة... تربَّينا نحن خمس بنات. عندما أعلنوا: "الحرب!" كانت لدي أُذن موسيقية رائعة. كنت أحلم بالانتساب للكونسرفاتوار. وقرَّرت أن أذني الموسيقية ستكون مفيدة في الجبهة، وسأكون عاملة لاسلكي.

نزحنا إلى ستالينغراد. وعندما حوصرت ستالينغراد، ذهبنا إلى الجبهة تطوُّعاً نحن جميعاً. الأسرة كلُّها: الأمُّ وبناتها الخمس، بينما كان الوالد يحارب قبل ذلك...

أنطونينا مكسيموفنا كنيازيفا، مجَّندة برتبة رقيب، عاملة لاسلكي

رغبة واحدة كانت لدى الجميع: الوصول إلى الجبهة... رهيب؟ رهيب، بالطبع... ومع ذلك ذهبنا إلى دائرة التجنيد، فقيل لنا: «اكبرن قليلاً، أيَّتها الفتيات، لا تزال أعوادكنَّ خضراء». كانت أعمارنا ستة عشر عاماً، وسبعة عشر عاماً. لكنني حصلت على ما أُريد، وقُبلت في التجنيد. أردت وصديقتي الانتساب إلى مدرسة القنَّاصة، ولكن قيل لنا: «ستكوننّ مراقبات حركة المرور. لا وقت لتدريبكن».

بقيت أمِّي حارسة على المحطَّة، ريثما يأخذوننا للجبهة. شاهدتْ أمِّي كيف توجَّهنا إلى عربة القطار، فأعطتنا فطيرة، وعشر بيضات، وأُغمي عليها...

تاتيانا يفيموفنا سيميونوفا، مجندَّة برتبة رقيب، مراقبة حركة المرور

Twitter: @ketab_n

العالم تبدَّل على الفور... أذكر الأيَّام الأولى... كانت أمِّي تقف أمام النافذة وتصلِّي. لم أكن أعرف أن أمِّي تؤمن بالله. كانت تتضرَّع طويلاً إلى السماء...

تمَّ تجنيدي، كنت طبيبة. ذهبت للحرب انطلاقاً من الشعور بالواجب. أمَّا أبي، فكان سعيداً لأن ابنته على الجبهة تدافع عن الوطن. ذهب أبي إلى دائرة التجنيد باكراً. ذهب من أجل الحصول على شهادتي، واتَّجه باكراً صباحاً، خصوصاً، كي تعرف القرية كلُّها أن ابنته في الجبهة...

يفروسينيا غريغوريفنا بروس، ضابط برتبة نقيب، طبيبة

الصيف... آخر أيَّام السلم... مساء توجَّهنا إلى حفلة الرقص. نحن في عامنا السادس عشر. كنا نسير مجموعات، نودِّع إحدانا، ثمَّ نودِّع الأخرى. لم تكن أيُّ منا تنفصل عن رفيقها. نسير، مثلاً ستَّة شبَّان وستُّ شابَّات.

وبعد أسبوعين، هؤلاء الشباب المجنَّدون، طلَّاب مدرسة المدرَّعات، الذين كانوا يرافقوننا إلى حفلة الرقص، جيء بهم مقعدين بالضمادات. لقد كان هذا مريعاً! يا للهول! إذا ما سمعت أحداً ما يضحك، لم يكن في استطاعتي مسامحته. كيف يمكن الضحك، كيف يمكن الشعور بفرح لسبب ما، حيث تدور رحى هذه الحرب؟

سرعان ما رحل أبي إلى قوَّات المقاومة المساندة. بقينا في البيت أنا وشقيقاي الصغيران. شقيقاي كانا في السابعة والثالثة من العمر. قلت لأمِّي: «سأذهب إلى الجبهة». شرعت أمِّي بالبكاء، وأنا أخذت أبكي ليلاً. لكنني هربت من البيت... كتبت لها رسالة من الوحدة العسكرية. ولم يكن في إمكانها إعادتي من هناك بأيِّ شكل...

ليليا ميخائيلوفنا بوتكو، ممرِّضة في قسم الجراحة

Twitter: @ketab_n

أمر عسكري: انتظم في الصف... وقفنا في صفٍّ واحد حسب الطول، وأنا كنت أصغر الجميع. سار القائد. واقترب مني: «من هذه الفتاة الصغيرة؟ ماذا ستفعلين في الجبهة؟ ربَّما تعودين إلى أمِّك لتكبري؟».

لم يكن لديَّ أم... لقد استُشهدت في أثناء القصف...

الانطباع الأقوى، الذي بقي في ذاكرتي طيلة حياتي... كان في العام الأوَّل، عندما كنا نتراجع... لقد اختبأنا خلف الشجيرات، رأيت كيف هجم جنديٌّ من فرقتنا ببندقيَّته على الدبَّابة الألمانية وبدأ يضرب درع الدبَّابة بأخمص بندقيَّته. بقي يضربها ويبكي إلى أن سقط قتيلاً؛ إلى أن قتله الألمان بأسلحتهم الآلية. في العام الأوَّل كنا نحارب ببنادقنا ضدَّ الدبَّابات والمدرَّعات...

بولينا سيميونوفنا نوزدراتشيفا، معاونة طبِّيَّة

رجوت أمِّي... تضرَّعت إليها: «لا تبكي...». كان الوقت مساءً وليس ليلاً، لقد ساد العويل... أمَّهاتنا اللواتي ودَّعن بناتهن، لم يكنَّ يبكين، كُنَّ يعوِلن. أمِّي وقفت، وكأنها من حجر. كانت متماسكة الأعصاب، كانت تخشى ألا أصرخ وأشهق. أنا كنت ابنتها المدلَّلة. أمَّا هنا فقصُّوا شعري كالفتيان، ولم يتركوا سوى غرَّة صغيرة. والداي عارضا التحاقي، أمَّا أنا فكنت أعيش رغبة وحيدة: إلى الجبهة! إلى الجبهة، إلى الجبهة! وهذه الملصقات، المعلَّقة الآن في المتحف: "الوطن-الأمُّ تناديكم!"، "ماذا قدَّمتَ للجبهة؟" كان لها أثراً كبيراً في نفسي. كانت دوماً تتراءى أمام عينيَّ. وكذلك الأغاني الوطنية: "انهضي أيَّتها البلاد الكبيرة... انهضي إلى معركة الموت".

عندما انطلقنا، أذهلني أن جثث القتلى ملقاة على أرصفة محطَّات

Twitter: @ketab_n

القطار. لقد بدأت الحرب حقيقة... لكن روح الشباب سيطرت علينا، وكنا ننشد ونغنّي أغانيَ ومقطوعات شعبية.

بحلول نهاية الحرب، كان جميع أفراد أسرتنا قد حاربوا. أبي، أمّي، أختي. كانوا من قوّات السكك الحديدية. حيث كانوا يسيرون خلف قوّاتنا، ويصلحون السكك الحديدية فوراً. وحاز الجميع على ميدالية "من أجل النصر": أبي، وأمّي، وأختي وأنا...

يفغينيا سرغييفنا سابرونوفا، رقيب في الحرس، ميكانيكية طائرات

قبل الحرب كنت أعمل في الجيش عاملة سنترال... كانت وحدتنا في مدينة بوريسوف، حيث وصلتها الأعمال القتالية في الأسابيع الأولى. أوقفنا مدير سلاح الإشارة جميعاً في صفٍّ واحد. لم نكن عسكريين ولا جنوداً. كنا عاملات مدنيات.

قال لنا مخاطباً: «بدأت حرب قاسية. ستكون صعبة بالنسبة إلى الفتيات. وقبل أن يفوت الأوان، يمكن لمن ترغب منكن في الذهاب إلى بيتها أن تفعل. ومن ترغب منكن في الالتحاق بالجبهة: خطوة إلى الأمام...».

جميع الفتيات، بقلب واحد، خطون خطوة إلى الأمام. كنا عشرين فتاة. وكلُّنا كنا مستعدَّات للدفاع عن الوطن. قبل الحرب، لم تكن تروقني حتى الكتب والروايات الحربية، كنت أحبُّ قراءة روايات الحب. أمَّا هنا؟!

كنا نجلس خلف أجهزة الهاتف والمقاسم الهاتفية أيَّاماً، أيَّاماً كاملة. وكان الجنود يحضرون لنا شرحات من اللحم فنعضُّها، وننام في موقعنا، خلف أجهزة الاتِّصالات، ثمَّ نضع السمَّاعات على آذاننا. لم يكن لدينا وقت لغسيل رؤوسنا، عندها طلبت من رفيقاتي: «أيَّتها الفتيات، اقصصنَ لي جدائلي...».

غالينا دميتريفنا زابولسكايا، عاملة مقسم

Twitter: @ketab_n

ذهبنا مراراً إلى دائرة التجنيد...

وعندما قدِمنا للمرَّة الأخيرة، ولا أذكر عددها، كاد مدير التجنيد أن يطردنا: «لو كان لديكنَّ أيُّ اختصاص... لو كنتنَّ ممرِّضات أو سائقات... لكن ما الذي تُتقنَّ عمله؟ ماذا ستفعلن في الحرب؟». لكننا لم نكن نفهم. لم نطرح هذا السؤال على أنفسنا: ماذا سنفعل هناك؟ أردنا أن نحارب، وهذا كلُّ شيء. لم نكن نفهم، أن تحارب يعني أن تفعل شيئاً. شيئاً محدَّداً، محسوساً. وقد أدخل الحزن إلى قلوبنا بسؤاله.

تسجَّلت مع مجموعة من الفتيات في دورة الممرِّضات. قيل لنا هناك إن علينا أن ندرس ستَّة أشهر. قرَّرنا في أنفسنا: لا، هذه فترة طويلة، لا تناسبنا. كانت هناك دورة مدَّتها ثلاثة أشهر. حقيقة، حتى الأشهر الثلاثة اعتبرناها فترة طويلة. وكانت هذه الدورة قد شارفت على نهايتها. طلبنا أن يضمُّونا إلى هذه الدورة نفسها، ويدخلونا إلى الامتحانات. كان قد بقي شهر على انتهاء الدورة. في الليل كنا نجري التدريبات العملية في المستشفى العسكري، وفي النهار كنا ندرس. وبلغ المجموع ما يزيد قليلاً على الشهر الواحد.

أرسلونا إلى مستشفى عسكريٍّ وليس إلى الجبهة. كان هذا في أواخر آب/ أغسطس في العام الحادي والأربعين... المدارس، المستشفيات، الأندية كانت تغصُّ بالجرحى. بدون أية وثائق، وبدون أيِّ شيء، هربت على قطار صحِّي، بعد أن تركت ورقة كتبت عليها: لن أكون في المناوبة. أتوجَّه إلى الجبهة.

وهذا كلُّ شيء...

يلينا بافلوفنا ياكوفليفا، مجنَّدة برتبة رقيب، ممرِّضة

Twitter: @ketab_n

كان لديَّ موعد في ذلك اليوم... طِرت إلى مكان الموعد على جناحين. كنت أظنُّ أنه في هذا اليوم سيعترف: «أحبُّكِ»، في حين أنه جاء حزيناً: «فيرا، إنها الحرب! سيأخذوننا من مقاعد الدراسة مباشرة إلى الجبهة». كان يدرس في الكلِّية الحربية. تصوَّرت نفسي على الفور في دور جان دارك. إلى الجبهة وحدها لا ينقصني سوى البندقية في اليد. علينا أن نكون معاً، أن نكون معاً حتماً! ركضت إلى دائرة التجنيد، لكنهم هناك ردُّوا بحزم: «لا نحتاج إلا إلى أطبَّاء. ولا بدَّ من الدراسة ستَّة أشهر». ستَّة أشهر - إنها فترة طويلة! إن حبِّي لا يقبل الانتظار...

أحدهم أقنعني بأن عليَّ أن أدرس. حسناً، سأدرس، ولكن ليس في دورة الممرِّضات... أريد أن أتعلَّم فنون الحرب، أن أتعلَّم إطلاق النار، مثل حبيبي. كنت متهيِّئة لهذا. في مدرستنا كثيراً ما كان يلقي الكلمات والخطب أبطال الحرب الأهلية، وأولئك الذين حاربوا في إسبانيا. كانت الفتيات يشعرن بأنفسهن بأنهن على قدم المساواة، مثل الشباب، لم يكونوا يفصلون بيننا. بل على العكس، منذ الطفولة، كنا نسمع في المدرسة: «الفتيات، في دور سائقات الجرَّارات!»، «الفتيات لقيادة الطائرات!». أضفْ إلى ذلك، الحب! حتى أنني تخيَّلت كيف سأموت معه، كيف سنموت معاً، في معركة واحدة...

كنت أدرس في المعهد المسرحي. كنت أحلم بأن أصبح ممثِّلة مسرحية. كان مَثَلي الأعلى لاريسا ريسنير. المرأة - المفوَّضة في السترة الجلدية... كان يروقني، أنني جميلة...

فيرا دانيلوفتسيفا، رقيب، قنَّاصة

أصدقائي جميعاً، كانوا أكبر مني سنّاً، أخذوهم جميعاً إلى الجبهة...

Twitter: @ketab_n

كنت أبكي بكاء مُرّاً، لأنني بقيت وحيدة. لم يأخذوني إلى الجبهة. قالوا لي: «أيّتها الفتاة، عليك أن تدرسي».

لكننا لم ندرس طويلاً. جمعنا عميد الكلّية وقال: «أيّتها الفتيات، بعد انتهاء الحرب ستكملن دراستكن. الآن يجب الدفاع عن الوطن».

ودّعنا إلى الجبهة رؤساء الأقسام من المعمل. كان الطقس صيفاً. أذكر أن الخضار والأزهار كانت تحيط بعربات القطار، وقد قدّموا لنا الهدايا. وكانت حصّتي علبة بسكويت منزلي لذيذ، وربطة جميلة. كنت أرقص على رصيف المحطّة رقصة غوباك الأوكرانية، بحماسة كبيرة.

سرنا في القطار عدّة أيّام... خرجت مع الفتيات عند محطّة من المحطّات مع دلو لنملأه ماء. نظرنا من حولنا وتأوّهنا: كانت عربات القطار تظهر واحدة إثر أخرى، وفيها فتيات فقط. ينشدن، ويلوّحن لنا بجدائلهنّ وبعمراتهن. وأدركنا أن هناك نقصاً في الرجال، بين من قُتل واستشهد، أو أُسر. والآن نحن نقوم مقامهم.

كتبت أمّي لي دعاء – صلاة. فوضعته مع الميدالية في رقبتي، وربّما يكون قد ساعدني – فقد عدتُ إلى البيت. كنت دائماً أقبّل الميدالية قبل كلّ معركة...

آنّا نيكو لايفنا خرولوفيتش، ممرّضة

أنا كنت قائدة طائرة...

عندما كنت في المدرسة في الصفّ السابع، حطّت طائرة عندنا. حدث هذا في تلك السنوات، تصوّري، في عام 1936. كان هذا في تلك السنوات أعجوبة. وعندها ظهر هذا النداء: «أيّتها الشابات، أيُّها الشبّان – إلى الطائرة!». وأنا، بصفتي شبيبية، كنت في الصفوف الأولى. سجّلت

Twitter: @ketab_n

على الفور في نادي الطيران. حقيقة، أبي وقف ضدَّ خطوتي هذه قطعياً. قبل هذا، كانت أسرتنا تتوارث منذ عدَّة أجيال حرفة عُمَّال التعدين – في فرن الانفجار. وكان والدي يعتقد أن عمل التعدين هو عمل نسائي، أمَّا مهنة الطيَّار فليست كذلك. عرف رئيس النادي بذلك، وسمح لوالدي بصعود الطائرة. وهذا ما فعلته. ارتقينا مع أبي في الجو، ومنذ تلك الأثناء لاذ بالصمت. لقد أُعجب بهذه المهنة. أنهيت الدراسة في النادي بتفوُّق، وقفزت بصورة جيِّدة بالمظلَّة. وتمكَّنت قبل الحرب من الزواج، ورُزقت بطفلة.

منذ أيَّام الحرب الأولى، جرى تعديل في نادي الطيران عندنا: فقد أخذوا الرجال إلى الجبهة، ونحن النساء حللنا محلَّهم. كنا ندرِّب الطلَّاب. كانت الأعمال كثيرة، من الصباح حتى المساء. زوجي كان من أوائل من التحق بالجبهة. بقيت لديَّ منه صورة: حيث نقف نحن الاثنان أمام الطائرة، في لباس الطيَّارين... عشت الآن مع ابنتي، كنا نعيش في المعسكرات دوماً. وكيف عشنا؟ كنت أغلق عليها الباب، أقدِّم لها العصيدة، ومنذ الرابعة صباحاً أحلِّق بالطائرة. أعود إلى البيت مساء، حيث كانت تأكل العصيدة أو لا تأكلها، لكن ثيابها مبقَّعة بهذه العصيدة. ولم تكن تبكي أبداً، بل تنظر إليَّ. عيناها كبيرتان، كعيني زوجي...

بحلول نهاية العام الحادي والأربعين، أرسلوا إليَّ ورقة النعي: استُشهد زوجي بالقرب من موسكو. كان قائد السرب. كنت أحبُّ ابنتي، لكنني أرسلتها إلى أهلي. وبدأت مطالبتي بالالتحاق بالجبهة...

في الليلة الأخيرة، أمضيت ليلتي كلَّها جاثية على ركبتي أمام سرير طفلتي...

أنطونينا غريغوريفنا بونداريفا، ضابط برتبة ملازم حرس، طيَّار متقدِّم

Twitter: @ketab_n

أكملت عامي الثامن عشر... أنا فرحة، اليوم عيدي. ومن حولي يصرخ الجميع: «الحرب!». أذكر كم ذرف الناس من الدموع! كلُّ من كنت ألتقيهم في الشارع كانوا يبكون. حتى أن بعضهم كان يتضرَّع ويصلِّي. كان أمراً غير مألوف... الناس في الشوارع يصلُّون ويرسمون علامة الصليب على صدورهم. لقد علَّمونا في المدرسة أن لا وجود لله. ولكن، أين دبَّاباتنا وطائراتنا الجميلة؟ كنا جميعاً نراها في الاستعراضات العسكرية، ونفتخر بها. أين قادة أفواجنا؟ أين الفرسان؟ كانت هناك، بالطبع، لحظة من الارتباك والذهول. بعدها بدأنا نفكِّر في شيء آخر: كيف ننتصر؟

كنت أدرس في السنة الثانية من مدرسة التوليد والقبالة في مدينة سفردلوفسك. ففكَّرت على الفور: طالما أنها الحرب، فعليَّ الذهاب إلى الجبهة. كان والدي شيوعياً بتاريخ كبير، معتقلاً سياسياً. كان يعلِّمنا منذ طفولتنا أن الوطن هو كلُّ شيء. يجب الدفاع عن الوطن. وأنا لم أتردَّد: إذا لم ألتحق أنا بالجبهة، فمن سيلتحق؟ عليَّ واجب...

سيرافيما إيفانوفنا باناسنكو، ضابط برتبة ملازم، مضمِّدة في كتيبة المشاة الآلية

ركضت أمِّي إلى القطار... كانت أمِّي صارمة. وهي لم تقم يوماً بتقبيلنا أو بمدحنا. وإذا ما كان هناك فعلاً ما يستحقُّ الثناء، كانت تكتفي بالنظر إلينا بحنان، وهذا كلُّ شيء. أمَّا الآن، فقد ركضت، وأمسكت برأسي وبدأت تقبِّلني، وتقبّلني، وتنظر إلى عينيَّ طويلاً... أدركت أنني لن أرى أمِّي أبداً. أحسست بهذا... كان بودِّي أن أرمي كلَّ شيء، وأسلِّم حقيبة أشيائي وأعود إلى البيت. شعرت بالشفقة على الجميع... على جدَّتي، وعلى إخوتي...

Twitter: @ketab_n

وهنا سمعت أصوات الموسيقى... ثمَّ الأمر العسكري: «تفرَّقوا! اجلسوا! كلٌّ في عربته».

بقيت طويلاً ألوِّح بيدي...

تامارا أوليانوفنا لاديشينا، مجنَّدة، من سلاح المشاة

ألحقوني بفوج الإشارة... لم أكن لألتحق أو لأقبل بالالتحاق في سلاح الإشارة، لأنني لم أكن أدرك أن عناصر الإشارة والاتصالات يحاربون أيضاً. قدِم لعندنا قائد الفرقة، انتظم الجميع في الصف. كانت بيننا ماشنكا سونغوروفا. خرجت ماشنكا من الصفِّ قائلة: «أيُّها الرفيق الجنرال، اسمح لي بالتوجُّه إليك».

أجابها: «تفضَّلي، توجَّهي، أيَّتها المقاتلة سونغوروفا!».

- «المجنَّدة سونغوروفا ترجوك بأن تعفيها من الخدمة في سلاح الإشارة، وأن ترسلها إلى حيث يُطلقون النار».

أتعرفين، كان لدينا جميعاً هذا المزاج. فقد كان لدينا تصوُّر أن سلاح الإشارة والاتصالات شيء صغير، ومهين بالنسبة إلينا، كنا نريد أن نكون في الخطِّ الأمامي.

اختفت الابتسامة من فم الجنرال على الفور وقال: «يا بناتي! -لو رأيتِ كيف كنا نحن آنذاك - لم نأكل، ولم ننم، وباختصار، لم يعد يتحدَّث معنا كقائد، بل كأب- أنتنَّ، غالباً، لا تدركن دوركنَّ على الجبهة، أنتنَّ أعيننا وآذاننا، جيش بلا اتصالات كإنسان بلا دم».

لم تطق ماشنكا سونغوروفا صبراً، وقالت: «أيُّها الرفيق الجنرال. المجنَّدة سونغوروفا كالحربة، مستعدَّة لتنفيذ أيِّ مهمَّة تطلبها!».

بعد ذلك، وحتى نهاية الحرب كنا نلقِّبها "حربة".

Twitter: @ketab_n

في حزيران/ يونيو 1943 في كورسك سلَّمونا راية الفوج، وكان فوجنا، الفوج الخامس والعشرون فوج الاتِّصالات المستقل، التابع للجيش الخامس والستِّين، فوجاً نسائياً بنسبة ثمانين في المئة. وهَأنذا أريد أن أحدِّثكِ كي تتصوَّري وتدركي... ماذا كان يدور في نفوسنا وأرواحنا. غالباً، لن يوجد أبداً مثل هؤلاء الناس كما كنا. أبداً! مثل هؤلاء الساذجين والصادقين، وبمثل هذا الإيمان! عندما استلم قائد فوجنا الراية وأمَرَنا: «الفوج، تحت الراية! للجثو على الرُّكَب!». شعرنا جميعنا بالسعادة. لقد وثقوا بنا، ففوجنا الآن مثل بقية الأفواج؛ مثل فوج الدبَّابات، أو فوج المشاة. كنا واقفات نبكي، وكلُّ مجنَّدة منا كانت الدموع تذرف من عينيها. أنت لا تصدِّقين الآن، لقد توتَّر جسدي كلُّه من هذه الصدمة، ومنها جاء مرضي، فأنا مرضت بمرض "الخفش، العمى النهاري"، وقد أصابني بسبب سوء التغذية والإجهاد العصبي. تصوَّري، اختفى العمى النهاري عندي، أتدركين، في اليوم التالي تعافيت، برأت من المرض، بفضل هذه الصدمة النفسية القوية...

ماريا سيمينوفنا كاليبيردا، مجنَّدة، رقيب أوَّل، سلاح الإشارة

أصبحت راشدة للتو... في التاسع من حزيران/ يونيو عام ألف وتسعمئة وواحد وأربعين، أكملت عامي الثامن عشر، وأصبحت راشدة. وبعد أسبوعين بدأت هذه الحرب الملعونة، بل بعد اثني عشر يوماً. أُرسلنا لبناء خطِّ السكَّة الحديدية غاغرا-سوخومي. جمعوا الشبيبة وحدها. لقد رسخ في ذاكرتي الخبز الذي كنا نأكله. كان يحتوي كلَّ شيء باستثناء قليل من الطحين، والماء هو أكثر شيء فيه. يوضع الخبز على الطاولة، فتتشكَّل حوله بركة من الماء، كنا نلحسها بألسنتنا.

في العام الثاني والأربعين، تطوَّعت للخدمة في المستشفى العسكريِّ

Twitter: @ketab_n

النقَّال رقم 3201 المعدِّ للإخلاء. لقد كان هذا مستشفى عسكرياً كبيراً للجبهة يتبع لجبهتي ما وراء القوقاز وشمال القوقاز وجيش بريمورسك المستقل. كانت تدور معارك قاسية، وكان هناك كثير من الجرحى. كلَّفوني بتوزيع الطعام؛ وهذا عمل يستمرُّ ليل نهار، فقد أصبح الصباح، ويجب تقديم طعام الفطور، ونحن ما زلنا نوزِّع طعام العشاء. بعد بضعة أشهر، جُرحت في رجلي اليسرى، وأصبحت أعرُج على اليمنى، لكنني تابعت عملي. ثمَّ أضيفت إليَّ مهمَّة رئيسة ممرِّضات، وهذا أيضاً يتطلَّب العمل ليلاً ونهاراً.

في الثالث عشر من أيَّار/ مايو 1943 في الساعة الواحدة تماماً جرى قصف جوِّي كثيف على كراسنودار. خرجت من البناء لألقي نظرة، كيف تمكَّنوا من ترحيل الجرحى إلى محطَّة السكك الحديدية. سقطت قذيفتان على السقيفة، حيث كانت تُحفظ الذخيرة. بأمِّ عيني رأيت صناديق الذخيرة كيف تطير أعلى من الطابق السادس للبناء وتنهال. وقد رمتني موجة الانفجار إلى حائط من الطوب. فقدت وعيي... عندما صحوت، كان قد حلَّ المساء. رفعت رأسي، حاولت تحريك أصابعي، فوجدتها تتحرَّك، فتحت عيني اليسرى بصعوبة وبطء، وسرت إلى القسم مغطَّاة بالدماء. التقيت في الممرِّ بكبيرة الممرِّضات، فلم تعرفني وسألتني: «من أنت؟ من أين؟». اقتربت مني أكثر، وقالت متأوِّهة: «أين كنتِ كسينيا طيلة هذه الفترة؟ الجرحى جائعون، ولم نعثر عليك». بسرعة، ضمَّدوا لي رأسي ويدي اليسرى من فوق الكوع، وذهبت لاستلام طعام العشاء. الظلمة تغطي عيني، والعرق يسيل من جسمي كالمطر. بدأت أوزِّع طعام العشاء فسقطت على الأرض. بعد أن أيقظوني، كنت أسمع صياحاً: «بسرعة، أسرعوا!». وثانية: «أسرعوا! بسرعة!».

بعد بضعة أيَّام أخذوا مني دماً للمصابين بجروح بليغة. كان الناس يموتون...

Twitter: @ketab_n

خلال الحرب تغيَّرتُ كثيراً، لدرجة أن أمِّي لم تعرفني عندما عدت للبيت. أروني أين كانت تسكن، اقتربت من الباب، وطرقته. جاءني الجواب: «نعم... نعم».

دخلت، ألقيت السلام وقلت: «اسمحوا لي بأن أمضي ليلتي».

أشعلت أمِّي الفرن، أمَّا أخواي الصغيران فكانا يجلسان على الأرض، على كومة من القش، عاريين، ليس لديهما ما يرتديانه. لم تعرفني أمِّي وقالت: «أنت ترين، أيَّتها المواطنة، في أيِّ بؤس نعيش! قبل أن يحلَّ الظلام، اذهبي إلى مكان آخر».

اقتربت منها أكثر، فكَّررتْ من جديد: «أيَّتها المواطنة، اذهبي إلى مكان آخر، قبل أن يحلَّ الظلام».

انحنيت نحوها، عانقتها، وقلت: «ماما - ماما!».

آنذاك هجموا جميعهم عليَّ... وهم يتصايحون.

الآن، أنا أقيم في القرم... نحن هنا نغرق في بحر من الأزهار، وكلَّ يوم أنظر من النافذة إلى البحر، وأرزح بكاملي تحت الألم، ليس لديَّ حتى الآن وجه أنثوي. أبكي غالباً، وأنيني يرافقني كلَّ يوم. أعيش ذكرياتي...

كسينيا سيرغييفنا أوسادتشيفا، رئيسة الممرِّضات

رائحة الخوف وحقيبة الكراميل

ذهبت إلى الجبهة... كان يوماً رائعاً... هواء عليل ورذاذ مطر ناعم لذيذ. يا للجمال! خرجت من البيت صباحاً، ووقفت: أمن المعقول أنني لن أعود إلى هنا؟ ولن أرى حديقتنا... وشارعنا؟ أمِّي كانت تبكي، تمسك بي ولا تتركني. هيَّأت نفسي للخروج، وهي تتبعني، تعانقني ولا تتركني...

أولغا ميتروفانوفنا روجنيتسكايا، ممرِّضة

Twitter: @ketab_n

لم أكن أخاف من الموت... لم أخفه. ربَّما بسبب حماسة الشباب أو لشيء آخر... الموت من حولي، الموت إلى جانبي، لكنني لم أكن أفكِّر فيه. لم نكن نتحدَّث عنه. كان الموت يدور ويدور على مقربة منا، ولكن ليس علينا. ذات مرَّة، أجرت سرية كاملة من فوجنا على قطاعنا عملية استطلاع بالسلاح ليلاً، ثمَّ انتهت بحلول الفجر، ولكن كان يسمع أنين من المنطقة المحايدة. بقي جريح. لم يسمح لي المقاتلون بالذهاب: «لا تذهبي، سيقتلونك، أترين؟ لقد انبثق الفجر».

لم أسمع كلامهم، وزحفت. عثرت على الجريح، جررته ثماني ساعات، رابطة مشدَّه على يدي. جررته حيَّاً. علِم قائد الفوج، فعاقبني، في لحظة غضب، بالسجن خمسة أيَّام لمخالفتي الأوامر. أمَّا نائب قائد الفوج فردَّ بطريقة أخرى، قائلاً: «تستحقُّ مكافأة».

عندما كنت في العام التاسع عشر من عمري حصلت على ميدالية "من أجل الشجاعة". وفي العام نفسه شابَ شعري كلُّه. وفي العام نفسه، أصابت طلقة رئتيَّ، والرصاصة الثانية مرَّت من بين الفقرتين. قدماي أُصيبتا بالشلل، واعتبروني ميتة...

في عامي التاسع عشر... والآن، أصبحت حفيدتي فتية. وأنظر إليها ولا أصدِّق. يا طفلتي العزيزة!

عندما عدت إلى البيت من الجبهة، أرتني أختي قبري... لقد دفنوني...

ناديجدا فاسيليفنا آنيسيموفا، طبيبة معاونة في سَرِية الأسلحة الرشَّاشة

لا أذكر أمِّي. بقيت في ذاكرتي ظلال مبهمة... خطوط عريضة... إمَّا وجهها، وإمَّا هيأتها عندما كانت تنحني نحوي. كانت قريبة مني. هكذا أصبح يبدو لي فيما بعد... عندما فقدت أمِّي كنت في السنة الثالثة من

Twitter: @ketab_n

عمري. كان والدي يخدم في الشرق الأقصى، عسكرياً متطوِّعاً. علَّمني ركوب الحصان. كان هذا أقوى انطباع من طفولتي. لم يكن يرغب أبي في أن أتربَّى كفتاة مدلَّلة. في لينينغراد، أذكر نفسي هناك عندما كنت في الخامسة من عمري. كنت أعيش مع عمَّتي، وكانت عمَّتي ممرِّضة في الحرب الروسية-اليابانية. كنت أحبُّها مثل أمِّي...

كيف كنت في طفولتي؟ قفزت، في مراهنة، من الطابق الثاني للمدرسة. كنت أحبُّ كرة القدم، وألعب حارسة مرمى مع الصبيان. بدأت الحرب الفنلندية، كنت أهرب دوماً إلى الحرب الفنلندية. وفي العام الحادي والأربعين، كنت قد أنهيت الصف السابع، وتمكَّنت من تقديم أوراقي إلى المدرسة التقنية. عمَّتي تبكي: «الحرب!»، أمَّا أنا فشعرت بالفرحة لأنني سأذهب إلى الجبهة، وسأحارب. ومن أين لي أن أعرف ما هو الدم؟

تشكَّلت فرقة الحرس الأولى من القوَّات المدنية الشعبية، وأخذوني، مع بضع فتيات في كتيبة الخدمة الطبِّية.

اتَّصلت بعمَّتي: «أتوجَّه إلى الجبهة». أجابتني على الهاتف: «فوراً إلى البيت! الغداء جاهز».

أغلقت سمَّاعة الهاتف. بعد ذلك، شعرت بكثير من الشفقة عليها. بدأ حصار المدينة. حصار لينينغراد الرهيب، وعندما مات نصف المدينة، بقيت هي وحيدة. كانت عجوزاً، متقدِّمة في السن.

أذكر: بعد أن سرَّحوني، وقبل أن أذهب إلى عمَّتي، دخلت إلى مخزن. قبل الحرب كنت أحبُّ الكراميل كثيراً. وقلت للبائعة: «أعطني الكراميل».

نظرت إليَّ البائعة، كما تنظر إلى مجنونة. لم أفهم – بطاقات؟ ما هذا – الحصار؟ نظر جميع الواقفين في الطابور إليَّ، والبندقية أطول مني. عندما وزَّعوا علينا البنادق، نظرت وفكَّرت في نفسي: «متى سأصبح بطول

Twitter: @ketab_n

البندقية؟». وأخذ الجميع يطالب البائعة: «أعطها الكراميل، خذي منا بطاقة واقتطعيها».

وأعطتني البائعة.

في الشارع كانوا يجمعون المساعدة للجبهة. في الساحة مباشرة، على الطاولات كانت هناك صوانٍ، وكان يسير الناس ويخلعون ما يرتدونه، خاتم ذهبي، حلق. وكانوا يضعون الساعات والنقود. لم يكن هناك من يسجِّل، ومن يجرد. كانت النساء تخلعن خواتم الزواج من أصابعهن...

لا تزال هذه الصور في ذاكرتي...

وكان هناك أمر ستالين الشهير رقم 227 "لا خطوة واحدة إلى الوراء!"، وإذا ما عدت إلى الوراء فستُطلق عليك النار! ستُطلق عليك النار في مكانك. أو ستُحال إلى المحكمة العسكرية، وفي كتائب تأديبية خاصَّة. ومن كان يُدرج فيها كانوا يدعونهم بالانتحاريين. أمَّا الخارجون من الحصار والهاربون من الأسر فيُقتادون إلى مخيَّمات التصفية. وخلفنا كانت تسير الفصائل المسلَّحة... مواطنون روس يقتلون مواطنين روس...

هذه الصور لا تزال في ذاكرتي...

مرج عادي... رطوبة، وحلُ ما بعد المطر. يجثو على ركبتيه جنديٌّ شاب، يضع نظَّارات على عينيه، وتقع باستمرار عن عينيه لسبب ما ويرفعهما. بعد المطر... صبيٌّ لينينغرادي من أسرة مثقَّفة. صادروا منه البندقية. اصطفَّ الجميع. بُرك الماء في كلِّ مكان... نحن نسمع كيف يتضرَّع... ويقسم... ويرجو، كي لا يُطلقوا النار عليه، ففي البيت أمُّه وحدها. وبدأ يبكي. وعلى الفور تصيبه الطلقة في جبينه، من مسدَّس. هذه طلقة ذات دلالة. هذا ما سيحصل مع كلِّ واحد إذا ما تحرَّك من مكانه، ولو لدقيقة واحدة! لدقيقة...

Twitter: @ketab_n

هذا الأمر جعلني على الفور راشدة. كان من المستحيل تذكُّر فترة طويلة... لم نتذكَّر هذا الأمر طويلاً... نعم نحن انتصرنا، ولكن بأيٍّ ثمن؟! يا له من ثمن رهيب!

ليالٍ طويلة لم نعرف طعماً للنوم؛ أعداد كثيرة من الجرحى. ذات مرَّة، ثلاث ليال متتالية لم نتمكَّن من النوم. رافقتُ الجرحى بالسيَّارة إلى المستشفى العسكري. سلَّمت الجرحى وعادت السيَّارة فارغة، وعندها استسلمت للنوم. عدت إلى وحدتي نشيطة بعد النوم، أمَّا بقية الفتيات فكنَّ يتساقطن من النعاس.

التقيت المفوض: «أيُّها الرفيق القائد، أشعر بالخجل!».

* «ماذا حدث؟».

- «لقد نمت».

* «أين؟».

حدَّثته كيف نقلت الجرحى وسلَّمتهم للمستشفى، في طريق العودة، كانت السيَّارة فارغة، فنمت.

* «وماذا في الأمر؟ أحسنتِ! فلتكن واحدة منكنَّ طبيعية، فالجميع يمشين نياماً».

أمَّا أنا فقد شعرت بالخجل. وبمثل هذا الضمير عشنا الحرب كلَّها.

كانوا يعاملونني معاملة جيِّدة في كتيبة الخدمة الطبِّية، لكنني رغبت في أن أكون عنصر استطلاع. وقلت إنني سأهرب إلى الخطِّ الأمامي، إذا لم يسمحوا لي. أرادوا فصلي من منظَّمة الشبيبة (الكومسومول) لأنني أخالف نظام الخدمة العسكرية. وعلى أية حال، هربت...

الميدالية الأولى "من أجل الشجاعة"...

بدأت المعركة. وابل من النيران. الجنود منبطحون. الأمر العسكري:

Twitter: @ketab_n

«إلى الأمام! من أجل الوطن!»، وهم منبطحون. الأمر العسكريُّ من جديد، ولا يزالون منبطحين. خلعت القبَّعة كي يروا أن فتاة نهضت..، فوقف الجميع، والتحمنا في المعركة...

أُصبت بجرح...

في سلاح الاستطلاع كان معنا طبيب، رجل متقدِّم في السن. خاطبني قائلاً: «أين جُرحتِ؟».

* «لا أدري... لكن الدم ينزف...».

كان بالنسبة إليَّ بمثابة الأب، كان يحدَّثني بكلِّ شيء...

بعد الحرب، بقيت في سلاح الاستطلاع خمسة عشر عاماً. كلَّ ليلة أحلام وكوابيس رهيبة: إمَّا أن البندقية الآلية استعصت، أو أننا محاصرون. أستيقظ، أسناني تصطك. أتذكَّر، أين أنا؟ هناك أو هنا؟

الحرب انتهت. كانت عندي ثلاث رغبات. الأولى: أخيراً، لن أزحف بعد الآن على بطني، بل سأركب حافلة الترولي، الثانية: أن أشتري وآكل رغيفاً كاملاً. والثالثة: أن أنام وأشبع نوماً على فراش أبيض وشرشف ناصع البياض. وملاءة بيضاء...

آلبينا ألكسندروفنا غانتيموروفا، رقيب أوَّل، عنصر استطلاع

أنتظر المولود الثاني... ابني عمره سنتان، وأنا حامل. وبدأت الحرب. وزوجي في الجبهة. ذهبت إلى بيت أهلي وهناك أجريت عملية إجهاض... أنت تعرفين، أن الإجهاض كان ممنوعاً آنذاك... ولكن كيف يمكنني أن ألِد والدموع تحيط بي من كلِّ جانب؟ والحرب! كيف يمكنني أن ألِد والموت من حولي؟

Twitter: @ketab_n

أنهيت دورة رسائل الشِفرة، وتوجَّهت إلى الجبهة. أردت الانتقام لوليدي الذي أسقطته، لأنني لم أَلِده. كان الجنين أنثى...

طلبت الذهاب إلى الخطِّ الأول. لكنهم أبقوني في الأركان...

لوبوف أركاديفنا تشارنايا، ملازم، سلاح الإشارة

خرجنا من المدينة... كلُّنا خرجنا... في ظهر الثامن والعشرين من حزيران/ يونيو 1941، نحن طلّاب معهد سمولنسك التربوي، اجتمعنا في ساحة المطبعة. لم يستمرَّ اجتماعنا طويلاً. خرجنا من المدينة على طريق سمولنسك القديم باتِّجاه مدينة كراسنوي. راعينا الحيطة والحذر، وتحرَّكنا جماعات صغيرة منفصلة. بحلول المساء، انحسر الحر، وسرنا بخطى أسرع، دون أن ننظر إلى الوراء. لقد كنا نخشى النظر إلى الوراء... توقَّفنا عند المحطَّة، آنذاك فقط نظرنا إلى الشرق. كان يغطِّي الأفق وهجٌ أرجواني، ومن مسافة أربعين كيلومتراً بدا وكأنه يشغل السماء كلَّها. كان واضحاً أن مئة بناء يحترق وليس عشرة. سمولنسك كلُّها تحترق...

كان لديَّ فستان جديد رشيق مكشكش. كان يعجب صديقتي فيرا كثيراً، وقد جرَّبتْه وقاستْه أكثر من مرَّة. وعدتها بأن أقدِّمه لها هديةً بمناسبة عرسها. كانت عازمة على الزواج، وكان صديقها جيِّداً.

فجأة بدأت الحرب. توجَّهنا إلى الخنادق. سلَّمنا أغراضنا في السكن الطلَّابي إلى آمر السكن. وماذا بالنسبة إلى الفستان؟ «خذيه فيرا». قلت لها عندما خرجنا من المدينة.

لم تأخذه. فكما اتفقنا، ستأخذه وقت العرس. احترق الفستان في ذلك الوهج.

بقينا طيلة الوقت نسير إلى الأمام، دون الالتفات إلى الخلف. بدا لنا

Twitter: @ketab_n

وكأن وهج الحريق خلف ظهورنا. لم نتوقَّف طيلة الليل، ومنذ الصباح الباكر بدأنا عملنا. نحفر خنادق واسعة مضادَّة للدبَّابات، وجداراً حادَّاً بعرض سبعة أمتار وعمق متر ونصف. كان الرفش حامياً كالنار، وبدا التراب أحمر اللون. كان يتراءى أمام عينيَّ منزلنا بأزهاره وليلكه الأبيض...

أقمنا في أكواخ في مرج واقع بين نهرين. حرارة ورطوبة. والبعوض والناموس يغطِّينا. كنا نطردها قبل النوم من الأكواخ بإشعال النار، وسرعان ما تعود مع الفجر، ومن غير الممكن النوم بهدوء.

اقتادوني من هناك إلى الوحدة الطبِّية. هناك، كنا نستلقي على الأرض جنباً إلى جنب، مرضَ كثيرٌ منا في تلك الأثناء. مع حرارة مرتفعة، وقشعريرة برد. أرقد وأبكي. انفتح باب الخيمة، ومن العتبة (كان من المستحيل الدخول فالفُرْش كانت ممدودة، متلاصقة تماماً) قالت الطبيبة: «إيفانوفا، متصورة[1] في الدم». لقد كانت تعنيني. لم تكن تعرف أن أكثر شيء أخافه هو المتصورة، منذ تلك الأثناء عندما قرأت عنه في الكتاب المدرسيِّ في الصفِّ السادس. وهنا، دوى مكبِّر الصوت صارخاً: «انهضي، أيَّتها البلاد الكبيرة...». كانت تلك أوَّل مرَّة أسمع فيها هذه الأغنية. ففكَّرت في نفسي قائلة: «سأُشفى، وأذهب مباشرة إلى الجبهة».

نقلوني إلى بلدة كوزلوفكا، على مقربة من روسلافل. نقلوني على مقعد، كنت جالسة وممسكة بقوَّة بطرفيه، كيلا أقع، وأسمع وكأنني في حلم: «هذه هي؟».

* «نعم». قال المسعف.

- «خذها إلى المطعم. يجب إطعامها أوَّلاً».

أنا الآن على السرير. أتدركين معنى هذا؟ ليس على الأرض قرب النار،

---

1 - أو بلازموديوم، وهو كائن طفيلي يسبب مرض الملاريا.

Twitter: @ketab_n

ولست في المعطف المطريِّ تحت الشجرة، بل في المستشفى العسكري، في الدفء. وعلى فراش. سبعة أيَّام لم أستيقظ من النوم. وقد حدَّثوني فيما بعد: كانت الممرِّضة توقظني وتطعمني، ولا أذكر شيئاً. وعندما أفقت من النوم بنفسي بعد سبعة أيَّام، جاء الطبيب ونظر إليَّ وقال: «جسمها قوي، ستُشفى».

واستغرقتُ في النوم من جديد.

في الجبهة حوصرت مع وحدتي القتالية. كانت جعالة الطعام كعكتين صغيرتين في اليوم. لم يكن لدينا وقت لدفن القتلى، فكانوا يغطُّونهم بالتراب فقط. وكنا نغطِّي وجوهنا بالقبَّعات... قال قائد الوحدة: «إذا بقينا أحياء بعد الحصار سأرسلك إلى المؤخَّرة. كنت سابقاً أعتقد أن النساء لن يحتملن البقاء هنا حتى ليومين اثنين. أتصوَّر زوجتي لو كانت هنا...». بكيت من الاستياء، فقد كان هذا، بالنسبة إليَّ، أسوأ من الموت؛ أن أجلس في المؤخَّرة في هذا الظرف. لم أكن أحتمل هذا لا بعقلي ولا بقلبي، ولم أكن أحتمل جسدياً... هذه الأعباء الجسدية القاسية... أذكر، كيف كنا ننقل قذائف المدفعية على أيدينا، وكننا ننقل المعدَّات في الأوحال، وبخاصَّة في أوكرانيا، حيث التراب ثقيل جدَّاً بعد المطر أو في الربيع، كان التراب كالعجين. حتى حَفْر قبرٍ جماعيٍّ ودفنُ رفاقنا، في الوقت الذي لم نعرف طعماً للنوم منذ ثلاث ليال، حتى هذا كان قاسياً لا يُطاق... لم نعد نبكي، فالبكاء يتطلَّب وجود قوَّة. كلُّ ما كنا نريده هو النوم، والنوم، والنوم.

في مركز الحراسة، كنت أسير إلى الأمام وإلى الخلف، وأقرأ الشعر بصوت عال. فتيات أخريات كُنَّ يغنِّين الأغاني، كيلا يقعن على الأرض ولا ينمن...

فالنتينا بافلوفنا مكسيمشوك، جندية في المدفعية المضادَّة للطائرات

Twitter: @ketab_n

أخرجنا الجرحى من منسك... كنت أرتدي حذاء بكعب عال، كنت أستحي من قِصَر قامتي. انكسر كعب فردة من الحذاء، وفجأة أسمع صراخ: «إنزال جوِّي!». ركضت حافية والحذاء بيدي، حافظت عليه، فالحذاء جميل جدَّاً.

عندما أصبحنا محاصرين، ورأينا أننا لن نتمكَّن من خرق الحصار، نهضت والممرِّضة داشا من الخندق، ولم نعد نختبئ، ووقفنا بطول قامتينا: فلتأتِ القذيفة على رأسينا أفضل من الوقوع في الأسر، حيث سوف يهزؤون بنا. وكذلك الجرحى، نهض واقفاً من كان في استطاعته الوقوف...

عندما رأيت أوّل جنديٍّ فاشي، لم أستطع النطق بكلمة واحدة، لم أعد قادرة على الكلام. أمَّا الجنود الأعداء فكانوا يسيرون شباباً فرحين مبتسمين. وحيثما توقَّفوا، وحيثما وجدوا مضخة ماء أو بئراً، يغتسلون. أكمامهم مرفوعة دوماً. يغتسلون ويغتسلون... الدماء من حولهم، والصراخ، وهم يغتسلون... وشعرت نحوهم بكراهية شديدة... جئت إلى بيتي، وغيَّرت بلوزتين. وكلُّ شيء في داخلي يتمرَّد على وجود الجنود الفاشيين هنا. لم أستطع النوم ليلاً. وكيف؟ فقد أصيبت جارتنا، العمَّة كلافا، بالشلل عندما شاهدتهم يمشون على أرضنا، في بيتها... وسرعان ما تُوفِّيت؛ لأنها لم تستطع احتمال هذا...

ماريا فاسيليفنا جلوبا، مقاوِمة سِرِّية

دخل الألمان إلى القرية على درَّاجات نارية سوداء كبيرة... نظرت إليهم بعينين ممتلئتين: كانوا شباباً مرحين، كانوا يضحكون، والضحكة لا تفارق أفواههم! توقَّف قلبي عن الخفقان، لأنهم هنا، على أرضي، ويضحكون أيضاً.

Twitter: @ketab_n

كنت أحلم بشيء واحد، هو الانتقام. وتخيَّلت كيف سأستشهد، وسينشرون كتاباً عني، ويبقى اسمي خالداً. هذه كانت أحلامي...

في العام الثالث والأربعين، وضعت مولودة... هذا حدث بعد أن التحقت وزوجي برجال المقاومة في الغابة. وضعت في المستنقع، في كومة قش. كنت أجفِّف الحفاضات على بطني، أربطها، وأجفِّفها، ثمَّ أقمِّط المولودة. كان كلُّ شيء يحترق من حولي. كانوا يحرقون القرى مع ساكنيها. كانوا يجمعون السكَّان في المدارس، في الكنائس... ثمَّ يرشُّون عليها الكيروسين... ابنة أخي في الخامسة من عمرها، كانت تستمع إلى أحاديثنا، فسألتني: «عمَّتي مانيا، عندما أحترق ماذا يتبقَّى مني؟ الجزمة وحدها...». هذا ما كان أولادنا يسألوننا عنه...

أنا بنفسي كنت أجمع أعقاب السجائر... وأجمع لصديقتي أسرتها... كنا نعثر على العظام في الرماد، ونتعرَّف على الناس من بقايا ثيابهم. كلٌّ كان يبحث عن أهله. رفعت من الأرض قطعة متبقِّية من قماش، فقالت صديقتي: «بلوزة أمِّي...». وسقطت على الأرض. كان هناك من يجمع بقايا الأجساد المحروقة بالشرشف، أو بغطاء الوسادة. وماذا أحضرنا؟ أنا وصديقتي في حقيبة، لم نجمع نصفها. وضعنا جميع ما جمعناه في قبرٍ جماعيٍّ واحد. كلُّ شيء أسود اللون، باستثناء العظام؛ فقد كانت بيضاء. ورماد العظام... كان أبيض اللون.

بعد هذا كلِّه، لم أشعر بأيِّ خوف حيثما أرسلوني. طفلتي كانت صغيرة، في الشهر الثالث من عمرُها، كنت آخذها معي لأداء المهمَّة المطلوبة. كان المفوَّض يرسلني بمهمَّات وهو نفسه يبكي... كنت أجلب العقاقير الطبِّية من المدينة، الضمادات، والأمصال... أضعها بين يديَّ وبين رجليَّ، وألفُّها بحفاضة وأسير. كان الجرحى يموتون في الغابة. عليَّ أن أجلبها وأحملها، واجبي! لم يكن هناك من يستطيع العبور والدخول.

Twitter: @ketab_n

الحواجز الألمانية ومخافر البوليس الألماني في كلِّ مكان، كنت وحدي أتجاوزها، حاملة رضيعتي ذات الأشهر الثلاثة في حفاضها...

حتى الاعتراف بذلك الآن رهيب... آه، كم كان الوضع قاسياً! كي ترتفع حرارتها، وتبكي، كنت أفركها بالملح. وعندها تصبح حمراء اللون، ويغطِّي جسمها الطفح، وهي تصرخ، وتكاد تخرج من جلدها. يوقفونني عند الحاجز: «حُمَّى التيفوئيد، سيِّدي، حُمَّى التيفوئيد...»، فيطردونني كي أخرج «بسرعة! بسرعة!». أفركها بالملح، والثوم. والطفلة صغيرة، رضيعة.

وما إن أتجاوز الحواجز والمخافر، وأدخل في الغابة، أستسلم للبكاء والصراخ، أصرخ من شفقتي على الرضيعة. وبعد يوم أو يومين، أعود إلى المدينة وأقوم بالمهمَّة نفسها...

ماريا تيموفيفنا سافيتسكايا-راديو كيفيتش، مراسلة الأنصار

عرفت ما معنى الكراهية... لأوَّل مرَّة أعرف هذا الشعور... كيف يمكنهم السير على أرضنا؟! ومن هم؟ لقد ارتفعت حرارتي من هذه المشاهد. ولماذا هم هنا؟

يمرُّ طابور أسرى الحرب. ومئات من الجثث بقيت على قارعة الطريق... مئات... من استسلم دون مقاومة، أُطلقت عليهم النار فوراً. طاردوهم كالقطيع. لم يصدر أيُّ صوت بخصوص القتلى. لم يتمكَّنوا من دفنهم – عديدهم كثير. بقيت جثثهم على الأرض طويلاً... رقد الأحياء مع الأموات.

التقيت بأختي غير الشقيقة. أحرقوا قريتها.

كان لديها ثلاثة أبناء، لم يعد وجود لأيٍّ منهم. لم يحرِّضنا أحد، لم يرغمنا أحد، ذهبنا بأنفسنا. أمِّي بقيت مع البقرة...

يلينا فيودوروفنا كوفاليفسكايا، نصيرة في المقاومة

Twitter: @ketab_n

حتى أنني لم أفكِّر... كان اختصاصي ضرورياً للجبهة. وأنا لم أفكِّر لحظة ولم أتردَّد. عموماً، لم ألتقِ إلا قليلاً من الناس ممَّن أرادوا البقاء على قيد الحياة هذه الفترة، والانتظار. أذكر امرأة واحدة... شابَّة، جارتنا... اعترفت لي بصراحة: «أنا أحبُّ الحياة. أريد أن أضع البودرة، أن أتزيَّن وأتجمَّل، لا أريد الموت». لم أرَ ولم أسمعْ غيرها. ربَّما كانوا يلوذون بالصمت، ويختبئون. لا أعرف، كيف أجيبك...

أذكر كيف حملت أصيص الورود من غرفتي إلى جارتي ورجوتها: «اسقها، من فضلك، سأعود قريباً».

وعدت بعد أربع سنين...

الفتيات اللواتي بقين في بيوتهن كُنَّ يحسدننا، أمَّا النساء فكُنَّ يبكين. إحدى الفتيات اللواتي ذهبت معي، كانت تقف، الجميع يبكون ما عداها. ثمَّ بلَّلت عينيها بالماء مرَّتين، ومسحت بالمحرمة؛ فقد شعرت بالحرج أن الجميع يبكون دونها. وهل كنا ندرك ما هي الحرب؟ كنا شابَّات... الآن، أنا أستيقظ ليلاً من الخوف، عندما أحلم بأنني في الحرب... وأن طائرة تحلِّق، طائرتي، وترتفع إلى الجو، و... ثمَّ تسقط. الدقائق الأخيرة... كم كان رهيباً، إلى أن أستيقظ، ويبتعد الحلم من أمام عيني. الإنسان الهرم، كبير السنِّ يخاف من الموت، أمَّا الشاب فيضحك. إنه خالد! لم أكن أعتقد أنني سأموت...

أنَّا سيميونوفنا دوبروفينا-تشيكونوفا، ملازم أوَّل، طيَّار

أنهيت المعهد المتوسِّط الطبِّي... عدت إلى أسرتي، كان أبي مريضاً. وفجأة... الحرب! أذكر، كان الوقت صباحاً... علمت بهذا الخبر الرهيب صباحاً... لم يجفّ الندى من على أوراق الشجر عندما قالوا: الحرب!

Twitter: @ketab_n

وهذا الندى الذي رأيته فجأة على العشب وعلى الأشجار، رأيته واضحاً - تذكَّرته في الجبهة. كانت الطبيعة في تضادٍّ مع ما كان يجري بين الناس. أشرقت الشمس ساطعة... تفتَّح البابونج بزهوره المفضَّلة عندي، التي كانت كثيرة في المروج...

أذكر، كنا نختفي في مكانٍ ما بين سنابل القمح. الرشَّاشات الألمانية تا-تا-تا-تا، ويحلُّ الهدوء. ولا يُسمع سوى حفيف سنابل القمح. ثمَّ تعاود الرشَّاشات الألمانية الكرَّة: تا-تا-تا... وتفكِّر في نفسك، هل ستسمع يوماً حفيف سنابل القمح؟ هل ستسمع هذا الضجيج...

ماريا أفاناسيفنا غاراتشوك، مساعدة طبيب حربي

أجبرونا على النزوح مع أمِّي إلى الوراء... إلى ساراتوف... خلال ثلاثة أشهر تقريباً، تدرَّبت على الخراطة وأتقنتها. كنا نقف عشرين ساعة أمام المكنات. كنا نجوع. وفي أذهاننا فكرة واحدة: الذهاب إلى الجبهة. على الأقل، الغذاء هناك متوفِّر. يقدِّمون الكعك والشاي المحلَّى بالسكَّر، ويقدِّمون الزبدة. سمعت هذا من أشخاص لا أذكرهم. ربَّما من الجرحى في المحطَّة؟ كنا نريد التخلُّص من الجوع، وكنا شبيبيات، طبعاً. ذهبت مع صديقتي إلى دائرة التجنيد، ولم نعترف آنذاك بأننا نعمل في المصنع. وإلَّا لما أخذونا. وتمَّ تسجيلنا.

أرسلونا إلى مدرسة المشاة في ريزان. كانوا يعدُّون فيها قادة أسلحة الرشَّاشات. الرشَّاش ثقيل، وعليكِ أن تحمليه على ظهرك، كالحصان. الوقت ليلاً، تقفين في موضعك وتلتقطين كلَّ صوت، وتراقبين كلَّ حفيف... وكما يقال: في الحرب أنت نصفك إنسان ونصفك وحش. نعم، هذه حقيقة... وبغير ذلك لن تبقى حيَّاً. إذا ما بقيت إنساناً فقط فلن تسلم.

Twitter: @ketab_n

ستُطيح برأسك! في الحرب، على المرء أن يتذكَّر شيئاً عن نفسه. أن يتذكَّر شيئاً ما، ممَّا كان عليه الإنسان قبل أن يصبح إنساناً... لست مثقَّفة كبيرة، فأنا مجرَّد محاسبة بسيطة، لكنني أعرف هذا.

وصلت إلى وارسو... سيراً على الأقدام. وكما يقال: المشاة بروليتاريا الحرب. كنا نزحف على بطوننا... كنا نسير مرضى، نعاني من السعال، دون نوم، وسخين، بثياب سيِّئة. وجائعين غالباً... لكننا انتصرنا!

لوبوف إيفانوفنا لوبشاك، قائدة فصيلة الرشَّاشات

أبي، كنت أعرفه، قُتل في الحرب... وأخي استُشهد. أن أموت أو لا أموت، لم تعد ذات قيمة. كنت أشفق على أمِّي؛ تحوَّلتْ من امرأة جميلة إلى امرأة هرمة، شديدة الغضب على القَدَر، فلم تكن تستطيع العيش دون أبي.

- «لماذا تذهبين إلى الحرب؟». سألتْني.

* «انتقاماً لأبي».

- «لم يكن أبوك ليتحمَّل رؤيتك بالبندقية».

كان أبي في طفولتي يجدِّل لي جدائلي، وبربط العقد على شعري. هو نفسه، كان يحبُّ الثياب الجميلة أكثر من أمِّي.

خدمت في قسم الاتصالات، عاملة مقسم. أكثر ما حفظته وأتذكَّره عندما كان القائد يصرخ في سمَّاعة الهاتف: «الإمداد! أرجو الإمداد! أطالب بالإمداد!». وهذا كان يتكرَّر كلَّ يوم...

أوليانا أوسيبوفنا نيمزير، رقيب، عاملة مقسم

أنا لست بطلة... كنتُ فتاة جميلة، وكنت مدلَّلة في طفولتي...

جاءت الحرب... لم تكن عندي رغبة في الموت. إطلاق النار أمر

Twitter: @ketab_n

رهيب، لم أفكِّر يوماً أنني سوف أطلق النار. هذا مستحيل! إنني أخاف من الظلام، من الغابة الكثيفة... وبالطبع أخاف من الوحوش... لم أكن أتصوَّر أبداً أن ألتقي بذئب أو خنزير برِّي، حتى الكلاب كنت أخافها منذ طفولتي؛ فقد عضَّني كلبٌ كبيرٌ للرعي عندما كنت صغيرة. كنت أخاف الكلاب. نعم، هكذا كنت... لكنني تعلَّمت كلَّ شيء في صفوف المقاومة... تعلَّمت إطلاق النار؛ من البندقية، من المسدَّس، ومن الرشَّاش. وإذا احتاج الأمر، يمكنني أن أريكِ الآن. أتذكَّر. كما علَّمونا أيضاً كيف يجب التصرُّف إذا لم يكن هناك أيُّ سلاح آخر سوى السكِّين أو الرفش. لم أعد أخاف من الظلام، ولا من الوحوش... باستثناء الثعبان، لم آلف الثعابين. كثيراً ما كانت تخرج الذئبات في الغابة. ونحن نجلس في مخابئنا، وتمرُّ بسلام. الذئاب حاقدة، جائعة. كانت لدينا مخابئ صغيرة كالجحور. فالغابة بيتنا؛ بيت المقاومة. آه، ماذا أقول، لقد أصبحت أخاف الغابة بعد الحرب... الآن، لا أذهب أبداً إلى الغابة.

لكنني طيلة الحرب كنت أفكِّر أنه كان في إمكاني الجلوس في البيت إلى جانب أمِّي الجميلة. أمِّي كانت جميلة جدّاً. آه! لو خيَّروني لما ذهبت بنفسي... أبداً! لم أكن لأذهب، ولكن أخذونا... قالوا لنا: الألمان احتلُّوا المدينة. وأنا، الآن، عرفت أنني يهودية. أمَّا قبل الحرب، فقد عشنا معاً بودٍّ وصداقة: الروس والتتار والألمان واليهود... كنا متساوين، متماثلين. وماذا أقول! حتى أنني لم أسمع بكلمة "يهود"، لأنني عشت مع أبي وأمِّي والكتب. أصبحنا كمرضى الجذام، يطردوننا من مكانٍ إلى آخر. كانوا يخافون منا. حتى أن بعض معارفنا لم يكونوا يحيُّوننا. أمَّا الجيران فقالوا لنا: «اتركوا جميع أمتعتكم، فلن تعودوا في حاجة إليها». قبل الحرب كانوا أصدقاءنا؛ العمُّ فولوديا، والعمَّة آنيا... ماذا أقول!

أطلقوا النار على أمِّي... هذا حدث قبل بضعة أيَّام من انتقالنا إلى الغيتو

Twitter: @ketab_n

(الحي اليهودي). في كلِّ مكان من المدينة كانت هناك إعلانات: لا يُسمح لليهود بالسير على الأرصفة، والحلاقة في صالونات الحلاقة، والشراء من المحلَّات التجارية... الضحك ممنوع، والغناء ممنوع... آه، ماذا أقول! لم تألفْ أمِّي هذا، كانت شاردة، مشتَّتة الانتباه. ربَّما لم تصدِّق... وربَّما دخلت إلى إحدى المحلَّات التجارية؟ وُجِّهت إليها كلمات نابية، فضحكتْ. كامرأة جميلة... كانت مغنِّية في الفلهارمونيا، وكان الجميع يحبُّونها. أتصوَّر لو أنها لم تكن جميلة جدَّاً... أمُّنا... لَمَا قُتلت. كانت ستبقى معي أو مع أبي. أفكِّر في هذا طيلة الوقت... أحضرها الغرباء إلينا ليلاً، أحضروها ميتة. بدون معطف وبدون حذاء. لقد كان هذا كابوساً. ليلة رهيبة! فظيعة! أخذوا منها معطفها وحذاءها. وأخذوا حليَّها وخاتم زواجها. هدية والدي...

في الغيتو، لم يكن لدينا بيت، أعطونا علِّية في بيت غريب. أخذ والدي الكمان، أغلى شيء عندنا قبل الحرب، وأراد أن يبيعه. كنت أعاني من التهاب الحنجرة. كنت مريضة مستلقية على السرير بحرارة مرتفعة، ولم أكن قادرة على الكلام. أراد أبي شراء بعض المواد الغذائية، كان يخاف أن أموت. أن أموت بدون كلمات أمِّي الحنون، بدون يديْ أمِّي. نعم، هكذا كنت مدلَّلة... محبوبة. انتظرت أبي ثلاثة أيَّام، إلى أن قال لي معارفنا إن أبي قُتل... قالوا: «بسبب الكمان...». لا أعرف، هل كانت غالية الثمن أم لا، قبل أن يخرج قال لي أبي: «حسن، لو أعطوني مقابلها مرطباناً من العسل وقطعة من الزبدة». آه، ماذا أقول لك! أنا بدون ماما، وبدون بابا...

ذهبت أبحث عن أبي... أردت العثور عليه، ولو ميتاً، كي نكون معاً. كنت شقراء اللون ولست سمراء، وشعري أشقر، وحاجباي أشقران، ولم يمسَّني أحد في المدينة. ذهبت إلى البازار (السوق الشعبية)، والتقيت هناك بصديق والدي. كان قد انتقل إلى العيش في القرية، لدى والديه.

Twitter: @ketab_n

هو أيضاً موسيقيٌّ مثل بابا. العم فولوديا... حدَّثته بكلِّ شيء. أركبني على العربة، وغطَّاني بمعطف من الفرو. على العربة كانت الخنازير الصغيرة تصرّ، والدجاج يصيح، سرنا طويلاً. حتى المساء. كنت أنام وأستيقظ...

وهكذا وجدت نفسي في صفوف المقاومة...

آنّا يوسيفوفنا ستروميلينا، عضوة في المقاومة

كان هناك عرض عسكري... فصيلنا المقاوم انضمَّ إلى وحدات الجيش الأحمر، وبعد العرض، قيل لنا أن نسلِّم السلاح ونذهب لإعادة إعمار المدينة. ولم نستوعبْ ذلك في شعورنا: كيف؟ ما زالت الحرب دائرة، لم تتحرَّر سوى بيلاروسيا، وعلينا تسليم الأسلحة. كلُّ واحدة منا أرادت أن تحارب. وذهبنا جميعاً إلى دائرة التجنيد، جميع فتياتنا... قلتُ إنني ممرِّضة، وأرجو إرسالي إلى الجبهة. فوعدوني قائلين: «سنأخذ هذا في اعتبارنا، وإذا ما احتجناك فسنأخذك إلى الجبهة. أمَّا الآن فاذهبي للعمل».

أنتظر. لم يستدعوني. ذهبت ثانية إلى دائرة التجنيد، عدَّة مرات. وأخيراً قالوا لي صراحة: «ليست هناك حاجة إليك، فعدد الممرِّضات كافٍ. عليك العمل بالطوب في منسك... المدينة مدمَّرة...». تسألينني أية فتيات كانت عندنا؟ كانت عندنا تشرنوفا، كانت امرأة حامل، وكانت تحمل اللغم إلى جنبها، على مقربة من قلب جنينها في بطنها الذي كان ينبض. وتدبَّري أنتِ معرفة من كان هؤلاء الناس! ولا حاجة إلى التدبير، هكذا كنا. لقد تربَّينا على أن الوطن ونحن شيء واحد. أو صديقة أخرى، كانت تقود ابنتها الصغيرة في المدينة، وكانت قد لفَّت المنشورات الورقية تحت ثوبها، فكانت الصغيرة ترفع يدها وتخاطب أمَّها: «ماما، أشعر بالحرِّ

Twitter: @ketab_n

الشديد. ماما، أشعر بحرٍّ لا يطاق». وكان الجنود الألمان في كلِّ شارع، ورجال الشرطة. من السهل خداع الجنديِّ الألماني، أمَّا رجل الشرطة فأمر صعب؛ فهو مثلك، يعرف حياتك، يعرف طبيعتك، يعرف أفكارك.

وحتى الأطفال... أخذناهم معنا إلى فصيل المقاومة. لكنهم أطفال. فكيف ننقذهم؟ قرَّرنا إرسالهم إلى خطِّ الجبهة، لأنهم أصلاً هربوا من ملاجئ الأطفال إلى الجبهة. كانوا يمسكون بهم في القطارات، وعلى الطرقات. فيهربون من جديد، ويتوجَّهون إلى الجبهة.

إن التاريخ سوف يحاول مئات المرَّات تفسير ذلك؛ معرفة كيف كان هؤلاء الناس؟ ومن أين؟ أتتصوَّرين أن تذهب معي إلى المقاومة امرأة حامل؟ كانت تنتظر ولادة الطفل، كانت تحبُّه، كانت تريد أن تحيا. وكانت تخاف بالطبع؛ لكنها ذهبت للمقاومة... ليس من أجل ستالين، بل من أجل أبنائها؛ من أجل حياتهم المقبلة. لم تُرِد العيش راكعة على ركبتيها. لم تُرد الخضوع للعدو... ربَّما كنا عمياناً، ولن أنفي ذلك، كثير من الأشياء لم نكن نعرفها ولم نكن نفهمها، لكننا كنا عمياناً وصادقين أنقياء في الوقت نفسه. كنا نتكوَّن من قسمين، من حياتين. وعليكِ أن تفهمي هذا...

فيرا سيرغييفنا رومانوفسكايا، ممرِّضة في المقاومة

بدأ فصل الصيف... وتخرَّجت من المعهد الطبِّي المتوسِّط، وحصلت على الشهادة. وبدأت الحرب! استدعوني إلى دائرة التجنيد مع الأمر التالي: «لديك يومان لتهيِّئي نفسك. سنرسلك إلى الجبهة». جهَّزت حوائجي في حقيبة صغيرة.

- «ماذا تحملين معك إلى الحرب؟».

* «كراميل».

Twitter: @ketab_n

- «كيف؟»

* «حقيبة مليئة بالكراميل. في القرية التي أرسلوني للعمل فيها بعد تخرُّجي من المعهد، أعطوني مخصَّصاتي المالية، فاشتريت بجميع نقودي حقيبة كاملة من كراميل الشوكولا». كنت أعرف أنني لن أحتاج إلى النقود في الحرب. وفوق الكراميل وضعت صورة زملائي في الصف، حيث جميع زميلاتي. وذهبت إلى دائرة التجنيد. هناك سألوني: «إلى أين نرسلك؟». أجبت: «وإلى أين ستذهب صديقتي؟». لقد جئت معها إلى مقاطعة لينينغراد، وهي كانت تعمل في القرية المجاورة وتبعد خمسة عشر كيلومتراً. فضحك قائلاً: «لقد سألتْني السؤال نفسه». أخذوا حقيبتي من أجل نقلها إلى الشاحنة التي ستقودنا إلى المحطَّة: «حقيبتك ثقيلة، ماذا تحوي؟». «كراميل». فسكت. وتوقَّف عن الابتسام. ورأيت كيف أنه مُحرج قليلاً، حتى أنني شعرت بشيء من الخجل. لقد كان رجلاً متوسِّط العمر... وكان يعرف إلى أين يقودني...

ماريا فاسيليفنا تيخوميروفا، مساعدة طبيب

لقد تقرَّر مصيري على الفور...

كان ثمَّة إعلان معلَّق في دائرة التجنيد: «مطلوب سائقين». أنا، كنت قد أنهيت دورة قيادة السيَّارات، ومدَّتها ستَّة أشهر. حتى أنني لم أفكِّر في كوني معلِّمة (قبل الحرب، تخرَّجت من المعهد المتوسِّط التربوي). ومن يحتاج في الحرب إلى المعلِّمين؟ الحاجة ماسَّة إلى الجنود. نحن الفتيات كانت أعدادنا كبيرة. كتيبة كاملة من الناقلات.

ذات يوم، في أثناء التدريبات... لا أستطيع تذكُّر هذا دون أن تنسكب الدموع من عينيَّ... كان الفصل ربيعاً. انتهينا من تدريبات الرمي، وتوجَّهنا

Twitter: @ketab_n

في طريق العودة. جمعت طاقة صغيرة من زهور البنفسج، وربطتها بالحربة. وسِرت.

عدنا إلى المعسكر. صفَّ القائد الجميع، واستدعاني. خرجت من الصف... ونسيت أن طاقة البنفسج معلَّقة على بندقيتي. فبدأ يقرِّعني: «على الجنديِّ أن يكون جندياً وليس جامعاً للزهور». لم يكن يدرك، كيف يمكن التفكير في الزهور في مثل هذا الوضع. هذا أمر لا يفهمه الرجل. لكنني لم أرمِ الزهور. نزعتها من البندقية بتؤدة ووضعتها في جيبي. وبسبب زهور البنفسج عوقبت بالمناوبة ثلاث مرَّات خارج البرنامج...

مرَّة أخرى، أقف في مركز الحراسة. في الساعة الثانية ليلاً جاءت زميلتي المناوبة لتحلَّ محلِّي، فرفضتُ تسليمها. وأرسلتها لتنام: «أنت ستحرسين مكاني في النهار، وأنا أحرس الآن بدلاً منك». كنت موافقة على الوقوف طيلة الليل، حتى الصباح، كي أسمع أصوات الطيور. الليل وحده، كان يذكِّرني بحياتي السابقة، بالحياة السلمية.

عندما خرجنا من المدينة إلى الجبهة، وسرنا في الشوارع، شكَّل الناس الواقفون ما يشبه الجدار: نساء، كبار السن، أطفال. جميعهم كانوا يبكون: «الفتيات يذهبن إلى الجبهة». سِرنا كتيبة كاملة من الفتيات.

أنا، خلف المقود... نجمع القتلى بعد المعركة، كانوا صرعى مشتَّتين في الحقل كلِّه. وكلُّهم شباب في عمر الورود. وفجأة - فتاة ممدَّدة. فتاة شهيدة... فيلوذ الجميع بالصمت...

تامارا إيلاريونوفنا دافيدوفيتش، رقيب، سائقة شاحنة

كيف هيَّأت نفسي للذهاب إلى الجبهة... أنت لن تصدِّقي. كنت أظنُّ أن ذلك سيدوم لفترة قصيرة، وسننتصر بسرعة على العدو! أخذت

Twitter: @ketab_n

معي تنُّورة واحدة، وهي تنُّورتي المفضَّلة، وزوجين من الجوارب وحذاءً واحداً. تراجعنا عن مدينة فورونيج، لكنني أذكر كيف ركضنا إلى المخزن، واشتريت منه لنفسي حذاءً نسائياً بكعبٍ عالٍ.

ما زلت أذكر، أننا ننسحب، نتراجع، كلُّ شيء أسود، الدخان يغطِّي السماء، لكن المخزن أبوابه مفتوحة (عجيب!)، ولا أدري لماذا رغبت في شراء حذاء. ما زلت أذكر حتى الآن، كان حذاءً أنيقاً... كما اشتريت لنفسي عطراً...

من الصعب جدّاً على الفتاة أن تتخلّى دفعة واحدة عن الحياة التي أَلِفتْها. فالقلب، وليس القلب وحده، كامل جسدها يرفض ويقاوم. أذكر أنني ركضت من المخزن فرحة بهذا الحذاء، متحمِّسة سعيدة. بينما الدخان يغطِّي كلَّ شيء... وأصوات الانفجارات والقذائف... لقد كنت في الحرب وشاركت فيها، لكنني لم أرغب أبداً في التفكير بالحرب. لم أكن أصدِّق.

وكلُّ شيء كان يدوي ويقصف من حولي...

فيرا يوسيفوفنا خوريفا، طبيبة جرّاحة

حول الحياة والوجود

كنا نحلم... كنا نريد أن نحارب...

جمعونا في عربة قطار، وبدأنا التدريب. كلُّ شيء لم يكن كما كنا نتصوَّر في بيوتنا. كان لا بدَّ من الاستيقاظ باكراً، وطيلة اليوم في العمل والتدريب. لكن حياتنا السابقة كانت لا تزال تجري في دمائنا. كنا نمتعض عندما كان قائد الجماعة، الرقيب غولياييف، الذي أنهى الصفَّ الرابع من المدرسة فقط، يعلِّمنا النظام الداخلي، ويلفظ بعض الكلمات لفظاً غير

Twitter: @ketab_n

صحيح. كنا نفكِّر: وماذا يمكنه أن يعلِّمنا؟ وهو كان يعلِّمنا، كيلا نُقتل ونموت...

بعد الحجر الصحّي، وقبل أداء القسم، أحضر لنا العريف أوّل اللباس العسكري: معاطف، قبّعات، قمصان، تنانير، وبدلاً من القمصان الداخلية النسائية، قمصان رجولية بأكمام طويلة مخيطة من القطن السميك، وبدلاً من لفائف السيقان - جوارب نسائية طويلة وجزمات عسكرية أمريكية ثقيلة بنعال حديدية. كنت في السرية من حيث طولي وقامتي أصغر الجميع، طولي مئة وثلاثة وخمسون سنتمتراً، ومقاس حذائي خمسة وثلاثون، وبالطبع مصانع الأحذية العسكرية لا تصنع مثل هذا المقاس، لا سيَّما أن أمريكا لم تزوِّدنا بمثل هذه المقاسات. استلمت جزمة بقياس اثنين وأربعين، كنت أرتديها وأنزعها بدون استخدام الشرائط، ثقيلة للغاية، بحيث كنت أمشي وأسحب قدمي على الأرض. كانت تصدر الشرارات من خطوتي في الصفِّ على الرصيف الحجري، ومشيتي كانت تشبه أيَّ شيء ما عدا مشية العسكري. أتذكَّر بفظاعة ورعب خطواتي العسكرية الأولى. كنت مستعدَّةً للقيام بمأثرة وبطولة ولست مستعدَّة لارتداء حذاء عسكريٍّ مقاسه اثنان وأربعون بدلاً من مقاسي خمسة وثلاثين. كم كانت صعبة! وكم كانت شنيعة!

شاهدني القائد كيف أمشي، فاستدعاني من الصف: «سميرنوفا، كيف تمشين هذه المشية؟ أوَ لم يعلِّموك المشي في الصف؟ لماذا لا ترفعين رجليك؟ أعاقبك بثلاث مناوبات حراسة خارج الدور».

* «حاضر، أيُّها الرفيق الملازم أوّل، ثلاث نوبات خارج الدور!».

استدرت كي أمشي، فوقعت. وخرجت جزمتي من قدميَّ... كانت قدماي مطموستين بالدم...

عندها اتضح أن من غير الممكن لي السير بهذه الجزمة. وأُعطي أمر

Twitter: @ketab_n

لحذّاء السرية بأن يخيط لي جزمة من رداء مشمعي قديم؛ جزمة بمقاس خمسة وثلاثين...

نونّا ألكسندروفنا سميرنوفا، جندية مدفعية مضادّة للطائرات

كم كان هناك من المواقف المضحكة!

الانضباط، أنظمة الخدمة العسكرية، شارات الرتب؛ كلُّ هذه الأحكام العسكرية لم نأخذها دفعة واحدة على الفور. نقف، نحرس الطائرات. وقد ورد في أنظمة الخدمة، إذا ما رأيت أحداً يسير قربك، يجب إيقافه: «قفْ، من أنت؟». شاهدت صديقتي قائد الفوج فصرختْ: «قفْ، من أنت؟ اعذرني، لكنني سأطلق النار!». تصورَّي. إنها تصرخ: «اعذرني، لكنني سأطلق النار!».

اعذرني... كان موقفاً مضحكاً...

أنطونينا غريغوريفنا بونداريفا، ملازم، قائد طائرة متقدِّم

جاءت الفتيات إلى المدرسة الحربية بجدائل طويلة... وبتسريحات نسائية... كانت ضفائري تحيط برأسي... فكيف أغسلها؟ وأين أجفِّفها؟ غسلت شعري لتوِّي، وفجأة إنذار الخطر، عليكِ أن تركضي. قائدتنا مارينا راسكوفا أمرت جميع المجنَّدات بقصِّ ضفائرهنَّ. كانت الفتيات يقصصن شعورهنَّ باكيات. أمَّا ليليا ليتفياك، التي أصبحت قائدة طائرة مجيدة، فلم تستطع مفارقة ضفيرتها.

ذهبت إلى القائدة راسكوفا: «أيُّها القائد. نُفِّذ الأمر، باستثناء ليتفياك؛ رفضت».

بالرغم من دماثتها النسائية، كانت مارينا راسكوفا قائدة صارمة.

Twitter: @ketab_n

صرفتْني قائلة: «أية منظَّمة حزبية أنت، إذا لم تتمكَّني من تنفيذ الأمر! إلى الوراء دُرْ!».

الفساتين، الأحذية النسائية ذات الكعب العالي... كم كنا نشعر بالشفقة عليها! نضعها في الأكياس. نهاراً كنا بجزماتنا العسكرية، أمَّا مساء فكنا نرتدي الأحذية النسائية أمام المرآة ولو لفترة وجيزة. شاهدتنا القائدة راسكوفا، وبعد بضعة أيَّام صدر الأمر العسكري: إرسال جميع الثياب والأحذية النسائية في طرود، كلٌّ إلى بيتها. نعم، هكذا! بالمقابل، أتقنَّا دراسة الطائرة الجديدة وقيادتها خلال ستَّة أشهر بدلاً من سنتين، كما هو مفروض في وقت السلم.

في أيَّام التدريب الأولى، استشهد طاقمان. وضعوا أربعة توابيت، من الأفواج الثلاثة. جميعنا بكينا بكاءً مُرَّاً.

ألقت القائدة راسكوفا كلمة، قالت: «صديقاتي، امسحن دموعكنَّ. هذه خسائرنا الأولى. وستكون أخرى كثيرة. اضغطن قلوبكنَّ بقبضاتكن...».

بعد ذلك، في أثناء الحرب، كنا ندفن بدون دموع. توقَّفنا عن البكاء.

كنا نطير على طائرات مطارِدة مدمَّرة. والارتفاع الشاهق وحده كان عبئاً كبيراً بالنسبة إلى جسم الأنثى، أحياناً، كانت بطوننا تنكمش إلى العمود الفقري. وقد حلَّقت فتياتنا ودمَّرت الطائرات الألمانية، وأية طائرات! نعم، هكذا. أتعرفين؟ عندما كنا نسير، كان الرجال ينظرون إلينا بدهشة: الفتيات الطيَّارات يسرن. كانوا معجبين بنا...

كلافديا إيفانوفنا تيريخوفا، نقيب في سلاح الجو

في الخريف، استُدعيت إلى دائرة التجنيد... استقبلني المدير وسألني: «هل تُحسنين القفز؟». اعترفت بأنني أخاف. شجَّعني طويلاً على الانتساب

Twitter: @ketab_n

إلى قوّات الإنزال: بذلاتهم العسكرية جميلة، وتُقدَّم لهم الشوكولا كلّ يوم. لكنني منذ طفولتي كنت أخاف المرتفعات. «أتريدين الالتحاق بالمدفعية المضادَّة للطائرات؟». وهل أعرف أنا ما هي المدفعية المضادَّة للطائرات؟ عندها اقترح عليَّ: «تعالي لنرسلك إلى فصيل المقاومة».

- «وكيف أراسل أمّي في موسكو من هناك؟».

تناول قلماً أحمرَ، وكتب على وثيقة تعييني: "جبهة السهوب...

في القطار، أحبَّني ضابطٌ شابٌّ برتبة نقيب. ووقف طيلة الليل في عربتنا. كان قد سُرِّح من الخدمة، وأُصيب بعدَّة جروح. نظر إليَّ طويلاً، وقال: «فيروتشكا، ولكن، لا تنحدري بمستواكِ، لا تتحوَّلي إلى فتاة فظَّة، خشنة. أنت الآن في غاية النعومة والظرافة. لقد سبق أن رأيت كلَّ شيء!». وتابع بعد ذلك، على المنوال نفسه، على نحو يصعب على المرء أن يخرج طاهراً، نقياً من الحرب... من جهنَّم.

شهراً كاملاً تنقَّلت وصديقتي حتى وصلنا إلى جيش الحرس الرابع للجبهة الأوكرانية الثانية. أخيراً، وصلنا. خرج كبير الجرَّاحين لعدَّة دقائق، فنظر إلينا، وطلبنا إلى غرفة العمليات: «هذا هو مكتب عملياتكن...». السيَّارات الصحِّية تتوارد واحدة إثر أخرى، إنها سيَّارات كبيرة ماركة "ستودبيكر". الجرحى مستلقون على الأرض، على النقَّالات. وجَّهنا إليه سؤالاً واحداً: «من نأخذ أوَّلاً؟».

- «من يلوذ بالصمت...».

بعد ساعة، كنت أقف خلف سرير العمليات، وبدأت بإجراء العمليات. وبدأ العمل... أُجري العمليات أيّاماً متواصلة، أغفو لفترات قليلة، ثمَّ أفرك عينيَّ بسرعة، وأغسل وجهي؛ ومن جديد وراء طاولة العمليات. أُجري العمليات لاثنين من الجرحى، والثالث ميت. لم نتمكَّن من مساعدة الجميع. الثالث ميت...

Twitter: @ketab_n

في محطَّة جميرينكا تعرَّضنا لقصف رهيب. توقَّف القطار الصحّي، وركضنا خارجه. يوم أمس فقط قمنا بعملية استئصال الزائدة الدودية لمعاون القائد للشؤون السياسية، واليوم خرج وركض هو أيضاً. أمضينا الليلة كلَّها في الغابة، وطاقمنا تحوَّل إلى أشلاء. وفي الصباح الباكر، بدأت الطائرات الألمانية المحلِّقة على ارتفاع منخفض بتطهير الغابة. إلى أين نذهب؟ لا يمكننا حفر الأرض مثل الخلد. أمسكت بشجرة البتولا ووقفت: «آه، يا أمِّي! هل سأموت؟ سأحيا، وأكون أسعد إنسان في الكون». كلُّ من حدَّثته فيما بعد، وكيف تمسكَّت بشجرة البتولا، كان يضحك. فمن السهولة بمكان إصابتي! أقف بقامتي كلِّها، وشجرة البتولا بيضاء... واي!

صادفت عيد النصر في فيينا. ذهبنا إلى حديقة الحيوانات، كنت أتلهَّف لرؤيتها. كان من الممكن أن أذهب لزيارة معسكر الاعتقال. جميع معارفي اتَّصلوا بي، دلُّوني على الطريق. ولم أذهب... الآن، أستغرب: لماذا لم أذهب؟ كنت أريد رؤية شيء مفرح، مضحك. أردت رؤية شيء ما من حياة أخرى...

فيرا فلاديميروفنا شيفالديشيفا، ملازم أوَّل، جرَّاح

كنا ثلاثة... ماما وبابا وأنا. كان أبي أوَّل من ذهب إلى الجبهة. أرادت أمِّي الالتحاق بالجبهة مع أبي، فهي ممرِّضة، لكنهم أرسلوا أبي في اتِّجاه، وأرسلوا أمِّي في اتِّجاه آخر. وكنت أنا في السادسة عشرة من عمري... أردت الالتحاق أيضاً بالجبهة، ولكن طلبي رُفض. عدَّة مرَّات ذهبت إلى دائرة التجنيد، بعد مضيٍّ سنة أخذوني.

ركبنا القطار، وسرنا فيه طويلاً. كان معنا في القطار الجنود الشباب الذين كانوا يتعالجون في المستشفيات العسكرية. حدَّثونا عن الجبهة،

Twitter: @ketab_n

وكنا جالسات بأفواه مفتوحة، نُصغي إلى أحاديثهم. قالوا لنا: «سوف يطلقون النار عليكم». ونحن نجلس وننتظر: متى سيبدأ إطلاق النار؟ كي نعود، ونقول: أطلقوا علينا النار.

وصلنا. لم يضعونا خلف البنادق، بل خلف المراجل، خلف المذاود. كانت الفتيات من عمري، قبل هذا كان أهلنا يحبُّوننا، يدلِّلوننا. أنا كنت الطفل الوحيد في الأسرة. وهنا، علينا نقل الحطب، وإشعال الأفران والمواقد. ثمَّ أخذنا نضع الرماد في المواقد بدلاً من الصابون، لأن الصابون سيحضرونه، والآن ليس عندنا صابون. الغسيل قذر، مغطًّى بالدماء... وثقيل جدّاً في الشتاء، بسبب الدم...

سفتلانا فاسيليفنا كاتيخينا، مجنَّدة في فرقة الغسيل والتنظيف

ما زلت حتى الآن أذكر جريحي الأوَّل... أذكر وجهه... كان يعاني من كسر مفتوح في الثلث الأوسط من الفخذ. تصوَّري، العظم بارز، وشظايا الجرح، كلُّ شيء مقلوب ومفتوح. وهذا العظم... كنت أعرف، نظرياً، ماذا يجب عليَّ أن أفعل، ولكن عندما زحفت نحوه ورأيت هذا كلَّه، شعرت بالدوار، بالغثيان. وفجأة سمعت صوته: «أختي، اشربي ماء». هذا الجنديُّ الجريح خاطبني وأشفق عليَّ. هذه اللوحة لا تزال حاضرة حتى الآن أمام عينيَّ. وما إن قال ذلك حتى صحوت وقلت لنفسي: «أنت أيَّتها الفتاة الناعمة! الإنسان يموت، وأنت أيَّتها المخلوقة الناعمة شعرتِ بالغثيان». فتحت كيساً فردياً وغطَّيت جرحه؛ فشعرت بتحسُّن. ثمَّ قدَّمت له المساعدة الطبِّية، كما يجب.

أشاهد الآن الأفلام السينمائية الحربية: ممرِّضة في الخطِّ الأول من الجبهة، تسير أنيقة، نظيفة، بالتنُّورة وليس بالبنطال القطنيِّ العسكري،

Twitter: @ketab_n

وسترة واقية على كتفها. أصحيح هذا؟! وهل كان في إمكاننا سحب جريح إذا كنا مثلها؟ لن تزحفي كثيراً بالتنُّورة، حيث الرجال حولك من كلِّ جانب. وللحقيقة، أقول: لم يعطونا التنانير إلا في نهاية الحرب، كثياب للخروج. وعندها سلَّمونا أيضاً ألبسة نسائية داخلية بدلاً من اللباس الداخلي الرجولي؛ لم تسعنا الدنيا من السعادة. وكنا نفتح أزرار القميص العلوية، كي تظهر أثداؤنا.

صوفيا كونستانتينوفنا دوبيانكوفا، رقيب أوَّل، معاونة طبيب

قصف... يقصفون، ويقصفون، ويقصفون. ركض الجميع كلٌّ باتِّجاه... وأنا أركض. أسمع أنيناً وصوتاً: «ساعدوني... ساعدوني...». لكنني أركض... بعد بضع دقائق، راجعت نفسي، شعرت بالحقيبة الصحِّية على ظهري. وشعرت بالخجل. أين ذهب خوفي؟! ركضت عائدة إلى الخلف: جنديٌّ جريحٌ يئنُّ. ركضت نحوه وربطت الجرح. ثمَّ الجندي الثاني، فالثالث...

انتهت المعركة ليلاً. وفي الصباح سقط ثلج طري، وتحته القتلى... كانت أيدي كثيرين منهم مرفوعة للأعلى... إلى السماء... اسأليني: ما هي السعادة؟ أجيب... أن أعثر بين القتلى على جريح، على إنسان حي...

آنَّا إيفانوفنا بيلياي، ممرِّضة

رأيت القتيل الأوَّل... وقفت فوقه أبكي... حِداداً... وهنا جريح يناديني: «اربطي رجلي!». كانت رجله تتدلَّى في ساق البنطال، قطعت رجله: «ضعي رجلي هنا، على مقربة مني!». وضعتها. إذا ما كانوا في وعيهم، لا يسمحون بترك يد أو قدم لهم. وإذا كانوا ينازعون، يرجون دفن كلِّ قطعة من جسمهم معاً.

Twitter: @ketab_n

في الحرب كنت أفكِّر: لن أنسى شيئاً. لكن الإنسان ينسى...

شابٌّ فتي، جميل، ويرقد ميتاً. كنت أتصوَّر أن جميع القتلى الشهداء يدفنونهم بالمراسم العسكرية، لكن تبيَّن أنهم يأخذون الشهيد ويجرُّونه إلى شجرة جوز. يحفرون القبر... وبدون تابوت، بدون أيِّ شيء، يضعونه في الحفرة ويغطُّونه بالتراب. فالشمس ساطعة، تسطع عليه أيضاً... إنه نهارٌ صيفيٌّ دافئ... لم يكن هناك معاطف، ولا أيُّ شيء آخر. يتركونه في قميصه، وبنطاله، وكما كان، لا تزال بذلته جديدة، يبدو أنه وصل حديثاً إلى الجبهة. وضعوه كما هو في الحفرة وغطُّوه بالتراب. لم تكن الحفرة عميقة، بل بما يكفي لاستلقائه. لم يكن الجرح كبيراً. لكنه جرح قاتل؛ في صدغه، لكن الدم كان قليلاً، وهو يرقد مستلقياً، كالإنسان الحي، إلا أنه شاحب اللون جدّاً.

بعد تبادل إطلاق النار بدأ القصف. قصفوا هذا المكان بالقنابل. لا أدري ماذا بقي هناك...

كيف كانوا يدفنون القتلى في المناطق المحاصرة؟ هنا، على مقربة من الخندق، حيث كنا نجلس، حفروا حفرة، وانتهى الأمر. كانت تبقى حدبة القبر المرتفعة وحدها. ولكن، بالطبع، إذا ما أعقب ذلك قدوم الألمان أو الدبَّابات، فسوف يدوسونه. وتبقى أرضاً عادية، دون أيِّ أثر. وكثيراً ما كانوا يدفنون القتلى في الغابة تحت الأشجار... تحت أشجار البلُّوط أو البتولا...

لا يمكنني حتى الآن السير في الغابة. وخاصَّة، حيث توجد أشجار البلُّوط أو البتولا القديمة... لا يمكنني الجلوس هناك...

أولغا فاسيليفنا كورج، معاونة طبيب في سرب الخيَّالة

Twitter: @ketab_n

في الجبهة، اختفى صوتي... صوتي جميل...

عاد صوتي إليَّ عندما عدت إلى بيتي. مساءً، اجتمع الأهل والأقرباء، شربوا قليلاً: «فيركا، هيَّا، غَنِّ». وغنَّيت...

عندما غادرت إلى الجبهة كنت مادِّية؛ ملحدة. غادرت إلى الجبهة تلميذة سوفييتية جيِّدة، تلقَّت تعليمها جيِّداً. أمَّا هناك... في الجبهة... هناك بدأت أصلِّي! كنت دائماً أتضرَّع إلى الله قُبيل المعركة، وأقرأ صلواتي... كلمات بسيطة... كلماتي... ومعناها واحد: أن أعود إلى ماما وبابا. لم أكن أعرف الصلوات الحقيقية، ولم أعرف الكتاب المقدَّس ولم أقرأه. لم يرَ أحد كيف كنت أصلِّي. كنت أصلِّي سِرَّاً. كنت أصلِّي خفية، وبحذر. لأننا... كنا أناساً آخرين، آنذاك كان يعيش أناس آخرون. أتفهمينني؟ كنا نفكِّر... ندرك بطريقة أخرى... لأن... سأروي لك حادثة... ذات مرَّة، وصل مع القادمين الجدد رجل مؤمن، وكان الجنود يضحكون عندما كان يصلِّي قائلين: «قلْ لنا، هل ساعدك ربُّك؟ لو كان موجوداً، كيف يحتمل كلَّ هذا؟». لم يكونوا يصدِّقون كيف أن ذلك الرجل الذي صرخ على أقدام المسيح المصلوب، لو كان هو يحبُّك، لماذا لا ينقذك؟ بعد الحرب قرأت الكتاب المقدَّس... والآن أقرأه دوماً طيلة حياتي... ذلك الجنديُّ المؤمن، كان رجلاً كهلاً، لم يُرِدْ إطلاق النار. رفض قائلاً: «لا يمكنني! لن أقتل!». وافق الجميع على القتل، أمَّا هو فلم يوافق. وفي أيِّ عصر؟ في عصر رهيب... لأنه... أُحيل إلى المحكمة العسكرية، وبعد يومين حُكم بالإعدام رمياً بالرصاص... طاخ! طاخ!

كان عصراً آخر... وأناساً آخرين... كيف يمكنني أن أشرح لك؟ كيف...

من حسن حظِّي، لم أرَ أولئك الأشخاص الذين كانوا يَقتلون... ولكن... على أية حال... الآن أدرك أنني كنت أقتل. أفكِّر في هذا... لأن...

Twitter: @ketab_n

لأنني أصبحت امرأة عجوزاً. إنني أصلِّي من أجل روحي. وقد أوصيت ابنتي بأن تأخذ جميع مكافآتي وميدالياتي، بعد موتي، إلى الكنيسة وليس إلى المتحف. وأن تعطيها لراعي الكنيسة... إنهم يفدون إليَّ في الحلم... القتلى... قتلاي... مع أنني لم أرهم يوماً. لكنهم يأتونني وينظرون إليَّ. أبحث فيما بينهم بعينيَّ الاثنتين، ربَّما أحدهم جريح، وليكن بجرح بليغ، ولكن يمكن إنقاذه. لا أعرف كيف أقول... لكنهم جميعاً أموات...

فيرا بوريسوفنا سانغير، رقيب مدفعية مضادَّة للطائرات

كان أصعب وأكره شيء بالنسبة إليَّ، عمليات البتر... وكانت عمليات بتر الأطراف تجري في مواضع مرتفعة، فيقطعون الرجل، وأنا بالكاد أمسك بها، وأحملها، كي أضعها في الحوض. أذكر أن الأرجل كانت ثقيلة جدًّاً. آخذها بهدوء، كيلا يسمع الجريح، أمسكُ بها... كطفل صغير... وخاصَّة عندما يكون البتر في مواضع مرتفعة بعد الركبة. لم أتمكَّنْ من الاعتياد عليها. والجرحى يئنُّون تحت المخدر، أو يشتمون. يشتمون شتائم روسية مريعة. كنت دائماً مغطَّاة بالدم... وهو دم خارجي أسود...

لم أكتبْ لأمِّي شيئاً عن هذا. كنت أكتب أن كلَّ شيء جيِّد، أرتدي الملابس الدافئة. فقد أرسلت ثلاث بنات منا إلى الجبهة، كانت في وضع قاسٍ للغاية...

ماريا سيليفستروفنا بوجوك، ممرِّضة

وُلدتُ ونشأت في القرم... بالقرب من أوديسًا. في العام الحادي والأربعين، أنهيت الصفَّ العاشر من مدرسة سلوبودكا في منطقة كورديمسك. عندما بدأت الحرب، كنت أصغي إلى الراديو في الأيَّام

Twitter: @ketab_n

الأولى. وفهمت أننا نتراجع... ركضت إلى دائرة التجنيد، فأعادوني إلى البيت. ثمَّ ذهبت إليها مرَّتين، وكان الرفض جواباً لطلبي. في الثامن والعشرين من تمُّوز، تحرَّكتْ عبر قريتنا، سلوبودكا، وحداتنا العسكرية المنسحبة، فالتحقت بهم إلى الجبهة، بدون أيِّ إخطار.

عندما رأيت جريحاً للمرَّة الأولى أُغميَ عليَّ. بعد ذلك اعتدت. عندما زحفت تحت الرصاص أوَّل مرَّة لإمساك الجنديِّ الجريح، صرخت صراخاً بدا لي أقوى من صوت رصاص المعركة. ثمَّ اعتدت. بعد عشرة أيَّام أُصبت بجرح، فنزعت شظايا القذيفة بيدي، وضمَّدتها بنفسي.

في الخامس والعشرين من كانون الأوَّل/ ديسمبر... احتلَّت فرقتنا الـ 333 من الجيش السادس والخمسين مرتفعاً على مشارف ستالينغراد. قرَّر العدوُّ استرجاعه بأيِّ ثمن. ودارت معركة كبيرة. تحرَّكت نحونا الدبَّابات، لكنَّ مدفعيَّتنا أوقفتْها؛ فتراجع الألمان إلى الوراء، وبقي في المنطقة المحايدة الضابط المدفعيُّ كوستيا خودوف جريحاً. وقد قُتل جميع الممرِّضين الذي حاولوا جرَّه. زحف كلبان تابعان لعناصر التمريض (رأيتهما للمرَّة الأولى هناك)، لكنهما قُتلا أيضاً. عندئذ، رفعت القبَّعة التي تغطِّي أذنيَّ، ووقفت بطول قامتي، ثمَّ بدأت أُنشِد، بصوت هادئ أوَّلاً، ثمَّ بصوت عالٍ جدّاً، أغنيتنا المفضَّلة قبل الحرب "لقد ودَّعتك إلى المأثرة". فصمت الجميع من الجانبين، من جانبنا ومن الجانب الألماني. اقتربت من كوستيا، وانحنيت، ووضعته على النقَّالة، ونقلته إلى العربة الزلاقة إلى جانبنا. أسير، وأفكِّر في نفسي: «المهمُّ ألَّا يطلقوا النار على ظهري، فليطلقوا النار على رأسي». الآن... الآن... الدقائق الأخيرة من حياتي... الآن! فهل سأشعر بالألم أم لا؟ كم كان رهيباً يا أمِّي! ولكن، لم تُسمع أية طلقة...

كانت البذلات العسكرية تنقصنا باستمرار. أعطونا بذلة جديدة، وبعد

Twitter: @ketab_n

يومين تلطَّخت كلُّها بالدماء. كان أوَّل جريح عندي هو الملازم أوَّل بيلوف، أمَّا آخر جريح كان لديَّ فهو سيرغي تروفيموف، رقيب فصيلة الهاون. وقد حلَّ ضيفاً عليَّ في العام سبعين، وأظهرت لِبَناتي رأسه الجريح، حيث تظهر عليه ندبة كبيرة حتى الآن. وقد بلغ مجموع من أنقذتهم من تحت النيران أربعمئة وواحداً وثمانين جريحاً. وقد حسبهم أحد الصحفيين، فتبيَّن أنهم يشكِّلون كتيبة مدفعية كاملة... كنا نحمل الرجال، وهم أثقل منا بكثير. والجرحى يكونون أثقل عادة. فأنتِ تحملينه وتحملين معه سلاحه، ومعطفه وجزمته العسكرية. تضعين فوق ظهرك ثمانين كيلوغراماً وتحملينه. تضعينه...ثمَّ تنتقلين إلى الجريح التالي، وثانية سبعين - ثمانين كيلوغراماً... وهكذا خمس أو ستَّ مرَّات خلال هجوم واحد. أمَّا وزنك أنتِ فهو ثمانية وأربعون كيلوغراماً؛ كوزن راقصة الباليه. الآن، لا أصدِّق... أنا، لا أصدِّق نفسي الآن...

ماريا بتروفنا سميرنوفا (كوخارسكايا)، مرشدة طبِّية

العام الثاني والأربعون... نسير في مهمَّة عسكرية. اخترقنا خطَّ الجبهة، وتوقَّفنا أمام مقبرة. كنا نعرف أن الألمان على بعد خمسة كيلومترات منا. كان الوقت ليلاً، وكانوا يطلقون دوماً صواريخ كشَّافة، ذات مظلَّة، وهذه الصواريخ الكشَّافة ذات المظلَّة تبقى مشتعلة طويلاً وتنير المكان كلَّه. قادني رئيس الفصيلة إلى طرف المقبرة، وأظهر لي من أين تنطلق هذه الصواريخ، حيث مجموعة شجيرات، يمكن للألمان أن يظهروا منها. أنا لا أخاف من الأموات، ومنذ طفولتي لم أكن أخاف من المقابر، لكن عمري كان اثنتين وعشرين سنة، وهذه أوَّل مرَّة أقف فيها في موقع مراقبة... خلال هاتين الساعتين شاب شعري... الشعرات البيضاء الأولى، وقد اكتشفت صباحاً جانباً من شعري وقد أصبح أبيض اللون. كنت واقفة أنظر إلى هذه

Twitter: @ketab_n

الشجيرات، كانت تتحرَّك، وبدا لي أن جنوداً ألماناً يخرجون منها... ثمَّ كائنات أخرى... ممسوخة... وأنا واقفةٌ وحدي...

وهل الوقوف ليلاً في موضع المراقبة في المقبرة عمل نسائي؟ الرجال كانوا ينظرون بطريقة أبسط إلى كلِّ شيء، وهم كانوا مستعدِّين لفكرة أن من الواجب الوقوف في المحرس، ومن الواجب إطلاق النار... أمَّا بالنسبة إلينا فكان هذا مفاجئاً. أو السير مسافة ثلاثين كيلومتراً، مع المعدَّات القتالية. وفي الحرِّ، حتى الجياد كانت تتساقط...

فيرا سيرافيموفنا دافيدوفا، جندية مشاة

تسألينني، ما هو الأشدُّ رهبةً في الحرب؟ تنتظرين مني الجواب... أنا أعرف ماذا تنتظرين... تعتقدين أنني سأجيب: الموت هو الأكثر رهبة في الحرب. الموت.

أليس كذلك؟ أنا أعرف شقيقك... مداعبات صحفية... ها-ها-ها... لماذا لا تضحكين؟

أنا سأقول شيئاً آخر... ما هو أشدُّ رهبة في الحرب، بالنسبة إليَّ، أن أرتدي كلسوناً رجولياً. هذا فعلاً كان رهيباً! هذا بالنسبة إليَّ... لن أتمكَّن من التعبير... أوَّلاً، منظر شنيع... أنت في الحرب، تنوين الموت في سبيل الوطن، وأنتِ ترتدين كلسوناً رجولياً. عموماً، منظرك مضحك. بشكل أخرق. كانوا يلبسون آنذاك كلاسين طويلة، عريضة. كانت تُخاط من الساتان. عشر فتيات في مخبئنا، وكلهنَّ يرتدين كلاسين رجولية. آه، يا إلهي! صيفاً وشتاءً. أربع سنوات.

اجتزنا الحدود السوفييتية... أمسكنا بالوحش في عرينه، كما كان يقول مفوَّضنا في دروس التوجيه السياسي. على مقربة من القرية البولونية

Twitter: @ketab_n

الأولى، أعادوا النظر في لباسنا، قدَّموا لنا بذلات عسكرية جديدة و... ولأوَّل مرَّة أعطونا كلاسين نسائية وحمَّالات للصدر. للمرَّة الأولى منذ بداية الحرب. ها-ها-ها... مفهوم... رأينا اللباس الداخلي النسائي العادي...

لماذا لا تضحكين؟ أنتِ تبكين... ولكن لماذا؟

لارا أخميتوفا ريادوفايا، رامية مشاة

لم يأخذوني إلى الجبهة... كان عمري ستَّة عشر عاماً، بقي عام كامل كي أبلغ السابعة عشر من عمري. أخذوا من عندنا مضمِّدة إسعافية، أحضروا لها كتاب الدعوة. كانت تبكي بكاء شديداً، فقد بقي عندها في البيت صبيٌّ صغير لوحده. ذهبت إلى دائرة التجنيد: «خذوني بدلاً منها». لكن أمِّي لم تسمحْ لي: «نينا، كم عمركِ؟ ربَّما تنتهي الحرب قريباً». الأمُّ هي الأم.

كان المقاتلون يقتصدون ليوفِّروا لي قطعة من الكعك أو قطعة من السكَّر. كانوا يوفِّرون من أجلي. لم أكن أعرف أن قاذفة "كاتيوشا" كانت تقف وراءنا لحمايتنا. بدأت تقصف. "الكاتيوشا" تقصف وأصوات الرعد من حولنا، وكلُّ شيء يحترق. لقد خفت من هذا كلِّه، من هذا الرعد والنار والضجَّة، لدرجة أنني سقطت في بركة، وفقدت قبَّعتي. والجنود المقاتلون يضحكون: «ماذا بك، يا نينا؟ ماذا بك، يا عزيزتي؟».

هجوم الالتحام... ماذا رسخ في ذهني؟ أذكر طقطقة وأصوات تكسير... يبدأ الالتحام: ويحلُّ هذا التكسير والطقطقة على الفور - تتكسَّر الغضاريف، وتصدر أصوات الطقطقة من العظام البشرية. وصرخات وحشية رهيبة... عندما يبدأ الهجوم، أنا أسير مع المقاتلين، ولكن متخلِّفةً

Twitter: @ketab_n

عنهم قليلاً إلى الوراء، بجانبهم. كلُّ شيء أمام عينيَّ... يقهر الرجال أحدهم الآخر... يُجهز أحدهم على الآخر، يكاسره، يضربه بالحربة في الفم، في العين... في القلب، في البطن... وهذا كيف أصفه؟ أنا ضعيفة.. أضعف من الوصف... بكلمة واحدة، النساء لا يعرفن مثل هؤلاء الرجال. لم يرين مثلهم في بيوتهنَّ. لا النساء ولا الأطفال يعرفون أمثالهم.. أشياء مخيفة رهيبة...

بعد الحرب، عدت إلى بيتي في مدينة تولا. في الليالي كنت أصرخ دوماً. كانت أمِّي وشقيقتي تجلسان معي... كنت أستيقظ من صراخي...

نينا فلاديميروفنا كوفيلينوفا، رقيب أوَّل، مضمِّدة طبيِّة في سَرِية المشاة

وصلنا إلى ستالينغراد... كانت تدور معارك مميتة. المكان الذي شهد أكبر عدد من القتلى... كان الماء والأرض بلون أحمر... وكان علينا أن نعبر نهر الفولغا من الضفَّة إلى الضفَّة الأخرى. لم يسمعنا أحد، ولا يريد أن يسمعنا: «ماذا يا فتيات؟ ومن يحتاجكنَّ هناك! نحن في حاجة إلى رماة ورجال مدفعية، ولسنا في حاجة إلى عاملات لاسلكي». وكانت أعدادنا كثيرة؛ ثمانين فتاة. في المساء قرَّروا أخذ الفتيات الأكبر سنّاً، ولم يوافقوا على أخذي أنا وفتاة أخرى. صغيرات، قصيرات القامة. لم تكبرن بعد. أرادوا تركنا في الاحتياط، لكنني صحت وأصدرت ضجَّة كبيرة...

في المعركة الأولى دفعني الضبَّاط من المتراس، كنت أرفع رأسي، كي أرى كلَّ شيء بعيني. أيُّ فضول كان عندي آنذاك! فضول طفولي... سذاجة! صرخ القائد: «المجنَّدة سيميونوفا! المجنَّدة سيميونوفا! هل فقدت عقلك؟! مثل هذا قد يقتل أمَّك، ويقتلك!». هذا ما لم أستطع أن أفهمه: كيف يمكنه أن يقتلني، إذا كنت قد وصلت لتوِّي إلى الجبهة؟ لم

Twitter: @ketab_n

أكن أعرف ما هو الموت العادي والموت نتيجة الجهل، وإذا ما حلَّ عليك فلا يمكنك أن تبعده.

نقلونا على شاحنات قديمة؛ الحشد الشعبي. متقدِّمون في السنِّ وفتيان صغار. أعطوا كلَّ واحد منهم رمَّانتين وأرسلوهم إلى المعركة بدون بنادق. كان يجب الحصول على البندقية في أثناء المعركة. وبعد المعركة، لم يكن هناك من نضمِّده ونسعفه... الجميع قتلى...

نينا ألكسييفنا سيميونوفا، جندية، عاملة لاسلكي

اجتزت الحرب من بدايتها إلى نهايتها...

جررت الجريح الأوَّل، حتى أن قدميَّ تخاذلتا. أجرُّ وأردِّد: «أرجو أن يبقى حيّاً... أرجو أن يبقى حيّاً...». أضمِّد له جرحه وأبكي، وأقول له بعض الكلمات الحنونة. مرَّ بجانبي القائد، وصرخ عليَّ بشدة، حتى وكأنه شتمني...

- «ولماذا صرخ عليك؟».

* «كان من الممنوع، البكاء والشفقة، كما فعلت. أستنفد قواي، في حين أن الجرحى كثيرون».

نتحرَّك، ونرى القتلى مسطَّحين، حليقي الشعر ورؤوسهم خضراء، كالبطاطا، من الشمس. ومشتَّتين، كالبطاطا... فكما ركضوا، بقوا ممدَّدين على الحقل المحروث... كحبَّات البطاطا...

يكاتيرينا ميخائيلوفنا رابشايفا، جندية، مرشدة طبيَّة

لن أقول لك أين حدث هذا... في أيِّ مكان... ذات مرَّة مئتا جريح في حظيرة، وأنا وحدي. نُقل الجرحى للتوِّ من ساحة المعركة، أعدادهم

Twitter: @ketab_n

كثيرة. هذا حدث في إحدى القرى... لا أذكر اسمها، فكم من السنين مرَّت! أذكر أنني لأربعة أيَّام لم أعرف طعماً للنوم أو للجلوس. كلٌّ منهم كان يصرخ: «يا أختي! يا أختي! ساعديني يا عزيزتي!». كنت أركض من جريح إلى آخر. ذات مرَّة، تعثَّرت وسقطت على الأرض، وغفوت على الفور. استيقظت على صوت الصراخ. قائد، ملازم شاب، جريح أيضاً، ارتقى على جانبه غير المصاب وصرخ: «اصمت! اصمت، أنا آمركم!». فقد أدرك، أنني منهكة، واستنفدت قواي، والجميع ينادونني بسبب ألمهم: «أختي! أختي!». فنهضت، وركضت، ولا أدري إلى أين، ولماذا. وآنذاك، ولأوَّل مرَّة منذ أن وصلت إلى الجبهة، استسلمت للبكاء.

أقول... إن الإنسان لا يعرفُ أبداً قلبه. شتاءً، اقتادوا أمام وحدتنا جنوداً أسرى ألماناً. كانوا يسيرون مرتجفين من شدَّة البرد، وقد غطُّوا رؤوسهم بقطع من البطَّانيات، بمعاطف محروقة. وكان الصقيع شديداً لدرجة أن الطيور ما إن تطير حتى تسقط. لقد تجمَّدت الطيور. وفي هذا الطابور كان يسير جنديٌّ، شاب، وقد تجمَّدت الدموع على خدَّيه... وأنا كنت أنقل الخبز إلى المطعم على عجلة. لم يستطع أن يرفع عينيه عن العجلة، هو لا يراني، بل يرى العجلة وحدها. خبز... خبز... قسمت قطعة من الرغيف وأعطيته. فأخذه... أخذه وهو غير مصدِّق... غير مصدِّق!

شعرت بالسعادة... شعرت بالسعادة، لأنني لا أعرف الكراهية. أنا نفسي ذُهلت من نفسي...

ناتاليا إيفانوفنا سيرغيفا، جندية، ممرِّضة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أنا وحدي... عدت إلى أمّي!

أتوجَّه إلى موسكو بالقطار... ما أعرفه عن نينا ياكوفليفنا فيشنيفسكايا لا يشغل حتى الآن سوى بضعة أسطر على دفتر يومياتي. في السابعة عشر من عمرها توجَّهت إلى الجبهة، كانت تعمل مرشدة طبِّية في الكتيبة الأولى من اللواء الثاني والثلاثين للجيش الخامس. شاركت في معركة الدبَّابات الشهيرة، بالقرب من بروخوروفكا، حيث التحمت من الجانبين - السوفييتي والألماني - ألف ومئتا دبَّابة ومجنزرة وآلية. إنها واحدة من أكبر معارك الدبَّابات في التاريخ العالمي.

أعطاني عنوانها متتبِّعو الأثر من التلاميذ من بوريسوف، الذين جمعوا مادَّة كبيرة لمتحفهم عن لواء الدبَّابات الثاني والثلاثين الذي حرَّر مدينتهم. كان عادة يعمل رجال في الإرشاد الطبِّي في وحدات الدبَّابات. أمَّا هنا، فكانت فتاة تقوم بهذا العمل. حزمت حقيبتي بسرعة وقصدتها...

بدأت أفكِّر: كيف سأختار بين عشرات العناوين؟ في الفترة الأولى، كنت أسجِّل جميع من ألتقي بهنَّ، كُنَّ يسلِّمن ليَ موادهنَّ عبر سلسلة، وتتَّصل إحداهنَّ بالأخرى، كما كُنَّ يدعونني إلى لقاءاتهن، أو إلى بيت إحداهن على الفطيرة مع الشاي. وبدأت أستلم الرسائل من جميع أنحاء البلاد، حتى أن العنوان نفسه كان يصلني من خلال بريد الجبهة. كن يكتبن لي: «أنتِ أصبحتِ "منّا وفينا"، أصبحت فتاة الجبهة». وسرعان ما أدركت،

Twitter: @ketab_n

أن من المستحيل كتابة كلِّ شيء، لا بدَّ من مبدأ آخر للانتقاء والبحث. وأي مبدأ؟ بعد تصنيفي للعناوين الموجودة، صغت مبدئي على النحو التالي: السعي إلى كتابة النساء من مختلف الاختصاصات الحربية. ذلك لأن كلاً منا يرى الحياة من خلال عمله، ومن خلال مكانه في الحياة أو في الحدث، الذي يشارك فيه.

وكان من الممكن الافتراض، أن الممرِّضة ترى حرباً معينة، والخبَّازة ترى حرباً ثانية، ومجنَّدة الإنزال الجوِّي حرباً ثالثة، والطيَّارة - رابعة، وقائدة فصيلة الأسلحة الرشَّاشة - خامسة... ولكلٍّ منهنَّ نطاق رؤية خاصٌّ بها: فواحدة لها سرير العمليات: «يا الله... كم رأيت من الأيدي والأرجل المقطوعة! حتى أنني لم أعد أصدِّق أن ثمَّة رجالاً مكتملي الأرجل والأيدي. كان يبدو لي أنهم جميعاً إمَّا جرحى أو قتلى...». (آ. ديمشنكو، رقيب أوَّل، ممرِّضة)، ولدى أخرى - طناجر المطبخ النقَّال: «بعد المعركة، حدث أنه لم يكن هناك من نقدِّم له الطعام... حلَّة العصيدة، وحلَّة الحساء، أحضِّرهن وليس هناك من يأكل...». (ي. زينينا، مجنَّدة. طبَّاخة)، ولدى ثالثة - قمرة الطيَّار: «كان معسكرنا في الغابة. أنزلتُ الطائرة بعد التحليق وقرَّرت الذهاب إلى الغابة. كان هذا في أواسط الصيف، الأرض جافَّة. قطعت الممرَّ وشاهدت جندياً ألمانياً ميتاً مستلقياً... وقد أصبح أسود اللون... سيطر عليَّ خوف. لم يسبق لي أبداً أن شاهدت قتلى، مع أنني أقاتل منذ سنة. هناك في السماء، شيء آخر... عندما تطير تسيطر عليك فكرة واحدة: أن تعثر على الهدف وتدمِّره وتعود. لم نكن نرى أمواتاً. لم يكن لدينا مثل هذا الخوف...». (آ. بونداريفا، ملازم حرس، طيَّار متقدِّم). أمَّا لدى العاملة في المقاومة وحرب الأنصار، فالحرب تنطبع حتى الآن برائحة النار المحترقة: «كلُّ شيء على شعلة النار؛ نخبز الخبز عليها، ونغلي الطعام، وتبقى الفحمات فنضع عليها الأغلفة، ونجفِّف عليها

Twitter: @ketab_n

الأحذية والجزمات. وكانت شعلة النار متَّقدة ليلاً...». (ي. فيسوتسكايا).

ولكني لا أتمكَّن من البقاء طويلاً وحيدة مع أفكاري. حضرت عاملة عربة القطار وأحضرت الشاي إلى المقصورة. وهنا بدأ التعارف بضجَّة ومرح في المقصورة. وظهرت على الفور على الطاولة زجاجة فودكا "موسكوفسكايا" التقليدية، والمقبِّلات البيتية، وبدأ، كما هو مألوف عندنا عادة حديث الروح. تحدَّثنا عن أسرار الأسرة، والسياسة، وعن الحبِّ والكراهية، وعن الزعماء والجيران.

لقد أدركت منذ زمن طوِيل، أننا أناس الطريق والحديث...

أنا أيضاً أروي ما عندي: إلى من أذهب، ولماذا. اثنان من رفاقي في الطريق شاركا في الحرب؛ أحدهما قائد كتيبة رائدة، وصل إلى برلين، والثاني أمضى ثلاث سنوات في حرب الأنصار والمقاومة على أرض بيلاروسيا. وتحدَّثنا على الفور عن الحرب.

ثمَّ سجَّلت حديثنا، لأنني حفظته في ذاكرتي: «نحن أصبحنا عشيرة منقرضة. نحن من حيوانات الماموث! نحن من جيل كان يؤمن أن ثمَّة في الحياة ما هو أكبر من الحياة الإنسانية. هناك الوطن، وهناك الفكرة السامية. وهناك أيضاً ستالين. وعلام الكذب؟ وكما يقال: لا يمكنك أن تشطب الكلمات من الأغنية».

- «هذا، بالطبع... كان عندنا في الوحدة فتاة شجاعة... كانت تسير على السكَّة الحديدية. في عمليات النسف. قبل الحرب، اعتُقل جميع أفراد أسرتها: أبوها وأمُّها وأخواها الكبيران. كانت تعيش عند خالتها، شقيقة والدتها. منذ أيَّام الحرب الأولى، كانت تبحث عن الأنصار؛ عن المقاومة. لقد رأوا في الوحدة أنها كانت تتمرَّد، وتجادل الجميع... أرادت إثبات ذلك... كوفئ الجميع باستثنائها. لم تُكافأ ولا مرَّة. لم تُعطَ أية ميداليات، لأن والديها من أعداء الشعب. قبيل وصول جيشنا قُطعتْ

Twitter: @ketab_n

رجلها. لقد زرتها في المستشفى العسكري... كانت تبكي... وقالت: الآن، سيصدِّقونني. كانت فتاة جميلة».

- «عندما جاءت لعندي صبيتان، قائدتا فصيلتي هندسة، أحد الحمقى أرسلهما إليَّ من مديرية الموارد البشرية، أرجعتهما على الفور. كانتا حانقتين جدّاً. أرادتا السير على الخطِّ الأمامي وإقامة ممرَّات ألغام».

* «ولماذا أرجعتهما؟».

- «لعدَّة أسباب. الأوَّل؛ كان لديَّ عدد كافٍ من الرقباء الجيِّدين الذين يمكنهم تنفيذ ما أرادت فعله هاتان الصبيتان، وثانياً؛ كنت أعتقد أن لا حاجة للمرأة إلى أن تدخل إلى الخطِّ الأمامي. في هذا الحرِّ الشديد. وثمَّة عدد كافٍ من الرجال. ثمَّ كنت أعرف أنه لا بدَّ من بناء مخبأ خاصٍّ لهما، وتحميل عملهما القياديِّ عبء مختلف الشؤون النسائية. وهموم كثيرة».

* «إذاً، برأيك، لا مكان للمرأة في الحرب؟».

- «إذا ما عدنا إلى التاريخ، فإن المرأة الروسية في جميع العصور لم يقتصر دورها على توديع زوجها، شقيقها، ابنها إلى المعركة، وتحزن عليهم وتنتظرهم. فالأميرة ياروسلافنا كانت قد ارتقت جدار القلعة وسكبت القطران السائل على رؤوس الأعداء. ولكن، كان عندنا، عند الرجال، شعور بالذنب، لأن الفتيات يحاربن، وبقي هذا الشعور عندي. أذكر أننا تراجعنا. وكان هذا في الخريف، الأمطار تستمرُّ في الهطول عدَّة أيَّام، ليلاً ونهاراً. وعلى مقربة من الطريق، ترقد فتاة قتيلة... كان لديها ضفيرة كبيرة، ومغطَّاة كلُّها بالأوحال».

- «هذا طبيعي... عندما سمعت أن ممرِّضاتنا، بعد أن وقعت قطعتهن العسكرية في الحصار، شرعن بإطلاق النار، دفاعاً عن المقاتلين الجرحى، لأن الجرحى عاجزون، بلا قوَّة، كالأطفال، هذا أمر مفهوم. أمَّا الآن، فنحن أمام اللوحة التالية: امرأتان تزحفان في المنطقة المحايدة لقتل أحد الأعداء

Twitter: @ketab_n

ببندقية القنص. نعم، لا يمكنني إلا أن أتعاطف، بأن هذا عمل قتالي "قنص". أنا نفسي أطلقت النار و"قنصت"... لكنني رجل».

* «لكنهما كانتا تدافعان عن أراضيهما؛ تنقذان الوطن...».

- «هذا طبيعي، ربَّما، كان يمكنني أن أذهب مع مثل هذه المرأة للاستطلاع، ولكن لما وافقت على الزواج بها... لقد اعتدنا التفكير في المرأة كأمٍّ وخطيبة. على أنها سيِّدة رائعة، أخيراً. لقد حدَّثني أخي الأصغر، كيف اقتادوا في المدينة الأسرى الألمان، وهم أيضاً، شباب في مقتبل العمر، كانوا يطلقون النار من البنادق على الطابور. شاهدتْه أمُّه وصفعتْه. كانوا يسيِّرون فتياناً منَ بين الذين اقتادهم هتلر مؤخَّراً إلى الحرب. كان عمر أخي سبع سنوات، لكنه بقي يذكر كيف نظرتْ أمُّنا إلى هؤلاء الألمان، وقالتْ باكية: فليُصب العمى أمَّهاتكم! كيف سمحن بأخذكم إلى الحرب؟! الحرب من عمل الرجال. وهل ينقصنا الرجال ليكتبوا عن الحرب؟».

* «لا، أنا شاهدة. لا! لنتذكر كارثة الأشهر الأولى من الحرب: طائراتنا كلُّها دُمِّرت على الأرض، ودبَّاباتنا كانت تحترق كعلب الكبريت. البنادق قديمة. أُسر الملايين من جنودنا وضبَّاطنا، عدَّة ملايين! بعد شهر ونصف أصبحت قوَّات هتلر بالقرب من موسكو... أساتذة الجامعات تسجَّلوا في قوَّات الحشد المقاوم. أساتذة متقدِّمون في السن! والفتيات كُنَّ يتشوَّقن للذهاب تطوُّعاً إلى الجبهة، أمَّا الجبان فلن يذهب بنفسه إلى الحرب».

- «لقد كُنَّ فتيات جريئات، عاديات. هناك إحصائية: عدد القتلى من الأطبَّاء في الخطِّ الأمامي احتلَّ المركز الثاني بعد القتلى من الأسلحة النارية، في سلاح المشاة. ماذا يعني، على سبيل المثال، إخراج جريح من أرض المعركة؟ سأحدِّثك الآن...

تقدَّمنا في المعركة الهجومية، وأخذوا يحصدوننا بالرشَّاشات. ولم

Twitter: @ketab_n

تعد هناك كتيبة. الجميع كانوا مستلقين، مسطَّحين. لم يموتوا جميعاً، كان هناك كثير من الجرحى بينهم. الألمان مستمرُّون في الرمي، وإطلاق النار لا يتوقَّف. وبصورة مفاجئة للجميع، برزت من الخندق فتاة واحدة أوَّلاً، ثمَّ ثانية، فثالثة... وبدأن بتضميد الجرحى وسحبهم، حتى أن الألمان أنفسهم تخدَّروا من الدهشة. بحلول الساعة العاشرة ليلاً، كانت الفتيات مصابات بجروح بليغة، وكلٌّ منهنَّ أنقذت اثنين أو ثلاثة على الأكثر من المقاتلين. ولم يُكافئن إلا ببخل شديد، ففي بداية الحرب، لم يكونوا يرمون المكافآت جزافاً. كان من الواجب على الفتاة أن تسحب الجندي مع سلاحه الفردي. كان السؤال الأول في الكتيبة الصحِّية: أين السلاح؟ في بداية الحرب، كان هناك نقص كبير في السلاح. كان من الواجب جرُّ البندقية أو البندقية الآلية أو الرشَّاش. في العام الحادي والأربعين صدر أمر برقم 281 حول تقديم المكافآت لإنقاذ حياة الجنود: ميدالية "تقدير للخدمة القتالية" لإنقاذ خمسة عشر مقاتلاً جريحاً بجروح بليغة ونقلهم من ساحة المعركة مع سلاحهم الفردي، وسام الراية الحمراء لإنقاذ خمسة وعشرين جندياً، وسام الراية الحمراء لإنقاذ أربعين مقاتلاً جريحاً، وسام لينين لإنقاذ ثمانين مقاتلاً جريحاً. وقد وصفت لكِ ماذا كان يعني إنقاذ مقاتل جريح واحد... من تحت القصف».

- «هذا، نعم... أنا أيضاً أذكر... نعم... أرسلوا عناصر الاستطلاع عندنا إلى قرية، حيث كانت تتمركز حامية ألمانية. قُتل اثنان... وإثرهما قُتل الثالث... ولم يعد منهم أحد. استدعى القائد إحدى فتياتنا: لوسيا، أنت ستذهبين. قاموا بتمويهها وإلباسها ثياب راعية، وأوصلوها إلى الطريق... وما العمل؟ وما هو المخرج؟ يقتلون الرجل، وقد يسمحون للمرأة بالمرور. هذا صحيح... ولكن، وعندما يرون في أيدي المرأة بندقية؟».

Twitter: @ketab_n

* «وهل عادت الفتاة؟».

- «لقد نسيت كنيتها، أمَّا اسمها فهو لوسيا. لقد استُشهدت... حدَّثنا عنها الفلاحون فيما بعد...».

لاذ الجميع بالصمت. ثمَّ رفعنا الكؤوس نخب الشهداء. وتحوَّل موضوع الحديث إلى جانب آخر - بدأ الحديث عن ستالين، عن كيفية قتله عشية الحرب لأفضل كوادر قادة الجيش، النخبة العسكرية، وعن التطبيق القسري القاسي للتعاونيات الزراعية في العام السابع والثلاثين. وعن معسكرات الاعتقال والمنافي. حول أنه، لو لم يحدث ما جرى في العام السابع والثلاثين، لما حدث ما جرى في العام الواحد والأربعين. ولما تراجعنا إلى موسكو. لكننا بعد الحرب نسينا هذا. طغا النصر على كلِّ شيء.

- «وهل كان هناك حبٌّ في الحرب؟» - سألتُ.

* «بين صبايا الجبهة شاهدت كثيراً من الفتيات الجميلات، لكننا لم نكن نرى فيهن نساءً. مع أنهن، برأيي، كُنَّ صبايا رائعات. لكنهنَّ كُنَّ صديقاتنا اللواتي جررننا من ساحة المعركة. أنقذننا، ورعيننا. وقد سُحبت مرَّتين عندما كنت جريحاً. فكيف يمكنني أن أُعاملهن معاملة سيِّئة؟ وهل يمكنكِ أنت أن تتزوَّجي من أخيكِ؟ كنا ندعوهن أخواتنا».

- «وبعد الحرب؟».

* «انتهت الحرب، وقد أصبحن ضعيفات، وليس هناك من يدافع عنهن. فزوجتي مثلاً امرأة ذكية، لكنها تقف موقفاً سلبياً من المحاربات، وتعتقد أنهن ذهبن إلى الحرب بحثاً عن العرسان، وأنهن كنَّ جميعهن يؤلِّفن قصصاً غرامية هناك. أمَّا في الحقيقة، وحديثنا صريح بالطبع، فقد كانت غالبيتهن فتيات شريفات صادقات، نقيات. لكننا، بعد الحرب...

Twitter: @ketab_n

بعد الأوساخ، بعد القمل، بعد الموت... كنا نسعى إلى الجميلات، الساطعات، إلى النساء الجميلات... عندي صديق، أحبَّته في الجبهة فتاة رائعة حقّاً، كما أدرك الآن. ممرِّضة. لكنه لم يتزوَّجْ منها، تسرّح من الخدمة وتزوَّج من أخرى، أكثر جمالاً. لكنه غير سعيد مع زوجته. والآن يتذكَّر تلك الفتاة، ويتذكَّر حبَّه في أثناء الحرب، لو تزوَّجها لكانت صديقته الآن. لكنه بعد الحرب هجرها لأنه طيلة أربع سنوات كان يراها في جزمة بالية وسترة رجولية. كنا نسعى إلى نسيان الحرب. ونسينا فتياتنا هناك أيضاً...».

- «هذا طبيعي... كانوا شباباً وأرادوا أن يتذوَّقوا طعم الحياة...».

وهكذا لم يعرف أحد منا النوم في تلك الليلة. أحاديثنا استمرَّتْ حتى الصباح.

خرجت من المترو، ووجدت نفسي على الفور في فناء موسكوفي هادئ. مع الحقول الرملية والأراجيح. أمشي وأتذكَّر الصوت الجميل على الهاتف: «هل وصلتِ؟ قادمة لعندي مباشرة؟ ألا تريدين تدقيق معلومة ما في مجلس المحاربين القدماء؟ عندهم جميع المعطيات عني. وقد تحقَّقوا منكِ». لقد شعرت بالارتباك والذهول. كنت أظنُّ سابقاً، أن الآلام والمعاناة القاسية تجعل الإنسان حُرَّاً، وهو لا ينتسب سوى إلى ذاته. وتحميه ذاكرته الشخصية. الآن، أكتشف أن الأمر ليس كذلك، ليس دائماً كذلك. كثيراً ما تتواجد هذه المعرفة والخبرة، وحتى المعرفة العليا (لا وجود لها في الحياة العادية) بصورة مستقلَّة منفصلة. علينا طويلاً، أن نقشِّر الغث، وأن نحفر في رواسب الضجيج، وأخيراً، أن نتألَّق! ونضرب عرض الحائط!

حقيقة، من أيِّ شيء نحن مجبولون، من أيِّ مادَّة؟ ومن أين أتت صلابة هذه المادَّة؟ هذا ما أردت فهمه. ومن أجل هذا جئت إلى هنا...

يُفتح الباب وتدخل امرأة بدينة متوسِّطة القامة. تمدُّ لي يدها اليمنى،

Twitter: @ketab_n

برجولة، لتصافحني، وتمسك حفيدها الصغير بيدها اليسرى. ومن خلال رباطة جأشه وفضوله العادي، أُدرك أن كثيراً من الضيوف يتردَّدون على هذا البيت. وهنا قاعة الانتظار والاستقبال.

غرفة كبيرة تكاد تخلو من الأثاث. رفٌّ على الجدار صُفَّت عليه كتب، غالبيتها من ذكريات الحرب، وكثير من صور الجبهة الفوتوغرافية المكبَّرة، وعلى قرن غزال عُلِّقت خوذة دبَّابة، وعلى طاولة مصقولة عدد من مجسَّمات الدبَّابات الصغيرة مع عبارات الإهداء: "من مقاتلي وحدة ن."، "من طلَّاب ضبَّاط مدرسة المدرَّعات"... وعلى مقربة من مكان جلوسي على الديوان "تجلس" ثلاث دمى باللباس العسكري. وحتى الستائر وورق الجدران في الغرفة بألوان مموَّهة.

أدركت أن الحرب، هنا، لم تنتهِ ولن تنتهي أبداً.

نينا ياكوفليفنا فيشنيفسكايا، عريف، مرشدة طبِّية في كتيبة دبَّابات:

من أين نبدأ؟ لقد حضَّرت لك نصَّاً... حسناً، سأحدِّثك حديث الروح. هكذا كان... سأروي كما لو كنت صديقتي...

أبدأ من أن وحدات المدرَّعات لم تكن ترغب في خدمة الفتيات. بل ويمكنني القول، لم تُقبل الفتيات في صفوفها أبداً. فكيف خدمت أنا فيها؟ كنا نعيش في بلدة كوناكوفو مقاطعة كالينين. كنت قد تقدَّمت للامتحانات وأنهيت الصفَّ الثامن وانتقلت إلى الصفِّ التاسع. لم يكن أحد منا يدرك ما هي الحرب، فهي كانت بالنسبة إلينا كلعبة ما، كما في الكتب. تربَّينا على رومانسية الثورة، على المُثُل العليا. كنا نصدِّق الصحف: سرعان ما تنتهي الحرب بانتصارنا. ولكن...

كانت تعيش أسرتنا في شقَّة جماعية كبيرة، كان فيها أسر عديدة، وكلَّ

Twitter: @ketab_n

يوم كان جيراننا يذهبون إلى الحرب: العمُّ بيتيا، العمُّ فاسيا... كنا نودِّعهم، وكان الفضول يغلب علينا، نحن الأطفال، أكثر من أيِّ شيء آخر. كنا نرافقهم حتى ركوبهم القطار... كانت الموسيقى تعزف ألحانها، والنساء يبكين، لكن هذا كلَّه لم يكن يُخيفنا، بل على العكس، يُسلِّينا. كانت جوقة الآلات النحاسية تعزف دوماً "توديع السلافية". كان بودِّنا أن نركب معهم في القطار ونرافقهم. بمثل هذه الموسيقى كانت تبدو لنا الحرب بعيدة عنا. أنا، مثلاً، كانت تروقني أزرار البذلات العسكرية ولمعانها. أنا أيضاً، كنت أتابع دورة المتطوِّعات الطبِّيات، لكننا كنا نتصوَّر هذا كلَّه على طريقة الأطفال، كلعبة. ثمَّ أُغلقت هذه المدرسة، وجرت تعبئتنا لبناء المنشآت الدفاعية. وأسكنونا في حظائر في الحقول النظيفة. حتى أننا كنا نفخر بأننا ننفِّذ أعمالاً ترتبط بالحرب. أدرجونا ضمن كتيبة الضعفاء. كنا نعمل من الثامنة صباحاً حتى الثامنة مساءً، اثنتي عشرة ساعة في اليوم. كنا نحفر خنادق مضادَّة للدبَّابات. وكانت الكتيبة كلُّها مؤلَّفة من فتيات وفتيان في سنِّ الخامسة والسادسة عشرة... ذات يوم، في أثناء العمل، سمعنا أصواتاً، كانت تصرخ «الجو!»، وأخرى «الألمان!». ركض الكبار للاختباء، أمَّا نحن فكان يهمُّنا معرفة ما هي الطائرات الألمانية، من هم الألمان؟ كانت تحلِّق بعيداً، لم نتمكَّن من مشاهدة أيِّ شيء. حتى أننا شعرنا بالانزعاج... بعد فترة قصيرة، عادت الطائرات الألمانية وحلَّقت على ارتفاع أقل. وشاهد الجميع الصلبان السوداء. لم يكن هناك أيُّ خوف، كان مجرَّد فضول. وفجأة فتحت رشَّاشاتها وبدأت تُطلق النار، وسقط أمام أعيننا الفتيان والفتيات الذين كنا نتدرَّب ونعمل معهم. وحلَّ نوع من الذهول، لم نفهمه أبداً: ما هذا؟ كنا نشاهد واقفين... كالمتسمِّرين... وهنا تراكض الكبار ورمونا أرضاً، ومع ذلك لم يظهر لدينا أيُّ خوف...

وسرعان ما اقترب العدوُّ الألماني من المدينة، حيث كان على بعد

Twitter: @ketab_n

نحو عشرة كيلومترات، وسُمع قصف المدافع. فهُرعنا مع الفتيات إلى دائرة التجنيد: فعلينا الذهاب للدفاع، وأن نكون معاً، جنباً إلى جنب. ولم تعد هناك أية شكوك. ولكن، لم يأخذوا الجميع، أخذوا الفتيات القويات، القادرات على الاحتمال، وبادئ ذي بدء، من بلغت منهن الثامنة عشر من العمر. وأخذوا الشبيبيات المتفوِّقات. وجاء نقيب، فاختار فتيات لوحدة المدرَّعات، أمَّا أنا، فلم يستمع إليَّ أبداً، لأن عمري سبعة عشر عاماً وطولي لم يتجاوز متراً وستِّين سنتيمتراً. وشرح لي قائلاً: «عندما يُصاب جندي المشاة بجرح، يسقط على الأرض. يمكنك الاقتراب منه، وتضميد جرحه في المكان أو جرّه إلى الخندق. أمّا عنصر الدبَّابات فشيء آخر... إذا ما أُصيب بجرح على دبَّابته، فعليك أن ترفعيه من كوَّة الدبَّابة. وهل يمكنك رفع مثل هذا المصاب؟ وهل تعرفين أن جميع عناصر الدبَّابات بقامات كبيرة وأجسام قوية؟ عندما يُضطَرُّ عنصر الدبَّابات إلى النزول إلى أسفل الدبابة، يُطلقون عليه النار، والشظايا ترتدُّ على جسم الدبَّابة. ولكن، أتعرفين ماذا يحصل عندما تحترق الدبابة؟».

* «ولكن ألست عضوة في منظَّمة الشبيبة الشيوعية مثل الجميع؟» - اعترضتُ باكية.

- «أنت، أيضاً، شبيبية شيوعية. لكنك صغيرة جدّاً».

أمَّا صديقاتي اللواتي درست معهنَّ في دورة المتطوِّعات الطبِّيات وفي المدرسة، فكنَّ بقامات كبيرة وأجسام قوية، وقد جُنِّدنَ جميعاً. شعرت بالإساءة، لأنهن سيلتحقن بالجبهة، وأنا سأبقى.

لم أقلْ شيئاً لوالديَّ، بالطبع. ذهبت لتوديعهن، فأشفقن علي، وأخفينني في صندوق السيارة، تحت المشمَّع. انطلقنا على شاحنة مفتوحة حمولتها طنٌّ ونصف، وجلسنا جميعنا بشالات بألوان مختلفة - أسود، أزرق، أحمر... أمَّا أنا فقد وضعت على رأسي بلوزة والدتي بدلاً من الشال.

Twitter: @ketab_n

وكأننا لسنا ذاهبات إلى الحرب، بل إلى مسرح طلّابي. مشهد عجيب! كما في السينما... الآن لا يمكنني ألّا أبتسم عندما أتذكّر هذا المشهد... حتى أن شورا كيسيليفا أحضرت معها الغيتار. تسير الشاحنة، وقد ظهرت خنادق الجنود. وعندما شاهدونا بدأوا بالصياح: «حضرت الفنّانات! حضرت الفنّانات!».

اقتربنا من قيادة الوحدة، أصدر النقيب الأمر بأن نقف في صفٍّ منتظم. فنزل الجميع، وأنا كنت الأخيرة. الفتيات يحملن أمتعتهن، وأنا خالية الوفاض؛ لأنني التحقت بهنّ بصورة مفاجئة، ولم يكن معي أيُّ شيء من الحاجات الشخصية. أعطتني شورا غيتارها: «كيلا تكوني فارغة اليدين».

خرج رئيس الأركان، فقدَّم له النقيب الصف: «الرفيق المقدَّم! اثنتا عشرة فتاة جئن، وهن تحت تصرُّفك لأداء الخدمة».

نظر رئيس الأركان وقال: «ليس اثنتا عشرة، بل ثلاث عشرة فتاة».

أجاب النقيب مصرّاً على قوله: «اثنتا عشرة فتاة، الرفيق المقدَّم». كان متأكِّداً من العدد. وعندما التفتَ، نظر إليَّ قائلاً: «وأنت، من أين أتيت؟».

* «جئت لأحارب، أيُّها الرفيق النقيب».

- «تعالي إلى هنا!».

* «جئت مع صديقتي...».

- «حسناً لو ذهبت مع صديقتك إلى الرقص. أمَّا هنا، فإنها الحرب. اقتربي أكثر».

كما كانت على رأسي بلوزة أمِّي، اقتربت منه في وضعيَّتي نفسها، وأريته شهادة دورة المتطوِّعات الطبِّيات. وبدأت أستعطفه ملحَّةً في طلبي: «لا داعي للشك، يا عمِّي، أنا قوية. كنت أعمل ممرِّضة... وتبرَّعت بالدم... أرجوك».

Twitter: @ketab_n

شاهدا وثائقي، وأصدر المقدَّم أمره: «تُعاد إلى بيتها مع شاحنة!».

وإلى أن تحضر الشاحنة، عيَّنوني مؤقَّتاً في فصيلة الخدمة الطبِّية. فجلست وبدأت بتحضير ضمادات من الشاش. وما إن أرى شاحنة قادمة، أهرب إلى الغابة. أجلس هناك ساعة، ساعتين، وأعود بعد أن ترحل الشاحنة. وهكذا لمدَّة ثلاثة أيَّام، إلى أن شاركت كتيبتنا في المعركة. كتيبة الدبَّابات الأولى التابعة لفرقة الدبَّابات الثانية. ذهب الجميع إلى المعركة، أمَّا أنا فكنت أحضِّر المخابئ الأرضية للجرحى. ولم يمضِ أكثر من نصف ساعة حتى بدأوا بإحضار الجرحى... والقتلى... وقد استُشهدتْ في هذه المعركة فتاة، إلى جانب الجنود. ونسي الجميع أن عليهم ترحيلي إلى بيتي. لقد أَلِفوا وجودي، ولم تعد القيادة تتذكَّرني...

والآن ماذا؟ الآن عليَّ أن أرتدي البذلة العسكرية. أعطوا للجميع أكياساً قماشية، كي نضع فيها أشياءنا الشخصية. أكياس جديدة. قصصت الحزام، وفككت الخيطان في الأسفل وارتديته. فأصبحت عندي تنُّورة عسكرية. عثرت على قميص غير مهترئ، وربطته من الأسفل بالحزام، وقرَّرت أن أتباهى أمام الفتيات. وما إن وقفت أمام الفتيات، حتى دخل المساعد إلى مخبئنا، وخلفه قائد الوحدة.

العريف: «انتبه!».

دخل المقدَّم، فخاطبه المساعد: «الرفيق المقدم. اسمح لي بالتوجُّه إليك! حادث استثنائي مع الفتيات. أنا سلمتهنَّ أكياس الأمتعة الشخصية، وهن لبسوها».

وهنا، عرفني قائد الوحدة: «آه، هذه أنتِ "الأرنبة"! أيُّها المساعد، يجب إعطاء الفتيات البذلات العسكرية».

وماذا أعطونا؟ لدى جنود المدرَّعات سراويل قماشية سميكة، مع قطع

Twitter: @ketab_n

قماشية ملصقة على الركبتين. أمَّا لنا، نحن الفتيات، فأعطونا بذلات عمل رقيقة. كان التراب مختلطاً بالمعدن والحجارة الصغيرة، ومن جديد نسير في ثياب ممزَّقة، لأننا لا نجلس في سيَّارة ولا في دبَّابة، بل نزحف على الأرض. كانت الدبَّابات تحترق في أحيان كثيرة. ومقاتل الدبَّابة، إذا ما بقي حيَّاً، فهو مغطَّى بالحروق. كنا نتعرَّض للحريق، لأنكِ تسحبين الجنديَّ المصاب بالحروق الساخنة، وتهجمين على النار. حقيقة... من الصعوبة بمكان سحب الجنديِّ من كوَّة الدبَّابة، وبخاصَّة من برج الرمي. أمَّا الجندي القتيل فهو أثقل من الجريح بكثير. سرعان ما عرفت هذا كلَّه...

نحن غير متدرِّبات، ولم نكن نعرف الألقاب والرتب العسكرية، وكان المساعد يعلِّمنا دوماً أننا الآن مجنَّدات حقيقيات، وعلينا أداء التحية لكلِّ من هو أعلى منا رتبة، وأن علينا أن نسير بقامة مشدودة، وأن تكون أزرار معاطفنا مشبكة.

أمَّا الجنود فكانوا يرون أننا فتيات صبايا، فكانوا يحبُّون أن يمازحوننا. أرسلوني ذات مرَّة من فصيلة الخدمة الطبِّية لإحضار الشاي. ذهبت إلى الطبَّاخ. فنظر إليَّ وقال: «لماذا جئتِ؟».

قلت له: «لإحضار الشاي...».

- «الشاي غير جاهز بعد».

* «ولماذا؟».

- «الطبَّاخون يغتسلون في القدر الكبيرة. وسينتهون الآن. وبعدها سنغلي الشاي...».

صدَّقتُ قوله. وظننت أنه جاد. أخذت الكوبين، وقفلت عائدة. التقيت بالطبيب: «لماذا بكوبين فارغين؟ أين الشاي؟».

فأجبته: «إن الطبَّاخين يستحمُّون في القدر. والشاي لم يجهز بعد».

Twitter: @ketab_n

فأمسك رأسه بيديه قائلاً: «طبَّاخون يستحمُّون في القدر؟!».

أعادني إلى المطبخ، وأنَّب هذا الطبَّاخ بقسوة. وسكبوا لي الشاي في الكوبين. وعدت حاملة الشاي، في طريقي التقيت برئيس قسم التوجيه السياسي وقائد الكتيبة. وهنا تذكَّرت، كما علَّمونا، ضرورة تحية كلٍّ من هو أعلى منا رتبة، لأننا مجنَّدات. لكنهما اثنان. فكيف سأؤدِّي التحية للاثنين؟ أسير وأفكِّر. وعندما أصبحت أمامهما، وضعت الكوبين على الأرض، وأدَّيت التحية العسكرية بيديَّ الاثنتين للأوَّل وللثاني. فسارا، ولم يلاحظاني، ثمَّ جمدا من الذهول: «من علَّمك تأدية التحية العسكرية؟».

* «المساعد علَّمنا، وقال: علينا أن نحيِّي كلَّ واحد. وأنتما اثنان تسيران معاً...».

كلُّ شيء كان معقَّداً في الجيش، بالنسبة إلينا نحن الفتيات. كان صعباً علينا التمييز بين الرتب. عندما التحقنا بالجيش، رأينا رتباً عسكرية بأشكال مختلفة: معيَّنات، مكعَّبات، عوارض متوازية، وعليكِ أن تعرفي ما هي رتبة كلٍّ منهم. يُقال لك: أعطِ هذا المغلف للنقيب. وكيف أميِّزه؟ وبينما أسير، حتى كلمة "نقيب" تطير من رأسي. أصل إلى المكان المطلوب: «عمِّي! يا عمِّي، إن عمِّي هناك طلب مني تسليمك هذا...».

* «أيُّ عم؟».

- «ذلك الذي يمشي دوماً بالقميص. دون سترة».

لم نكن نحفظ أن هذا ملازم، وذاك نقيب، بل كنا نحفظ بطريقة أخرى: جميل أو غير جميل، أحمر أو طويل. وهذا طويل! هكذا كنت أتذكَّر.

طبعاً، عندما رأيت بذلات العمل المحترقة، والأيدي المحترقة، والوجوه المحترقة، ويا للغرابة! فقدت دموعي... الدموع هبة المرأة... كان الجنود يخرجون من الدبَّابات الحامية، وكلُّ شيء عندهم يحترق،

Twitter: @ketab_n

ويدخِّن. وكثيراً ما تكون أيديهم أو أرجلهم مصابة. وهي جروح بليغة. ها هو الجنديُّ يرقد راجياً: سأموت. اكتبي لأمِّي، اكتبي لزوجتي... ولم أكن قادرة على هذا. لم أكن أعرف، كيف أكتب لأحد ما لأحدِّثه عن موت...

عندما التقطني عناصر الدبَّابات بقدمين مشلولتين وأحضروني إلى قرية أوكرانية، حدث هذا في كيروفغرادشينا، صرخت سيِّدة الكوخ الذي استقرَّت فيه فصيلة الخدمات الطبِّية: «كيف؟! إنه فتى في مقتبل العمر!».

ضحك عناصر الدبَّابات وقالوا: «كيف؟ يا جدَّة! إنها فتاة صبية!».

جلست قربي، تنظر إليَّ، قائلة: «كيف! فتاة؟ كيف، فتاة؟ هي أيضاً شابَّة في مقتبل العمر...».

أنا، الفتاة ذات الشعر المقصوص، وببذلة العمل، وبخوذة الدبَّابات، مثل فتى. تنازلت لي عن مكانها في العلِّية، حتى أنها ذبحت خنزيراً صغيراً، كي أُشفى بسرعة. وكانت تشفق عليَّ باستمرار: «وهل انعدم الرجال، فأخذوا مثل هؤلاء الأطفال... الفتيات؟».

من عباراتها... ومن دموعها... سرعان ما فقدت كلَّ شجاعة ورجولة لفترة ما، وبدأت أشفق على نفسي، وعلى أمِّي. ماذا أفعل أنا هنا بين الرجال؟ أنا فتاة. وإذا ما عدت مقعدة بدون رجلين؟ دارت أفكار مختلفة في رأسي... نعم... أنا لا أخفي هذا...

عندما بلغت العام الثامن عشر، وعند قوس كورسك، كوفئت بميدالية "من أجل المآثر القتالية" وبوسام "النجمة الحمراء"، وفي عامي التاسع عشر، كوفئت بوسام "الحرب الوطنية من الدرجة الثانية". عندما وصلت إمدادات بشرية جديدة، وهم أيضاً كانوا شباباً. كانوا يستغربون؛ فأعمارهم أيضاً كانت الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، وكان يسألونني ساخرين: «مقابل أيِّ شيء حصلت على ميدالياتك؟». أو «هل شاركت في معركة؟». أو يمزحون ساخرين: «وهل يخترق الرصاص جسم الدبَّابة؟».

Twitter: @ketab_n

فيما بعدت ضمَّدت جرح أحدهم في ساحة المعركة، تحت القصف، حتى أنني ما زلت أذكر كنيته: شيغوليفاتي. كانت رجله مصابة. كنت أضع له جبيرة، فطلب مني أن أسامحه قائلاً: «أختي، سامحيني على إساءتي لك آنذاك. صدقاً، أنت حزت على إعجابي».

وماذا كنا نعرف آنذاك عن الحب؟ حتى إذا كان هناك شيء منه فهو حبٌّ مدرسي، والحبُّ المدرسيُّ هو حبٌّ طفولي. أذكر أننا حوصرنا... لم يكن هناك أمامنا شيء إلا أن نحفر الأرض بأيدينا، لم يكن لدينا أيُّ شيء، لا معاول، ولا أيُّ شيء... ويشدِّدون الحصار من جميع الجهات. واتَّخذنا القرار: ليلاً، إمَّا أن نخرق الحصار أو أن نستشهد. وفكَّرت، على الأغلب، سنستشهد... لا أعرف، هل أحدِّثك عنه أم لا؟ لا أعرف...

تموَّهنا. نجلس. ننتظر حلول الليل، كي نقوم بمحاولة اختراق الحصار. كان قائد الكتيبة جريحاً، وكان الملازم ميشا.ت. يقوم مقامه، كان في العشرين من عمره، وبدأ يتذكَّر، كم كان يحبُّ الرقص والعزف على الغيتار! ثمَّ سألني: «هل جرّبتِ؟».

* «ماذا؟ ماذا جرّبت؟» وكنت أشعر بجوع قاتل.

- «ليس ماذا... هل جرّبت "السيِّدة"؟».

قبل الحرب كانت هناك كعكة تحمل هذا الاسم.

* «كلَّا...».

- «أنا أيضاً لم أجرِّبْ بعد. ستموتين ولن تعرفي ما هو الحب... سيقتلوننا ليلاً...».

* «اذهب إلى الشيطان، أيُّها الأحمق!». أدركت حينها ماذا كان يقصد.

كنا نموت من أجل الحياة، دون أن نعرف ما هي الحياة. عن كلِّ هذا كنا نقرأ في الكتب. أنا كنت أحبُّ أفلام الحب...

Twitter: @ketab_n

كان عناصر الخدمة الطبِّية في وحدات المدرَّعات يُستشهدون بسرعة. ولم يكن هناك مكان لنا في الدبَّابة. تتمسَّكين بسطح الدبَّابة المدرَّع، كي تبعدي قدميك عن جنزير الدبَّابة، وعليك أن تراقبي، أين ستحترق الدبَّابة... والقفز إلى هناك، والزحف... في الجبهة كنا خمس صديقات: لوبا ياسينسكايا، شورا كيسيلوفا، تونيا بوبكوفا، زينا لاتيش، وأنا. كان عناصر الدبَّابات يدعوننا بفتيات كوناكوفو. واستشهدن جميعهن.

قبيل المعركة التي استُشهدت فيها لوبا ياسينسكايا، جلست معها مساءً، وتعانقنا، وتبادلنا الحديث. كان هذا في العام الثالث والأربعين... اقتربت فرقتنا من نهر دنيبر. فجأة قالت لي: «أتعرفين؟ أنا سأستُشهد في هذه المعركة. لديَّ هذا الشعور المسبق». ذهبتُ إلى المساعد، وطلبت إعطاءها ألبسة داخلية جديدة، فأسف قائلاً: «لقد حصلت منذ فترة قصيرة على الألبسة الداخلية». فطمأنتها قائلة: «غداً صباحاً سنطلب معاً الألبسة الداخلية، نحن، أنا وأنتِ، نحارب من سنتين، حتى الرصاص يخاف منا الآن». وفي الصباح، أقنعتني بالذهاب معها إلى المساعد وطلبنا زوجين من الألبسة الداخلية. وهذا القميص الداخليُّ الجديد الأبيض بسلاسله، الذي ارتدته، تغطَّى بكامله بالدم... هذا الاندماج للأبيض مع الأحمر، مع الدم الأحمر القاني... ما يزال في ذاكرتي حتى الآن. وهكذا هي كانت تتصوَّر نفسها...

حملناها نحن الأربعة على نقَّالة، لقد أصبحت ثقيلة الوزن. لقد قُتل كثير منا في تلك المعركة. حفرنا قبراً جماعياً كبيراً. ودفنَّا الجميع، وضعناهم بدون توابيت، كالعادة، ووضعنا لوبا في الأعلى. ولم أستطع أن أتصوَّر أنه لم يعد لها وجود، ولن أراها بعد الآن. فكَّرت في نفسي، بأن آخذ منها شيئاً للذكرى، كانت ترتدي خاتماً في إصبعها، ذهبياً أم لا، لا أعرف. وأخذته. على الرغم من أن زملائي حذَّروني: لا، لا تجرُئي، إنه فأل سيِّئ.

Twitter: @ketab_n

وعندما حان الوداع، وكلٌّ منا بدأ يرمي قبضة من التراب، رميت أنا قبضة من التراب، والخاتم في قبضتي مع التراب في القبر... نحو لوبا... تذكَّرت آنذاك أنها كانت تحبُّ كثيراً هذا الخاتم... في أسرتها، شارك والدها في الحرب من بدايتها إلى نهايتها، وعاد حيّاً إلى بيته. كذلك شقيقها عاد من الحرب. الرجال عادوا... أمَّا لوبا فاستُشهدت...

شورا كيسيلوفا... كانت هي الأجمل بيننا. كأنها ممثلة. احترقت. أخفت جرحى بجروح بليغة في أكوام القش. بدأ إطلاق النار، واحترق القش. كان في إمكانها إنقاذ نفسها من الحريق، ولكن، كان عليها أن تترك الجرحى وتغادر... احترقت معهم...

منذ فترة قصيرة فقط عرفت تفاصيل استشهاد تونيا بوبكوفا. لقد أنقذت الشابَّ الذي كانت تحبُّه من شظايا اللغم. الشظايا تتطاير... خلال أقل من ثانية... كيف تمكَّنت؟ لقد أنقذت الملازم بيتيا بويتشيفسكي الذي كانت تحبُّه، وبقي حيّاً.

بعد ثلاثين عاماً، قدم بيتيا بويتشيفسكي من كراسنودار. وعثر عليَّ. وحدَّثني عن كلِّ شيء. سافرت معه إلى بوريسوف وبحثنا عن ذلك الحقل، حيث استُشهدت تانيا. وقد أخذ معه تراباً من قبرها... حمله معه وقبَّله...

كنا خمس فتيات من كوناكوفو... وحدي أنا عدت إلى أمِّي...

بصورة مفاجئة، بالنسبة إليَّ، انتقلتْ إلى الشعر:

فتاة جريئة قفزت إلى درع الدبَّابة
إنها تدافع عن وطنها...
لا تخشى الرصاص ولا الشظايا؛
فقلب هذه الفتاة يحترق...
تذكَّرْ، يا صديقي، جمالها الرزين
عندما يحملونها على النقَّالة...

Twitter: @ketab_n

واعترفت بأنها كتبت هذه القصيدة في الجبهة. وقد عرفتُ، أن كثيرات منهنَّ كتبن الشعر. وهذه القصائد تُنقل الآن بعناية، وتُحفظ في أرشيف الأسرة. قصائد لطيفة ومؤثِّرة. وتُنظم منها ألبومات الجبهة، ويعرضونها عليَّ في كلِّ بيت، وهي تذكِّرني غالباً بألبومات الفتيات الغرامية. والفرق أن تلك عن الحب، بينما هذه عن الموت.

أسرتي متوادَّة، متحابَّة، جيِّدة. أبناء وأحفاد... لكنني أعيش في الحرب، وأنا هناك دائماً... قبل عشر سنوات بحثت عن صديقي فانيا بوزدنياكوف. كنا نظن أنه استُشهد، ولكن تبيَّن أنه حيٌّ يُرزق. كان قائد دبَّابة، وقد دمَّرتْ دبَّابتُه دبَّابتين ألمانيتين بالقرب من بروخوروفكا، فأحرقوا دبَّابته. استُشهد طاقم الدبَّابة، وبقي فانيا لوحده؛ بدون عينين، والحروق تغطِّي جسمه. أُرسل إلى المستشفى العسكري، وكانوا يعتقدون أنه لن يعيش. لم يبقَ فيه أيُّ شيء حي. جلده بالكامل احترق... كان يتقشَّر قِطَعاً كغشاء رقيق... وجدت عنوانه بعد ثلاثين سنة... بعد نصف حياة... أذكر، صعدت على الدرج، قدماي تتأرجحان: هو - لا، ليس هو؟ فتح الباب بنفسه، وأمسك بي بيديه، وتعرَّف عليَّ: «نينكا، أنت؟ نينكا أنت؟». بعد ثلاثين عاماً تعرف عليَّ...

أمُّه طاعنة جدّاً في السن، عاش معها، يجلس معنا إلى الطاولة ويبكي. فأستغرب: «لماذا تبكي؟ عليك أن نفرح، لالتقاء مقاتلين من كتيبة واحدة».

أجابتني أمُّه: «أولادي الثلاثة ذهبوا إلى الحرب. استُشهد اثنان، أمَّا فانيا فعاد إلى بيته».

لقد فقد فانيا عينيه الاثنتين. وهي طيلة حياتها تقوده من يده.

سألته: «فانيا، ما هو المشهد الأخير الذي رأيته؟ هل هو حقل بروخوروفكا، معركة الدبَّابات... هل تتذكَّر هذا اليوم؟».

أتعرفين بمَ أجابني؟

Twitter: @ketab_n

* «إنني أشعر بالأسف لشيء واحد، هو أنني أعطيت الأمر بمغادرة الدبَّابة المحترقة قبل الأوان. فقد استشهدوا جميعاً على أية حال. في حين كان في وسعنا إصابة دبَّابة ألمانية...».

هذا ما يأسف عليه... منذ ذلك الوقت...

لكننا كنا سعيدين معه في الحرب. لم يكن بيننا أيُّ شيء، أيُّ كلام، إطلاقاً. لكنني أذكره...

لماذا بقيت حيَّةً؟ من أجل ماذا؟ أظنُّ... هكذا أُدرك، كي أتحدَّث عمَّا رأيته...

لقائي مع نينا ياكوفليفنا تجدَّد ولكن عن طريق الرسائل. بعد أن نقلت حديثها من شريط التسجيل، واخترت منه الأكثر إثارة، ونسخته على الورق، أرسلت إليها نسخة كما وعدتها. بعد عدَّة أسابيع، وصلني من موسكو طردٌ بريديٌّ مسجَّل سميك. فتحته: قصاصات الصحف، مقالات، تقارير رسمية عن النشاط العسكري-الوطني الذي تقوده في مدارس موسكو المحاربة القديمة نينا ياكوفليفنا فيشنيفسكايا. كما أعادت لي المادَّة التي أرسلتها إليها، حيث لم يبقَ منها إلا القليل، وشطبت على القسم الأكبر: فقد حذفت الأسطر المرحة الجميلة عن الطبَّاخين الذين يستحمُّون في قدور الطعام، وحتى العبارة البريئة: «عمِّي! يا عمِّي، إن عمِّي هناك طلب مني تسليمك هذا...». أمَّا على الصفحة التي تتحدَّث عن قصَّة الملازم ميشا ت. فقد وضعتْ علامات استفهام غاضبة وملاحظة على الهامش: «أنا، بالنسبة إلى ابني، بطلة. ربَّة! فماذا سيقول عني بعد هذا؟».

بعد ذلك، اصطدمت غير مرَّة بهاتين الحقيقتين، الكامنتين في إنسان واحد: حقيقته الشخصية، المكبوتة في القبو، فيما وراء الشعور، والحقيقة العامَّة، المشبعة بروح العصر، ورائحة الصحف. ويندر أن تظهر الحقيقة

Twitter: @ketab_n

الأولى تحت الضغط الكبير للثانية. فإذا ما كان في الشقّة، على سبيل المثال، عدا عن محدِّثتي، أحدٌ من أهلها أو معارفها أو من الجيران (وخاصّة من الرجال)، تكون محدِّثتي أقلّ صدقاً ومصداقية، ممّا لو كنت معها وحدها. هنا، سيصبح الحديث معدّاً للجمهور؛ للمشاهد. ويغدو من الصعب جدّاً الوصول إلى انطباعاتها الشخصية، حيث كنت أكتشف على الفور رقابة داخلية قوية. رقابة ذاتية. وكان التعديل يجري بشكل دائم. حتى أنني توصّلت إلى قانون: كلّما كان عدد المستمعين أكبر، كان الحديث أقلّ عاطفيةً وصراحة. مع النظر إلى الحديث، كما يجب أن يكون. وما هو رهيب كان يبدو عظيماً، والغامض وغير المفهوم في الإنسان يبدو واضحاً مفهوماً. فكنت أجد نفسي ضائعة في صحراء الماضي، حيث لا وجود سوى للنُّصُب التذكارية، والمآثر المتفاخرة والمُحكمة. وهذا ينسحب على نانا نياكوفليفنا: حيث كانت تتذكّر حرباً واحدة لي "كابنتي، كي تدركي ما عشناه وعانيناه نحن الفتيات الصغيرات"، وتتذكّر حرباً أخرى، معدَّة لجمهور كبير "كما يتحدَّث الآخرون، وكما تكتب الصحف عن الأبطال والمآثر القتالية؛ من أجل تربية الشبيبة على المثل الرفيعة". كلَّ مرَّة، كان يذهلني عدم الثقة بالإنساني البسيط، وهذه الرغبة في استبدال الحياة بالمثل الأعلى. الدفء العاديُّ للتوهُّج البارد.

لم يكن في استطاعتي نسيان كيف نشرب الشاي في المطبخ، على الطريقة المنزلية. وكلتانا كنا نبكي.

Twitter: @ketab_n

في بيتنا تعيش حربان...

بناءٌ رماديٌّ مسبق الصنع على شارع كاخوفكا في مدينة منسك، لقد شُيِّد نصف المدينة بهذه الأبنية المتعدِّدة الطوابق، التي تزداد قتامة عاماً بعد عام، والتي لا وجه لها. لكن هذا البناء متميِّز؛ ففيه "تعيش حربان في شقَّة واحدة". هذا ما سمعته عندما فُتح لي باب الشقَّة. المساعد أوَّل أولغا فاسيليفنا بودفيشنسكايا حاربت في وحدة البحرية في البلطيق. أمَّا زوجها ساؤول غنريخوفتش فكان رقيباً في سلاح المشاة.

يتكرَّر كلُّ شيء... أتأمَّل طويلاً ألبوم الصور العائلية، المنسَّقة بحبٍّ وعناية، والموضوعة في مكان بارز للضيوف، ولأفراد الأسرة أيضاً. ولكلِّ ألبوم من هذه الألبومات عنوانه: "أسرتنا"، "الحرب"، "الحرية"، "الأطفال"، "الأحفاد". يروقني جدَّاً هذا الاحترام للحياة، وهذا الحبُّ الموثَّق للماضي المعاش، وللأهل وأفراد الأسرة. نادراً ما ألتقي مثل هذه العاطفة تجاه البيت، بحيث يظهر أفراد العائلة كلٌّ في دوره، وكلٌّ ضمن ترتيبه في الأسرة، مع أنني زرت مئات الشقق، وكنت لدى أسَرٍ مختلفة؛ مثقَّفة وبسيطة، في المدن وفي الأرياف. ربَّما تواتر الحروب والثورات قد علَّمنا الإقلاع عن التمسُّك بالعلاقة بالماضي، وحماية شجرة العائلة، والنظر بعيداً إلى الماضي، والافتخار. لقد أسرعنا في نسيان كلِّ شيء، ومسح الآثار، لأن الشهادات المحفوظة يمكنها أن تصبح دليلاً، وغالباً ما

Twitter: @ketab_n

تكلِّف حياة الإنسان. فأبعد من الجدِّ والجدَّة لا أحد يعرف شيئاً عن أصله وعائلته، ولا يبحث عن جذورها. لقد صنعنا التاريخ؛ لكننا عشنا يومنا الحاضر. إن ذاكرتنا قصيرة.

أمَّا في هذه الأسرة، فكلُّ شيء مغاير...

- «هل من المعقول أن هذه أنا؟».

ضحكت أولغا فاسيليفنا وجلست بجانبي على الديوان، وأمسكت بيدها الصورة التي تظهر فيها في ثياب البحَّارة، مع ميدالياتها الحربية.

- «كلَّما شاهدت هذه الصور، أستغرب. عرض زوجي ساؤول هذه الصورة على حفيدتنا ذات السنوات الست، فسألتني: جدَّتي، هل كنت صبياً، في شبابِك، صحيح؟».

* «أولغا فاسيليفنا، هل التحقت بالجبهة مباشرة؟».

- «بدأتْ حربي من النزوح... تركت بيتي وشبابي. طيلة الطريق كانوا يطلقون النار على عربات القطار، ويرمون القنابل، والطائرات تحلِّق فوق رؤوسنا. أذكر عندما خرجت من العربة مجموعة من طلَّاب المدرسة الصناعية، وكُلهم كانوا يرتدون المعاطف العسكرية السوداء. لقد كانوا هدفاً ساطعاً للرمي! لقد أطلقوا النار عليهم جميعاً؛ حيث كانت الطائرات فوق رؤوسهم. حتى أنه كان لديَّ إحساس وكأنهم يرمون عليهم النار ويعدُّون القتلى... أتتصوَّرين؟

كنا نعمل في المصنع، وكانوا يطعموننا بشكل مقبول. لكن قلبي كان يتَّقد... كتبت رسائل لدائرة التجنيد. ثلاث رسائل... وفي حزيران/ يونيو من العام الثاني والأربعين وصلني التبليغ بالالتحاق. نقلونا إلى لينينغراد المحاصرة عبر بحيرة لادوغا على بوارج مكشوفة وتحت القصف. في اليوم الأوَّل من وصولنا لينينغراد، ما زلت أذكر الليالي البيضاء وفصيلة

Twitter: @ketab_n

من البحَّارة يمشون ببذلاتهم السوداء. كان الوضع متوتِّراً جدَّاً، لا وجود للمشاة في الشوارع، والمصابيح الكشَّافة وحدها تنير، والبحَّارة يسيرون، كما في الحرب الأهلية، متمنطقين بالشرائط. أتتصوَّرين؟ وكأنه مشهد سينمائي...

كانت المدينة مطوَّقة من جميع الجهات. والجبهة قريبة جدَّاً. فبركوب عربة الترام رقم 3 يمكن الوصول إلى مصنع كيروف، وهناك يبدأ خطُّ الجبهة. وما إن يصحو الجو، وتخلو السماء من الغيوم، يبدأ القصف مباشرة. علاوة على ذلك، كانوا يطلقون النار بالتسديد المباشر. يطلقون النار دون توقُّف... كانت السفن الكبيرة واقفة أمام المرفأ مموَّهة بالطبع، لكن إصابتها كانت محتملة. أصبحنا صانعي السواتر الدخانية. فقد شُكِّل فصيلٌ مستقلٌّ للتمويه الدخاني، كان يقوده القبطان النقيب ألكسندر بوغدانوف، القائد السابق لكتيبة زوارق الطوربيد. ويتألَّف هذا الفصيل، بصورة رئيسة، من الفتيات اللواتي أنهين التعليم التقني المتوسِّط، أو طالبات السنوات الأولى من المعهد العالي. وكانت مهمَّتنا حماية السفن وتغطيتها بالدخان. يبدأ القصف، فينتظر البحَّارة قائلين: لو تسرع الفتيات في إطلاق الدخان. فبوجوده يصبح الوضع أكثر أمناً. كنا ننتقل في شاحنات صغيرة مزوَّدة بمزيجٍ خاصٍّ لإصدار الدخان، وطيلة الوقت كان الجميع يختبئون في الملاجئ. فنحن كنا نوجِّه النيران صوبنا؛ لأن الألمان كانوا يطلقون النار على السواتر الدخانية...

أمَّا بالنسبة إلى الطعام، تعرفين أنه طعام الحصار، لكننا تحمَّلناه. فأوَّلاً؛ سنُّ الشباب، وهذا مهم. وثانياً؛ كنا نشعر بالدهشة من سكَّان لينينغراد أنفسهم. فقد كانوا يوفِّرون لنا ولو الحد الأدنى من الطعام. أمَّا سكان المدينة فكانوا يسيرون في الشوارع ويسقطون على الأرض من الجوع. كانوا يموتون على الطرقات. كان يأتينا من المدينة أطفال، وكنا نقتطع من

Twitter: @ketab_n

مخصَّصاتنا البائسة الشحيحة ونقدمٌ لهم جزءاً منها. لم يكونوا أطفالاً، بل أشبه بالعجائز الصغار، كالمومياء. كانوا يحدِّثوننا عن قائمة طعام الحصار، إن صحَّ التعبير: حساء مصنوع من الأحزمة والأحذية الجلدية، وطبق جيليه من غراء النجَّارين، زلابية من الخردل... لقد أكلوا في المدينة جميع القطط والكلاب. واختفت العصافير والطيور. حتى أن الجرذان والفئران كانوا يصطادونها ليأكلوها... كانوا يطهونها ويأكلونها... أمَّا في فصل الشتاء، عندما بقيت لينينغراد بدون وقود، أرسلونا لتحطيم البيوت الخشبية في إحدى المناطق. وأقسى اللحظات عندما تقترب من البناء... البناء في حالة جيِّدة، لكن سكَّانه تُوفوا أو رحلوا، ماتوا غالباً. وهذا ما تشعر به من خلال الأواني الموضوعة على الطاولة، ومن الأشياء الأخرى. نبقى نحو نصف ساعة ولا يجرؤ أحد على تحطيمه. أتتصوَّرين؟ كان الجميع يقفون ينتظرون شيئاً ما. وعندما يقترب القائد من البيت ويباشر الهدم، عندها نبدأ نحن بتحطيمه.

كنا أيضاً في المناشر وقطع الأخشاب، نقلنا صناديق الذخيرة. أذكر أنني حملت صندوقاً، فوقعت معه، فهو أثقل مني. هذا أوَّلاً. وثانياً، كان هذا عملاً قاسياً، بالنسبة إلينا نحن النساء. بعدها أصبحت رئيسة قسم، وكان القسم كلُّه يتألَّف من فتيان صغار. كنا نمضي اليوم كلَّه على القارب، وهو قارب صغير، ولا توجد فيه أية غالونات. بالنسبة إلى الفتيان كان يمكنهم القفز من على ظهر القارب، عند النزول. فكيف بالنسبة إليَّ؟ مرَّتين عانيت عندما قفزت من على ظهر القارب وبدأت أسبح. فصرخ الفتيان: القائد وراء ظهر المركب! فينتشلونني. حتى هذه المسألة الصغيرة... ولكن، أية مسألة صغيرة؟ ثمَّ تعالجت بعد ذلك... أتتصوَّرين؟ ووزن السلاح نفسه؟ فهو أيضاً عبء ثقيل بالنسبة إلى امرأة. في البداية أعطونا بنادق، والبنادق ذاتها كانت أطول منا. تسير الفتيات والحراب أطول منهنَّ بنصف متر.

Twitter: @ketab_n

كان من الأسهل بالنسبة إلى الرجال التكيُّف مع كلِّ هذا. مع حياة التقشُّف هذه... مع هذه العلاقات.. أمَّا نحن النساء فكنا نشتاق، نشتاق بصورة رهيبة إلى بيوتنا، إلى أمَّهاتنا، إلى الراحة. كانت معنا فتاة موسكوفية، ناتاشا جيلينا، كوفئت بميدالية "من أجل الشجاعة"، وكتشجيع لها منحوها إجازة لبضعة أيَّام إلى بيتها. عندما عادت من الإجازة كنا نشمُّها. بمعنى الكلمة الحرفي، وقفنا صفّاً، وبدأنا نشمُّها، ونقول لها إن رائحة البيت عالقة فيك. إلى هذا الحدِّ كنا نشتاق بيوتنا... وأية فرحة كنا نشعر بها من منظر مغلَّف الرسالة! من الخطِّ الشخصيِّ لأهلنا... وإذا ما توفَّرتْ دقائق للراحة، كنا نستغلُّها في الخياطة، نخيط محارم ما. يعطوننا قطعاً من القماش للفِّ القدمين، فنخيط منها أوشحة، نربط بها رؤوسنا. كنا نرغب كثيراً في عمل نسائيٍّ ما. العمل النسائي بالذات هو ما كان ينقصنا بشكل لا يطاق. أبحث عن أية ذريعة لأمسك الإبرة بيدي، لأخيط شيئاً ما، فعلى الأقل أكتسب ولو لبضع دقائق وجهي النسائي العادي. كنا نضحك، بالطبع، ونفرح، لكن كلَّ هذا لم يكن كما في السابق، قبل الحرب. الحرب حالة خاصَّة...

جهاز التسجيل يسجِّل الكلمات، ويحتفظ باللهجة، وطريقة التعبير، والوقفات... والبكاء والحيرة. أنا أدرك أن الإنسان عندما يتحدَّث يحدث معه أكثر مما يُسجَّل على الورقة. وأشعر دوماً بالأسى لأنه لا يمكنني "تسجيل" نظرات العينين وحركات اليدين، وحياة المتحدِّثات في أثناء حديثهنَّ، حياتهنَّ الخاصَّة، المنفصلة، و"نصوصهن"».

- «عندنا حربان... هذا تعبير دقيق». بدأ الحديث زوجها ساؤول غنريخوفيتش. «عندما نتذكَّر، أنا أشعر أن زوجتي تتذكَّر حربها، وأنا حربي. كان لديَّ شيء شبيه بما روته لك عن البيت، أو كيف أن النساء وقفن في طابور لشمِّ رائحة زميلتهنَّ التي عادت من بيتها. لكنني لا أتذكَّر هذا... فقد مرَّت مرور الكرام أمام ذاكرتي. بدا لي آنذاك أن هذا شيء تافه،

Twitter: @ketab_n

لا قيمة له. لكنها لم تحدِّثك عن القبَّعات الخالية. أولغا: كيف يمكنك أن تنسي هذه الحادثة؟».

* «لم أنسها. إنها من الذكريات المؤثِّرة جدّاً... دوماً أخشى جلب هذه القصة من ذاكرتي... وإليكِ ما جرى: عند الفجر انطلقت مراكبنا إلى عرض البحر، بعيداً عن الشاطئ. بضع عشرات من المراكب... وسرعان ما سمعنا كيف بدأت المعركة. انتظرنا... أصغينا السمع... استمرَّت المعركة ساعات طويلة، وكانت هناك لحظة، عندما اقتربت المعركة من المدينة نفسها. لكنها سرعان ما هدأت. قبيل الغسق خرجت إلى الشاطئ: كانت تطفو قبَّعات في القناة البحرية. واحدة إثر أخرى. قبَّعات وبقع كبيرة حمراء... جذاذات ما... إنها جثث بحَّارتنا في الماء... وبقدر ما وقفت أنظر، كانت هذه القبَّعات تطفو. بدأت أعدُّها أوَّل الأمر، ثمَّ توقَّفت. لم يكن في استطاعتي الابتعاد، ولم يكن في استطاعتي النظر إليها. لقد أصبحت القناة البحرية مقبرة جماعية للشهداء... ساؤول، أين محرمتي؟ للتوِّ كنت أمسك بها بيدي... أين هي؟».

- «لقد حفظت الكثير من قصصها، وأقتطعها الآن لأحفادي. كثيراً ما أحدِّثهم عن حربها وليس عن حربي؛ فهي تثير اهتمامهم أكثر. وإليك ما لاحظته...». تابع ساؤول غنريخوفيتش فكرته قائلاً: «لديَّ من المعرفة الحربية المحسوسة أكثر ممَّا لديَّ من العواطف. والعواطف دوماً أكثر سطوعاً، وأقوى أثراً من الوقائع. عندنا في سلاح المشاة، كان لدينا أيضاً مجنَّدات. وما إن تظهر إحداهن بيننا حتى تجذبنا، ونجتمع حولها. لا يمكنك أن تتصوَّري... أتتصوَّرين؟ هذه الكلمة أخذتها من زوجتي. لا يمكنك أن تتصوَّري، كم هو رائع ضِحكُ المرأة في الحرب! يا لجمال صوت المرأة!

هل كان هناك حبٌّ في الحرب؟ نعم، كان حاضراً! وتلك النساء

Twitter: @ketab_n

اللواتي التقينا بهن هناك زوجات رائعات، وصديقات وفيَّات. وأولئك الذين تزوَّجوا في الحرب هم أكثر الناس سعادة، وأكثر الأزواج سعادة. نحن أيضاً، أحبَّ أحدنا الآخر في الجبهة. بين النار والموت. إنها صلة راسخة. ولم أنكر، كانت هناك حالات مختلفة، لأن الحرب كانت طويلة، وأعدادنا كثيرة. لكنني أذكر أكثر الحالات المشرقة، النبيلة.

أنا صرت أحسن، في الحرب... بالتأكيد. كرجل، صرت هناك أفضل، لأن هناك كان الكثير من المعاناة. أنا رأيت الكثير من المعاناة وعشتها. هناك، لا يظهر أهم شيء في الحياة على الفور، إنه زائد، لا لزوم له. هناك تدركين هذا... لكن الحرب انتقمت لنا. ولكن... نحن نخشى الاعتراف بذلك حتى أمام أنفسنا. لقد أدركتنا الحرب... ولم تتكوَّن لدى جميع بناتنا حياتهنَّ الخاصة، كما يجب. وإليكِ السبب: فأمَّهاتهن وآباؤهن الذين كانوا في الجبهة، قاموا بتربيتهن، كما تربَّوا هم أنفسهم في الجبهة؛ وفق المبادئ الأخلاقية ذاتها. وفي الجبهة، يظهر الإنسان على حقيقته، كما هو، على الفور، كما قلت لك: من هو، وما هي قيمته. فمن غير الممكن للإنسان أن يخفي نفسه هناك. وبناتهم لم يكن لديهنَّ أيُّ تصوُّر، بأن الحياة قد تسير بطريقة أخرى، غير ما تربَّين عليه في بيوتهن. ولم يحذروهنَّ من أخطاء العالم الرهيبة. وهؤلاء الفتيات، عند زواجهن، وقعن بسهولة في أيدي المحتالين، الذين خدعوهن، لأن خداعهن كان أمراً في غاية السهولة. وهذا ما حصل مع كثير من بنات أصدقائنا في الجبهة. ومع ابنتنا أيضاً».

* «لسبب ما، نحن لم نحدِّث أبناءنا عن الحرب. غالباً، كنا نخاف، ونشفق عليهم. فهل كنا على حق؟». تتساءل أولغا فاسيليفنا، «أنا لم أحمل على صدري منصَّات الميداليات. وذات مرَّة قطعتها، ولم أعد حملها. بعد الحرب، عملت مديرة للمخبز الآلي. أتوجَّه إلى الاجتماع، ورئيسة الورشات أيضاً امرأة، فرأيت منصَّات ميدالياتي، فقلت أمام الجميع: لماذا

Twitter: @ketab_n

علقتِها على صدرك، كالرجال؟ كان لديها ميدالية العمل، وكانت معلَّقة دوماً على سترتها، أمَّا ميدالياتي الحربية فلا أدري لماذا لم تكن تروق لها. عندما جلسنا نحن الاثنتان في مكتبي، شرحت لها كلَّ شيء على طريقة البحرية، فشعرتْ بكثير من الحرج، ولم تعد لدي رغبة في ارتداء الميداليات. والآن، لا أرتديها، مع أنني أفتخر بها.

بعد مضي عشر سنوات، كتبت الصحفية المعروفة فيرا تكاتشنكو في صحيفة "برافدا" المركزية عنا، عن أن النساء كُنَّ أيضاً في الحرب، عن أن هناك نساء حاربن في الجبهة وبقين لوحدهن، ولم تنتظم أمور حياتهن حتى الآن، وليست لديهن شقق سكنية مستقلَّة. وأن علينا ديناً تجاه هؤلاء النساء البطلات. وبعد ذلك، بدأوا بالتدريج يلتفتون إلى نساء الجبهة ويهتمون بهن. وكانت أعمارهن تتراوح بين أربعين وخمسين عاماً، وعاشوا طيلة هذه الفترة في بيوت جماعية. وأخيراً، بدأوا يعطونهن شققاً مستقلَّة. صديقتي... لن أذكر اسمها، فقد تغضب... مضمِّدة حربية... جُرحت في الحرب ثلاث مرَّات. انتهت الحرب، فانتسبت إلى المعهد الطبِّي العالي. لم تعثرْ على أيِّ قريب لها، استُشهدوا جميعهم. عاشت حياة بائسة للغاية. كانت تغسل ليلاً أدراج المنازل، كي تؤمِّن لقمة العيش. ولم تصرِّح لأحد بأنها مقعدة حرب، ولديها امتيازات، ومزَّقت جميع وثائقها. سألتها: «لماذا مزَّقتِ وثائقك؟». فبكت قائلة: «ومن كان سيتزوَّجني؟». أجبتُها: «وما العمل، صحيح ما فعلت». ثمَّ ناحت باكية وهي تقول: «لو لم أمزِّقها، لاستفدت منها الآن. فأنا مريضة مرضاً شديداً». أتتصوَّرين؟ إنها تبكي.

في الاحتفال بالذكرى الخامسة والثلاثين لعيد النصر، دُعي إلى سيفاستوبول، مدينة البحرية الروسية المجيدة، مئة من البحَّارة من المحاربين القدماء في الحرب الوطنية العظمى من جميع الأساطيل، ومن بينهم ثلاث نساء. اثنتان من الثلاثة، كنت أنا وصديقتي. وانحنى أمير

Twitter: @ketab_n

الأسطول أمام كلٍّ واحدة منا، وشكرنا بصوت جهوري وقبَّل أيدينا. فكيف ننسى؟!».

- «وهل بودِّك أن تنسي الحرب؟».

* «أنسى؟ أنسى الحرب؟». أعادت أولغا فاسيليفنا سؤالي.

- «نحن عاجزون عن نسيان الحرب. ليس في استطاعتنا ذلك» خرق زوجها ساؤول غنريخوفيتش الصمت. «أولغا، أتذكرين في يوم النصر، حيث التقينا أمَّاً عجوزاً، متقدِّمة في السن، وقد علَّقت على صدرها الإعلان القديم التالي: "أبحث عن كولنيف توماس فلاديميروفتش، لم يُعثر عليه منذ عام 1942 في لينينغراد المحاصرة". ويبدو من خلال وجهها أنها قد تجاوزت منذ زمن طويل عامها الثمانين. فكم مضى من السنين وهي تبحث عنه؟ وستستمرُّ في البحث عنه حتى آخر ساعة من عمرها. وكذلك نحن».

* «كان بودِّي أن أنسى الحرب. أريد نسيانها». قالت أولغا فاسيليفنا بصوت هامس ممدود. «أودُّ أن أعيش يوماً واحداً على الأقل بدون حرب، بدون ذاكرتنا عن الحرب... ولو ليوم واحد...».

إنني أذكرهما معاً، كما في صورهما على الجبهة، وقد أهدياني إحداها. يبدوان في الصورة شابَّين، أصغر مني بكثير. كلُّ شيء على الفور يكتسب معنى آخر. يقترب أكثر. أشاهد هذه الصور عندما كانا في ريعان الشباب، فأسمع بطريقة أخرى ما سمعته وسجَّلته للتو. يختفي الزمن بيننا.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سمّاعة الهاتف لا تطلق النار..

يلتقون ويتحادثون... كلٌّ على طريقته....

بعضهم يبدأ الحديث فوراً، على الهاتف: «أنا أذكر... أحتفظ بكلِّ شيء في ذاكرتي، كما لو أنه حدث بالأمس». وآخرون يؤجِّلون اللقاء والحديث طويلاً: «عليَّ أن أجمع أفكاري... لا أريد وضع نفسي ثانية في ذلك الجحيم». كانت فالنتينا بافلوفنا تشودايفا من أولئك الذين يخافون طويلاً، ولا تسمح بسهولة بالدخول إلى عالمها القلق، عدَّة مرَّات اتصلت بها هاتفياً، ولكن ذات مرَّة تبادلنا الحديث على الهاتف ساعتين، وأخيراً قرَّرنا أن نلتقي في اليوم التالي.

وهَأنذا قد وصلت إلى شقَّتها...

- «سوف نأكل الفطائر. منذ الصباح وأنا مشغولة بتحضيرها». قالت بمرح وعانقتني سيِّدة البيت عند العتبة. «أمّا بالنسبة إلى الحديث، فسنجد الوقت الكافي له... وللبكاء...إنني أعيش حزني منذ زمن طويل... الفطائر أوّلاً! إنها بالكرز. كما هو الأمر عندنا في سيبيريا، تفضَّلي.

اعذريني لانتقالي فوراً إلى صيغة المفرد. إنها لهجة الجبهة: هيَّا، يا بنات، هيا يا فتاة! وكلُّنا كنا كذلك. فأنت تعرفين الآن... أو سمعت... كما ترين، لم نجمع الكريستال. كلُّ ما جمعته وزوجي نحفظه في علبة

Twitter: @ketab_n

الشوكولا الصلبة: وسامان وميداليات. محفوظة في الخزانة، سأريك إيَّاها لاحقاً - تأخذني من يدي إلى الغرفة - الأثاث كما ترين قديم. يؤسفنا تبديله. إذا ما عاشت قطعة الأثاث في البيت طويلاً، تظهر لها روح. أنا أعتقد بهذا!».

تعرِّفني على صديقتها ألكسندرا فيودوروفنا زنشنكو، العاملة في منظَّمة الشبيبة الشيوعية في لينينغراد المحاصرة.

أجلس وراء الطاولة المفروشة: سنأكل الفطائر، لا سيَّما وأنها سيبيرية بالكرز، لم أذقْها سابقاً.

نساء ثلاث. فطائر ساخنة. والحديث مباشرة عن الحرب.

حذَّرتني ألكسندرا فيودوروفنا قائلة: «لا تقاطعيها بأسئلتك. فإذا ما توقَّفت تبدأ بالبكاء. وبعد الدموع تلوذ بالصمت... لا تقاطعيها...».

فالنتينا بافلوفنا تشودايفا، رقيب، قائد رشَّاشات مضادَّة للطائرات

أنا من سيبيريا... ما الذي دفع بي إلى الجبهة، وأنا فتاة من سيبيريا البعيدة؟ من آخر العالم، كما يقال. أمَّا بخصوص نهاية العالم، طرح عليَّ صحفيٌّ فرنسيٌّ سؤالاً، في إحدى اللقاءات. حدَّق فيَّ بإمعان في المتحف، حتى أنني بدأت أشعر بالحرج. ماذا يريد؟ لماذا يحدِّق فيَّ هكذا؟ وأخيراً، اقترب مني، وطلب عن طريق المترجم، أن تدلي له السيِّدة تشودايفا بحديث صحفي. أنا، بالطبع، شعرت بكثير من القلق. وتساءلت في نفسي: ماذا يريد؟ لقد أصغى إلى حديثي في المتحف. لكن، ما كان يهمُّه هو شيء آخر. في البداية سمعت منه عبارة إطراء: «أنتِ اليوم تبدين شابَّة... فكيف أمكنك أن تشاركي في الحرب؟». أجبته: «إن هذا دليل، كما تدرك، أننا ذهبنا إلى الجبهة في أوَّل سنيِّ شبابنا». لكن ما كان يهمُّه هو

Twitter: @ketab_n

شيء آخر: كيف وصلت إلى الجبهة من سيبيريا، وهي نهاية العالم! لكنني خمَّنت قصده وقلت: «يبدو أن ما يهمُّك هو أو لم تكن عندنا تعبئة شاملة، بحيث ذهبت، وأنا تلميذة في المدرسة إلى الجبهة؟». وهنا هزَّ برأسه موافقاً. فقلت: «حسناً، سأجيب عن سؤالك». ورويت له حياتي كلَّها، كما سأرويها لك الآن. فأخذ يبكي... الفرنسي بكى... وأخيراً اعترف قائلاً: «سيِّدة تشودايفا، لا تغضبي مني. فبالنسبة إلينا، نحن الفرنسيين، كانت الحرب العالمية الأولى هزَّة أقوى بكثير من الحرب العالمية الثانية. ونحن نتذكَّرها؛ حيثما ذهبتِ تجدين القبور والنصب التذكارية. ولا نعرف عنكم إلا القليل. يعتقد كثيرون اليوم أن أمريكا وحدها انتصرت على هتلر، وبخاصَّة الشباب. ولا يعرف إلا القليل الثمن الباهظ الذي دفعه المواطنون السوفييت ثمناً للنصر: عشرون مليون شهيد خلال أربعة أعوام. وكذلك عن آلامكم ومعاناتكم. شكراً لك! لقد هززت أعماق قلبي».

أنا لا أذكر أمِّي. فقد استُشهدتْ مبكِّراً. والدي كان مسؤول لجنة المقاطعة، في العام الخامس والعشرين أرسلوه إلى قريته التي وُلد فيها من أجل تأمين القمح. كانت البلاد في حاجة ماسَّة، وكان الكولاك الإقطاعيون يخفونه حتى يصيبه العفن. كان عمري تسعة أشهر. وأرادت أمِّي الذهاب إلى قريتها مع أبي، فأخذها معه. فأخذتني وأختي معها، لأنه لم يكن هناك من تتركنا عنده. وكان أبي في فترة سابقة يشتغل أجيراً عند الإقطاعي (الكولاك)، الذي هدَّده والدي في أثناء الاجتماع قائلاً: «نحن نعرف أين تخزِّن القمح، وإذا لم تعطِه لنا بنفسك، سنعثر عليه ونأخذه بالقوَّة. سنأخذه من أجل الثورة».

انتهى الاجتماع، واجتمع والدي مع أخوته، فقد كان لديه خمسة أخوة، وكلُّهم، مثل أبي، لم يعودوا من الحرب الوطنية العظمى. إذاً جلسوا

Twitter: @ketab_n

جميعاً، "البيلميني"[1] السيبيرية التقليدية. كانت المقاعد الطويلة الخشبية تمتدُّ على طول النوافذ... وجلست أمِّي قرب الحائط الفاصل بين نافذتين، بحيث كان كتفها الأوَّل إلى النافذة والثاني إلى والدي الذي كان يجلس إلى الحائط حيث لا توجد نافذة. كان الوقت شهر نيسان... وفي هذه الفترة يبقى الصقيع موجوداً في سيبيريا. يبدو أن أمِّي شعرت بالبرد. وقد أدركت هذا بعد أن كبرت... وقفت أمِّي، وتدثَّرت بمعطف والدي، وبدأت ترضعني من ثديها. في هذه اللحظة انطلقت رصاصة من حافة النافذة. كانوا يريدون إطلاق النار على والدي، وسدَّدوا باتجاه المعطف... لم تنطق ماما سوى بحرفين: «با...». وأوقعتني على صحن "البيلميني" الساخنة... كانت في الرابعة والعشرين من عمرها.

في القرية نفسها، أصبح جدِّي فيما بعد رئيس مجلس القرية. فسمَّموه بمادة الاستركنين السامَّة، ورموه في الماء. وقد احتفظت بصورة تظهر كيف دفنوا جدِّي. وضعوا فوق التابوت منشفة كتبوا عليها: «قُتل على أيدي العدوِّ الطبقي».

أبي يحمل لقب بطل الحرب الأهلية، عمل قائداً للقطار المدرَّع الحربي الذي نشط ضدَّ تمرُّد الفيلق التشيكوسلوفاكي. في العام الواحد والثلاثين مُنح وسام الراية الحمراء. وفي هذه الفترة لم يكن يحمل هذا الوسام إلا قلَّة قليلة، وبخاصَّة عندنا في سيبيريا. لقد كان هذا شرفاً عظيماً، يستحقُّ الاحترام الكبير. كان في جسم أبي اثنا عشر جرحاً، ولم يكن هناك عضو في جسمه غير مجروح. وقد روت أمِّي - ليس لي، بالطبع، بل للأهل - أن فصيل التشيك من الحرس الأبيض حكم على والدي بالأشغال الشاقَّة

1- بيلميني: صنف شهير من الطعام الروسي يشبه الشوشبرك، أو اللحمة بالعجين. يُحضَّر منزلياً ويُباع مجفَّفاً في المحلات الغذائية، حيث يمكن في البيت غليه مع الماء وتقديمه ساخناً. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

لمدَّة عشرين عاماً. وقد طلبتْ زيارته عندما كانت حاملاً بأختي الكبرى تاسيا في شهرها الأخير. هناك في السجن، ثمَّة ممرٌّ طويل، ولم يسمحوا لها بالاقتراب من زنزانته، وقالوا لها: «حثالة بلشفي! ازحفي...». وقبل عدَّة أيَّام من وضعها زحفت في هذا الممرِّ الإسمنتي الطويل. هذا كان ثمن زيارتها لأبي. لم تستطع أن تتعرَّف عليه، فقد غطَّى الشيب شعره بالكامل. أصبح شيخاً أشيبَ، في حين أنه كان في الثلاثين من عمره.

فهل كان في استطاعتي أن أجلس لا مبالية عندما اقتحم العدوُّ أرضي ثانية، إذا كنت نشأت في هذه الأسرة، ولديَّ مثل هذا الأب؟ فأنا من دمه... إنني قطعة من دمه... وقد عانى الأمرَّين... في العام السابع والثلاثين لُفِّقتْ بحقِّه وشاية كاذبة، أرادوا تشويه سمعته، وجعله عدوَّ الشعب. تلك التطهيرات الستالينية الرهيبة... أجهزة الأمن برئاسة يجوف... وكما قال الرفيق ستالين: «يقطعون الأشجار فتسقط رؤوس البشر». وتم الإعلان عن صراع طبقي جديد، كي يبقى الخوف مسيطراً على البلاد، ويبقى الشعب خانعاً. لكن أبي تمكَّن من مقابلة الرفيق كالينين، واستعاد أبي اسمه الطيِّب. لقد كان أبي معروفاً من الجميع.

هذا ما رواه لي أهلي وأقاربي فيما بعد...

جاء العام الحادي والأربعون... وكنت في الصفِّ الأخير من المدرسة. لدى كلِّ واحدة منا خططها وأحلامها، فنحن صبايا. بعد حفلة التخرُّج من المدرسة، ذهبنا في نهر أوبي إلى الجزيرة. كنا في غاية المرح والسعادة... وكيف لا، ونحن فتيات لم تُمسَّ شفاهنا بقبلة بعدُ؟ حتى أنه لم يكن عندي صديق. عدنا، واستقبلونا عند الفجر في الجزيرة... كانت المدينة تضجُّ بكاملها، والناس تبكي. وأصوات الراديو المفتوحة في كلِّ مكان: «الحرب! الحرب!». لم نفهم أيَّ شيء. أية حرب؟ فنحن كنا في غاية السعادة، ولدينا تلك الخطط العظيمة: كلٌّ يفكِّر أين سيتابع دراسته،

Twitter: @ketab_n

وبأيِّ اختصاص. وفجأة الحرب! كان الكبار يبكون، أمَّا نحن فلم نشعر بالخوف، كنا نؤكِّد، أحدنا للآخر، لن يمضي شهر واحد وسنقضي على الفاشيين بالضربة القاضية. وأخذنا نغنِّي أغاني ما قبل الحرب. بالطبع، إن جيشنا سيحطِّم العدوَّ على أرضه. لم يكن لدينا أيُّ شكٍّ في ذلك على الإطلاق...

بدأنا نفهم كلَّ شيء، عندما بدأت تصل الجنازات في البيوت. أنا مرضت ببساطة: «كيف يمكن هذا؟ إذاً، كلُّه هراء؟». بدأ الألمان بالاستعداد لإقامة عرضهم العسكريِّ في الساحة الحمراء...

لم يأخذوا والدي إلى الجبهة. لكنه كان يتردَّد بعناد إلى دائرة التجنيد. ثمَّ ذهب أبي إلى الجبهة، بالرغم من حالته الصحِّية، ورأسه المشتعل شيباً، وبالرغم من وضع رئتيه، فقد كان مصاباً بمرض السُّلِّ المزمن. تعالج بعض الشيء، لكن عمره الكبير! ومع ذلك، ذهب إلى الجبهة. سجَّل نفسه بالفرقة الستالينية، التي تضمُّ الكثير من أبناء سيبيريا. كان يبدو لنا أيضاً أن الحرب بدوننا ليست حرباً، وأن علينا أيضاً أن نحارب. ولم يكن ينقصنا إلا السلاح. ذهب صفُّنا بكامله إلى دائرة التجنيد. في العاشر من شهر شباط/ فبراير ذهبتُ إلى الجيش. زوجة أبي بكت بكاءً شديداً، وهي تقول: «فاليا، لا تذهبي. ماذا تفعلين؟ أنت ضعيفة الجسم، نحيفة، وأي مقاتلة ستكونين؟». كنت مصابة بالكساح لفترة طويلة جدّاً. هذا حدث بعد مقتل والدتي. لم أستطع المشي حتى بلغت السنة الخامسة... فمن أين تأتيني القوَّة!

نقلونا طيلة شهرين بالشاحنات. كنا ألفي فتاة، قافلة كاملة، القافلة السيبيرية. فماذا شاهدنا عندما اقتربنا من الجبهة؟ أذكر مشهداً واحداً... لن أنسى ما حييت: محطَّة القطار المدمَّرة، وعلى الرصيف يقفز البحَّارة على أيديهم. لم يعد لديهم أرجل، وليس لديهم عكاكيز. إنهم يمشون على

Twitter: @ketab_n

أيديهم... وكانوا يملؤون الرصيف... ويدخِّنون أيضاً... شاهدونا فبدأوا يضحكون ويمزحون... كانت قلوبنا تنبض توك-توك... توك-توك... إلى أين ذاهبات؟ ذاهبات؟ إلى أين؟ كي نستجمع شجاعتنا، بدأنا نغنِّي... نغنِّي...

كان معنا قادة، كانوا يدرِّبوننا، ويدعموننا معنوياً. تعلَّمنا سلاح الإشارة. وصلنا إلى أوكرانيا، وقد تعرَّضنا هناك للقصف للمرَّة الأولى. وقد تعرَّضنا للقصف عندما كنا في التفتيش الصحِّي، في الحمَّام. عندما توجَّهنا للاستحمام، كان هناك رجل مسنٌّ مناوب، كان يحرس الحمَّامات. شعرنا بالخجل منه، فنحن فتيات في عمر الورود. وما إن بدأوا بالقصف، توجَّهنا جميعنا إلى الحارس العجوز، هرباً من الموت. ارتدت كلٌّ واحدة منا شيئاً من الثياب، وأنا غطَّيت رأسي بمنشفتي الحمراء، وخرجنا. صاح الملازم أوَّل، وهو أيضاً شاب في مقتبل العمر: «يا فتاة اركضي إلى الملجأ! اخلعي المنشفة! ستنكشفين للعدو...».

أهرب منه قائلة: «لا أنكشف! ماما لم تسمح لي بالخروج من الحمَّام دون غطاء رأس».

بعد انتهاء القصف عثر عليَّ وقال: «لماذا لم تنفِّذي أمري؟ أنا قائدك».

لم أصدِّقه. وقلت: «هذا ما كان ينقصني؛ أن تكون أنت قائدي!».

أقذفه بالشتائم، كما لو كان صبياً. فنحن أتراب من سنٍّ واحد.

أعطونا معاطف عسكرية كبيرة وسميكة. كنا فيها كالحُزَم نتدحرج ولا نمشي. حتى أنهم لم يخيطوا في البداية أحذية من أجلنا. كانت هناك أحذية، لكن مقاساتها كبيرة، رجولية. ثمَّ استبدلوها لنا بجزمات أخرى، كانت مقدَّمتها حمراء، أمَّا سيقانها فمن المشمَّع الأسود. وبدأنا نزهو بها! الفتيات كلُّهن نحيفات، أمَّا القمصان فهي رجولية كبيرة. ومن كان منا

Twitter: @ketab_n

يعرف الخياطة قام بتضييقه. وماذا يلزمنا غير ذلك؟ فنحن فتيات! ثمَّ بدأ المساعد يأخذ قياساتنا. مشاهد مضحكة مبكية. يأتي لعندنا قائد الكتيبة: «ماذا، أيُّها المساعد، هل سلَّمت الملابس النسائية كلَّها؟». فيجيب المساعد: «أخذت المقاسات. ستكون جاهزة».

وأصبحت أنا عاملة إرسال باللاسلكي في وحدة المدفعية المضادَّة للطائرات. ولربَّما بقيت لنهاية الحرب عاملة إرسال باللاسلكي، لو لم يصلني خبر استشهاد والدي. لم يعد لديَّ أبي الحبيب. الإنسان الأقرب إليَّ، الوحيد. بدأت أرجو القائد: «أريد أن أنتقم، أريد أن أثأر من قتلة أبي». كنت أريد أن أقتل... أطلق النار... مع أنهم أثبتوا لي أن اللاسلكي والمدفعية على جانب كبير من الأهمِّية. لكن سمَّاعة الهاتف لا تُطلق النار... رفعت تقريراً إلى قائد الفوج، فجاءني الجواب بالرفض. عندها، لم أفكِّر طويلاً، وقصدت قائد الفرقة. أتى لعندنا العقيد كراسنيخ، أوقف الجميع في الصف وسأل: «أين تلك الفتاة التي تريد أن تصبح قائد سلاح الرمي؟». خرجت من الصف؛ برقبتي الضعيفة، الرقيقة، وعلَّقت عليها الرشَّاش الآلي الثقيل بواحدة وسبعين طلقة. ويبدو أن مظهري كان مثيراً للشفقة، لدرجة أنه ضحك. السؤال الثاني: «ماذا تريدين؟». أجبته: «أريد إطلاق النار». لا أدري فيما فكَّر في نفسه. صمت طويلاً، ولم ينطق بكلمة. ثمَّ استدار فجأة وذهب. فكرت في نفسي: «سيرفض». ثمَّ ركض نحوي القائد وقال: «سمح لك العقيد...».

هل هذا مفهوم، بالنسبة إليكِ؟ هل يمكن فهمه الآن؟ أريد منك أن تفهمي مشاعري... بدون كراهية لن تطلقي النار. إنها الحرب، وليست حفلة صيد. أذكر، كيف قرأوا لنا في دروس التوجيه السياسي مقالة إيليا إهرنبورغ: "اقتله!". كلما التقيت ألمانياً، اقتله. إنها مقالة شهيرة، كان يقرأها الجميع ويتعلَّمون منها الكراهية. وقد تركت في نفسي انطباعاً قوياً.

Twitter: @ketab_n

وطيلة الحرب، كانت في حقيبتي هذه المقالة، و"جنازة" والدي... عليَّ أن أقتل! عليَّ أن أقتل! واجبي أن أنتقم...

أنهيت دورة قصيرة، قصيرة جدّاً؛ تدرَّبت ثلاثة أشهر. تعلَّمت إطلاق النار. وأنا الآن، قائد سلاح. وتم تعييني في فوج المدفعية المضادَّة للطائرات رقم 1357. في الفترة الأولى، كان الدم يسيل من أنفي ومن أذنيَّ، وحصل لي اضطراب شديد في المعدة... وكانت حنجرتي جافَّة إلى درجة الإقياء. لم تكن هناك صعوبة كبيرة في الليل، كان وضعي رهيباً في النهار. كان يبدو لي وكأن الطائرة تحلِّق فوقي، فوق رشَّاشي، تسدِّد عليَّ... الآن ستحوِّلني إلى لا شيء، إلى عدم. وتحلُّ النهاية! هذا الوضع ليس لفتاة... ليس لأذنيها ولا لعينيها. في البداية كانت عندنا رشَّاشات عيار 85 ملم، وقد أظهرت فعاليتها بالقرب من موسكو ضدَّ الدبَّابات، ثمَّ أعطونا رشَّاشات من عيار 37 ملم. هذا حدث في اتجاه رجوف... جرت هناك معارك رهيبة... الجليد بدأ يتحطَّم على نهر الفولغا... وماذا شاهدنا؟ شاهدنا كيف تعوم قطعة حمراء-سوداء من الجليد، وفوق الجليد جنديان أو ثلاثة ألمان وجنديٌّ روسي. هكذا كانوا يموتون، متمسِّكين أحدهم بالآخر. لقد تجمَّدوا فوق هذا الجليد، وقطعة الجليد هذه مغطَّاة كلُّها بالدم. إن نهر الفولغا - أمُّنا الغالية - كان مغطًّى بالدم...

وفجأة توقَّفت عن الحديث: «عليَّ أن التقط أنفاسي... وإلا سأبدأ في النوح والبكاء، وأسيء إلى لقائنا...». التفتت إلى النافذة، كي تحافظ على رباطة جأشها. وبعد دقيقة، ابتسمت قائلة: «بصراحة، لا أحبُّ البكاء. تعلَّمت عدم البكاء منذ الطفولة...».

بدأت الحديث ألكسندرا فيودوروفنا زنشنكو التي بقيت صامتة حتى الآن: «في أثناء إصغائي لفاليا، تذكَّرت لينينغراد المحاصرة. وبخاصَّة، حادثة واحدة أذهلتنا جميعاً. حدَّثونا عن امرأة عجوز كانت تفتح كلَّ يوم

Twitter: @ketab_n

نافذتها، وترشُّ الشارع بالماء من إبريق، وفي كلِّ يوم، كان الماء يصل إلى مسافة أبعد في الشارع. في البداية، ظنُّوا أنها امرأة مجنونة، وماذا لم نشاهده في أثناء الحصار! وذهبنا إليها لنتحقَّق من الأمر. اسمعن، ماذا قالت لنا: إذا ما جاء الفاشيون إلى لينينغراد، ومشوا في شارعي، فسأقذفهم بالماء المغلي. أنا امرأة عجوز، ولست قادرة على شيء آخر، هكذا سوف أحرقهم بالماء المغلي. وكانت تتدَّرب... يومياً... كانت بداية الحصار، وكانت لا تزال المياه الساخنة متوفِّرة... لقد كانت امرأة مثقَّفة. ما زلت حتى الآن أذكر وجهها.

لقد اختارت لنفسها طريقة للنضال، تسمح بها قواها الضعيفة. علينا أن نتصوَّر تلك الفترة... ها هو العدو أصبح على مقربة من المدينة، وكانت المعارك تدور حول بوَّابة نارفا. وكانت النيران تُطلق على ورشات مصنع كيروف... كلٌّ منا كان يفكِّر في ما يمكنه عمله للدفاع عن المدينة. الموت، كان من أسهل الأمور، كان من الواجب عمل شيء. القيام بعمل ما. آلاف الناس هكذا كانوا يفكِّرون...

«أريد العثور على الكلمات... كيف يمكنني التعبير عن كلِّ شيء؟».
قالت فالنتينا بافلوفنا، تسألنا أو تسأل نفسها: «لقد عدت من الحرب مقعدة. أصابتني شظايا في ظهري. لم يكن الجرح كبيراً، لكنه رماني بعيداً في كثيب ثلجي. حدث، أنني لم أجفِّف جزمتي الشتوية اللبادية عدَّة أيَّام، إمَّا لم يكن لدينا حطب، أو لم يصل بعد دوري لتجفيفها ليلاً، فالموقد صغير، وعددنا من حولها كثير. وإلى أن عثرت على الجزمة، تجمَّدت قدماي. يبدو، أن الثلج قد طمرني، لكنني كنت أتنفَّس، وتشكَّلت فتحة في الثلج، مثل الأنبوب... عثرت عليَّ الكلاب الصحِّية. فأبعدوا الثلج من حولي وأحضروا قبَّعتي التي تغطِّي الأذنين. وكانت في هذه القبَّعة هوية موتي، لدى كلٍّ منا كانت مثل هذه الهويات: من هم أهله، ليُعلموا بواسطتها أهل

Twitter: @ketab_n

المتوفي. أخرجوني من الثلج، ووضعوني على النقّالة، وكان المعطف مليئاً بالدم... ولم يلتفت أحد إلى قدمي...

رقدت ستّة أشهر في المستشفى العسكري. أرادوا بتر رجلي، من فوق الركبة، لأن الغنغرينا بدأت تصيبها. وهنا تخاذلت قليلاً، لم أرغب في البقاء طيلة عمري مقعدة. وما هذه الحياة بالنسبة إليّ؟ ومن سيحتاج إليّ؟ بلا أب ولا أم. عبء في الحياة. ومن يحتاج إليّ، إلى مثل هذا العبء؟! سأخنق نفسي... وطلبت من الممرِّضة منشفة كبيرة بدلاً من الصغيرة... وكان الجميع في المستشفى يمازحونني قائلين: «هنا الجدَّة... الجدَّة الهرمة ترقد». لأن رئيس المستشفى عندما رآني للمرَّة الأولى، سألني: «كم عمرك؟»، أجبته بسرعة: «تسعة عشر عاماً، قريباً سأكمل العام التاسع عشر». فضحك قائلاً: «يا لك من عجوز هرمة! نعم، إنك كبيرة في العمر». وكذلك الممرِّضة، الخالة ماشا، كانت تمزح معي. فقالت لي: «سأعطيك منشفة، لأنهم يجهِّزونك للعملية. لكنني سوف أراقبك. لا تعجبني عيناك، أيّتها الفتاة. أولم تفكِّري في شيء سيِّئ؟». فلذت بالصمت... لكنني رأيت أنهم فعلاً يجهِّزونني للعملية. ومع أنني لم أعرف ما هي هذه العملية، ولم يسبق أن أجريت أية عملية، فهي الآن كالخارطة الجغرافية على جسدي، لكنني خمَّنت. أخفيت المنشفة الكبيرة تحت الوسادة، وأخذت أنتظر، عندما يهدأ كلُّ شيء، وينام الجميع. كانت أسِرَّة المستشفى حديدية، ففكَّرت: سأربط المنشفة بالسرير وأخنق نفسي. أرجو أن تتوفَّر لديَّ القوَّة... لكن الخالة ماشا لم تبتعد عني طيلة الليل. أبقتْني شابَّة. لم تنم... أبقتني غبية...

أمَّا طبيب القاعة فهو طبيب ملازم شاب، كان يطلب من رئيس المستشفى قائلاً: «اسمح لي سأجرِّب، اسمح لي سأجرِّب أنا». فيجيبه: «وماذا تجرِّب؟ لقد أصبح أحد أصابع قدمها أسود اللون. فتاة في التاسع

Twitter: @ketab_n

عشرة من العمر. قد تموت بسببنا أنا وأنت». وقد تبيَّن أن طبيب القاعة كان ضدَّ العملية، كان يقترح طريقة أخرى، جديدة، بالنسبة إلى تلك الفترة الزمنية. حيث يدخلون الأوكسجين بإبرة خاصة تحت الجلد. والأوكسجين يغذِّي مكان الإصابة... لن أقول لكِ، بدقَّة، كيف؛ فأنا لست طبيبة... وأخيراً، أقنع الملازم الطبيب الشاب رئيس المستشفى. وأقلعوا عن فكرة بتر رجلي. وأخذوا يعالجونني بهذه الطريقة. وبعد شهرين بدأت المشي على العكَّازين، طبعاً؛ فقدماي كانتا كقطعتي قماش، دون أية دعامة. ولم أكن أشعر بهما، كنت أراهما فقط. بعد المستشفى كان عليَّ أن أستريح في نقاهة. وأية نقاهة؟ وإلى أين؟ إلى من أذهب؟ عدت إلى قطعتي العسكرية، إلى سلاحي. انتسبت إلى الحزب، في التاسعة عشر من عمري...

استقبلت يوم النصر في بروسيا الشرقية. مضى يومان هادئان، ولم يطلق النار أحد، وفي منتصف الليل، دوت إشارة الإنذار فجأة: «السماء!». قفزنا جميعنا. وإذا بالجميع يصرخون: «النصر! الاستسلام!». الاستسلام - شيء جيِّد، أمَّا النصر - فهذا ما أدركناه: «انتهت الحرب! انتهت الحرب!». بدأ الجميع يطلقون النار، كلٌّ من سلاحه: رشَّاش، مسدَّس... من المدفعية... أحدهم يمسح دموعه، وآخر يبكي: «أنا حيّ. أنا حيّ!»، وثالث سقط على الأرض وأخذ يلثم الرمل والحجارة، من الفرح... وأنا بقيت واقفة، وبدأت أدرك وضعي: طالما أن الحرب انتهت، فأبي لن يعود إلى البيت أبداً. لقد انتهت الحرب... أمَّا القائد فقد هدَّد قائلاً: «حسناً، لن تتسرَّحوا، إلى أن تدفعوا ثمن القذائف والطلقات. ماذا فعلتم؟ كم أطلقتم من القذائف؟». كان يبدو لنا أن السلام سيعمُّ الأرض دائماً، ولن يرغب أحد في أن يحارب، ويجب تدمير جميع القذائف. ولماذا بقاؤها؟ لقد تعبنا من الكراهية. تعبنا من إطلاق النار.

Twitter: @ketab_n

كم اشتقت إلى بيتنا! وإن كان بدون أبي وأمِّي. فالبيت هو شيء ما أكبر من الناس الذين يعيشون فيه، وأكبر من البيت نفسه. إنه شيء ما عزيز... يجب أن يكون للإنسان بيته... أنحني إجلالاً واحتراماً لزوجة أبي، فقد استقبلتني كأم. وبعد عودتي كنت أدعوها أمِّي دوماً. انتظرتني، انتظرتني طويلاً. على الرغم من أن رئيس المستشفى قد كتب لها أن قدمي ستُبتر، وسينقلونني إلى البيت مقعدة، كي تكون مهيَّأة لذلك. ووعد بأن يأخذوني إلى المستشفى بعد أن أمكث قليلاً في البيت عندها... لكنها أرادت أن أعود إلى البيت...

لقد كانت تنتظرني... فأنا كنت شديدة الشبه بأبي...

ذهبنا إلى الجبهة ما بين الثامنة عشرة والعشرين من العمر، وعدنا منها بين العشرين والرابعة والعشرين من العمر. في البداية عمَّت الفرحة، ثمَّ أصبح الوضع رهيباً: ماذا سوف نعمل في وقت السلم؟ شعرنا بالخوف أمام حياة السلم... رفيقاتي في المعهد تخرَّجن منه، فمن نحن؟ لسنا مهيَّئين لأي شيء، وبلا اختصاص. كلُّ ما نعرفه هو الحرب، ولا شيء غيرها. أردنا التخلُّص بسرعة من الحرب. خِطتُ لنفسي، بسرعة، معطفاً من المعطف العسكري، وغيَّرت الأزرار. بعت في البازار الشعبي الجزمة العسكرية واشتريت حذاء. ارتديت فستاناً للمرَّة الأولى، والدموع انهمرت من عيني. أنا نفسي لا أتعرَّف على نفسي أمام المرآة، فقد أمضيت أربع سنوات في البنطال العسكري. ولمن يمكنني أن أقول له إنني جريحة، مصابة برجَّة دماغية. وإذا ما صرَّحت بذلك، فمن سيقبلني للعمل، ومن سيتزوَّجني؟ صمتنا كالسمك. ولم نعترف لأحد بأننا حاربنا في الجبهة. فقط فيما بيننا، نحن زميلات الجبهة، كنا نتواصل، ونتراسل. فيما بعد، بعد ثلاثين عاماً، بدأوا يكرِّموننا ويحتفلون بنا... ويدعوننا إلى الأمسيات... أمَّا في الفترة الأولى، فقد اختفينا، حتى أننا لم نكن نحمل الميداليات.

Twitter: @ketab_n

الرجال حملوها، أمَّا النساء فلم يحملنها. الرجال منتصرون، أبطال، عرسان، أزواج، حاربوا وكانوا في الحرب، أمَّا إلينا، نحن الفتيات، فكانوا ينظرون بعيون أخرى تماماً... أقول لك، لقد اختطفوا النصر منا. وبهدوء وسكينة استبدلناه بسعادة المرأة العادية. لم يشاركونا النصر. وهذا كان مسيئاً لنا، وغير مفهوم؛ لأن الرجال في الجبهة كانوا يعاملوننا معاملة رائعة، ويحموننا دوماً، ولم أجد رجالاً في وقت السلم يعاملون النساء كما عاملونا في الجبهة. عندما كنا نتراجع، نستلقي للاستراحة على الأرض الباردة العارية، فيبقون هم في قمصانهم ويقدِّمون لنا معاطفهم: «يجب تغطية الفتيات...». يعثرون في مكان ما على قطعة من القطن أو الضماد فيقدِّمونها لنا: «خذي، ستلزمك...». يتقاسمون معنا الكعكة الأخيرة. عدا عن الخير، والدفء لم نرَ شيئاً آخر من الرجال في الجبهة، ولم نعرف شيئاً... وماذا بعد الحرب؟ إنني ألوذ بالصمت... أصمت... وما الذي يمنعنا من التذكُّر؟ قساوة الذكريات...

جئت وزوجي إلى مدينة منسك. لم يكن لدينا أيُّ شيء: لا شراشف، ولا بياضات، ولا أكواب، ولا شوكات... معطفان عسكريان، وقميصان عسكريان. عثرنا على خريطة جيِّدة من قماش قطني سميك، فنقعناها في الماء وعملناها شرشفاً، كانت خريطة كبيرة... وهذا الشرشف القطني، كان الشرشف الأوَّل عندنا. فيما بعد، عندما ولدت ابنتنا، قصصناها إلى حفاضات. هذه الخريطة... وكما أذكر الآن، كانت خريطة العالم السياسية... أمَّا ابنتنا، فقد كانت تنام في حقيبة سفر... حقيبة سفر من خشب المعاكس، عاد بها زوجي من الجبهة، استعملناها بدلاً من سرير الأطفال. سأحكي لك... رجع زوجي ذات يوم، فقال: «تعالي، رأيت ديواناً قديماً مرمياً...». ذهبنا لإحضار الديوان ليلاً؛ كيلا يرانا أحد. لن تتصوَّري كم فرحنا بهذا الديوان!

Twitter: @ketab_n

مع ذلك، فقد كنا سعداء. لديَّ مجموعة كبيرة من الصديقات! كان الزمن صعباً، لكننا لم نصب بالإحباط. نسلق البطاطا ونتواصل مع أصدقائنا بالهاتف: «تفضَّلي، حصلت على سكَّر. سنشرب الشاي». لم يكن هناك شيء، لا فوقنا ولا تحتنا، لم يكن هناك لدى أي منا سجَّاد أو كريستال... أبداً... وكنا سعداء. سعداء لأننا بقينا أحياء. نتحدَّث، ونضحك، نمشي في الشوارع... كنت أستمتع بكلِّ شيء، رغم أنه لم يكن هناك ما يدعو للاستمتاع؛ فحولنا أحجار مكسَّرة، حتى أن الأشجار كانت مريضة ومشلولة. لكن عاطفة الحبِّ كانت تدفِّئنا. كان الإنسان في أمسِّ الحاجة إلى الإنسان. فيما بعد، تفرَّقنا، كلٌّ إلى ذاته، إلى بيته، إلى أسرته، أمَّا آنذاك فكنا معاً. كتفاً إلى كتف، كما في الخندق على الجبهة...

الآن، كثيراً ما يدعونني إلى الأمسيات في المتحف الحربي... يرجونني أن ألتقي بالسيَّاح وأقوم معهم بجولات. الآن - نعم الآن. بعد أربعين عاماً! أربعين! منذ فترة قصيرة ألقيت كلمة أمام شباب إيطاليين. كانوا يسألونني طويلاً: عند أي طبيب تعالجت؟ وما هو مرضي؟ ولسبب ما، استوضحوا ما إذا كنت قد راجعت الطبيب النفسي؟ وما هي الأحلام التي أراها في أثناء النوم؟ وهل تظهر الحرب في أحلامي؟ فقد كانت المرأة الروسية التي حملت السلاح وحاربت به أحجية بالنسبة إليهم. وما هذه المرأة التي لم تنقذ الجرحى وتضمِّد الجروح فحسب، بل وكانت نفسها تطلق النار وتقتل الرجال؟ كان يهمُّهم معرفة: هل تزوَّجت؟ وكانوا على ثقة بأني لم أتزوَّج، وأنني وحيدة. أمَّا أنا فكنت أضحك وأجيب: «الجميع أحضروا معهم الغنائم من الحرب، أمَّا أنا فأحضرت زوجي. عندي ابنة. والآن أحفادي يكبرون». لم أحدِّثك عن الحب... لم يعد في استطاعتي، لأن قلبي لا يحتمل. في لقاء آخر... كان هناك حبٌّ في الحرب، كان! وهل يمكن للإنسان أن يعيش بدون حب؟ هل يمكنه الصمود بدونه؟ في

Twitter: @ketab_n

الجبهة، أحبَّني قائد كتيبتنا... وحماني طيلة الحرب، ولم يسمح لأحد بالاقتراب مني، وبعد أن تسرَّح بحث عني في المستشفى العسكري. وعندها اعترف بحبِّه... فيما بعد، سنتحدَّث عن الحب... تفضَّلي لعندي، بالتأكيد تفضَّلي. ستكونين ابنتي الثانية. بالطبع، كنت أحلم بأن يكون عندي كثير من الأولاد، أنا أحبُّ الأطفال. ولكن عندي ابنة... ابنة وحيدة... لم تسمح لي صحَّتي بأكثر. ولم أتمكَّن من متابعة دراستي. كنت أمرض كثيراً. رجلاي...رجلاي تخونانني... اشتغلت حتى سن التقاعد مخبرية في معهد البوليتكنيك. وكان الجميع يحبُّونني، الأساتذة والطلاب؛ لأن في نفسي كان الكثير من الحب، والكثير من الفرح. هكذا كنت أفهم الحياة. وهكذا كنت أودُّ العيش بعد الحرب. إن الله لم يخلق الإنسان كي يطلق النار، بل خلقه ليحب. وأنت، كيف ترين؟

قبل عامين استضفت رئيس أركاننا إيفان ميخائيلوفتش غرينكو. وقد أحيل إلى التقاعد. جلس وراء هذه الطاولة. حضَّرنا أيضاً الفطائر. جلس مع زوجي يتبادلان الأحاديث والذكريات... تطرَّق الحديث إلى فتياتنا... فهدرت قائلة: «تتحدَّثان عن التكريم، والاحترام. وفتياتنا تقريباً متماثلات؛ بدون أزواج، يعشن في شقق جماعية. فمن أشفق عليهن؟ ومن دافع عنهن؟ أين اختفيتم جميعاً بعد الحرب؟ يا لكم من خونة!». وباختصار، أسأت إلى مزاجهما الاحتفالي...

جلس رئيس الأركان مكانك. وضرب الطاولة بقبضته قائلاً: «أرني واحداً أساء إليك. أرنيه فقط!». ثمَّ طلب الصفح والاعتذار: «فاليا، لا يمكنني أن أقول لك شيئاً سوى الدموع». لا حاجة إلى أن تشفقوا علينا. فنحن نحتفظ بكرامتنا وكبريائنا. فليعيدوا كتابة التاريخ عشر مرَّات. مع ستالين أو بدونه. لكن هذا سيبقى – نحن انتصرنا! وآلامنا ومعاناتنا، وما عشناه. إن هذا ليس خردة ولا رماداً. إنها حياتنا.

Twitter: @ketab_n

ولن أضيف كلمة أخرى...

قبل أن أخرج من الشقَّة سلَّمتني هي وزوجها كيساً من الفطائر: «إنها فطائر خاصَّة، سيبيرية. لن تجديها في المتجر...». واستلمت منها قائمة طويلة جدّاً من العناوين وأرقام الهاتف: «الجميع سيفرحن بكِ. وينتظرنكِ. أنا أشرح لك: مرعبٌ جدّاً أن نتذكَّر، لكن الأشد رعباً ألَّا نتذَّكر».

الآن أدرك، لماذا يتحدَّثن على الرغم من كلِّ شيء...

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كافؤونا بميداليات صغيرة...

أفتح كلَّ يوم صندوقي البريدي...

إن بريدي الشخصي يذكِّرني كثيراً ببريد دائرة التجنيد أو المتحف: «تحية لك من قائدة الطائرة مارينا راسكوفا في الفوج الجوِّي»، «أكتب لك بناء على طلب نساء المقاومة في لواء جيليزنياك»، «تهنِّئك فتيات المقاومة السرِّية في منسك... نتمنَّى لك النجاح في عملك الذي بدأته...»، «تخاطبك مجنَّدات فرقة الغسيل الميدانية...». خلال تنقيبي في بريدي لم أجد سوى عدَّة حالات يائسة من الرفض: «كلا، إنه كالحلم الرهيب... كالكابوس... لا أستطيع! لن أتحدَّث!»، أو «لا أريد أن أتذكَّر! لا أريد! لم أنسَ إلا بصعوبة وبعد وقت طويل...».

رسخت في ذاكرتي رسالة أخرى وردتني بدون عنوان المرسل:

زوجي فارس وسام المجد، بعد الحرب أمضى عشر سنوات في معسكرات الاعتقال... هكذا استقبل الوطن أبطاله، المنتصرين! كتب في رسالة لرفيقه في الجامعة، أن من الصعب عليه أن يفتخر بنصرنا؛ فأرضه وأرض الآخرين امتلأت بالجثث الروسية، وتغطَّت بالدماء. واعتقلوه على الفور... ونزعوا رتبه العسكرية...

عاد من كازاخستان بعد موت ستالين... مريضاً. ليس عندنا أبناء. لا أريد أن أتذكَّر الحرب، فأنا أحارب طيلة حياتي...

Twitter: @ketab_n

لا يقدم الجميع على كتابة مذكراتهم، ولا يَقدر الجميع على هذا؛ أن يثقوا بالورقة ويودعوها مشاعرهم وأفكارهم. «الدموع تمنعنا من الكتابة...». (آ. بوراكوفا، رقيب، عاملة لاسلكي). أمَّا المراسلات فلا تقدِّم، خلافاً لتوقُّعاتي، سوى العناوين والأسماء الجديدة.

الشظايا في جسمي تكفيني... شظية من جرح بالقرب من فيتبسك، في الرئة على بعد ثلاثة سنتيمترات من القلب. والشظية الثانية في الرئة اليمنى، وشظيتان في منطقة البطن...

هذا هو عنواني... تفضَّلي. لا يمكنني أن أكتب أكثر، لا أرى شيئاً بسبب الدموع...

ف. غروموفا، مساعدة طبية

ليست لديَّ مكافآت كبيرة، لديَّ ميداليات صغيرة. لا أدري هل ستهمُّك حياتي، لكن، كان بودِّي أن أروي قصَّة حياتي لأحد ما...

ف. فورونوفا، عاملة لاسلكي

عشت مع زوجي في أقصى الشمال، في ماغادان. كان زوجي يعمل سائقاً، وأنا مراقبة. ما إن بدأت الحرب، حتى طلبنا، نحن الاثنان، الالتحاق بالجبهة. أجابوني بأنكما تعملان حيث ثمَّة حاجة إليكما. عندها أرسلنا برقية باسم الرفيق ستالين، أننا ندفع من أموالنا خمسين ألف روبل (في تلك الفترة، كان هذا مبلغاً كبيراً، وهو كلُّ ما هو موجود لدينا) لتشييد دبَّابة ونعبر عن رغبتنا في الذهاب إلى الجبهة. وصلنا كتاب شكر من الحكومة. وفي العام الثالث والأربعين، أرسلوني أنا وزوجي إلى مدرسة تشليابنسك التقنية للدبَّابات، التي تخرَّجنا منها قبل الموعد المقرَّر.

Twitter: @ketab_n

هناك حصلنا على دبَّابة. كان كلٌّ منا، نحن الاثنان، ميكانيكي-سائق متقدِّم، ولكن في الدبَّابة يجب أن يكون هناك سائق-ميكانيكي واحد. قرَّرت القيادة تعييني قائداً للدبَّابة "إي س - 122"، وزوجي ميكانيكياً متقدِّماً-سائقاً. وعلى هذه الدبَّابة وصلنا إلى ألمانيا. كلانا أصيب بجروح. ولدينا ميداليات.

كان هناك الكثير من الفتيات في سلاح الدبَّابات على الدبَّابات المتوسِّطة. أمَّا على الدبَّابات الثقيلة، فأنا كنت الوحيدة. أفكِّر أحياناً، حبَّذا لو قام أحد الكتَّاب بكتابة سيرة حياتي. فأنا لا أعرف الكتابة، كما يجب...

آ. بويكو، ملازم، سلاح الدبَّابات

العام الثاني والأربعون... عيَّنوني قائد كتيبة. وقد حذَّرني مفوَّض الفوج قائلاً: «كن حذراً، أيُّها النقيب: أنت ستستلم قيادة كتيبة (بطَّارية) غير عادية، كتيبة "فتيات". ونصف أفراد الكتيبة من الفتيات، وهُنَّ يتطلَّبن مقاربة خاصَّة، واهتماماً خاصَّاً، ورعاية». أنا كنت أعرف، بالطبع، أن الفتيات يخدمن في الجيش، لكنني لم أكن أتصوَّر ذلك بصورة جيِّدة. فنحن، الضبَّاط العاملين، كنا نراقب بشيء من الحذر "الجنس الضعيف" وهو يتعلَّم فنَّ الحرب، وهو الفنُّ الذي اعتُبر رجولياً من أقدم العصور. فالممرِّضات؛ هذا شيء طبيعي مألوف، وقد قدَّمن أفضل صورة عنهن في الحرب العالمية الأولى، وفي الحرب الأهلية. ولكن ماذا ستفعل الفتيات في المدفعية المضادَّة للطائرات، حيث يجب حمل القذائف والطلقات الثقيلة؟ وكيف يمكن وضعها على بطَّارية المدفعية، حيث لا يوجد سوى مكان واحد، ويدخل الجنود الرجال في قوام حساب ملاك الطاقم. وعليهم أن يجلسوا ساعات طويلة على الجهاز، ومقاعد الجهاز والرمي حديديان.

Twitter: @ketab_n

ولا يمكن للفتيات الجلوس طويلاً عليها. وأخيراً، أين يغسلون ويجفِّفون شعورهم؟ لقد ظهر العديد من الأسئلة... لقد كان هذا غير عادي...

أصبحت أتفقَّد بطَّاريات المدفعية، وأتابع سير الأمور. أعترف بأن الوضع لم يكن مريحاً تماماً: الفتاة في موقعها مع البندقية، وفتاة أخرى في البرج ومعها المنظار؛ في حين أنني وصلت لتوِّي من الخطِّ الأوَّل للجبهة. وكانت الفتيات مختلفات جدَّاً فيما بينهن؛ فهناك الخجولات، والخائفات، والمتكلِّفات المتصنِّعات، والجريئات، ومع الوميض. فالخضوع للنظام العسكري لا يتقنه الجميع، كما أن طبيعة المرأة تقاوم النظام العسكري. فإمَّا أنها نسيت الأمر الذي صدر لها، أو أنها استلمت رسالة من أهلها، وطيلة الصباح كانت تبكي. تعاقبها، وفي اليوم التالي تعفيها من العقوبة؛ تشعر بالشفقة عليها. وكانت لديَّ فكرة بأن "هذا الشعب سيقضي عليَّ!". ولكن سرعان ما تخلَّيت عن جميع شكوكي. وأصبحت الفتيات جنديات حقيقيات، قطعنا معهنَّ طريقاً قاسياً. تفضَّلي، تعالي لعندنا. سنتحدَّث طويلاً...

ي. آ. ليفيتسكي، القائد السابق للكتيبة الخامسة من الفوج 784 للمدفعية المضادَّة للطائرات

العناوين المتوفِّرة مختلفة جدَّاً؛ موسكو، كييف، مدينة أبشيرونسك في مقاطعة كراسنودار، فيتبسك، فولغوغراد، يالوتوروفسك، سوزدال، غاليتش، سمولنسك... وكيف يمكنني الإحاطة بها جميعاً؟ بلادنا كبيرة. ويأتي حادث عارض، مساعدة غير متوقَّعة. ذات يوم وصلتني بالبريد دعوة من المحاربين القدماء في الجيش الخامس والستِّين للجنرال ب. ي. باتوف: نحن نجتمع عادة في السادس عشر والسابع عشر من أيَّار في موسكو، في الساحة الحمراء. حيث تجري تقاليد وطقوس رائعة.

Twitter: @ketab_n

يفد إلى الساحة الحمراء كلُّ من صحَّته تسمح له بالقدوم. يتوجَّهون من مورمانسك وكاراغاندا، ومن آلما آتا وأومسك، من كلِّ أنحاء وطننا الكبير... وباختصار: ننتظر حضورك...

فندق "موسكو". شهر أيَّار/ مايو... شهر النصر. في كلِّ مكان يتعانقون، ويبكون، و"يتصوَّرون". ولا تعرف، أين الورود الملتصقة بالصدر، وأين الأوسمة والميداليات. أدخل في هذا الحشد فيرفعني ويحملني، ويجرُّني وراءه بصورة جامحة، وسرعان ما أجد نفسي في عالم غير معروف بالنسبة إليَّ. على جزيرة غير معروفة. وأجد نفسي بين أشخاص أعرفهم ولا أعرفهم، لكن ما أعرفه جيِّداً أنني أحبُّهم. عادة، هم ضائعون، مشتَّتون بيننا، وغير ملحوظين، لأنهم يرحلون، وعديدهم يغدو أقلَّ فأقل، وعديدنا أكبر، بيد أنهم مرَّة واحدة في العام يجتمعون معاً، كي يرحلوا ولو للحظة في الوقت المناسب. والوقت المناسب لهم هو ذكرياتهم.

في الطابق السابع، والغرفة الثانية والخمسين، اجتمعت مجنَّدات المستشفى رقم 5257. وكانت على رأسهنَّ ألكسندرا إيفانوفنا زايتسيفا، النقيب، الطبيبة الحربية. رحَّبت بي، وبدأت تعرِّفني بكلِّ سرور على الجميع، وكأننا نعرف إحدانا الأخرى منذ زمن طويل. وأنا طرقت هذا الباب بمحض الصدفة، تخميناً.

أسجِّل أسماءهنَّ: غالينا إيفانوفنا سازونوفا، طبيبة جرَّاحة. يليزافيتا ميخائيلوفنا آيزنشتين، طبيبة. فالنتينا فاسيليفنا لوكينا، ممرِّضة جرَّاحة. آنَّا إغناتيفنا غوريليك، كبيرة الممرِّضات الجرَّاحات. والممرِّضات: ناديجدا فيودوروفنا باتوجينا، كلافديا بروخوروفا بورودولينا، يلينا بافلوفنا ياطوفليفا، أنغلينا نيكولايفنا تيموفييفا، صوفيا كمالدينوفا موترينكو، تامارا دميتريفنا موروزوفا، صوفيا فيليمونوفنا سيمينيوك، لاريسا تيخونوفنا ديكون.

Twitter: @ketab_n

آه، ثمَّ آه أيَّتها الفتيات، كم هي حقيرة هذه الحرب! إذا ما نظرت إليها بعيون النساء وليس بعيوننا... إنها أرعب من الرعب. ولهذا لا يسألوننا عنها نحن الرجال...

أتذكرن، أيَّتها الفتيات، نركب الشاحنات... والجنود يضحكون علينا كيف نمسك بالبنادق. لا نمسكها كما يمسكون بالسلاح، بل هكذا...ولن أريكِ كيف... كما نمسك بالدمى...

الناس يبكون، يصرخون... أسمع كلمة: "الحرب!". وأفكِّر: أية حرب هذه، إذا كنا سنقدِّم غداً الامتحان في المعهد؟ فالامتحان أهم بكثير. وأية حرب هذه؟

وبعد أسبوع بدأ القصف، وبدأنا بإنقاذ الناس. ثلاث سنوات من الدراسة في المعهد العالي الطبِّي، كانت تعني شيئاً في ذلك الوقت. لكنني رأيت في الأسبوع الأوَّل من الدماء ما يكفي لكي أخاف من الحرب. هذه أنتِ نصف طبيبة، وهذه العلامة التامَّة في الدروس التطبيقية. لكن الناس كانوا يتصرَّفون بطريقة استثنائية. وهذا ما شجَّعنا وألهمنا.

أيَّتها الفتيات، لقد قصصت عليكن... انتهى القصف، أنظر فأرى الأرض أمامي تتحرَّك. أركض إلى هناك وأبدأ الحفر. بيديَّ أحسست بوجه، وشعر... لقد كانت امرأة... حفرت واستخرجتها من التراب وبدأت أبكي عليها. أمَّا هي، فعندما فتحت عينيها، لم تسأل ماذا جرى لها، سألت قلقة: «أين حقيبة يدي؟».

* «وعلام حقيبة يدك الآن؟ سنعثر عليها».

– «فيها وثائقي».

أفكارها لم تكن تدور حول ما إذا كانت سليمة، معافاة، بل أين بطاقتها

Twitter: @ketab_n

الحزبية وأين بطاقتها العسكرية. بدأت على الفور البحث عن حقيبة يدها. وجدتها. فوضعتها على صدرها وأغلقت عينيها. وسرعان ما اقتربت سيَّارة الإسعاف، وحملناها إليها. وتحقَّقت ثانية من وجود حقيبة يدها معها.

مساءً عدت للبيت، حدَّثتُ أمِّي وقلت، قرَّرت الذهاب إلى الجبهة...

تراجعت قوَّاتنا... جئنا جميعنا إلى الطريق... مرَّ على مقربة منا جنديٌّ كهل، توقَّف أمام كوخنا، وانحنى إلى الأسفل لوالدتي: «اعذريني، أيَّتها الأم... أنقذي الفتاة! آه... أنقذي الفتاة!». كنت في السادسة عشرة من عمري، وكانت لديَّ ضفيرة كبيرة... ورموش سوداء طويلة...

أذكر كيف ذهبنا إلى الجبهة... سيَّارة شاحنة كبيرة مغطَّاة ممتلئة بالفتيات. كان الوقت ليلاً، والظلام دامس، والأغصان تطرق بالقماش المشمَّع، وتوتُّر شديد، كان يبدو لنا وكأنهم يطلقون علينا الرصاص... مع قدوم الحرب تغيَّرت الكلمات والأصوات... الحرب... آه، نعم إنها الآن على مقربة منا دوماً! تقولين "ماما" وهي تعني الآن شيئاً آخر، تقولين "بيت" وهي الآن تعني شيئاً آخر. ماذا أضيف إليهما؟ أضيف إليهما قدراً أكبر من الحب، ومن الخوف، وأشياء أخرى...

لكنني منذ اليوم الأوَّل، كنت واثقة من أنهم لن ينتصروا علينا. فبلادنا كبيرة جدًّا، بلا نهاية...

أنا "ابنة أمِّي"، مثلها... لم أخرج أبداً من مدينتي، ولم أنم يوماً واحداً في بيت غريب، وأصبحت طبيبة مبتدئة في بطَّارية مدافع هاون. وما الذي لم يحدث معي؟! يبدؤون بإطلاق مدافع الهاون، فأصاب بالصمم على

Twitter: @ketab_n

الفور. وكأن كلَّ شيء يحرقني. أجلس وأتمتم: «أمِّي، ماما... مـا مـا...». كنا واقفين في الغابة، تخرجين صباحاً - هدوء، الندى من حولك في كلِّ مكان. وهل هذه حرب؟ حيث كلُّ شيء جميل، وحيث كلُّ شيء حسن...

قيل لنا أن نرتدي الألبسة العسكرية. أنا طولي متر وخمسون سنتمتراً. دخلت في البنطال، فربطته لي الفتيات في الأعلى عند رقبتي. وسرت في ثوبي، وأنا اختفيت عن القادة. وعاقبوني لمخالفتي الأنظمة العسكرية بالسجن في غرفة الحجز...

لم أكن لأصدِّق أبداً... لم أكن لأعرف عن نفسي، أنني سأتمكَّن من النوم في أثناء المسير. أمشي في الصف، وأنام، أصطدم بالفتاة التي تسير أمامي، فأستيقظ للحظة، ثمَّ أنام. فنوم الجنديِّ دوماً لذيذ. ذات مرَّة، في الظلام، اندفعت ليس إلى الأمام بل إلى الجانب، وسرت في الحقل نائمة. إلى أن سقطت في حفرة، وعندها صحوت وركضت ركضاً لألحق زميلاتي.

يجلس الجنود في مكان التوقُّف... سيجارة واحدة ملفوفة يدوياً لثلاثة. وبينما يدخِّن الجنديُّ الأوَّل، ينام الآخران، بل ويشخران...

لن أنسى: أحضرنا جريحاً، أنزلناه من الحمَّالة... إحداهن أمسكت بيده: «لا، إنه ميت». ابتعدنا. وهنا تنفَّس الجريح. فانحنيت على ركبتي أمامه عندما تنفَّس. أشهق من البكاء وأصرخ: «الطبيب! الطبيب!». يوقظن الطبيب، ويهززنه ويحرِّكنه، فيسقط من جديد، كالحزمة. إلى هذه الدرجة نومه ثقيل. لم نتمكَّن من إيقاظه حتى بروح النشادر. قبل ذلك لم يذق طعم النوم ثلاث ليال.

Twitter: @ketab_n

كم هي ثقيلة أوزان الجرحى شتاءً! فالستر والقمصان العسكرية منفوخة بالدم والثلج، والجزمات المطاطية مغطَّاة بالدم والثلج، بحيث يستحيل قصُّها. وجميعهم باردون كالموتى.

تنظر من النافذة فترى الشتاء الروسيَّ بجماله الذي لا يوصف. شجرات الشربين البيضاء الساحرة. تنسى كلَّ شيء خلال لحظة واحدة... ومن جديد...

لقد كانت هذه كتيبة المتزلِّجين على السكي... كانوا كلُّهم من طلاب الصفِّ العاشر في المدرسة... كانوا يطلقون عليهم الرصاص بالرشَّاش... فيُحضرون الجريح بهذه الحالة، وهو يبكي. ونحن من أعمارهم، لكننا كنا نشعر بأنفسنا بأننا أكبر. أحتضنه قائلة: «يا طفلي»، فيجيب: «لو كنت هناك، لما قلت لي: يا طفلي». إنه ينازع صارخاً طيلة الليل: «ماما! ماما!». كان هناك شابَّان من كورسك، وكنا ندعوهما بـ"بُلبلي كورسك". أحضر لإيقاظه فأجده نائماً، ولعابه على شفتيه. كالأطفال الصغار...

كنا نقف عدَّة ليالٍ أمام طاولة العمليات... أقف، ويداي تسقطان. وحدث أن أدفن رأسي مباشرة في المريض على طاولة العمليات. النوم! النوم! النوم! وقد تورَّمت أقدامنا، ولم يعد في استطاعتنا ارتداء الجزمة المطَّاطية. وتُصاب أعيننا بالإنهاك، ويصعب علينا إغلاقها...

إن حربي لها ثلاث روائح: رائحة الدم، ورائحة الكلوروفورم ورائحة اليود...

آه! أمَّا الجروح فهي واسعة، عميقة، متمزِّقة... شيء يدعو إلى

Twitter: @ketab_n

الجنون... شظايا الرصاص، والقنابل اليدوية، والقذائف في الرأس، في الأمعاء؛ في كلِّ أنحاء الجسد ننزعها عن أجساد الجنود مع الأزرار العسكرية وقطع المعاطف والقمصان والأحزمة الجلدية. لدى أحد الجنود كان الصدر مفتوحاً، والقلب ظاهراً... ما يزال ينبض، لكنه كان يموت... أضمِّد له الرباط الأخير، وبالكاد أتماسك كيلا أبكي. وأفكِّر: عليَّ أن أنتهي بسرعة، كي أنفرد في زاوية من الزوايا وأستسلم للبكاء. أمَّا هو، فقال لي: «شكراً، يا أختاه...». ويعطيني بيده شيئاً ما صغيراً معدنياً. نظرت: سيفين متصالبين وبندقية. «لمَ تعطيني؟». سألته. فأجاب: «قالت لي أمِّي أن هذه التميمة تنقذني. ولم أعد في حاجة إليها. ربَّما ستكونين أسعد حظاً مني». واستدار إلى الحائط.

بحلول المساء، بقع الدماء على الشعر، تخترق الرداء الطبِّي إلى الجسد، وهي أيضاً على القبَّعات والأقنعة الطبِّية. دماء سوداء، لزجة، مخلوطة بكلِّ ما في الإنسان، وبالبول والبراز...

ومرَّة أخرى، يخاطبك أحدهم: «يا أختاه، قدمي مريضة تؤلمني». ولم تعد لديه قدمان... أكثر ما كنت أخشاه أن أحمل الموتى، حيث الهواء يرفع الشرشف، وعيناه تنظران إليكِ. لم يكن في استطاعتي حمله إذا كان بعينين مفتوحتين، فأقوم بتغطية رأسه أوَّلاً...

أحضروا لنا جريحاً، راقداً على الحمَّالة، ورأسه مغطًّى بالشاش والضماد، فالجرح في رأسه، وبالكاد يرى قليلاً. ويبدو أنني ذكَّرته بالفتاة التي يحبُّها؛ فيتوجه إليَّ قائلاً: «لاريسا... لاريسا... لورتشكا...». بيد أن هذا هو اسمي أنا، لكنني لا أعرف أبداً هذا الإنسان، ولم ألتقِ به سابقاً، وهو يناديني باسمي. اقتربت منه، لا أفهم شيئاً، وأحدِّق فيه. «أنت جئت؟ أنتِ جئتِ؟». فأمسكت بيده وانحنيت نحوه... «كنت أعرف أنك ستأتين...».

Twitter: @ketab_n

فيتمتم بكلمات ما، وأنا لا أفهم ما يقول. والآن، لا يمكنني أن أتذكَّر بهدوء هذه الحادثة، فالدموع ذرفت من عينيَّ، حين قال: «عندما ذهبت إلى الجبهة، لم يتوفَّر لديَّ الوقت لتقبيلك. قبِّليني...».

فانحنيت نحوه وقبَّلته. فخرجت الدموع من عينيه وسالت على الضماد. وانتهى كلُّ شيء. لقد مات...

الموت والدهشة قبل الموت

لم يرد الناس الموت... كنا نستجيب لكلِّ أنين، لكلِّ صرخة. أحد الجرحى عندما شعر بأنه يموت، أمسك بي من كتفي وضمَّني، ولم يرد أن يتركني. فقد كان يظنُّ أنه إذا كان شخص ما، ممرِّضة، إلى جانبه، فلن تفارقه الحياة. وطلب قائلاً: «لو أمكنني أن أعيش خمس دقائق أخرى... دقيقتين...». كان بعضهم يموت بهدوء ودون صوت، وبعضهم الآخر كان يصرخ: «لا أريد أن أموت!». ويشتم أمّك... أحدهم فجأة غنَّى... غنَّى أغنية مولدافية... يموت الإنسان، لكنه مع ذلك لا يظن، ولا يصدق أنه يموت. وأنت ترين، كيف يأتي اللون الأصفر الغامق من تحت الشعر، يتحرَّك كظلٍّ في البداية على الوجه، ومن ثمَّ تحت الثياب... إنه يرقد ميتاً، وعلى وجهه دهشة غريبة، وكأنه يرقد ويفكِّر: هل أنا قد مت؟ أمعقول أنني متّ؟

إنه ما يزال يسمع... وحتى اللحظة الأخيرة تقولين له: لا، لا، وهي يمكن أن تموت. تقبِّلينه، وتضمِّينه: ماذا بك؟ ماذا بك؟ وهو أصبح ميتاً، عيناه تنظران إلى السقف، أحاول طمأنته... أهمس في أذنيه بشيء ما... أسماؤهم انمحت من ذاكرتي، لكن وجوههم ما تزال ماثلة أمامي...

Twitter: @ketab_n

يحملون الجرحى... والجرحى يبكون... إنهم لا يبكون من الألم، بل من العجز... منذ اليوم الأوَّل لوصولهم إلى الجبهة، وبعضهم لم يطلق طلقة واحدة، ولم يستلم بندقية بعد، لأن السلاح في الأعوام الأولى من الحرب كان قليلاً ونادراً. أمَّا الألمان فكانت لديهم الدبَّابات والرشَّاشات والطائرات. كان زملاؤهم يسقطون في المعركة فيأخذون بنادقهم، وقنابلهم اليدوية. لقد ذهبوا إلى المعركة بأيدٍ فارغة... كما لو أنهم ذهبوا إلى شجار...

وقفزوا مباشرة على ظهور الدبَّابات...

عندما كانوا يموتون... كيف كانوا ينظرون... كيف...

جريحي الأوَّل... أصابت الرصاصة حنجرته، عاش بضعة أيَّام، ولم يقلْ كلمة واحدة...

يبترون رجل الجريح أو يده، ولا يظهر دم... بل يظهر لحم أبيض قان، بعدها يظهر الدم. حتى الآن لا يمكنني أن أذبح دجاجة، إذا كان لحمها أبيض اللون صافياً. أشعر بملوحة شديدة في فمي...

لم يأخذ الألمان النساء أسرى... كانوا يطلقون عليهن النار فوراً. أو يضعوهن في الصفِّ الأوَّل أمام جنودهم لعرضهنَّ، وكأنهم يقولون: ها هن نساؤكم، ليسوا نساء بل مشوَّهات دميمات. ونحن دائماً كنا نبقي في جعبتنا رصاصتين لأنفسنا، في حال الفشل.

وقعت في الأسر عندنا ممرِّضة... بعد يوم واحد، عندما استعدنا تلك القرية، كانت القرية مغطَّاة بجثث الخيول وبقايا الموتورات العسكرية، والمدرَّعات. وعثرنا على الممرِّضة: العينان مقتلعتان، والصدر مقطوع...

Twitter: @ketab_n

لقد أجلسوها على الخازوق... والصقيع، وكانت بشرتها شديدة البياض، وشعرها كلُّه أبيض. كانت في التاسعة عشرة من عمرها.

عثرنا في حقيبة ظهرها على رسالة من أهلها، وطيراً مطَّاطياً أخضر،كانت لعبة أطفال...

تراجعنا... قصفونا بالقنابل. في العام الأوَّل، كنا نتراجع ونتراجع. كانت الطائرات الألمانية الفاشية تطير قريباً جدَّاً منا، وكانت تطارد كلَّ واحد منا. كان يبدو لي وكأن الطائرة تتبعني دوماً. أركض... أرى وأسمع الطائرة تتَّجه نحوي...أرى الطيَّار، أرى وجهه، وهو يرى أننا فتيات... قافلة من سيَّارات الإسعاف... يرشُّنا بالرصاص على طول العربات، ويبتسم أيضاً. كان يتسلَّى... يا لتلك الابتسامة الحادةَّ الرهيبة... والوجه الجميل!

لم أعد قادرة على الاحتمال... صرخت... هربت إلى حقول الذرة؛ وهو يتبعني، ركضت إلى الغابة؛ فأرغمني على الزحف على الأرض. وأصبحت عند الشجيرات... قفزت إلى الغابة، إلى أوراق شجر قديمة. دمي ينزف من أنفي بسبب الخوف، لا أدري: هل أنا حيَّة أم لا؟ كلا، أنا حيَّة.... منذ تلك الأثناء، أصبحت شديدة الخوف من الطائرات. إنه ما يزال في مكان ما، وشعرت بخوف شديد، ولم أعد أفكِّر في أي شيء آخر، سوى أنه ما يزال يلاحقني بطائرته، وأين سأختفي؟ أين أخبئ نفسي كيلا يراني ولا يسمعني؟ وحتى الآن لا أتحمَّل هدير الطائرات. ولا أركب الطائرة...

آه، آه! أيَّتها الفتيات...

قبل الحرب عزمت على الزواج من معلِّمي للموسيقى. قصَّة مجنونة.

Twitter: @ketab_n

لقد أحببته بجد... وكذلك هو أحبَّني... لكن أمِّي لم تسمح: «ما زلتِ صغيرة!».

سرعان ما بدأت الحرب. طلبت الذهاب إلى الجبهة. أردت الرحيل من البيت وأن أصبح راشدة. في بيتنا كانوا يبكون، وجهَّزوا حقيبتي للسفر. جوارب سميكة، ألبسة داخلية...

رأيت القتيل الأوَّل في اليوم الأوَّل... عرَضاً أمام باحة المدرسة، حيث استقرَّ المستشفى العسكري. طارت شظية وجرحت مضمِّدتنا. وفكَّرت في نفسي: للزواج رأت أمِّي أنني صغيرة، أمَّا للحرب فلست صغيرة... أمِّي الحبيبة...

ما إن توقَّفنا... وجهَّزنا المستشفى العسكري، حتى بدأوا يجلبون لنا الجرحى، وعلى الفور صدر لنا الأمر بالنزوح. من سننقل من الجرحى بالسيَّارة ومن لن ننقله؟ فهناك نقص في عدد السيارات. فاستعجلونا: «اتركوهم. انزحوا بأنفسكم». أنتِ تتهيَّئين للرحيل، والجرحى ينظرون إليكِ ويرافقونك بأعينهم. ونظراتهم توحي بكلِّ شيء: بالتسليم والخضوع، بالضيم، بالاستياء... يرجوننا: «إخوتنا! أخواتنا! لا تتركوننا للألمان. أطلقوا علينا النار». من يمكنه الوقوف على قدميه يأتي معنا. ومن هو غير قادر يبقى مستلقياً مكانه... كنت صبيَّة شابَّة، أبكي وأبكي...

عندما بدأنا هجومنا، لم نترك ولا جريحاً واحداً من جرحانا. حتى أننا أخذنا الجرحى الألمان. وأنا عملت معهم فترة من الزمن. أعتاد، أضمِّدهم، وكأن كلَّ شيء على ما يرام. وعندما أتذكَّر العام الحادي والأربعين، عندما تركنا جرحانا وأنهم كانوا معهم... كيف كانوا معهم... لقد رأينا كلَّ شيء... كنت أظنُّ أنني لن أقترب من أيِّ جريح ألماني... وفي اليوم التالي، أذهب وأقوم بتغيير ضماداتهم...

Twitter: @ketab_n

كننا ننقذ الجرحى... لكن كثيرات كُنَّ يشعرن بالأسى لأنهن طبيبات، ولا يمكنهنَّ سوى تغيير الضمادات، ولا يحملن السلاح، ولا يطلقن النار. أذكر ذلك... أذكر تلك المشاعر. وأذكر أن رائحة الدم كانت قوية جدّاً. القتلى... كانوا راقدين في السهل. وكانت الطيور تقتلع أعينهم وتنقر وجوههم وأيديهم. آه! إنها حياة مستحيلة...

في نهاية الحرب... كنت أخشى من كتابة الرسائل لأهلي. لن أكتب الرسائل - فكَّرت في نفسي - فقد أُقتل فجأة، وأمِّي سوف تبكي، لأن الحرب انتهت، وأنا استُشهدت عشية النصر. لم يتكلَّم أحد عن هذا، لكن الجميع كانوا يفكِّرون فيه. فقد شعرنا بأننا سننتصر قريباً. وقد حلَّ الربيع.

فجأة رأيت أن السماء زرقاء...

ما الذي رسخ في ذاكرتي؟ ما الذي انحفر في ذاكرتي؟ إنها السكينة، سكينة غير عادية في القاعات، حيث كان يرقد الجرحى من ذوي الجروح البليغة... الأشد خطورة... لم يكونوا يتكلَّمون فيما بينهم. ولم يستدعِ واحدٌ منهم أحداً. كثير منهم بلا ذاكرة. وأغلبهم يرقدون، ويصمتون، ويفكِّرون. ينظرون جانباً ويفكِّرون. تخاطبينهم فلا يسمعون.

فيمَ كانوا يفكِّرون؟

عن الخيول والطيور

سار بنا القطار طويلاً...

كان يقف على المحطَّة قطاران... الأوَّل لنقل الجرحى، والثاني لنقل الخيول. وبدأ القصف. القطاران احترقا... بدأنا نفتح الأبواب من أجل

Twitter: @ketab_n

إنقاذ الجرحى، كي يخرجوا، في حين أنهم ركضوا لإنقاذ الجياد الحامية من وهج النار. مرعب عندما يصرخ الناس الجرحى، لكن الأشد رعباً عندما تصهل الخيول الجريحة. إنها لم ترتكب أي ذنب، والخيول لا تتحمَّل مسؤولية أعمال البشر. لم يركض أحدٌ من الجرحى إلى الغابة، بل ركض الجميع لإنقاذ الخيول، كلٌّ حسب استطاعته.

ما أريد قوله... ما أريد قوله، أن الطائرات الفاشية حلَّقت فوق الأرض بقليل؛ على ارتفاع منخفض جدّاً. ثمَّ فكَّرت في نفسي: لقد رأى الطيَّارون الألمان كلَّ شيء، أوَ لم يشعروا بالعار؟ فيمَ كانوا يفكِّرون؟

أذكر حادثة... وصلنا إلى قرية، وهناك على مقربة من الغابة كان يرقد الموتى من رجال المقاومة والأنصار. كيف مثَّلوا بهم! لا يمكنني أن أروي، فقلبي لا يحتمل. لقد قطعوا أجسادهم قطعاً... واستخرجوا أحشاءهم، كما الخنازير... إنهم يرقدون... وعلى مقربة منهم كانت الخيول ترعى. يبدو أنها كانت خيول الأنصار، حتى أنها بسروجها. أو أنها هربت من الألمان وعادت، أو لم يتمكَّنوا من جلبهم... غير مفهوم. إنها لم تذهب بعيداً. وهنا أعشاب كثيرة. وتلوح الفكرة ذاتها: كيف أمكن هؤلاء أن يفعلوا فعلتهم النكراء الوحشية أمام الخيول؟ أمام الحيوانات؟ كانت الخيول تنظر إليهم...

احترق السهل والغابة... كان الدخان يخرج من المرج. شاهدت بأم عيني الأبقار والكلاب المحروقة... رائحة غير مألوفة، وغير معروفة. لقد رأيت البراميل المحروقة التي تحمل البندورة والملفوف. الطيور والدواجن كانت تحترق. الخيول... الكثير الكثير كان أسود اللون محروقاً ومرمياً على الطرقات. كان لا بدَّ من أن أعتاد على هذه الرائحة...

Twitter: @ketab_n

عندها أدركت أن كلَّ شيء يمكنه أن يحترق... حتى الدم يحترق...

في أثناء القصف قدمت لعندنا عنزة. ورقدت بقربنا. رقدت بقربنا وهي تصيح. توقَّف القصف، فسارت معنا، وهي تلتصق بنا. كائن حي، يخاف أيضاً. وصلنا إلى قرية من القرى وقلنا لامرأة: «خذيها، إنها بائسة». أردنا إنقاذها...

في جناحي كان يرقد اثنان: ألمانيٌّ جريحٌ وجنديٌّ محروقٌ من جنود دبَّاباتنا. قدمت لعنده: «كيف حالك؟».

* «أنا جيِّد». أجابني الجنديُّ الروسيُّ المحروق، «أمَّا ذاك فوضعه سيِّئ».

- «إنه فاشي...».

* «وضعي لا بأس به، لكن وضعه سيِّئ».

لم يعودا عدوَّين، بل جريحان يرقدان جنباً إلى جنب. الجامع الإنساني يظهر بيننا. ولاحظت أكثر من مرةً أن هذا يحدث بسرعة...

كيف هذا... كيف؟ أتذكرين؟ في آخر الخريف تطير الطيور في أسراب طويلة. مدفعيَّتنا تقصف، وكذلك المدفعية الألمانية. كيف يمكن أن نصرخ لها؟ كيف يمكن أن نحذِّرها: «ممنوع الطيران هنا! هنا يطلقون النار!». كيف؟ وتسقط الطيور، وتسقط على الأرض...

جلبوا لنا ضبَّاطاً ألماناً جرحى من قوَّات الأمن الخاصَّة SS لتغيير ضماداتهم. اقتربت مني المُمرِّضة قائلة: «كيف سنغيِّر ضماداتهم؟ تمزيقاً، أم بصورة عادية؟».

Twitter: @ketab_n

* «بصورة عادية. إنهم جرحى...».

وقمنا بتغيير ضماداتهم بصورة عادية. اثنان منهما هربا. وتمَّ الإمساك بهما، وكيلا يهربا ثانية، قمت بقطع الأزرار من كلسونيهما...

عندما قيلت لي هاتان الكلمتان: «الحرب انتهت!». جلست على طاولة التعقيم. فقد اتَّفقت مع الطبيب، عندما يعلنون: «الحرب انتهت!» سنجلس على طاولة التعقيم. أقصد، أن نعمل شيئاً ما غريباً لا يُصدَّق. فأنا لم أكن أسمح لأيِّ إنسان بالاقتراب من هذه الطاولة، ولم أسمح بالاقتراب منها حتى من مسافة قريبة. فأنا مرتدية قفَّازاتي، وقناعي، وأرتدي الرداء الطبِّيَّ المعقَّم، وأنا كنت بنفسي أعطي الجميع كلَّ ما هو ضروري: السدَّادات القطنية، الأدوات... وهنا، أنا بنفسي جلست على هذه الطاولة...

بمَ كنا نحلم؟ أوَّلاً، بالطبع: أن ننتصر، وثانياً: أن نبقى أحياء. الحلم الأوَّل: "أن تنتهي الحرب، وأن ألد مجموعة من الأطفال"، والحلم الثاني: "أن أنتسب إلى المعهد العالي"، وأيضاً "لن أخرج من صالون الحلاقة. وسألبس ثياباً جميلة، وسأعتني بجمالي ومظهري". أو "سأشتري عطوراً رائعة. سأشتري وشاحاً وبروش".

وها هو ذا قد حلَّ هذا الوقت. واستسلم الجميع للصمت...

استعدنا قرية... نبحث، من أين نحصل على الماء؟ دخلنا في بيت رأينا فيه شادوفاً. بئراً خشبياً محفوراً... في فناء البيت، كان صاحبه راقداً بعد أن أُعدم رمياً بالرصاص... وعلى مقربة منه يجلس كلبه. رآنا الكلب فبدأ ينبح. لم ندرك على الفور أنه كان ينادينا. سار أمامنا باتِّجاه الكوخ... فتبعناه. على العتبة كانت ترقد الزوجة وأطفال ثلاثة ميتون...

Twitter: @ketab_n

جلس الكلب وراءهم وبدأ يبكي. حقيقة، بدأ يبكي، كما يبكي الإنسان...

كنا ندخل إلى القرى التي نستعيدها... لا شيء فيها سوى المواقد. المواقد والأفران وحدها! في أوكرانيا، حرَّرنا أماكنَ لم نجد فيها سوى البطِّيخ ينمو، كان الناس يأكلون البطِّيخ وليس لديهم أيُّ شيء آخر يُؤكل. كانوا يستقبلوننا ويحملون إلينا البطِّيخ بدلاً من الورود...

عدت إلى بيتي. كان في البيت الطيني أمِّي وثلاثة أطفال، وكان الكلب يأكل بقولاً برِّية مسلوقة. يسلقون البقول البرِّية فيأكلون ويطعمون منها الكلب. وكان الكلب يأكل... قبل الحرب كان في منطقة بيتنا كثير من البلابل، وبعد الحرب، لم يسمع أحد أصوات البلابل طيلة عامين، كانت الأرض مقلوبة رأساً على عقب، فحرثوها من جديد. ولم تظهر البلابل إلا في العام الثالث بعد الحرب. أين كانت؟ لا يعرف أحد. لم تعد إلى أماكنها إلا بعد ثلاث سنوات.

بعد أن عمَّر الناس بيوتهم، بدأت تطير البلابل...

ما إن أرى أزهار الحقول أتذكَّر... آنذاك لم نكن نقطف الأزهار. ولم نجمع طاقات الزهور إلا عند دفن موتانا... عندما كنا نودِّعهم...

آه، آه! أيَّتها الفتيات، كم هي حقيرة هذه الحرب! نتذكَّر صديقاتنا...

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هذه الفتاة ليست أنا...

ما الذي حفظته أكثر من أيِّ شيء آخر؟

رسخ في ذاكرتي صوت الإنسان الهادئ، الغارق في دوَّامة الحيرة. إن الإنسان يشعر بالعجب من نفسه ذاتها، قبل أن يحدث معه ما حدث. لقد اختفى الماضي، ونثر عماء دوَّامة ساخنة وانسحب، وبقي الإنسان. بقي الإنسان وسط الحياة العادية. كلُّ شيء عادي من حوله باستثناء ذاكرته. أنا أيضاً أغدو شاهد عيان. شاهدة على ما يتذكَّره الناس وكيف يتذكَّرون، وعمَّا يودُّون الحديث، وما الذي يحاولون نسيانه أو إبعاده إلى أبعد زوايا الذاكرة. وإغلاق الستار عليه. وكيف ينشغلون في البحث عن الكلمات، لكنهم يودُّون استرجاع ما اختفى، آملين اكتساب معناه الكامل من مسافة بعيدة. يريدون أن يروا ويفهموا ما لم يروه ولم يفهموه آنذاك. هناك، ينظرون بأنفسهم إلى أنفسهم، يلتقون من جديد بأنفسهم. وغالباً، نكون أمام إنسانين؛ ذلك الإنسان وهذا الإنسان، الإنسان الشاب، والإنسان الهرم. إنسانٌ في الحرب وآخرُ بعد الحرب. بعد الحرب بفترة طويلة. طيلة الوقت، لا يفارقني الشعور بأنني أسمع صوتين في الآن نفسه...

هناك، في موسكو، في يوم النصر، التقيت أولغا ياكوفليفنا أوميلتشنكو. جميع النساء كُنَّ بفساتينَ ربيعيةٍ ومناديلَ ساطعة، أمَّا هي فكانت في بذلتها العسكرية وقبَّعتها العسكرية. طويلة، قوية، لم تتكلَّمْ ولم تبكِ، لكن

Twitter: @ketab_n

صمتها هذا كان من نوع خاصٍّ متميِّز، فقد كان يحوي من الأقوال أكثر من الكلمات نفسها. كانت تبدو وكأنها تتحدَّث دوماً إلى نفسها. لم تعد في حاجة إلى أيٍّ كان.

تعارفنا، ثمَّ أتيت لعندها في بولوتسك.

انفتحت أمامي صفحة أخرى من صفحات الحرب، يعجز أمامها الخيال...

أولغا ياكوفليفنا أوميلتشنكو، مرشدة طبيَّة في سرية مشاة:

تعويذة أمِّي... أرادت أمِّي أن أنزح معها، كانت تعرف أنني أتطلَّع إلى الذهاب إلى الجبهة، وربطتني بالعربة التي نقلنا عليها أمتعتنا. لكنني بهدوء، حللت هذا الرباط وذهبت، وبقي قسم من الحبل على معصمي...

الجميع ينطلق... يهرب... وأين المفر؟ وكيف يمكنني الوصول إلى الجبهة؟ في الطريق، التقيت بجماعة من الفتيات. قالت إحداهن: «على مقربة من هنا أمِّي، لنذهب إلى بيتنا». وصلنا ليلاً، قرعنا الباب، ففتحت أمُّها، وما إن ألقت نظرة علينا، وكنا متَّسخات، بثياب ممزَّقة، حتى أمرتنا: «قفن على العتبة». وقفنا. جلبت طشوتاً حديدية كبيرة، وخلعت جميع ملابسنا. غسلنا رؤوسنا بالرماد (لم يكن هناك صابون) وصعدنا إلى الموقد، ونمت نوماً عميقاً. في الصباح، حضَّرت أم هذه الفتاة حساء "الشي"[1]، وخبزت خبزاً من النخالة مع البطاطا. بدا لنا لذيذاً جدَّاً حساء "الشي" مع هذا الخبز. وبقينا عندها أربعة أيَّام تقدِّم ما لديها من الطعام. لم تكن تعطينا إلا القليل، لأنها كانت تخشى أن نُصاب بالتخمة ونموت. في اليوم الخامس قالت لنا: «اذهبن». وقبل ذلك، حضرت جارتها وكنا

1 - «الشي» حساء روسي شهير، يُصنع من قطع اللحم والملفوف المقطَّع. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

نجلس فوق الموقد. وأشارت لنا الأمُّ بأصابعها أن نلوذ بالصمت. حتى أنها لم تعترف للجيران بأن ابنتها في البيت، فالجميع كان يعرف أنها في الجبهة. وكانت ابنتها هي الابنة الوحيدة، ولم تكن تشفق عليها، ولم تسمح بأن يلبسها العار لكونها رجعت، ولا تحارب.

في الليل، أيقظتْنا الأمُّ، وقدَّمت لنا ربطات من الطعام. عانقتنا، وقالت لكلِّ واحدة منا: «اذهبي...».

- «أوَلم تحاول التمسُّك بابنتها؟».

* «لا، قبَّلتْها وقالت: أبوك يحارب، وأنت اذهبي وحاربي».

وفي الطريق، حدَّثتني هذه الفتاة أنها ممرِّضة، وعانت من الحصار...

انتقلت طويلاً من مكان إلى آخر، وأخيراً وصلت إلى مدينة تومبوف، حيث عُيِّنت في مستشفى عسكري. كان الوضع جيِّداً في المستشفى، وبعد الجوع سمِنت، وأصبحت فتاة ممتلئة الجسم. وعندما أكملت عامي السادس عشر، قيل لي إنه يمكنني التبرُّع بالدم مثل جميع الممرِّضات والأطبَّاء. وشرعت أتبرَّع بالدم كلَّ شهر. ففي المستشفى العسكري، كانت ثمَّة حاجة دائمة إلى مئات الليترات من الدم، ولم يكن يكفي ما يتوفَّر. تبرَّعت على الفور بخمسين ليتراً مكعَّباً، نصف ليتر مرَّتين في الشهر. وكنت أحصل على وجبة المتبرِّعين: كيلوغرام من السكَّر، كيلوغرام من السميد، وكيلوغرام من المرتديلا، من أجل استعادة قواي وصحَّتي. وتصاحبت مع الممرِّضة الخالة نيورا، كان عندها سبعة أطفال، واستُشهد زوجها في بداية الحرب. ابنها الأكبر، وعمره أحد عشر عاماً، ذهب لشراء المواد الغذائية فأضاع بطاقته التموينية، فأعطيته وجبتي الخاصَّة بالمتبرِّعين بالدم. قال لي الطبيب ذات مرَّة: «تعاليْ نكتب عنوانك، فقد يتمُّ الإعلان عمَّن يحتاج دمك». فكتبنا العنوان وألصقناه بورقة على زجاجة الدم.

Twitter: @ketab_n

وبعد فترة من الزمن، انقضى شهران لا أكثر، انتهت ورديَّتي في المناوبة، وذهبت لأستلقي وأنام. أيقظوني بقولهم: «انهضي! انهضي! وصل أخوكِ».

* «أيُّ أخ؟ ليس لديَّ أخ».

كان سكننا المشترك في الطابق الأخير من بناء المستشفى. نزلت إلى الأسفل، وألقيت نظرة: شابٌّ جميلٌ برتبة ملازم. سألته: «من طلب أومليتشنكو؟».

فأجابني: «أنا طلبتها». وأراني ورقة عنواني التي كتبتها مع الطبيب «هَأنذا... أنا أخوكِ بالدم...».

أحضر لي معه تفَّاحتين، وكيساً من الكراميل؛ حيث كان من المستحيل العثور عليها. يا إلهي! كم كانت لذيذة هذه الكراميل! ذهبت إلى رئيس المستشفى وقلت: «حضر أخي!». أعطوني إجازة. دعاني قائلاً: «لنذهب إلى المسرح». لم أذهب سابقاً في حياتي إلى المسرح، وفجأت أذهب إلى المسرح برفقة شاب. شاب جميل، ضابط!

بعد بضعة أيَّام رحل، فقد أرسلوه إلى جبهة فورونيج. عندما حضر لوداعي، فتحت النافذة ولوَّحت له بيدي. لم يسمحوا لي بإجازة: فقد وصل إلى المستشفى كثير من الجرحى.

لم يسبق لي أن استلمت رسالة، حتى أنه لم يكن لديَّ تصوُّر ماذا يعني استلام رسالة. فجأت سلَّموني رسالة ثلاثية الشكل، فتحتها، وقرأت: «صديقك، قائد فصيلة المدافع الرشَّاشة... استُشهد بطلاً، شجاعاً...». إنه هو نفسه، أخي بالدم. كان هو نفسه من ملجأ الأطفال، ويبدو أن العنوان الوحيد الذي كان في جعبته هو عنواني... عند رحيله، رجاني أن أبقى في هذا المستشفى العسكري، كي يعثر عليَّ بسهولة بعد الحرب. فقد كان

Twitter: @ketab_n

يخشى فقداني: «من السهولة بمكان أن نضيع في أثناء الحرب». وبعد شهر واحد من رحيله، وصلتني منه هذه الرسالة، أنه استُشهد... شعرت بكثير من الرعب... وكأن ضربة أصابتني في قلبي... قرَّرت أن أسعى بمختلف الوسائل إلى الذهاب إلى الجبهة، والانتقام لدمي، كنت أعرف أن دمي أُزهق في مكان ما...

لم يكن الذهاب إلى الجبهة بالأمر السهل. كتبت ثلاثة تقارير إلى رئيس المستشفى، وفي المرَّة الرابعة طلبت مقابلته: «إذا لم تسمح لي بالذهاب إلى الجبهة فسأهرب بنفسي».

* «حسناً، سأحوِّلك إلى الجبهة، طالما أنت عنيدة».

المعركة الأولى كانت، بالطبع، الأشدَّ رعباً. ذلك، لأنك لا تعرفين شيئاً بعد... السماء ترعد، الأرض تهدر، يبدو لكِ وكأن قلبك ينفجر، والجلد يتمزَّق. لم أكن أظنُّ أن الأرض قد تتشقَّق. كلُّ شيء كان يتشقَّق، كلُّ شيء كان يهدر... الأرض كلُّها ترتج... ببساطة لم أستطع... كيف يمكنني أن أعيش هذا كلَّه؟ كنت أظن أنني لن أحتمل. وشعرت برعب شديد، وقرَّرت، كيلا أجبن، أخرجت بطاقتي الشبيبية، وغمستها بدم جريح ووضعتها في جيبي على مقربة من قلبي، وزررت الجيب. وعلى هذا أقسمت بأن عليَّ أن أحتمل، والأهم: ألَّا أجبن، لأنني إذا ما جبنت في المعركة الأولى، فلن أتقدَّم خطوة واحدة. سينقلونني من الخطِّ الأمامي، ويحوِّلونني إلى كتيبة الخدمة الطبِّية. في حين أنني أردت أن أكون على الخطِّ الأوَّل وحده، وأن أنظر إلى فاشيٍّ واحد على الأقل، وجهاً لوجه... شخصياً. وبدأنا الهجوم. سرنا على العشب، وقد نما العشب طويلاً حتى الخصر؛ حيث لم يبذروا في ذلك الحقل منذ سنوات. كان السير في العشب أمراً عسيراً. هذا حدث في كورسك...

بعد المعركة استدعاني رئيس الأركان. الأركان كانت عبارة عن كوخ

Twitter: @ketab_n

مهدَّم، ولا يوجد أي شيء، ماعدا كرسيٍّ واحد، وكان هو واقفاً. أجلسني على الكرسي: «أنظر إليك وأفكّر: ما الذي أرغمك على القدومِ إلى هذا الجحيم؟ سيقتلونك كذبابة. إنها الحرب! مفرمة اللحم! تعالي أنقلك إلى قسم الخدمات الطبِّية. حسناً لو قتلوك، ولكن ماذا لو بقيت حيَّة بدون عينين، بدون يدين؟ هل فكَّرت في هذا؟».

أجبته قائلة: «الرفيق العقيد، فكَّرت في هذا. وأطلب منك طلباً واحداً: أن تبقيني في سريَّتي».

- «حسناً، اذهبي». صرخ بصوت شعرت معه بالخوف. واستدار نحو النافذة...

المعارك قاسية. كنت في معركة عنيفة. إنه الرعب ذاته... هذا ليس للإنسان... يطلقون النار، أحدهم على الآخر، يضرب أحدهم الآخر، يغرز فيه حربته، يمسك أحدهم بعنق الآخر ساعياً إلى خنقه، يكسر أحدهم عظام الآخر. العواء، الصراخ. الأنين. وهذا السحق... هذا السحق! إنه لا يُنسى. سحق العظام... أنت تسمعين كيف تنكسر الجمجمة. تنفلع... إنه كابوس حتى بالنسبة إلى الحرب، لا شيء إنساني هناك. لن أصدِّق أحداً إذا ما قال إنه لا رهبة في الحرب ولا رعب. ها قد نهض الألمان، وهم يسيرون، وهم يسيرون دوماً وقد شمَّروا عن سواعدهم، بعد خمس أو عشر دقائق تبدأ المعركة. شيء ما يهزُّكِ. قشعريرة. لكن هذا يستمرُّ حتى الطلقة الأولى... وهناك... ما إن تسمعي الأمر، لن تتذكَّري شيئاً، تنهضين مع الجميع وتركضين. ولا تفكِّرين حينها في الخوف. وفي اليوم التالي، لن تتمكَّني من النوم، تشعرين بالرعب. تتذكَّرين كلَّ شيء، جميع التفاصيل، ويدخل إلى شعورك أن من الممكن أن يقتلوكِ، وتشعرين برعب جنوني. من الأفضل، بعد المعركة مباشرة ألّا تنظري إلى الوجوه. إنها وجوه أخرى تماماً، ليست وجوهاً عادية، كما هي عادةً لدى البشر. حتى أنهم لا يمكنهم

Twitter: @ketab_n

أن ينظروا في عينَيْ أحدهم الآخر. بل حتى لا ينظرون إلى الأشجار. تقتربين من أحدهم، فيصرخ: «ابتعدي!». لا يمكنني التعبير عن هذا، يبدو وكأن الجميع غير طبيعيين، بل وفيهم شيءٌ وحشيٌّ ما يتراءى. الأفضل ألَّا تري. حتى الآن لا أصدِّق أنني بقيت حيَّة. حيَّة... وجريحة مصدومة، لكنني بكامل جسمي، لا أصدِّق...

أغلق عينيَّ، وأرى كلَّ شيء أمامي من جديد...

سقطت قذيفة في مستودع الذخيرة، فاشتعلت النيران. كان جنديٌّ يقف على مقربة، يحرسه، فأصابته النيران. لقد أصبح قطعة لحم سوداء... إنه يقفز، ينطُّ في مكانه... والجميع يشاهدونه من الخنادق، ولا يتحرَّك أحد منهم، لقد أصيب الجميع بالذهول. أخذت شرشفاً، وركضت، وغطَّيت هذا الجندي واستلقيت فوقه فوراً على الأرض. الأرض باردة... وهكذا... كان يتحرَّك، إلى أن تمزَّق قلبه، وسكن...

أنا كنت مغطَّاة بالدم... اقترب مني أحد الجنود الكبار في السن، وضمَّني إليه، وسمعته يقول: «الحرب ستنتهي، وإذا ما بقيتْ حيَّة، فلن تعودَ إنسانة كما كانت، لقد انتهت». ويقصد أنني وسط هذا الرعب الذي عشته كلِّه، وفي هذه السنِّ الفتية! كنت أرتجف، كما في نوبة، وقادني إلى الكوخ. قدماي لم تحملاني، كانتا ترتجفان، وكأن تيَّاراً كهربائياً يسري في جسدي... إنه إحساس يصعب التعبير عنه...

وهنا، بدأت المعركة من جديد... بالقرب من سيفسك، كان الألمان يهاجموننا سبع أو ثماني مرَّات في اليوم. وكنت أنا في هذا اليوم قد نقلت جنوداً جرحى مع أسلحتهم. زحفت نحو الأخير، وكانت يده مكسورة ومصابة. كانت تتكسَّر إلى قطع... إلى أوردة... وكلُّها مغطَّاة بالدم... كان من الضروري قطع يده بصورة عاجلة، من أجل ربطها. وليس من سبيل آخر. لم يكن عندي سكِّين ولا مقص. كانت حقيبتي تتأرجح إلى جانبي

Twitter: @ketab_n

وسقط منها المقصُّ والسكِّين. فما العمل؟ عضضت بأسناني قطع اللحم من يده، وعضضتها ثانية ومن ثمَّ بدأت بربطها وتضميدها... أمَّا الجريح المصاب بالحمَّى فقال: «بسرعة، يا أختي، سأقاتل».

بعد بضعة أيَّام، عندما هاجمتنا الدبَّابات، جَبُن اثنان من جنودنا، وهربا... وانهار الخطُّ الدفاعي كلُّه... استُشهد كثير من رفاقنا. أمَّا الجرحى الذين سحبتهم في الدوَّامة، فوقعوا في الأسر. كان من المفروض أن تصل سيَّارة وتأخذهم... وعندما جَبُن الجنديان وهربا، سيطر الذعر. ولم يأخذوا الجرحى. عدنا فيما بعد إلى هذه المنطقة، حيث كان يرقد الجرحى: من انتُزعت عيناه، ومن بُقر بطنه... عندما رأيت هذا، سيطر عليَّ السواد خلال الليل. فأنا من جمعهم في مكان واحد... أنا... شعرت برعب ورهبة لا مثيل لهما...

في الصباح، اصطفَّت الكتيبة بكامل عناصرها، أخرجوا هذين الجبانين إلى المقدَّمة، وتُلي الأمر بإعدامهما رمياً بالرصاص. كان المفروض أن يخرج سبعة أشخاص لتنفيذ الحكم. خرج ثلاثة، والآخرون بقوا واقفين في أمكنتهم. أخذت الرشَّاش وخرجت. وما إن خرجت.... فتاة... خرج الجميع ورائي... كان من المستحيل مسامحتهما. فبسببهما استُشهد جنود كثيرون!

قمنا بتنفيذ الحكم... أنزلت الرشَّاش، وشعرت برهبة. اقتربت منهما... كانا راقدين... وظهرت ابتسامة حيَّة على وجه أحدهما...

لا أعرف، هل كنت سأسامحهما الآن؟ لن أقول... لا أريد أن أقول غير الحقيقة. وفي مرَّة أخرى، أريد البكاء. ولكن، لا أتمكَّن من البكاء...

في الحرب نسيت كلَّ شيء. نسيت حياتي السابقة كلَّها... والحبَّ نسيته...

Twitter: @ketab_n

أحبَّني قائد سرية الاستطلاع. كان يرسل إليَّ رسائلَ مع جنوده. أتيت إليه مرَّة، حسب الموعد. قلت له: «أحبُّ شاباً لم يعد على قيد الحياة منذ زمنٍ». فاقترب مني كثيراً، ونظر إليَّ في عينيَّ نظرةً مباشرة، ثمَّ استدار وذهب. كانوا يطلقون النار، لكنه بقي يسير إلى الأمام دون أن يتراجع... ثمَّ حرَّرنا بلدة كبيرة؛ حدث هذا في أوكرانيا. فكَّرت في نفسي: «فلأتمشَّ فيها، وألقي نظرة». كان الطقس مشرقاً، والأكواخ بيضاء. ووراء البلدة قبور، وأرض جديدة... من استُشهد من أجل هذه البلدة دُفن هناك. لا أدري لماذا، لكنني توجَّهت نحو المقبرة. وعلى كلِّ قبر، كانت مثبَّتة على خشبة صورة الشهيد وكنيته... وفجأة، نظرة... إنه وجه مألوف... قائد سَرِية الاستطلاع، الذي اعترف بحبِّه لي. وكنيته... لم أعرف ماذا حلَّ بي. شعرت بخوف شديد... وكأنه ينظر إليَّ، وكأنه لا يزال حياً... وفي هذه اللحظة، اتَّجه إلى القبر جنوده من السَّرِية. كانوا كلُّهم يعرفونني، فهم كانوا يحملون لي رسائله. لم ينظر أحد منهم إليَّ. إنهم لا يرونني. فيما بعد، عندما كنت ألتقيهم... هذا ما أظنُّه... كانوا يريدون أن أستشهد. فقد كان من الصعب عليهم أن يروني على قيد الحياة... وشعرت وكأنني مذنبة بحقِّهم... وبحقِّه...

عدت من الحرب ومرضت مرضاً شديداً. تنقَّلت طويلاً بين المستشفيات، إلى أن وصلت إلى أستاذ في الطبِّ كبير السن، وبدأ يعالجني... كان يعالجني بالكلام أكثر ممَّا عالجني بالأدوية، وشرح لي مرضي. كان يقول لي لو أنني ذهبت إلى الجبهة في الثامنة عشرة أو التاسعة عشر من العمر، لكان جسمي قد اكتسب كامل قوَّته، وبما أنني ذهبت في السادسة عشرة من عمري – وهذا عُمْر مبكِّر جدّاً – لذلك كانت إصابتي قوية. وشرح لي قائلاً: «بالطبع، الدواء شيء يمكنك أن تتعالجي به، ولكن إذا ما أردت استعادة صحَّتك، إذا ما أردت أن تعيشي، فنصيحتي الوحيدة

Twitter: @ketab_n

لك: أن تتزوَّجي وتنجبي أكبر عدد ممكن من الأولاد. فهذا وحده ما سينقذك. ومع كلِّ وليد جديد ينبعث جسمك ويتجدَّد».

- «وكم كان عمرك آنذاك؟».

* «عندما انتهت الحرب، دخلت في عامي العشرين. بالطبع، لم أكن أفكِّر في الزواج».

- «لماذا؟».

* «كنت أشعر بنفسي متعبة للغاية، وأكبر من أترابي بكثير، بل كبيرة السن. كانت صديقاتي يرقصن، ويمرحن، أمَّا أنا فلا أستطيع، كنت أنظر إلى الحياة بعينَيْ عجوز. من عالم آخر... امرأة عجوز! كان الشبَّان يغازلونني. لكنهم لم يروا روحي، لم يعرفوا ماذا كان يجري فيها. إن ما رويته لك هو يوم واحد... عن المعارك قرب سيفسك. يوم واحد فقط... وبعده، كان الدم ينزف من أذنيَّ. استيقظت صباحاً، كما لو كنت في معركة ضارية. الوسادة مغطَّاة بالدم...

وفي المستشفى العسكري؟ كان عندنا خلف ستارة في غرفة العمليات حوض كبير، كنا نضع فيه الأيدي والأرجل المقطوعة... وصل نقيب من خطِّ الجبهة، جالباً معه رفيقه الجريح. لا أدري، كيف وصل إلى هذا الحوض، لكنه عندما رآه أُغمي عليه...

يمكنني أن أتذكَّر الكثير الكثير. وألَّا أتوقَّف... ولكن ما هو الأهم؟

أذكر أصوات الحرب. كلُّ شيء من حولي يهدر، يقعقع، يطقطق من النار... إن روح الإنسان تهرم في الحرب. فبعد الحرب لم أعدْ أبداً صبية شابَّة... فالمهمُّ هو فكرتي...».

- «تزوَّجتِ؟».

* «تزوَّجت. وأنجبت خمسة أبناء وربَّيتهم. خمسة صبيان. لم يرزقْني

Twitter: @ketab_n

الله بفتاة. أكثر ما يدهشني، أنني بعد هذا الخوف الشديد والرعب، استطعت أن ألد أطفالاً جميلين. وأنني استطعت أن أكون أمّاً جيِّدة، وجدَّة جيِّدة».

أنا الآن أتذكَّر كلَّ شيء، ويبدو لي، وكأن هذه الفتاة كانت لست أنا، بل فتاة أخرى.

عدت إلى بيتي، حاملة أربعة أشرطة تسجيل (اثنين للحديث) عن "حرب أخرى"، شاعرة بمشاعر مختلفة: صدمة وخوف، ذهول وإعجاب، فضول وحيرة وحنان. في البيت رويت لأصدقائي بعض المقاطع. وبصورة مفاجئة لي، كانت استجابة الجميع واحدة: «شيء رهيب جدّاً. كيف احتملتْ؟ وكيف لم تفقدْ عقلها؟». أو «اعتدنا القراءة عن حرب أخرى. في هذه الحرب ثمَّة حدٌّ دقيق فاصل: هم - نحن، الخير - الشر، أمَّا هنا؟». لكنني لاحظت الدموع في أعين الجميع، والجميع استغرقوا في التأمُّل. غالباً، حول الموضوع نفسه مثلي. لقد حدثت على الأرض آلاف الحروب (قرأت منذ فترة قريبة، أن عدد الحروب على الأرض بلغ أكثر من ثلاث آلاف حرب عالمية ومحلِّية)، لكن الحرب، كما كانت أحد أسرار الإنسان الرئيسة، بقيت كذلك. لم يتغيَّر أيُّ شيء. أحاول تصغير التاريخ الكبير إلى مستوى الإنسان الواحد، كي أفهم شيئاً. كي أكتسب كلمات. ولكن، وعلى هذا المقطع الصغير من الأرض والمناسب للعرض - مسافة روح إنسانية واحدة - يبدو كلُّ شيء غير مفهوم، وأصعب على التنبُّؤ ممَّا هو في التاريخ. لأنني أمام دموع حيَّة، ومشاعر حيَّة. وجه إنسانيٌّ حقيقيٌّ حيٌّ تظهر عليه في أثناء الحديث ظلال الألم والخوف. حتى أنه أحياناً، يُغلق التخمين المتمرِّد لجمال يكاد لا يُرى للمعاناة الإنسانية. وعندها أشعر بالخوف من نفسي على نفسي...

الطريق واحد - أن نحبَّ الإنسان وأن نفهمه بالحب.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إنني أذكر الآن هاتين العينين...

ويستمرُّ البحث... ولكن في هذه المرَّة، لا ضرورة لأن أسافر بعيداً...

الشارع الذي توجد فيه شقَّتي يحمل اسم فاسيلي زخاروفيتش كورج - بطل الاتحاد السوفييتي، شارك في الحرب الأهلية، وبطل المعارك في إسبانيا، وقائد لواء الأنصار في الحرب الوطنية العظمى. كلُّ مواطن في بيلاروسيا قرأ كتاباً عنه، في المدرسة على الأقل، أو شاهد فيلماً سينمائياً عنه. إنه الأسطورة البيلاروسية.

مئات المرَّات كنت أكتب اسمه في عنواني على مغلَّفات الرسائل وفي نصوص البرقيَّات، ولم أفكِّر فيه يوماً، باعتباره إنساناً واقعياً. فقد حلَّت الأسطورة منذ زمن طويل محلَّ الإنسان الحقيقي الذي كان حيَّاً يوماً ما، وأصبحت الأسطورة قرينة له. ولكن، في هذه المرَّة سرتُ في شارع أعرفه بشعور جديد: نصف ساعة من السفر على حافلة الترولي إلى طرف المدينة الآخر، وأرى ابنته - حارب الاثنان في الجبهة - وأرى زوجته. وستنبعث الأسطورة أمام عينيَّ وتتحوَّل إلى حياة إنسان، وتنزل إلى الأرض. والكبير سيصبح صغيراً. ومهما كنت أحبُّ النظر إلى السماء أو إلى البحر، على أية حال، تفتنني أكثر حبَّة الرمل تحت المجهر. عالم قطرة واحدة. تلك الحياة الكبيرة الخارقة التي سأكتشفها الآن. كيف يمكنني أن أدعو الصغير صغيراً، والكبير كبيراً، عندما كان الآخر أيضاً بلا نهاية؟ لم أعد أميِّز بينهما

Twitter: @ketab_n

منذ مدَّة طويلة. فإنسان واحد بالنسبة إليَّ هو كبير وكثير جدَّاً؛ ففيه كلُّ شيء، وفيه يمكنني أن أضيع.

أجد العنوان المطلوب. إنه أيضاً بناءٌ ضخمٌ أخرقُ متعدِّد الطوابق. وهذا هو المدخل الثالث، أضغط على زرِّ المصعد الطابق السابع...

فتحت الباب الابنة الصغرى؛ زينائيدا فاسيليفنا. الحاجبان الغامقان العريضان، والنظرة المفتوحة العنيدة، تماماً مثل أبيها في صوره.

- «اجتمعنا جميعنا. صباحاً وصلت أختي من موسكو. فهي تقيم هناك، وتعمل مدرِّسة في جامعة باتريس لومومبا. وأمُّنا هنا. بفضلك، التقينا كلُّنا».

الأختان: أولغا فاسيليفنا، وزينائيدا فاسيليفنا كورج، كانتا مرشدتَين طبِّيتَين في سلاح الفرسان. جلست الأختان جنباً إلى جنب، ونظرتا إلى أمِّهما فيودوسيا ألكسييفنا. بدأت الأمُّ الحديث:

كلُّ شيء يحترق... قالوا لنا إن علينا أن ننزح... قطعنا مسافة طويلة. وصلنا إلى مقاطعة ستالينغراد. النساء والأطفال يتحرَّكون في المؤخَّرة، والرجال في المقدَّمة. سائقو الحصَّادات والجرَّارات، الجميع يتحرَّكون. شاحنات كبيرة كاملة. أذكر أن أحدهم نهض من مقعده وبدأ يصرخ: «أيَّتها الأمَّهات والأخوات! اذهبن إلى المؤخَّرة، واحصدن القمح كي ننتصر على العدو!" وها هم جميعاً رفعوا قبَّعاتهم وينظرون إلينا. أمَّا نحن، فما تمكنَّا من أخذه هو أطفالنا. نمسك بهم بأيدينا وبعضهم نحمله على أيدينا. إنه يرجو قائلاً: «أيَّتها الأمَّهات والأخوات! اذهبوا إلى المؤخَّرة، احصدن القمح...».

لم تنطق الأمُّ بكلمة أخرى طيلة فترة حديثنا. أمَّا الابنتان فكانتا أحياناً تمسِّدان يديها، وتطمئنانها.

Twitter: @ketab_n

زينائيدا فاسيليفنا:

كنا نقيم في بنسك... كان عمري أربعة عشر عاماً ونصف، وأختي أولغا ستَّة عشر عاماً، أمَّا أخونا ليونا (ليونيد) ثلاثة عشر عاماً. في تلك الأيَّام بالذات أرسلنا أولغا إلى مصحَّة الأطفال، أمَّا والدنا فكان يريد الذهاب معنا إلى القرية؛ إلى أهله... في تلك الليلة، لم ينم أبي في البيت عملياً. كان يعمل في لجنة الحزب المنطقية. استُدعي ليلاً، وعاد إلى البيت صباحاً. هُرع إلى المطبخ، تناول بسرعة وجبة خفيفة، قائلاً: «أبنائي، بدأت الحرب. لا تذهبوا إلى أيِّ مكان. انتظروني».

رحلنا ليلاً. كانت لدى والدي أعزُّ ذكرى من إسبانيا بندقية صيد، غاليه جدّاً مع ذخيرتها. هذه كانت مكافأة قُدِّمت له لشجاعته. رمى بالبندقية لأخي، قائلاً: «أنت الأكبر الآن، أنت رجل، عليك أن ترعى أمَّك وشقيقتيك...».

هذه البندقية حافظنا عليها طيلة الحرب. كلُّ ما كان لدينا من الأشياء الثمينة بعناه، أو استبدلناه بالخبز. لكننا لم نستطع التفريط بالبندقية. فهذه كانت ذكرانا عن الوالد. كما أنه رمى لنا في السيَّارة معطفاً شتوياً كبيراً. كان هذا الأكثر دفئاً عنده.

في المحطَّة، انتقلنا إلى القطار، ولكن وقبل وصولنا إلى غومل، تعرَّضنا لإطلاق نار شديد. صدر الأمر: «من العربات إلى الأشجار - انبطح!». عندما توقَّف إطلاق النار سيطر الهدوء أوَّلاً، ثمَّ انطلق الصراخ... ركض الجميع... تمكَّنت أمِّي بصعوبة من الركوب في عربة القطار مع أخي، وأنا بقيت. شعرت بخوف شديد... جدَّاً! لم يسبق لي أن بقيت وحدي. الآن، أنا لوحدي. يبدو لي أنني فقدتُ لفترة ما القدرة على الكلام... انعقد لساني... سألني أحدهم عن شيء ما، أنا لذت بالصمت... ثمَّ التصقتُ بامرأة ما لا أعرفها، ساعدتها في تضميد الجرحى؛ كانت طبيبة.

Twitter: @ketab_n

كانوا يدعونها "الرفيق النقيب". ثمَّ ذهبت مع وحدتها الطبِّية. فهدَّأوني، وأطعموني، ولكن سرعان ما سألوني: «كم عمرك؟».

أدركت بأنني إذا ما قلت الحقيقة، فسيرسلونني إلى أحد بيوت الأطفال. هذا ما أدركته بسرعة. لم أكن أرغب في فقدان هؤلاء الناس الأقوياء. أردت، مثلهم، أن أحارب. فقد كانوا يوحون لنا دوماً، وكذلك كان والدي يقول، إننا سوف نحارب في أراضي الغير، وأن هذا كلَّه مؤقَّت، وسرعان ما ستنتهي الحرب بانتصارنا. فكيف يحدث هذا من دوني؟ تلك كانت أفكاري الطفولية. فأجبت: عمري ستَّة عشر عاماً، وأبقوني معهم. وسرعان ما أرسلوني إلى دورة طبِّية، لمدَّة أربعة أشهر. تعلَّمت خلالها العناية بالجرحى. عوَّدونا على الحرب... بالطبع، كان لا بدَّ لنا من الاعتياد على الحرب. لم أدرس في معهد، بل هنا في الكتيبة الطبِّية. تراجعنا، وأخذنا الجرحى معنا.

لم نكن نسير على الطرقات، فالطرقات كانت تتعرَّض للقصف وإطلاق النار. كنا نسير في المستنقعات، وعلى حافَّة الطريق. وكنا نسير متفرِّقين على شكل مجموعات صغيرة. فنتجمَّع في مكان ما، ونقاتل في مكان ما. هكذا كنا نسير، ونسير. نسير بين الحقول والسهول. وأي محصول كبير كان! كنا ندوس محصول الجودار. كان المحصول في ذلك العام غزيراً، وسنابل الجودار كانت عالية وطويلة. العشب أخضر، والشمس مشرقة وهَّاجة، والقتلى راقدون، والدم... البشر والحيوانات قتلى... الأشجار سوداء... المحطَّات مدمَّرة... وعلى عربات القطار السوداء الناس المحروقون معلَّقون... وصلنا على هذا الشكل إلى مدينة روستوف. وفيها، جُرحتُ في أثناء القصف. عدت إلى وعيي في القطار، وأسمع صوت جنديٍّ أوكرانيٍّ متقدِّمٍ في السنِّ يصرخ على شاب: «زوجتك لم تبكِ عندما ولدت كما تبكي أنت الآن». وعندما رآني أفتح

Twitter: @ketab_n

عيني، قال: «أمَّا أنت يا عزيزتي، اصرخي، الصراخ يفيدك. مسموح لك». تذكَّرت والدتي وبكيت...

بعد علاجي في المستشفى العسكري كان من المفروض منحي إجازة ما، وحاولت البحث عن أمِّي. بينما أمِّي كانت تبحث عني، وأختي أولغا كانت تبحث عنا نحن الاثنتين. يا للعجب! عثر أحدنا على الآخر من خلال أحد معارفنا في موسكو. كُلنا كنا نكتب رسائل لعنوانه ووجد أحدنا الآخر. إنها معجزة! كانت أمِّي تقطن في مزرعة تعاونية بالقرب من ستالينغراد. فذهبت لعندها.

حدث هذا في آخر العام الحادي والأربعين...

كيف كانوا يعيشون؟ أخي، على الرغم من أنه طفل في الثالثة عشرة من عمره، كان يعمل على الجرَّار. في البداية كان يعمل على مقطورة الجرَّار، وعندما أخذوا إلى الجبهة جميع سائقي الجرَّارات، أصبح سائقاً للجرَّار. كان يعمل ليلاً ونهاراً. أمِّي كانت تسير خلف الجرَّار أو تجلس على مقربة منه، كانت تخشى أن يغفو ويسقط في أثناء قيادته الجرَّار. كانا ينامان معاً على الأرض لدى إحدى الأسر. ولم يخلعا لباسهما، لأنه لم يكن هناك ما يتدثَّران به... هكذا كانا يعيشان... وسرعان ما جاءت شقيقتي أولغا، وعيَّنوها محاسبة. لكنها كانت تكتب إلى إدارة التجنيد وتطلب إرسالها إلى الجبهة، وكان يصلها الجواب بالرفض. وقرَّرت وأختي - أنا صرت مقاتلة - سنذهب معاً إلى ستالينغراد، ونعثر هناك على وحدة عسكرية ما. كنا نطمئن أمِّي، وكذبنا عليها، بأننا سنذهب إلى منطقة كوبان، حيث الأراضي الزراعية الغنية، وحيث كان لوالدي معارفه فيها...

كان في حوزتي معطفٌ عسكريٌّ قديم، وبلوزة وسروالان. أعطيت أولغا سروالاً، حيث لم يكن لديها أيُّ شيء ترتديه. وكان لدينا جزمة واحدة لكلينا. وغزلت لنا أمِّي من صوف الخراف جوارب سميكة دافئة.

Twitter: @ketab_n

قطعنا ستِّين كيلومتراً سيراً على الأقدام، حتى وصلنا إلى ستالينغراد: كانت إحدانا ترتدي الجزمة والأخرى خُفَّ والدتي، ثمَّ نتبادل. كنا نسير في الصقيع، شهر شباط/ فبراير، تصبَّرت أقدامنا، وقتلَنا الجوع. ماذا هيَّأت لنا الوالدة زوَّادة للطريق؟ حساء من العظام وبعض الأرغفة. شعرنا بجوع شديد... وإذا ما استسلمنا للنوم، كنا نحلم بنوع من أنواع الطعام. فقد كانت تظهر لي في أحلامي أرغفة الخبز الطازجة.

وصلنا إلى ستالينغراد، ولم يكن هناك من يسمع لنا أو يهتمُّ بنا. فقرَّرنا السفر، كما نصحتنا الوالدة إلى كوبان، إلى عنوان أصدقاء والدي. دخلنا في عربة لنقل البضائع: أنا أرتدي المعطف العسكري وأجلس، وترقد أختي أولغا بين الرفوف. ثمَّ نتبادل مواقعنا: أختي ترتدي المعطف وتجلس، وأنا أرقد بين الرفوف. لم نقترب من العسكريين. ولم تكن معنا أية نقود...

وصلنا بأعجوبة إلى كوبان... وعثرنا على معارفنا. وهناك علمنا أنه يجري تشكيل فيلق تطوُّعي من القوزاق. كان هذا فيلق الفرسان الرابع، ثمَّ أصبح فيلق الحرس. وكان يتألَّف من المتطوِّعين حصراً. وفيه أشخاص من مختلف الأعمار: من القوزاق الذين حاربوا ذات يوم مع قوات بوديوني وفوروشيلوف، ومن الشباب. وقد وافقوا على التحاقنا بهم. ولا أدري حتى الآن، لماذا وافقوا على انضمامنا! ربَّما لأننا كنا نرجوهم عدَّة مرَّات. ولم يكن لدينا مكان نذهب إليه. أدخلونا، أنا وأختي، في سرِيَّة خيَّالة واحدة. وأعطوا كلَّ واحدة منا بذلة وحصاناً. وكان علينا أن نسقي الحصان ونطعمه، ونهتمَّ بأمره بالكامل. من حسن حظِّنا أنه كان لدينا حصان في طفولتنا، وكنت قد ألِفته وأحببته. ولم أشعر بأيِّ حرج عندما أعطوني الحصان، وركبت فوقه. لم أتمكَّن على الفور من قيادته، لكنني لم أشعر بالخوف. كان لديَّ حصان صغير، شعر ذيله طويل يصل إلى الأرض، لكنه سريع، مطيع، وتعلَّمت بسرعة اقتياده. حتى أنني كنت أمارس الفروسية

Twitter: @ketab_n

فوقه... بعد ذلك، تعلَّمت قيادة الخيول الهنغارية والرومانية. وبقدر حبِّي للجياد، بقدر ما عرفت أنني حتى الآن لا أستطيع أن أمرَّ مرور الكرام أمام الحصان. كنت أعانقه. وكنا ننام بين رجليه، فيدفع الحصان قدميه قليلاً، لكنه لا يطأ الإنسان أبداً. ولا يمكنه بأي شكل أن يدوس على الميت، ولا يبتعد أبداً عن الجريح ولا يتركه. إنه حيوانٌ ذكيٌّ للغاية. فالفرس بالنسبة إلى الفارس هو صديق... صديق مخلص.

معركة المعمودية الأولى... حصلت عندما شارك فيلقنا بالقرب من محطَّة كوشيفسكايا في صدِّ الدبَّابات الألمانية. بعد معركة كوشيفسكايا - كان هجوماً شهيراً لفرسان قوزاق كوبان - مُنح الفيلق لقب فيلق الحرس. كانت معركة رهيبة... بالنسبة إليَّ أنا وأولغا كانت الأشدَّ رعباً، لأننا كنا نخاف كثيراً. أنا، مع أنني كنت أُعتبر مقاتلة، وكنت أعرف ما هي المعركة... وإليك ما حدث... عندما انقضَّ الفرسان كالسيل - يرفرف الرداء الشركسي للفرسان، وتُسحب السيوف، والخيل تصهل، إن الحصان عندما يركض طائراً يكتسب قوَّة رهيبة... هذا السيل كلُّه هاجم الدبَّابات. وكان هذا بالنسبة إلى المدفعية المعادية أشبه بحلم ما بعد الموت. إنها صورة أشبه بالسريالية... كانت أعداد الفاشيِّين كبيرة، وساروا برشَّاشاتهم إلى جانب دبَّاباتهم... إنهم لم يصمدوا، أتفهمين، لم يصمدوا أمام هذا السيل. رموا برشَّاشاتهم وأسلحتهم وهربوا... ذلك كان المشهد...

أولغا فاسيليفنا عن المعركة نفسها:

كنت أضمِّد الجرحى... على مقربة مني كان يرقد ألمانيٌّ فاشي، ظننت أنه ميت، ولم أُعرْه اهتمامي، لكنه كان جريحاً... وأراد قتلي... شعرت وكأن أحداً دفعني، فالتفتُّ إلى الوراء، وتمكَّنتُ من ضربه بأخمص

Twitter: @ketab_n

الرشَّاش... لم أقتله، لكنني لم أضمِّد جرحه، وذهبت. كان مجروحاً في بطنه...

تابعت زينائيدا فاسيليفنا:

كنت أقود الجريح، وفجأة رأيت ألمانيَّين يخرجان من تحت دبَّابة صغيرة. كانت الدبَّابة قد أُصيبت، لكنهما، كما يبدو، تمكَّنا من الخروج منها. ثانية واحدة، لو لم أتمكَّن من رشِّهما بالرشَّاش لأطلقا عليَّ النار أنا والجريح. وقد حدث هذا كلُّه بصورة مفاجئة. بعد المعركة اقتربت منهما، كانا مسطحين بأعين مفتوحة. ما زلت أذكر حتى الآن هذه الأعين... أحدهما ألمانيٌّ شاب، جميل الطلعة... شعرت بالشفقة، بالرغم من أنه فاشي... لم يفارقني هذا الإحساس فترة طويلة: لا أريد أن أقتل، أتفهمينني؟ في أعماق نفسي كراهية: لماذا غزوا أرضنا؟ ولكن، جرِّبي أن تقتلي، هذا أمر رهيب. لا توجد كلمة أخرى... رهيب جدَّاً. عندما أنتِ...

انتهت المعركة. غادر مئات القوزاق أماكنهم، ولم أجد أولغا. بقيت في الأخير، كنت الأخيرة، أنظر حولي من جميع الجهات. حلَّ المساء. ولم أجد أولغا... أعلمونا من خلال التسلسل أنها مع أشخاص آخرين بقوا لالتقاط الجرحى. لم أستطع أن أفعل شيئاً. سأتخلَّف عن وحدتي القوزاقية، وأنتظر، ثمَّ ألحق الجميع. واستسلمت للبكاء: هل من المعقول أن أفقد أختي بعد المعركة الأولى؟ أين هي؟ ماذا حصل لها؟ ربَّما أصيبت بجرح، وهي تناديني...

أولغا... كانت أيضاً غارقة في الدموع... وجدتْني ليلاً... جميع القوزاقيين بكوا عندما رأوا كيف التقينا. تمسَّكت كلٌّ واحدةٍ برقبة الأخرى، ولم يكن في استطاعتنا أن ننفصل. وعندها، أدركنا، أن من غير الممكن ومن المؤلم جدَّاً أن نكون معاً. والأفضل أن نفترق. فالقلب لن يحتمل إذا

Twitter: @ketab_n

ما استُشهدت إحدانا أمام أعين الأخرى. وقرَّرنا أن أطلب نقلي إلى كتيبة أخرى. وكيف سنفترق... كيف؟

فيما بعد كنا نحارب منفصلتين، الواحدة عن الأخرى، في البداية في كتيبتين منفصلتين، ومن ثمَّ في فرقتين منفصلتين. ونكتفي بإرسال تحية وسلام إذا ما سنحت الفرصة، ونعرف أن الأخرى على قيد الحياة... كان الموت ينتظرنا عند كلِّ خطوة، ويترقَّبنا... أذكر بالقرب من جبل آرارات... كنا واقفين في الرمال. كان الألمان قد استولوا على آرارات. وكان عيد الميلاد والألمان يحتفلون. انتقوا منا كتيبة وبطَّارية مدفعية عيار أربعين ميليمتر. في نحو الساعة الخامسة تحرَّكنا، سرنا طيلة الليل. وعند الصباح التقينا بعناصر استطلاعنا، خرج عناصر الاستطلاع جرحى...

كانت بلدة آرارات في الأسفل... كما لو أنها في فنجان. لم يكن يتصوَّر الألمان أنه يمكننا السير في هذه الرمال، ووضعوا دفاعاً صغيراً في المؤخَّرة. انتقلنا بهدوء إلى مؤخَّرتهم. نزلنا من الجبل، وأسرنا عناصر الحرس على الفور ودخلنا البلدة بأقصى سرعة. خرج الألمان عراة، حاملين الرشَّاشات بأيديهم. كانت عندهم شجرات عيد الميلاد، وجميعهم سكارى... وفي كلِّ ساحة كانت هناك دبَّابتان صغيرتان أو ثلاث. كانت الدبَّابات والمدرَّعات واقفة... وكلُّ الآليات. فنسفناها في أماكن تواجدها، حدثت معركة كبيرة، وتدمير... وفوضى وذعر... كان الجميع يركضون. كان الوضع شديد الفوضى، بحيث أن كلَّ واحد كان يخشى أن يصيب رفيقه. كلُّ شيء كان يحترق... كما احترقت أشجار عيد الميلاد...

كان لديَّ ثمانية جرحى... صعدت بهم إلى الأعلى، إلى الجبل... لكن يبدو أننا ارتكبنا خطيئة لا تُغتفر: لم نقطع الاتصالات. وغطَّتنا المدفعية الألمانية بنيرانها؛ القصيرة المدى والبعيدة المدى. فأسرعت

Twitter: @ketab_n

بوضع الجرحى على عربة الإسعاف، وتحرَّكوا... أمام عينيَّ سقطت قذيفة على هذه العربة، وتدمَّر كلُّ شيء. وعندما دقَّقت النظر، لم يبقَ منهم حيَّاً سوى جريح واحد... وهنا بدأ الألمان يصعدون الجبل... كان الجريح يرجوني: «اتركيني، يا أختاه... اتركيني يا أختاه... أنا أموت...». انقلبت أحشاؤه كلُّها من بطنه وخرجت... كان يجمعها بنفسه ويعيدها إلى بطنه...

كنت أظن أن حصاني تغطَّى بالدم من هذا الجريح، ولكن عندما نظرت بانتباه: كان جريحاً في جنبه، ودخلت حزمته الفردية فيه. أخرجتها فوجدت فيها بضعة قطع من السكَّر، فوضعتها في فمه. وكانت النيران تُطلق من جميع الجهات، ولا تفهمين: أين الألمان وأين جماعتنا؟ أقطع عشرة أمتار وأصطدم بالجرحى... فكَّرت في نفسي: يجب البحث عن عربة الإسعاف، ووضع جميع الجرحى فيها. أنطلق على الحصان وأرى أمامي منحدراً، وفي الأسفل ثلاثة طرق: طريق إلى اليمين وآخر إلى اليسار، وطريق ثالث إلى الأمام. فاحترت... أي طريق أسلك؟ وكنت أمسك باللجام بقوَّة، وسار الحصان حيث وجَّهته. أمَّا هنا، فلا أعرف، وكأن غريزة ما نبَّهتْني، وكنت قد سمعت، أن الجياد تحسُّ الطريق، فأرخيت اللجام، فانعطف الحصان وسار باتِّجاه آخر، غير الذي وجَّهتُه إليه. وسار الحصان واستمرَّ في سيره.

كنت أركب فوقه منهارة القوى، ولا يهمُّني، فليذهب حيثما يذهب. ما سيحدث سيحدث. سار الحصان طويلاً، بحذر، ثمَّ بمرح متزايد، وأخذ يحرِّك رأسه، فرفعت اللجام وأمسكت به، وانحنيت فوضعت يدي على جرحه. فسار الحصان بمرح أكثر، ثمَّ صهل بقوَّة، وسمعت صوتاً. شعرت بخوف: فقد يكون الألمان. وقرَّرت أن أدع الحصان يسير كما يريد، لكنني سرعان ما رأيت أثراً ظاهراً: كانت الجياد قد تركت آثارها على الطريق، وكذلك آثار دولاب عربة – لقد مرَّ على هذا الطريق ما لا يقلُّ عن خمسين

Twitter: @ketab_n

فارساً. وبعد مئتين أو ثلاثمئة متر، اصطدم رأس الحصان بعربة. كانت العربة تحمل الجرحى، وهنا رأيت بقايا سريَّتنا.

وهنا جاءتنا نجدة، عربات وشاحنات... وصدر أمر بأخذ الجميع. تحت أزيز الرصاص، وتحت القصف أخذنا جميع عناصرنا، ولم نترك أحداً - أخذنا الجرحى والموتى. أنا أيضاً ركبت عربة. عثرت هناك على الجميع، وذاك الجريح في بطنه، ونقلنا الجميع. بقيت فقط الجياد الميتة. وكان قد أشرق الفجر، فأنتِ تسيرين وترين في طريقكِ قطيعاً كاملاً راقداً. خيول جميلة، قوية... والهواء يحرِّك أعرافها...

كان جدار الغرفة الكبيرة التي جلسنا فيها ممتلئاً بصور الأختين المكبَّرة ما قبل الحرب وفي الجبهة. ها هما تلميذتان بقبَّعتيهما تحملان الورود. وهي صورة التقطت قبل الحرب بأسبوعين. وجها طفلتين عاديان، مرحان، مروَّضان قليلاً بسبب أهمِّية اللحظة والرغبة في الظهور بمظهر الكبار. وها هما في لباس القوزاق الشركسي وبراقع الفرسان. التقطت هذه الصورة في العام الحادي والأربعين، أي بفرق سنة واحدة، لكن الوجهين اختلفا كثيراً، وكأنهما صبيَّتان أخريان. وهذه الصورة أرسلتها زينائيدا فاسيليفنا لأمِّها من الجبهة، وقد علَّقت على سترتها العسكرية ميداليتها الأولى "لقاء الشجاعة". وفي هذه الصورة الأختان في يوم النصر... أذكر حركة الوجه: من ملامح الطفولة الناعمة إلى النظرة الأنثوية الواثقة، وبعض الشدَّة، والصرامة. يصعب التصديق أن هذا التغيير حدث خلال أشهر معدودة وبضع سنوات. عادة، الزمن يفعل فعله ببطء أكبر، وأقل بروزاً. إن الوجه الإنساني يتشكَّل خلال فترة طويلة، وترتسم الروح فيه ببطء شديد.

في حين أن الحرب شكَّلت بسرعة صورتها للناس، ورسمت صور أشخاصها.

Twitter: @ketab_n

أولغا فاسيليفنا:

حرَّرنا قرية كبيرة تضمُّ نحو ثلاثمئة عزبة. وقد ترك الألمان مستشفاهم العسكري في مكان المستشفى المحلِّي. أوَّل ما لفت نظري حفرة كبيرة حفرها الألمان في فناء المستشفى، حيث أطلق الألمان النار على قسم من جرحاهم قبل الانسحاب. يبدو أنهم قرَّروا بأن هذا ما سوف نفعله، وأننا ستتصرَّف على النحو نفسه، كما يتصرَّفون مع جرحانا. وقد تركوا قاعة واحدة للجرحى، يبدو أنهم لم يلحقوا، وربَّما تخلَّوا عن إطلاق النار عليهم لأنهم بلا أرجل.

عندما دخلنا إلى هذه القاعة، نظر الجرحى إلينا بعداء وكراهية: يبدو أنهم ظنُّوا أننا جئنا لنقتلهم. وقال المترجم لهم إننا لا نقتل الجرحى، بل نعالجهم. عندها بدأوا يقولون إنهم لم يتناولوا طعاماً، ولم تُغيَّر ضماداتهم منذ ثلاثة أيَّام. نظرت بانتباه؛ حقيقة، كانت صورة مرعبة. فالطبيب لم يشاهدهم منذ مدَّة طويلة، والجروح تقرَّحت، والضمادات انغرست في الجلد.

- «هل شعرت نحوهم بالشفقة؟».

* «لا يمكنني القول إنني شعرت آنذاك بالشفقة، لأن الشفقة هي تعاطف بالرغم من كلِّ شيء. لم أشعر بالشفقة. إن هذا شيء آخر... وقع معنا حادث... عندما ضرب جنديٌّ أسيراً... بدا لي هذا مستحيلاً، فدافعت عنه، مع أنني كنت أدرك أن هذه كانت صرخة من روحه... كان يعرفني، وكان أكبر مني بالطبع، وشتمني، لكنه توقَّف عن الضرب... وشتمني شتيمة كبيرة: «هل نسيت، أمك...! هل نسيت، كيف كانوا... أمك...!». لم أنسَ شيئاً، ما زلت أذكر تلك الجزمات... عندما وضع الألمان أمام خنادقهم مجموعة من الجزمات مع الأرجل المقطوعة. هذا حدث شتاءً،

Twitter: @ketab_n

كان هذه الجزمات تقف كالأوتاد... كلُّ ما رأيناه من بقايا رفاقنا... كلُّ ما بقي منهم».

أذكر يوم قدم البحَّارة لعندنا طلباً للمساعدة... وقد تقطَّع كثير منهم بالألغام. لقد تعثَّرنا بحقول الألغام الكبيرة... وقد رقد هؤلاء البحَّارة القتلى طويلاً في الشمس... وانتفخت جثثهم بسبب الستر التي يرتدونها، وأصبحوا أشبه بالبطِّيخ. بطِّيخات كبيرة عديدة على مساحة كبيرة، بأعداد لا تحصى.

لم أنسَ، لم أنسَ شيئاً. ولكن، لم يكن في إمكاني ضرب أسير، على الأقل لأنه عاجز. هذه مسألة كان كلُّ واحد يقرِّرها لنفسه، وكان هذا مهمَّاً.

زينائيدا فاسيليفنا:

في المعركة قرب بودابست. حدث هذا شتاءً... أنا جررت رقيباً جريحاً، قائد طاقم الرشَّاشات. أنا نفسي كنت أرتدي بنطالاً، وحامية للصدر وقبَّعة تغطِّي الأذنين. أجرُّ وأرى: ثلج أسود... متفحِّم... وأدركت أن هذه حفرة عميقة، أي ما أحتاج إليه. نزلت إلى هذه الحفرة، فوجدت شخصاً لا يزال حيّاً، أدركت أنه حي، يعبث بشيء حديدي... التفتُّ فوجدت ضابطاً ألمانياً جريحاً في رجليه، راقداً، وقد وجَّه الرشَّاش نحوي. وقد ظهر شعر رأسي من تحت القبَّعة، والحقيبة الإسعافية معلَّقة على كتفي، وعليها رسم الصليب الأحمر. عندما استدرت ورأى وجهي أمامه، أدرك أنني فتاة، صاح "هـــ ا ا!"، فانحسر توتُّره العصبي، ورمى بالرشَّاش أرضاً. وأبدى عدم الاكتراث...

في الحفرة كنا ثلاثة – جريحنا، وأنا، وهذا الألماني. الحفرة صغيرة، وأقدامنا نحن الثلاثة متلاصقة، وتغطَّت ثيابي بالدم، واختلطت دماؤنا.

Twitter: @ketab_n

كانت عينا الألمانيِّ كبيرتين وهو ينظر بهما إليَّ: ماذا سأفعل؟ فاشيٌّ ملعون! لقد رمى الرشَّاش من يده على الفور، أتفهمين؟ هذا المشهد... لم يدركه جريحنا، فأخرج مسدَّسه... الأوَّل يهمُّ بخنق الألمانيِّ وقتله... والألمانيُّ ينظر إليَّ... ما زلت أذكر تلك العينين... قمت بتضميد جريحنا، والآخر يرقد مغطًّى بالدم الذي ينزف منه، وكانت إحدى قدميه مهروسة بالكامل. لحظات وسيموت. أدركت هذا جيِّداً. بعد أن انتهيت من تضميد جريحنا، مزَّقت ثياب الألمانيِّ وربطت قدمه، ثمَّ وضعت شريطاً لوقف النزف. ثمَّ استأنفت تضميد جريحنا. فقال الألماني: «Gut, gut» (جيِّد، جيِّد). كرَّر هذه الكلمة وحدها. أمَّا جريحنا، الذي لم يفقد وعيه، فكان يصيح... ويهدِّدني. نظرت إليه وهدَّأته. وجاءت سيَّارة الخدمة الطبِّية، فأخرجت الاثنين من الحفرة... ووضعت الاثنين في السيَّارة، بمن فيهما الألماني. أتفهمين؟

أولغا فاسيليفنا:

عندما كان الرجال يرون امرأة في الخطِّ الأمامي، كانت وجوههم تتغيَّر، حتى أن حسَّ الصوت النسائي كان يغيِّرهم. ذات مرَّة جلست قرب الخندق، وردَّدت أغنية بهدوء. كنت أظنُّ أن الجميع نائمون، ولن يسمعني أحد، وفي الصباح قال لي القائد: «لم نكن نائمين. هذا الحنين إلى الصوت النسائي...».

أضمِّد جرح جنديِّ الدبَّابة... المعركة تدور، القصف لا يتوقَّف. سألني: «ما اسمك يا آنسة؟». شعرت بأن هذه العبارة بمثابة مديح. وشعرت بالغرابة من أنطق باسمي - أوليا - في هذا القصف، وفي هذا الرعب. كنت أهتمُّ دوماً بأن أكون أنيقة، نحيلة. وكثيراً ما كانوا يخاطبونني عندما يرونني: «يا إلهي! هل هذه الفتاة النظيفة كانت في المعركة؟». كنت

Twitter: @ketab_n

أخشى كثيراً، إذا ما قُتلت، أن أرقد قبيحة المنظر. لقد شاهدت كثيراً من النساء المقتولات... في الأوساخ، وفي الماء... لا أريد أن أموت على هذا النحو... غير مرَّة كنت أختبئ من إطلاق النار، ليس من أجل ألَّا يقتلوني، بل أخفي وجهي بيديَّ كي لا يتشوَّه. يبدو لي أن جميع فتياتنا كنّ يفكِّرن في هذا الأمر. أمَّا الرجال فكانوا يسخرون منه، ويعدُّونه مسلِّياً. انظروا فيما يفكِّرنَ، لا يفكِّرن في الموت، بل في شيء سخيف. يا لهراء النساء!

زينائيدا فاسيليفنا:

الموت لا يمكن ترويضه... كلَّا... ولا الاعتياد عليه. كنا نهرب من الألمان إلى الجبال. وبقي خمسة جرحى مصابين بجروح شديدة في بطونهم، ومثل هذه الجروح مميتة، يوم أو يومان وسيموتون. ولم نستطع أخذهم لعدم وجود عربة أو حمَّالة. وضعناهم أنا ومرشدة طبِّية أخرى – أكسانا – في سقيفة، ووعدناهم: «بعد يومين، سنعود ونأخذكم». عدنا إليهم بعد ثلاثة أيَّام. ثلاث ليالٍ بقينا مع هؤلاء الجرحى. كانوا رجالاً أقوياء، في كامل وعيهم. لم يريدوا أن يموتوا... ولم يكن لدينا شيء من الأدوية سوى بعض المساحيق الطبِّية ولا شيء غيرها... كانوا يرجوننا طيلة الوقت بأن يشربوا الماء، ومن غير المسموح لهم ذلك. بعضهم كان يتفهَّم وآخرون كانوا يشتمون. كانت الشتائم لا تنقطع. أحدهم ضرب بالفنجان، وآخر بالجزمة... لقد كانت هذه الأيَّام الثلاثة الأشدَّ رعباً في حياتي. كانوا يموتون أمام أعيننا، واحداً إثر الآخر، ونحن نكتفي بالنظر إليهم.

المكافأة الأولى... رشَّحوني لميدالية "لقاء الشجاعة". لكنني لم أذهب لاستلامها. فقد كنت مستاءة. والله... إنه مضحك! أتعرفين كيف؟ كوفئت صديقتي بميدالية "لقاء المآثر القتالية"، وكوفئت بميدالية "لقاء الشجاعة". في حين أنها لم تشارك سوى في معركة واحدة، أمَّا أنا فشاركت

Twitter: @ketab_n

في المعركة بالقرب من المحطَّة كوشيفسكايا وفي عمليات حربية أخرى. وشعرت بالإساءة: فبمعركة واحدة اكتسبت "المآثر القتالية" ومكافآت أخرى، أمَّا أنا فلم أحصل سوى على "لقاء الشجاعة"، وكأنني أظهرت شجاعتي مرَّة واحدة. جاء القائد، وضحك عندما عرف السبب. وشرح لي بأن ميدالية "لقاء الشجاعة" هي أعلى ميدالية، وهي قريبة من الوسام.

بالقرب من ماكييفكا في الدونباس، جُرحت في الفخذ. دخلت شظية، كقبضة اليد، واستقرَّتْ في فخذي. أشعر بنزيف الدم. فوضعت رباطاً إسعافياً في مكان الجرح. ثمَّ ركضت، وقمت بتضميده. فقد كنت أشعر بالخجل من أن أقول لأحد إنني جُرحت، وأين؟ في الورك! في المؤخَّرة... معيب للفتاة في السادسة عشرة من عمرها أن تقول لأحد. ومن غير المناسب الاعتراف بذلك. وتابعت ركضي وإعادة تضميد جرحي، إلى أن فقدت وعيي ونزف دمي. وامتلأت جزمتي بالدم...

نظر عناصرنا إليَّ، وقرَّروا، على ما يبدو، أنني قُتلت. وسيأتي المسعفون ويحملونها. واستمرَّت المعركة. ولو تأخَّرت أكثر على وضعي لمتُّ فعلاً. سار عناصر استطلاع الدبَّابات ولاحظوا فتاة على أرض المعركة. كنت راقدة بدون قبَّعة، فقد انزاحت عن رأسي. ولاحظوا أن الدم لا يزال ينزف من تحتي، ما يعني أنني حيَّة. نقلوني إلى كتيبة الخدمات الطبِّية. ومنها إلى المستشفى العسكري، ثمَّ إلى مستشفى عسكريٍّ آخر. آه... لقد انتهت حربي بسرعة... بعد نصف عام سرَّحوني من الخدمة لوضعي الصحِّي. كنت في الثامنة عشرة من عمري... وساءت حالتي الصحِّية: ثلاثة جروح، رجَّة دماغية شديدة. وأنا فتاة، صبية، وأنا بالطبع، أخفيت هذا، بعد إصابتي بالجرح، اعترفت بأنني جُرحت، وأخفيت أنني تعرَّضت لرجَّة شديدة. لكن آثارها بدأت تظهر، وأدخلوني ثانية إلى المستشفى العسكري. واعتبروني في حكم المقعدة... فماذا فعلت أنا؟ لقد مزَّقت هذه الوثائق ورميتها،

Twitter: @ketab_n

حتى أنني لم أستلم تعويضاتي. فقد كان من الواجب أن أعرض نفسي على اللجنة الطبِّية من جديد، وأن أحدِّثهم عن نفسي: متى أصبت بالرجَّة، ومتى جُرحت، وأين.

جاء لزيارتي قائد الكتيبة والمساعد. في أثناء الحرب كان يعجبني جدّاً قائد الكتيبة. لكنه لم يهتم بأمري في المستشفى العسكري. كان شابّاً جميلاً، تناسبه البذلة العسكرية. إن البذلة العسكرية تناسب جميع الرجال. أمَّا النساء، فكيف كُنَّ يظهرن فيها؟ في البنطال، وبدون ضفائر، فالضفائر لا يُسمح بها، وجميع الفتيات يحلقن حلاقة شباب. في أواخر أيَّام الحرب، بدأوا يسمحون لنا بتسريحة نسائية، وبعدم الحلاقة. في المستشفى نمى شعري واستطال كثيراً، وعقدته في ضفيرة طويلة، وهما... أمر مضحك، والله! عشقني كلٌّ منهما على الفور! طيلة سنوات الحرب كنا معاً، ولم يحدث أيُّ شيء، أمَّا هنا فكلاهما: قائد الكتيبة والمساعد؛ كلاهما عرض عليَّ الزواج. الحب! الحب! كم كنا نتوق جميعاً إلى الحب! إلى السعادة!

حدث هذا في أواخر العام الخامس والأربعين...

بعد الحرب، أردنا أن ننساها بسرعة. ساعدني وشقيقتي والدنا. أخذ ميدالياتنا، وأوسمتنا، والثناء من القيادة، وخبَّأها. وقال: «كانت الحرب، وحاربتما. والآن انسيا. كانت هناك حرب، والآن بدأت حياة أخرى. ارتدين الأحذية النسائية. أنتما عندي صبيتان جميلتان. عليكما بالدراسة، ومن ثَمَّ الزواج».

أوليا لم تستطع على الفور التكيُّف مع الحياة الجديدة، كانت تشعر بالكبرياء. ولم ترغب في ترك المعطف العسكري. وأذكر حين قال أبي لأمِّي ذات يوم: «أنا المذنب، أنا السبب في ذهابهما، وهما صغار السن إلى الحرب. أرجو ألَّا أكون قد حطَّمتهما... وحينئذ، ستحاربان طيلة حياتهما».

Twitter: @ketab_n

أعطوني لقاء ميدالياتي وأوسمتي قسائم خاصَّة كي أتمكَّن من الدخول إلى المخزن العسكري، وشراء ما قد يلزمني. اشتريت لنفسي جزمة مطاطية، كانت دارجة في تلك الأيَّام، واشتريت فستاناً، ومعطفاً، وبوطاً. قررت بيع المعطف العسكري. ذهبت إلى السوق... في ثوب صيفي فاتح... مع دبُّوس في شعري... فماذا رأيت هناك؟ شبَّاناً في مقتبل العمر بدون أيدٍ، بدون أرجل... كلُّ من شارك في الحرب... مع أوسمتهم وميدالياتهم... ومن احتفظ بيديه يبيع ملاعق خشبية يدوية. حمَّالات صدر نسائية، كلاسين. وآخر... بدون يدين وبدون رجلين... يجلس ويغتسل بدموعه. يطلب صدقة... ليست لديهم أية عربات فردية للمقعدين، كانوا يتنقَّلون على دفَّات خشبية يدفعها بيديه من بقيت لديه يدان. وكان هناك سكارى يغنُّون "لننسَ ما جرى في الأمس". تلك هي المشاهد التي رأيتها في السوق... خرجت دون أن أبيع معطفي العسكري. وقد عشت في موسكو طويلاً، نحو خمس سنوات، ولم أذهب مرَّة واحدة إلى السوق. كنت أخشى أن يعرفني أحد هؤلاء المقعدين والمعاقين ويصيح بي: «لماذا أخرجتِني آنذاك من تحت النار؟ لماذا أنقذتني؟». تذكَّرت شابَّاً ملازماً... أُصيبت قدماه... قطعتْ رجلَه شظية، والرجل الأخرى كانت مصابة... وقد ضمَّدتُ له رجليه تحت قصف القنابل... كان يصرخ بي: «لا تشدِّي! اقتليني! اقتليني... أنا آمرك...». أتفهمين؟ كنت أخاف دوماً أن ألتقي هذا الملازم...

وعندما كنت راقدة في المستشفى العسكري، كان الجميع هناك يعرف الشابَّ الجميل. عنصر الدبَّابات ميشا... لم يعرف أحد كنيته، والجميع كان يناديه باسمه... بتروا له رجليه الاثنتين، ويده اليمنى، وبقيت عنده اليد اليسرى وحدها. كان البتر في منطقة مرتفعة من رجليه؛ من المفصل الحرقفي عند الحوض، بحيث يستحيل أن يرتدي رجلين صناعيتين. كانوا

Twitter: @ketab_n

ينقلونه على عربة. صنعوا له عربة عالية خصوصاً، وكان ينقله كلُّ من يستطيع. كان يفد إلى المستشفى العسكري كثير من المدنيين، ليساعدوا في رعاية الجرحى، وبخاصَّة ذوي الجروح البليغة، مثل ميشا. نساء وتلاميذ، بل وأطفال أيضاً. كان الجميع يعتني بميشا. وهو لم يكن يكتئب. هكذا أراد أن يعيش! كان في التاسعة عشرة من عمره، لم يعش شيئاً من حياته. لا أدري هل كان لديه أحد من أهله، لكنه كان يعرف أنهم لن يتركوه وحيداً، ولن ينسوه. مع أن الحرب قد جرت على أراضينا، وكان الدمار في كلِّ مكان؛ عندما كنا نحرِّر القرى كنا نجدها كلَّها محروقة. لم يبقَ لدى الناس سوى الأرض. الأرض وحدها.

لم نصبح طبيبتين أنا وأختي، مع أننا كنا نحلم بذلك قبل الحرب. كان من الممكن أن ننتسب إلى معهد الطبِّ العالي بدون امتحانات قبول، فقد كان لدينا هذا الحق، باعتبارنا حاربنا في الجبهة. لكن ما رأيناه في الحرب من آلام الناس ومعاناتهم وموتهم جعلنا نغيِّر رأينا ولا يمكننا حتى رؤية المعاناة أو تصوُّرها. وحتى بعد ثلاثين سنة، أقنعت ابنتي بألَّا تنتسب إلى معهد الطب، مع أنها راغبة في الانتساب إليه. بعد عشرات السنين... ما إن أغلق عينيَّ أرى أننا في الربيع... ونحن نسير في حقل دارت فيه المعركة، ونبحث عن الجرحى. الحقل داسته أقدام كثيرة. أصطدم بقتيلين اثنين؛ جنديٍّ روسيٍّ شابٍّ وجنديٍّ ألمانيٍّ شاب. راقدان في حقل القمح وينظران إلى السماء... حتى أن الموت لم تظهر آثاره عليهما بعد. ينظران إلى السماء... ما زلت أذكر هذه الأعين...

أولغا فاسيليفنا:

إليك ما أذكره من الأيَّام الأخيرة من الحرب. كنا راكبين منطلقين، وفجأة صوت موسيقى. صوت الكمان... لقد انتهت الحرب، بالنسبة إليَّ،

Twitter: @ketab_n

في هذا اليوم... لقد كانت أشبه بالمعجزة: فجأة موسيقى. أصوات أخرى غير حربية... واستيقظت فجأة... كان يبدو لنا جميعاً، أن بعد الحرب، بعد بحر الدموع هذا ستقوم حياة رائعة. جميلة. بعد النصر... بعد هذا اليوم... كان يبدو لنا، أن جميع الناس سيكونون في غاية الطيبة، وأنهم سيحبُّون جميعهم أحدهم الآخر، ولن تكون هناك بغضاء. وسيصبح الجميع إخوة وأخوات. كم انتظرنا هذا اليوم طويلاً!

Twitter: @ketab_n

نحن لم نطلق النار...

أناس كثيرون في الحرب... وأعمال كثيرة في الحرب...

ثمَّة الكثير من العمل ليس حول الموت فحسب، بل وحول الحياة. في الحرب لا يطلقون النار، ويتبادلون إطلاق النار، ويزرعون الألغام، وينتزعون الألغام، ويضربون القنابل، وينسفون ويقصفون، ويتصارعون بالأيدي فحسب - في الحرب أيضاً يغسلون الغسيل، ويحضرون العصيدة، ويخبزون الخبز، وينظِّفون حِلل المطابخ والطناجر، ويرعون الجياد، ويصلحون السيَّارات، ويصنعون الأكفان، ويوزِّعون البريد، ويصلحون الجزمات والأحذية، ويجلبون التبغ والسجائر. حتى أن أكثر من نصف الحياة في الحرب يتشكَّل من الحياة المبتذلة، ومن التوافه أيضاً. من غير المألوف التفكير على هذا النحو، أليس كذلك؟ «هناك ثمَّة جبال من أعمالنا النسائية العادية». تتذكر الممرِّضة ألكسندرا يوسيفوفنا ميشوتينا. الجيش سار في المقدَّمة إلى الأمام، ومن خلفه سارت "الجبهة الثانية" - الغسَّالات، والطبَّاخون والطبَّاخات، وميكانيكيو السيَّارات، وعمَّال البريد...

أحد هؤلاء كتبَ لي: «نحن لسنا أبطالاً، نحن كنا ما وراء الكواليس». فما هي هذه الكواليس؟

Twitter: @ketab_n

حول البساطير العسكرية والخشبة اللعينة

نمشي بين الأوساخ الكثيفة، والجياد في هذه الأوساخ إمَّا أن تغرق وإمَّا أن تسقط ويُغمى عليها. شاحنات الطنِّ ونصف الطنِّ تختنق... الجنود يجرُّون المدافع، كما يجرُّون العربات التي تحمل الخبز والأغطية والشراشف، وصناديق التبغ. أرى صندوقاً من صناديق التبغ يسقط في الأوساخ، ومن خلفه شتيمة روسية "من فوق الأسطح"... يحافظون على الذخيرة، كما يحافظون على التبغ...

يقول لي زوجي ويكرِّر دائماً: «انظري وراقبي بعينيك الاثنتين! إنها ملحمة! ملحمة!».

تانيانا أركاديفنا سميليانسكايا، صحفية حربية

قبل الحرب كنت أعيش سعيدة... مع أبي وأمِّي. عاد أبي من فينسكايا. عاد بدون إصبع واحد في يده اليمنى، سألته: «بابا، علام الحرب؟».

وسرعان ما جاءت الحرب إلينا، قبل أن أكمل نموِّي. نزحت من منسك. نقلونا إلى ساراتوف. عملت هناك في الكولخوز. استدعاني رئيس المجلس الزراعي: «أفكِّر فيك دوماً، يا بنيَّتي».

استغربت قائلة: «وماذا تفكِّر يا عمِّي؟».

- «لولا هذه الخشبة الملعونة! هذه الخشبة الملعونة هي السبب...».

أقف، ولا أفهم شيئاً. ثمَّ قال: «أرسلوا لي كتاباً، يجب إرسال عنصرين إلى الجبهة، وليس لديَّ من أرسله. لولا هذه الخشبة اللعينة لكنت ذهبت أنا بنفسي. ولا يصحُّ إرسالك: أنت نازحة. ربَّما تذهبين؟ لديَّ صبيَّتان: أنت وماريا أوتكينا».

كانت ماريا صبية طويلة القامة، تحقق الشروط تماماً، أمَّا أنا فعادية.

Twitter: @ketab_n

- «أتذهبين؟».

* «وهل سيعطونني لفائف للرجلين؟».

لقد كنا شبه عراة؛ أخذنا معنا ما استطعنا أخذه!

- «أنت صبية جيِّدة. سيعطونك هناك بوطاً».

ووافقت على الذهاب.

نقلونا من القطار، وجاء لأخذنا رجلٌ كهل، ضخم، له شاربان، ولكن لم يذهب أحدٌ معه. لا أعرف لماذا، ولم أسأل، ولم أكن من النشطاء، ولم أكن الأولى في الإقدام على أيِّ عمل. باختصار لم يَحُزْ هذا الكهل على إعجابنا. ثمَّ جاء لطلبنا ضابطٌ جميلُ الطلعة، كالدمية! فأقنعنا، وانطلقنا معه. وصلنا إلى القطعة العسكرية، وكان هناك هذا العمُّ الكهل يضحك: «الصبيَّتان بأنفيهما الأذلفين لم تذهبا معي».

استدعانا الرائد، كلَّ واحدة على حدة، وسألها: «ما هي مهاراتك؟».

أجابت واحدة: «حلب البقر». وأجابت الثانية: «تحضير البطاطا، في البيت كنت أساعد أمِّي».

استدعاني وسألني: «وأنت؟».

* «في استطاعتي الغسيل».

- «أرى أنك فتاة جيِّدة. لو كنت تعرفين الطبخ وتحضير الطعام».

* «أعرف».

طيلة اليوم، كنت أحضِّر الطعام، وفي المساء، عليَّ غسل ألبسة الجنود. كنت أقف في المحرس. صاح أحدهم: «أيُّها الحارس! الحارس!» - لم يكن في وسعي الإجابة لأنني منهكة. لا قوَّة لديَّ حتى للنطق بكلمة...».

إيرينا نيقو لايفنا زينينا، جندية، طبَّاخة

Twitter: @ketab_n

ركبت قطار الخدمات الطبِّية... أذكر أنني بكيت خلال الأسبوع الأول: وذلك، أوَّلاً، لأني بدون أمِّي، وثانياً، كان سريري في الطابق الثالث من العربة، وأين أضع حقيبتي؟ هناك في البيت كانت لي غرفتي.

- «كم كان عمرك عندما ذهبت إلى الجبهة؟».

* «كنت في الصفِّ الثامن من المدرسة، لكنني لم أكمل العام الدراسي. وهربت إلى الجبهة. جميع فتيات القطار الصحِّي من عمري».

- «وماذا كنتنَّ تفعلن هناك؟».

* «كنا نعتني بالجرحى، نطعمهم ونسقيهم، ونناولهم المبولة - هذا هو عملنا كلُّه. كانت معي فتاة أكبر مني سنّاً، تناوب بدلاً مني، فقد أشفقتْ عليَّ في الفترة الأولى: «إذا ما طُلبت منك المبرزة، نادِني». كان الجرحى في حالة صحِّية خطيرة، منهم من بُترتْ يده، ومنهم من بُترتْ رجله. في اليوم الأوَّل كنت أناديها، وفيما بعد - لا يمكنها أن تبقى معي طيلة اليوم وطيلة الليل - بقيت لوحدي معهم. طلب مني جريح مرَّة: «يا أختي، المبرزة!».

مددت له المبرزة وأرى أنه لا يأخذها. نظرت بانتباه: إنه مبتور اليدين. خطرت في ذهني فكرة، وأدركت ماذا عليَّ أن أفعل. ولكن مرَّت بضع دقائق، بقيت واقفة، ولا أعرف ماذا أفعل. أتفهمينني؟ كان عليَّ أن أساعده... لكنني لا أعرف ما هذا، ولم أره من قبل. ولم يعطونا هذا الدرس في الدورة...

سفيتلانا نيقو لايفنا لوبيتش، مراقبة صحِّية

أنا لم أطلق النار... أنا كنت أحضِّر العصيدة للجنود. ولقاء هذا مُنحت الميدالية. أنا لا أتذكَّرها: وهل حاربت؟ كنت أحضِّر الحساء للجنود.

Twitter: @ketab_n

أجرُّ القدور والمراجل والبراميل. إنها ثقيلة جدّاً... أذكر أن القائد غضب غضباً شديداً: «لو كان في استطاعتي لأطلقت النار على هذه البراميل... كيف ستحملين وتلدين بعد الحرب؟». وذات مرَّة، أطلق النار على جميع البراميل. واضطررنا إلى البحث في إحدى القرى عن براميل أصغر حجماً.

يتوافد الجنود من الخطِّ الأوَّل، يسمحون لهم بأخذ قسط من الراحة. يا للبؤساء! جميعهم متَّسخون، منهكون، أيديهم وأرجلهم متجمِّدة من البرد. وكان الأوزبكيون والطاجيك يخشون الصقيع كثيراً. ففي بلادهم الشمس والدفء، أمَّا هنا، فدرجة الحرارة بين الثلاثين والأربعين تحت الصفر. لا يشعرون بالدفء، أطعمهم بنفسي. لا يمكنهم وضع اللقمة في أفواههم...

ألكسندرا سيميونوفنا ماساكوفسكايا، جندية، طبَّاخة

كنت أغسل... أمضيت الحرب كلَّها مع حوض الغسيل. كنت أغسل يدوياً. أغسل الواقيات الصدرية والقمصان والستر... يجلبون الشراشف والبياضات كلَّها متَّسخة ممتلئة بالقمل. الأردية الطبية البيضاء مبرقعة مغطَّاة بالدماء – ليست بيضاء ولا حمراء؛ بل سوداء بسبب الدماء القديمة المتراكمة. يستحيل تنظيفهم عند غسلهم للمرة الأولى، لأن الماء يكون أحمر أو أسود اللون... القمصان بدون أكمام، والثقوب كثيرة في الصدر، السراويل بدون سيقان. تغسلين بالدموع، وبالدموع تشطفين.

والقمصان والستر أكوام كالجبال... ما إن أتذكَّرها حتى أشعر بالألم في يديَّ. شتاءً، الستر العسكرية ثقيلة، حتى الدم جامد عليها. حتى الآن أراها في منامي... جبل أسود راقد أمامي...

ماريا ستيبانوفنا ديمكو، جندية، غسَّالة

Twitter: @ketab_n

كم من المعجزات حدثت في الحرب! سأقصُّ عليكِ...

ترقد على العشب آنيا كابوروفا... عاملة اللاسلكي عندنا. إنها تموت – الرصاصة جاءت في القلب. في هذه اللحظة يحلِّق فوقنا سرب من اللقالق. رفع الجميع رؤوسهم إلى السماء وآنيا فتحت عينيها. نظرت وقالت: «يا للأسف، أيَّتها الفتيات!». ثمَّ سكتت وابتسمت لنا قائلة: «فتياتي، أمعقول أنني سأموت؟». في هذه اللحظة بالذات ركضت كلافا موزِّعة البريد، وهي تصرخ: «لا تموتي! لا تموتي! رسالة لك من الأهل...». لم تغلق آنيا عينيها، إنها تنتظر...

جلست كلافا بالقرب منها، وفتحت المغلَّف. رسالة من أمِّكِ: «عزيزتي، ابنتي العزيزة...». بالقرب مني كان يقف الطبيب، فقال: «إنها معجزة... معجزة! إنها حيَّة، رغماً عن جميع قوانين الطب...». قرأنا الرسالة كلَّها... وبعدها أغلقت آنيا عينيها...

ماريا نيقولايفنا فاسيليفسكايا، عاملة لاسلكي

اختصاصي... اختصاصي: حلَّاقة للرجال...

أتت فتاة... لا أعرف كيف أحلق لها. شعرها فاخر أجعد. دخل إلى الخندق القائد وخاطبني: «احلقي لها حلاقة رجولية».

* «لكنها امرأة».

– «لا، إنها جندي. ستعود امرأة بعد الحرب».

على الرغم من كلِّ شيء... سينمو شعرها على الرغم من كلِّ شيء، فكنت أسرِّح للفتيات شعورهنَّ على الطريقة النسائية. وبدلاً من بكرات الشعر كان عندنا أكواز... أكواز صنوبرية جافَّة... على الأقل من أجل لفِّ غرَّة الشعر...

فاسيليسا يوجينينا، جندية، حلَّاقة

Twitter: @ketab_n

لم أقرأ إلَّا القليل من الكتب، ولا أعرف السرد الجميل... كنا نُلبس الجنود، ونحلق شعورهم، ونلاطفهم - تلك كانت بطولتنا. كنا نتنقَّل على الجياد، بعض الأحيان في القطار، وجيادنا كانت منهكة، ويمكن القول على أقدام الجياد وصلنا إلى برلين نفسها. وإذا ما تذكَّرت، فقد كنا نعمل كلَّ ما هو مطلوب: ساعدنا في جرِّ الجرحى ونقلهم، ساعدنا في نقل الذخيرة على نهر الدنيبر؛ لأنه كان من غير الممكن نقلها بالسيَّارة، نقلنا على أيدينا عدَّة كيلومترات. حفرنا الخنادق، نصبنا الجسور...

حوصرنا، فهربت من الحصار، وأطلقت النار مثل الجميع. قتلت أم لم أقتل، لن أقول. هربت وأطلقت النار مثل الجميع.

يبدو لي أنني لم أتذكَّر إلا القليل. وكم كان عندي من الذكريات! سأتذكَّر... وآتي مرَّة أخرى...

أنَّا زاخاروفنا غورلاتش، جندية، غسَّالة

قصَّتي قصيرة...

يسألني المساعد: «أيَّتها الفتاة، كم عمرك؟».

* «ستَّة عشر عاماً، وماذا في الأمر؟».

- «لسنا في حاجة إلى فتيات غير راشدات».

* «سوف أفعل ما تريدون. يمكنني أن أخبز الخبز على الأقل».

وأخذوني...

ناتاليا محيدينوفا، جندية، خبَّازة

صنَّفوني كاتبة... أقنعوني بأن أعمل في الأركان على هذا النحو... قيل

Twitter: @ketab_n

لي: نحن نعرف أنك كنت تعملين مصوِّرة قبل الحرب، وستكونين مصوِّرة عندنا.

ما أذكره جيِّداً، أنني لم أرغب في تصوير الموت؛ القتلى. كنت أصوِّر الجنود عندما كانوا يدخِّنون، ويرتاحون، ويضحكون، وعند استلامهم الجوائز. للأسف لم يكن لديَّ فيلم ملون، بل أبيض وأسود فقط. رُفع علم الفوج... كان في إمكاني تصويره بشكل رائع...

أمَّا اليوم... يأتي لعندي الصحفيون ويسألونني: «هل صوَّرت القتلى؟ ساحة المعركة؟». بدأت أبحث... إن صور الموت قليلة عندي... إذا ما استُشهد أحدهم، كان يطلب مني الجنود الشباب: «هل لديك صورته حيَّاً؟». بحثنا عنه حيَّاً... بحيث يكون مبتسماً.

يلينا فيلنسكايا، رقيب، كاتبة

كنا نشيِّد... نشيِّد طرق السكك الحديدية، والجسور العائمة، والملاجئ. وكانت الجبهة على مقربة منا. كنا نحفر الأرض ليلاً، كيلا يلاحظونا.

كنا نقطع أشجار الغابة، في القسم عندي الغالبية كانت من الفتيات الشابَّات. الرجال كانوا قلَّة، من غير المؤهَّلين للخدمة الميدانية. كيف كنا نحمل الأشجار؟ نمسك بها نحن جميعاً ونحملها. شجرة واحدة يحملها جميع عناصر القسم. وكانت تبقى على أيدينا وأكتافنا مسامير مغطَّاة بالدم...

زويا لوكيانوفنا فرجبيتسكايا، قائد قسم في كتيبة البناء

أنهيت المعهد المتوسِّط التربوي... وحصلت على الدبلوم، عندما

Twitter: @ketab_n

بدأت الحرب. وبما أن الحرب قد بدأت لم يوزِّعونا على أماكن العمل، بل أرسلونا إلى أماكن إقامتنا. وصلت إلى البيت، بعد بضعة أيَّام استدعوني إلى دائرة التجنيد. لم تسمح لي أمِّي بالذهاب، بالطبع، فما زلتُ في مقتبل العمر، عمري ثمانية عشر عاماً، وقالت: «سأرسلك إلى أخي، وأقول ليست موجودة في البيت». قلت لها: «لكنني شبيبية في منظمة الشبيبة الشيوعية». في دائرة التجنيد جمعونا كيف ما كان، وكأنَّ المطلوب نساء لأفران الجبهة.

إن هذا العمل مرهق للغاية. كان لدينا ثمانية أفران حديدية. نصل إلى بلدة أو مدينة مدمَّرة. نضع فيها الأفران ونركِّبها. بعد تركيبها، لا بدَّ من الوقود والحطب، وعشرين أو ثلاثين ليتراً من الماء، وخمسة أكياس من الطحين. كنا فتيات في الثامنة عشر من العمر نحمل أكياس الطحين، حيث يبلغ وزن كلِّ كيس سبعين كيلوغراماً. كلُّ فتاتين تمسكان بالكيس وتحملانه. أو نضع أربعين ربطة خبز على العربة. أنا، على سبيل المثال، لم أستطع رفع أكياس الطحين. كنت أقف أمام الفرن ليلاً ونهاراً. ينتهي بعضنا من العجن بالمعجن. ليبدأ بعضنا الآخر بالعجن في معجن آخر. يقصفوننا بالقنابل، ونحن نخبز الخبز...

ماريا سيميونوفنا كولاكوفا، جندية، خبَّازة

أمضيت سنوات الحرب الأربع في الشحن... أقصد، حسب التعليمات، إلى "مستودعات شوكين" و"مستودعات كوجورو". أستلم من هناك التبغ، والسجائر، وأحجار الصوان، وكلَّ ما لا يستغني عنه المقاتل في الخطِّ الأوَّل من الجبهة، وأنطلق. على السيَّارات مرَّة، وعلى العربات مرَّة أخرى، وغالباً سيراً على الأقدام برفقة جنديٍّ أو جنديَّين. كلُّ

Twitter: @ketab_n

يسحب على سنمه. لا يمكننا قطع الخنادق على الجياد، فالألمان يسمعون أصوات الحوافر. نحمل كلَّ شيء على ظهورنا. على سنامنا، يا عزيزتي...

يلينا نيكيفوروفنا إيفسكايا، جندية في قسم التموين

مع بدء الحرب... كنت في التاسعة عشرة من عمري... كنت أقيم في مدينة موروم بمقاطعة فلاديمير. في شهر أكتوبر/ تشرين الثاني، أرسلونا نحن الكومسومولين (أعضاء منظمة الشبيبة الشيوعية) لتشييد طريق السيَّارات موروم-غوركي-كوليباكي. عندما عدنا من جبهة العمل، عبَّأونا لجبهة القتال.

أُرسلتُ إلى مدرسة الاتصالات في مدينة غوركي لدورة عاملي البريد. بعد إنهاء الدورة، حوَّلوني إلى الجيش العامل المقاتل؛ إلى فرقة الستِّين للمشاة. وخدمت ضابطاً في بريد الفوج. بعينيَّ رأيت كيف كان المقاتلون يبكون، ويقبِّلون المغلَّف عند استلامهم رسالة في الخطِّ الأمامي. لا سيَّما أن الكثيرين فقدوا أهلهم أو عاشوا في الأراضي التي احتلَّها العدو. ولم يكن في استطاعتهم الكتابة. عندها كنا نحن نكتب رسائل باسم مرسل مجهول: «عزيزي الجندي، تكتب لك فتاة لا تعرفها. كيف تضرب العدو؟ متى تعود منتصراً؟». كنا، طيلة الليالي، نجلس ونكتب الرسائل... أنا، خلال الحرب، كتبت المئات من هذه الرسائل...

ماريا ألكسييفنا ريمنوفا، ضابط ملازم، عاملة في البريد

صابون "K" الخاصَّة وغرفة الحجز

في الأوَّل من أيَّار/ مايو تزوَّجت... وفي الثاني والعشرين من حزيران/ يونيو بدأت الحرب. حلَّقت الطائرات الألمانية الأولى في سمائنا. كنت

Twitter: @ketab_n

أعمل في روضة للأطفال الإسبان الذين جلبوهم لنا إلى كييف. حدث هذا في العام السابع والثلاثين... الحرب الأهلية في إسبانيا... لم نكن نعرف ماذا نعمل؛ أمَّا الأطفال الإسبان فقد بدأوا بحفر الخنادق في الباحة، فقد اكتسبوا خبرة وكانوا يعرفون كلَّ شيء... أُرسل الأطفال إلى المؤخَّرة، أمَّا أنا فغادرت إلى مقاطعة بينزنسك. وقد كُلِّفت بمهمَّة تنظيم دورة للممرِّضات. وبحلول نهاية العام الحادي والأربعين، كنت أجري الامتحانات للممرِّضات في هذه الدورة، لأن جميع الأطبَّاء كانوا في الجبهة. سلَّمت وثائق تخريج الممرِّضات، وطلبت الالتحاق بالجبهة. أرسلوني إلى مستشفى عسكريٍّ ميدانيٍّ على مقربة من ستالينغراد، وكنت الأكبر بين الفتيات. وكانت صديقتي صونيا أودروغوفا، التي ما زالت صديقتي حتى الآن، في السادسة عشرة من عمرها، وكانت قد أنهت الصفَّ التاسع، ومن طالبات الدورة. مضت ثلاثة أيَّام على وجودنا في الجبهة، وها هي صونيا تجلس في الغابة وتبكي. اقتربت منها: «صونتشكا، لماذا تبكين؟».

* «كيف لا تفهمين؟ مضت ثلاثة أيَّام ولم أرَ فيها ماما».

والآن عندما أذكِّرها بهذه الحادثة، تضحك صونيا.

في كورسك، نقلوني من المستشفى العسكري إلى فصيلة الغسيل الميدانية نائباً لقائد الفصيلة للتوجيه السياسي. كانت الفتيات الغسَّالات مدنيات غير مجنَّدات. وحدث أننا ننتقل على العربات: أحواض الغسيل موضوعة، والأفران ظاهرة، والأباريق يغلي فيها الماء، وفوق هذا كلِّه تجلس الفتيات الغسَّالات بتنُّوراتهن الحمراء، والخضراء والزرقاء والرمادية. والجميع كانوا يضحكون من هذا المنظر، ويقولون: «ها هم عسكر الغسيل!». وكانت الفتيات تلقِّبنني بـ"مفوَّض الغسيل". وفيما بعد ألبست فتيات الغسيل ألبسة أكثر حشمة، وألبستهم البذلات المناسبة.

Twitter: @ketab_n

كانت أعمالهن شاقَّة للغاية. لا يتوفَّر أيُّ مسحوق للغسيل، ولم نره منذ زمن طويل. الغسيل كلُّه كان يتمُّ بالأيدي... بالأيدي النسائية... نتوقَّف في مكان ما، يعطوننا كوخاً أو ملجأً، نغسل فيه الشراشف والبياضات، وقبل أن نجفِّف الغسيل، نغسله بصابون خاص "K" من أجل قتل القمل. كان هناك مسحوق ترابي، لكنه كان غير نافع. فكنا نستخدم صابون "K"، وهو صابون كريه الرائحة بشكل رهيب. في هذا المكان الذي نغسل فيه، نجفِّف الغسيل، وفيه أيضاً ننام. كانوا يخصِّصون لنا من عشرين إلى خمسة وعشرين غراماً من الصابون من أجل غسيل ألبسة الجنديِّ الداخلية وشرشفه. وهي سوداء كالأرض السوداء لاتساخها. وقد ظهر لدى كثير من الفتيات بسبب الغسيل، والأعباء الثقيلة والتوتُّر، حالات الفتق والإكزيما من صابون "K"، وتساقط الأظافر، وكنا نظنُّ أنها لن تنمو أبداً بعد الآن. قد يسترحن يوماً أو يومين، بعدها كان لا بدَّ من بدء الغسيل من جديد.

كانت الفتيات مطيعات لي...

انتقلنا ذات مرَّة إلى مكان تعسكر فيه قطعة كاملة من الطيَّارين. تصوَّري، رأونا في هذه الثياب القذرة المهترئة، فنظر هؤلاء الشباب بازدراء، قائلين: «يا للقرف! غسّالات...». وكادت الفتيات أن يبكين: «حضرة المفوَّض، انظري...».

* «لا بأس، سننتقم منهم».

واتفقنا. في المساء تلبس فتياتي أفضل ما عندهن، ويذهبن إلى الساحة العشبية. كانت إحداهن تعزف على الأوكورديون والبقية يرقصن. وكان الاتفاق أن يرفضن الرقص مع أيِّ طيَّار. يقترب منهنَّ الطيَّارون فيرفضن الذهاب للرقص. كانت الفتيات طيلة الأمسية يرقصن مع بعضهنَّ بعضاً. وأخيراً، صرخ الطيَّارون مستنجدين: «غبيٌّ واحد قال هذه العبارة، وأنتنَّ تعاقبن الجميع».

Twitter: @ketab_n

عموماً، كان من غير المسموح به حجز المدنيين والمدنيات في غرفة الحجز، ولكن ما العمل عندما تجلس مئة فتاة معاً؟ ينتهي يوم العمل في الساعة الحادية عشر، ولا يسمح بأي نشاط. فكنَّ يهربن. وما العمل؟ الفتياتْ يبقين فتيات. كنت أحتجزهنَّ في غرفة الحجز. ذات مرَّة، جاءتني قيادة الوحدة العسكرية المجاورة، وعندي فتاتان في غرفة الحجز.

- «كيف تحتجزين المدنيات في غرفة الحجز؟». سألوني.

أجبت بهدوء: «أيُّها الرفيق العقيد، ارفع تقريراً للقيادة. هذا شأنك. لكن عليَّ أن أحقِّق الانضباط في فصيلتي. في فصيلتي نظام نموذجي».

وغادروا دون أيِّ كلمة.

كان الانضباط عندي شديداً. ذات مرَّة التقيت نقيباً، كان يمرُّ بطريقه قبالة بيتي، وأنا خرجت من البيت. فتوقَّف قائلاً: «يا إلهي! أنت خرجت من هنا، وهل تعرفين من يقيم فيه؟».

* «أعرف».

- «هنا تعيش المفوَّضة السياسية. أتعرفين كم هي شرِّيرة؟».

* «لم أسمع بهذا أبداً».

- «يا إلهي! إنها لا تبتسم أبداً، هي دوماً حانقة».

* «هل تريد أن تتعرَّف عليها؟».

- «يا إلهي! لا، أبداً».

* «إذاً، لقد تعارفنا، أنا المفوَّضة السياسية!».

- «لا، مستحيل! لقد حدَّثوني كثيراً عنها...».

كنت أحافظ على فتياتي. كانت عندنا فتاة جميلة جدّاً، اسمها فاليا. استدعوني ذات مرَّة إلى الأركان لمدَّة عشرة أيَّام. عدتُ من الأركان فقالوا لي إن فاليا تعود إلى سكنها متأخِّرة خلال هذه الأيَّام، وإنها كانت تمضي

Twitter: @ketab_n

الوقت مع أحد النقباء. حسناً، كانت – هذا فعل ماضٍ. بعد شهرين، علمت أن فاليا حامل. استدعيتها: «فاليا، كيف حدث هذا؟ إلى أين ستذهبين؟ زوجة أبيك (لم يكن لديها أم، بل زوجة أب) تعيش في الملجأ». بدأت تبكي: «أنت المذنبة، لو لم تغادري الفصيلة، لما حدث أيُّ شيء». كُنَّ يتعاملن معي كأم، كأخت كبيرة.

كانت ترتدي معطفاً خفيفاً، في حين أن الطقس كان بارداً. أعطيتها معطفي العسكري. وغادرتنا فاليا...

في الثامن من آذار/ مارس في العام الخامس والأربعين، يوم المرأة العالمي. أقمنا لأنفسنا احتفالاً: الشاي، وبعض الكراميل؛ حصلنا عليها. تخرج فتياتي إلى الشارع، وفجأة تشاهدن ألمانيَّين يخرجان من الغابة، يجرّان الرشّاشات من ورائهما، جريحَين... أحاطت بهما الفتيات. وأنا باعتباري مفوَّضة سياسية، كتبت في تقريري، أن الغسّالات اليوم، في الثامن من آذار، أخذن اثنين من الألمان أسيرَين.

في اليوم التالي، كان لدينا اجتماع القادة، أعلن رئيس قسم التوجيه السياسي في بداية الاجتماع: «أيُّها الرفاق، أريد أن أنقل لكم أخباراً سارَّة: الحرب ستنتهي قريباً. والبارحة، أسرتْ الغسّالات من فصيلة الغسيل الميداني الأولى اثنين من الألمان».

صفَّق الجميع.

عندما كانت تدور رحى الحرب، لم يكافئونا بشيء، وعند انتهائها قيل لي: «كافئي اثنتين من الغسّالات». فشعرت بالامتعاض. وطلبت الكلمة، وقلت إنني المفوَّضة السياسية لفصيلة الغسّالات، وإن هذا العمل القاسي للغسّالات ترك بصماته على أصابعهنَّ على شكل فتق أو أكزيما أو غيرها، وإن هذه الفتيات الصبايا كُنَّ يعملن في الجرِّ والنقل أكثر من الآليات، ومثل الجرّارات. فسألوني: «هل يمكنك أن تُعدِّي تقريراً بالمكافآت؟

Twitter: @ketab_n

نحن سنكافئهن». جلست وقائد الفصيلة طيلة الليل على قوائم الأسماء. وكثير من الفتيات حصلن على ميداليات "لقاء الشجاعة"، و"لقاء المآثر القتالية"، وكوفئت غسَّالة واحدة بوسام النجمة الحمراء؛ إنها أفضل غسَّالة، ولم تكن تبتعد أبداً عن حوض الغسيل: حدث أن جميع الفتيات كن يشعرن بالإنهاك الشديد، ويسقطن على الأرض، أمَّا هي فكانت تستمرُّ في الغسيل. لقد كانت امرأة كهلة، استُشهد جميع أفراد أسرتها.

عندما كان عليَّ تسريح الفتيات وإعادتهنَّ إلى بيوتهن، كان بودِّي كثيراً أن أقدِّم لهنَّ شيئاً. فهنَّ جميعاً من بيلاروسيا وأوكرانيا، وهناك كان كلُّ شيء مدمَّراً ومحطَّماً. فكيف يمكنني تسريحهنَّ بأيدٍ فارغة؟ كنا متمركزين آنذاك في قرية من القرى الألمانية، وكانت في القرية ورشة خياطة. ذهبت لألقي نظرة، فوجدت – لحسن الحظ – أن مكنات الخياطة سليمة. فقدَّمت لكلِّ فتاة ستغادر الفصيلة إلى بيتها مكنة خياطة هدية. وكنت في غاية السرور، وسعيدة جدَّاً. فهذا كلُّ ما كان في إمكاني تقديمه لفتيات فصيلتي.

الجميع كنَّ يريدن الذهاب إلى بيوتهن، لكنهن خائفات من العودة. فلم تعرف واحدة منا ماذا كان ينتظرها هناك...

فالنتينا كوزمينيتشنايا براتشيكوفا–بورشيفسكايا، ملازم، معاون قائد فصيلة الغسيل للشؤون السياسية

والدي... والدي الحبيب كان شيوعياً، قدِّيساً. لم ألتقِ في حياتي إنساناً أفضل منه. وهو الذي كان يربِّيني: «من كنت أنا، لولا السلطة السوفييتية؟ فقير. فلَّاح عند إقطاعي. السلطة السوفييتية أعطتني كلَّ شيء. أعطتني التعليم. أصبحت مهندساً، أبني الجسور. الفضل يعود لسلطتنا السوفييتية الحبيبة في كلِّ ما لديَّ».

Twitter: @ketab_n

كنت أحبُّ السلطة السوفييتية. كنت أحبُّ ستالين، وفورشيلوف، وجميع قادتنا أحببتهم. هكذا علَّمني أبي.

كانت رحى الحرب دائرة. وأنا شببت. في الأمسيات كنت أغنِّي مع والدي نشيد "الأممية" و"الحرب المقدَّسة". وكان أبي يصاحبني على الأكورديون. وعندما أكملت عامي الثامن عشر، ذهبت مع أبي إلى دائرة التجنيد...

من الجيش، كتبت لأهلي أنني أبني الجسور وأحرسها. وكم كانت فرحة أسرتي كبيرة! لقد جعلَنا والدي نحبُّ جميعاً الجسور منذ طفولتنا. عندما كنت أرى جسراً مدمَّراً – دمَّره العدوُّ أو فجَّره – كان موقفي منه كموقفي من كائن حي، وليس كهدف استراتيجي. كنت أبكي... كنت ألتقي في طريقي بمئات الجسور المدمَّرة، الكبيرة منها والصغيرة، وقد دمَّرها العدوُّ في الحرب، بادئ ذي بدء؛ فهي الهدف الأوَّل. وعندما كنت أمرُّ أمام الأبنية والمنشآت المدمَّرة، كنت أفكِّر في نفسي: كم من السنوات تحتاج إعادة بنائها؟ إن الحرب تقتل الوقت، وقت الإنسان الغالي الثمن. كنت أذكر جيِّداً، أنَّ كل جسر كان والدي يبنيه خلال عدَّة سنوات. كان يمضي الليالي على المخطَّطات الهندسية، حتى في أيَّام العطلة. أكثر ما كنت أحتاج إليه في الحرب هو الوقت. وقت أبي...

أبي تُوفِّي منذ زمن، وأنا لا أزال أحبُّه. لا أصدِّق عندما يتحدَّثون عن أولئك الأشخاص، مثل أبي، أنهم كانوا أغبياء وفاقدي البصر – حيث كانوا يؤمنون بستالين، ويخافون ستالين، ويؤمنون بأفكار لينين، ويفكِّرون تفكيراً متماثلاً. صدِّقيني، لقد كانوا أشخاصاً جيِّدين وشرفاء، لم يكونوا يؤمنون لا بستالين ولا بلينين، بل بفكرة الشيوعية. يؤمنون بالاشتراكية ذات الوجه الإنساني، كما أصبحوا يدعونها فيما بعد. يؤمنون بالسعادة للجميع، ولكلِّ فرد. حالمون، مثاليون – نعم؛ لكنهم ليسوا فاقدي البصر. لن أوافق على

Twitter: @ketab_n

هذا أبداً بأيِّ حال من الأحوال! في منتصف سنوات الحرب، ظهرت عندنا دبَّابات وطائرات ممتازة، وسلاح جيِّد. ولكن على أية حال، بدون عقيدة وإيمان لم يكن في إمكاننا أبداً الانتصار على هذا العدوِّ الرهيب، كجيش هتلر الجبَّار، القوي، المنضبط، الذي أخضع أوروبًّا كلَّها. بدون هذا الإيمان والعقيدة لم يكن في إمكاننا قصم ظهره. كان سلاحنا الرئيس هو الإيمان وليس الخوف، أقسم لك بشرفي الحزبي (في أثناء الحرب، انتسبت إلى صفوف الحزب الشيوعي وما زلت شيوعية حتى الآن). ولا أخجل من بطاقتي الحزبية ولم أتخلَّ عنها. ولم تتغيَّر عقيدتي من العام الحادي والأربعين...

تامارا لوقيانوفا توروب، جندية، مهندسة بناء

توقَّفت القوَّات الألمانية بالقرب من فورونيج... لم تستطع السيطرة على المدينة فترة طويلة. كانت تقصفها باستمرار. وكانت الطائرات الألمانية تطير عبر بلدتنا موسكوفكا. لم أكن قد رأيت العدو، لكنني رأيت طائراته. إلا أنني سرعان ما عرفت، ما هي الحرب...

وصل خبر إلى مستشفانا العسكري مفاده أن العدوَّ دمَّر قطاراً على مقربة من فورونيج، فذهبنا إلى مكان الحدث، ورأينا... يا للهول! ماذا رأينا؟ لحوماً مفرومة... لا يمكنني أن أنطق... أو و وه! أوَّل من أفاق من هول الصدمة كان كبير أطبَّائنا. صاح بصوت قوي: «النقَّالات، الحمَّالات!». كنت أصغر الجميع سنّاً، حيث أكملت للتوِّ عامي السادس عشر، وكان الجميع ينظر إليَّ خوفاً من أن أفقد وعيي. كنا نسير على السكَّة الحديدية، وندخل إلى عربات القطار. ولكن، لم يكن هناك من نضعه على النقَّالات: كانت عربات القطار تحترق، ولم نسمع أيَّ أنين أو صراخ. لم يكن هناك أشخاص سالمين بكامل أجسامهم. أمسكت قلبي بيدي، وأُغلقت عيناي

Twitter: @ketab_n

خوفاً. عندما عدنا إلى المستشفى العسكري، انهار الجميع: من وضع رأسه على الطاولة، ومن وضع رأسه على الكرسي... واستسلم الجميع للنوم على هذا النحو.

أنهيت مناوبتي وذهبت إلى البيت. وصلت والدموع تملأ عيني، استلقيت على السرير، وما إن أغلقت عينيَّ حتى رأيت من جديد أمامي كلَّ شيء... عادت أمِّي من عملها إلى البيت، وجاء العمُّ ميتيا. أسمع صوت أمِّي: «لا أدري ماذا سيحصل لابنتي لينا. انظرْ كيف أصبح وجهها خلال هذه الفترة، منذ أن ذهبت إلى المستشفى. إنها لا تشبه نفسها، تلوذ بالصمت، ولا تتحدَّث مع أحد، وتصرخ في حلمها. وأين اختفت ابتسامتها المعهودة، وأين اختفى ضحكها؟ أنت نفسك تعرف، كم كانت مرحة. أمَّا الآن، فهي لم تعد تمزح أبداً».

أسمع صوت أمِّي، ودموعي تذرف من عيني.

عندما حرَّرنا فورونيج في العام الثالث والأربعين، دخلت مع حماية مسلَّحة. كانت هناك فتيات فقط، صبايا بين السابعة عشرة والعشرين من العمر، جميلات، لم أرَ بمثل جمالهنَّ معاً. عرفت منهنَّ واحدة؛ ماروسا بروخوروفا، كانت صديقة تانيا فيودوروفا، وكلاهما من قرية واحدة. كانت تانيا فتاة جدِّية، تحبُّ النظافة والنظام، أمَّا ماروسا فكانت تحبُّ الغناء والرقص. كانت تغنِّي أغانيَ فكاهية مشاغبة. وكانت أكثر ما تحبُّ هو تزيين نفسها، والجلوس ساعات أمام المرآة. كانت تانيا تؤنِّبها: «بدلاً من تجميل نفسكِ، قومي، اكوِ بذلتك العسكرية، ورتِّبي سريرك كما يجب». وكانت عندنا أيضاً باشا ليتافرينا، فتاة غارقة في اليأس. وكانت تصادق شورا باتيشيفا، وهي فتاة خجولة للغاية، وأكثرنا هدوءاً. أمَّا لوسيا ليخاتشوفا فكانت تحبُّ لفَّ شعرها، ضفائرها، وبعد أن تلفَّها تمسك على

Twitter: @ketab_n

الفور بالغيتار. كانت تنام وتستيقظ مع الغيتار. وكانت أكبر الفتيات بولينا نيفيروفا، استُشهد زوجها في الحرب، وكانت حزينة دائماً.

كنا جميعاً نرتدي البذلات العسكرية. عندما رأتني أمّي في البذلة العسكرية أوّل مرّة، ابيضّ لونها: «قرّرتِ الالتحاق بالجيش؟».

فطمأنتها قائلة: «لا، يا ماما، قلت لا، لكنني أحرس الجسور».

بكت أمّي وقالت: «ستنتهي الحرب قريباً، وتخلعين المعطف العسكري».

أنا أيضاً كنت أفكّر هكذا.

بعد أن عرفنا أن الحرب انتهت بيومين، كان لدينا اجتماع في القاعة الحمراء. وألقى الرفيق ناعوموف رئيس الحراسة كلمة. قال فيها: «أعزّائي المقاتلين، الحرب انتهت. ولكن وصلنا أمس أمر مفاده أن الطريق الغربي يحتاج إلى حراسة عسكرية».

صاحت إحدى الحاضرات: «هناك تنشط عصابات البنديريين![1]».

سكت ناعوموف قليلاً ثمّ قال: «نعم، أيّتها الفتيات، هناك البنديريون. إنهم يحاربون ضدّ الجيش الأحمر. لكن الأمر هو أمر ولا بدّ من تنفيذه. من يريد المشاركة يرجى تقديم طلب لرئيس الحراسة. لن تذهب سوى المتطوّعات».

عدنا إلى الثكنة، وكلٌّ واحدة منا استلقت على سريرها. وسيطر الهدوء. لم يكن هناك بيننا من ترغب في الذهاب بعيداً عن موطنها. ولم يكن هناك بيننا من تريد الموت بعد الحرب. اجتمعنا في اليوم التالي أيضاً. وجلست

---

1 - البنديريون: سكّان مدينة بنديري، وهي مدينة تقع في جمهورية مولدافيا السوفييتية سابقاً على نهر الدنيستر... اشتهر سكّانها بالعداء للسلطة السوفييتية، وشاركوا الجيش الألماني الهتلري في الحرب على الجيش الروسي الأحمر. وبعد تحرير المدينة من الاحتلال الألماني استمر البنديريون فترة في محاربة السلطة السوفييتية. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

أنا على منصَّة الرئاسة، وقد غُطِّيت الطاولة بمفرش أحمر. كنت أظنُّ أنها المرَّة الأخيرة التي أجلس فيها وراء منصَّة الرئاسة.

ألقى مدير الحراسة كلمة: «كنت أعرف، أنك رفيقة (بابينا) ستكونين أوَّل من يذهب. وأنتن جميعاً، أيَّتها الفتيات، أحسنتن، لم تشعرن بالخوف. الحرب انتهت، ويمكنكن العودة إلى بيوتكن، وأنتن ستذهبن للدفاع عن الوطن».

رحلنا بعد يومين. أعطونا قطاراً تجارياً، على أرض العربات كان هناك تبن، وكانت تفوح منه رائحة العشب.

لم أسمع أبداً سابقاً أن ثمَّة مدينة اسمها "ستري". وهذه المدينة كانت مركز خدمتنا. المدينة لم ترُقْ لي أبداً – فهي صغيرة ورهيبة ومرعبة، كانت تصدح كلَّ يوم الموسيقى الخاصَّة بدفن الموتى: شرطيٌّ تارة، وشيوعيٌّ تارة أخرى، وشبيبيٌّ مرَّة ثالثة. ورأينا الموت من جديد. تصادقت مع غاليا كوروبكينا. لقد استُشهدت هناك. كما تصادقت مع فتاة أخرى... ذبحوها ليلاً... فقدت هناك القدرة على المزاح والضحك...

يلينا إيفانوفنا بابينا، مقاتلة في الحماية العسكرية

الرولمانات المنصهرة والشتيمة الروسية

أنا مثل أبي...أنا ابنته...

والدي ميرون لنكوف. اجتاز طريقاً طويلاً من شابٍّ أمِّيٍّ إلى قائد فصيلة في الحرب الأهلية. كان شيوعياً حقيقياً. عندما تُوفِّي، بقيت أنا ووالدتي في لينينغراد. إن أفضل ما عندي مدينةٌ به لهذه المدينة. هوسي الدائم هو الكتب. كنت أبكي بعد قراءتي روايات ليديا تشارسكايا، وقرأت تورغينيف، كما كنت أحبُّ الشعر...

Twitter: @ketab_n

صيف العام الحادي والأربعين، في آخر حزيران/ يونيو، توجَّهنا نحو جدَّتي في منطقة الدون. فاجأتنا الحرب على الطريق. وفي السهب بدأت تتراكض على الخيول دعوات دائرة التجنيد للالتحاق بالجبهة. كانت النساء القوزاقيات يغنِّين ويثملن ويبكين بعنف في وداعهنَّ للقوزاقيين. ذهبت في قرية بوكوفسكايا إلى دائرة التجنيد. فقالوا لي بإيجاز وحزم: «لا نأخذ الأطفال إلى الجبهة. أنت شبيبية شيوعية؟ هذا رائع. ساعدي المزارعين في المزرعة التعاونية».

كنا ننثر الحبوب بالرفش حتى لا يحترق عندما يتكوَّم أكواماً. ثمَّ قطفنا الخضار. وأصبحت المسامير على أيدينا صلبة قاسية، وتشقَّقت شفاهنا، وتغطَّت وجوهنا بسفع السهب. وإذا ما كنت أتميَّز بشيء عن فتيات القرية فهو فقط أنني كنت أحفظ الكثير من الأشعار، وكان في إمكاني ترديدها عن ظهر قلب، طيلة الطريق الطويل من السهل إلى البيت.

وكانت الحرب تقترب. في السابع عشر من تشرين الأوَّل/ أكتوبر احتلَّ الفاشيون تاغانروغ. فنزح سكان المدينة. بقيت جدَّتي وأرسلتْني مع شقيقتي: «أنتما صبيتان شابتان، اهربا بنفسيكما». سرنا حتى قرية أوبليفسكايا خمسة أيَّام. اضطررنا إلى رمي صندلينا، ودخلنا القرية حافيتي القدمين. حذَّرنا المسؤول في القرية: «لا تتوقَّعا عربات مغلقة في القطار، اجلسا على أرض العربات. الآن سنربط العربات بالقطار ونرسلكما إلى ستالينغراد». وقد كان حظُّنا سعيداً، فقد صعدنا على أرض عربة مفروشة بالشوفان. أخفينا أقدامنا الحافية بالحبوب، وتغطينا بالشال... التصقنا ببعضنا البعض وغفونا... كان الخبز قد نفد من عندنا منذ فترة طويلة، وكذلك العسل. كانت النساء القوزاقيات يطعمننا في الأيَّام الأخيرة. كنا نخجل من أخذ الطعام، ولا توجد معنا نقود لتسديد قيمة الطعام، فكنَّ يقنعننا: «كُلا أيَّتها البائستين. فوضع الجميع الآن سيِّئ، وعلينا أن يساعد

Twitter: @ketab_n

الصديق صديقه». لقد تعهَّدت ألَّا أنسى أبداً هذه الطيبة الشعبية. أبداً! بأيِّ حال من الأحوال! ولم أنسَها.

من ستالينغراد بالباخرة، ومن ثمَّ بالقطار ثانية، وفي الساعة الثانية ليلاً وصلنا إلى قرية مدفيديتسكوي. ودفعنا الحشد البشري إلى رصيف المحطَّة. وبما أننا تحوَّلنا إلى رقاقتين ثلجيتين، لم نتمكَّن من الحركة، فكنا نقف أحياناً لتمسك إحدانا الأخرى كيلا نقع، وكيلا نتمزَّق قطعاً، كما تمزَّق ذات يوم أمام عينيَّ ضفدع استخرج من الأوكسجين المسال في الثلج ووقع على الأرض. ولحسن الحظ أن بعض من كنا قد سافرنا معه تذكَّرنا. فقد وصلت عربة غاصَّة بالناس، وربطونا بها من الخلف. وألبسونا حذائين، وقالوا: «اذهبا، وإلا ستصابان بالصقيع القارس. ولن تحصلا على دفء أكبر. من غير الممكن نقلكما». كنا نسقط في البداية، ثمَّ سرنا، حتى أننا بدأنا نركض فيما بعد. وهكذا إلى أن قطعنا ستَّة عشر كيلومتراً...

بلدة فرانك-الكولخوز (المزرعة التعاونية)، الأوَّل من أيَّار/ مايو. سُرَّ رئيس الكولخوز عندما علم أنني من لينينغراد وقد أنهيت الصفَّ التاسع: «حسن جدَّاً. سوف تساعدينني، وتقومين بعمل المحاسب».

فرحت للحظة، لكنني رأيت هنا خلف ظهر رئيس الكولخوز شعاراً معلَّقاً "الفتيات خلف المقوَد!".

* «لن أجلس في المكتب»، أجبت رئيس الكولخوز، «إذا ما علَّموني، سأقود الجرَّار».

كانت الجرَّارات تقف وقد غطَّاها الثلج. فنظَّفناها، وفككنا قطعها، وأحرقنا أيدينا بالمعدن، تاركات عليه قطعاً من جلدنا. كان يبدو وكأن البراغي الصدئة المشدودة جدَّاً ملحومة. وعندما لم نتمكَّن من تحريكها بعكس عقارب الساعة، حاولنا تحريكها بالاتجاه المعاكس. وبصورة مفاجئة، في هذه اللحظة بالذات، وكأنه من تحت الأرض، ظهر رئيس

Twitter: @ketab_n

العمَّال، مدرِّبنا إيفان إيفانوفيتش نيكيتين، سائق الجرَّار الحقيقي الوحيد. فأمسك رأسه بيديه، ولم يستطع ألا يلفظ الشتيمة الروسية: يا لك من خرقاء! أ... أمّكِ... وكانت شتيمته أقرب إلى الأنين. لكنني بكيت على أية حال...

في الحقل حركت علبة السرعة نحو الوراء، لكن علبة الحركة في الجرَّار الذي كنت أقوده كانت بدون أسنان تقريباً. كانت المسألة محسوبة ببساطة: خلال مسافة عشرين كيلومتراً سوف يتعطَّل أحد الجرارات، وعندها يمكن أخذ علبة السرعة منه وتركيبها على جرَّاري. وهذا ما حدث. ومثلي، حدث كذلك مع سائقة الجرَّار ساروتشكا غوزنبوخ، لم تنتبه إلى أن الماء تبخَّر من مشع الحرارة "الرادياتر" فاحترق المحرِّك. يا لك من خرقاء! أ... أمّكِ...

لم أتعلَّم ركوب الدراجة الهوائية قبل الحرب، وهنا أقود الجرَّار! كانت المحرِّكات تسخن طويلاً خلافاً لجميع القواعد بالنار المفتوحة. وعرفت ماذا يعني اختناق المحرِّك. فكيف أُشغِّل المحرك بعد هذه العملية -- فلن تديريه بصورة دائرية، وبنصف استدارة لن يدور... أمَّا مواد التشحيم والوقود – فحسب معايير زمن الحرب. وأنتِ مسؤولة برأسك عن كلِّ نقطة، كما على الرولمانات المسترخية. يا لك من خرقاء! أ... أمّكِ... لكلِّ قطرة...

في ذلك اليوم... وقبل الخروج إلى الحقل، فتحت صمَّام حوض المحرِّك لأتحقَّق من الزيت. فخرج مصل ما. صرخت لرئيس العمل أن من الواجب سكب زيت جديد، فاقترب، وأخذ نقطة منه على إصبعه وشمَّها، ثمَّ قال: «لا تخافي، يمكنِك أن تعملي به يوماً آخر». فجادلته: «غير ممكن، أنت نفسك قلت...». فقام بتشغيله بنصف دورة: «أضرب رأسي بنفسي- لا خلاص منكم. دُمى المدينة! متعلِّمون جدَّاً، بشكل

Twitter: @ketab_n

مؤلم. يا لك من حمقاء! أ... أمكِ». طالما هكذا، كما تقول... وانطلقت. الجوُّ حار، والجرَّار يصدر دخاناً شديداً، ولا مجال للتنفُّس، لكن هذا كلُّه أمر بسيط: كيف الرولمانات؟ يبدو لي أنها تصدر أصواتاً. أتوقَّف - لا يظهر أيُّ شيء. أركِّب السرعة - تخضُّ وتهتز! وفجأة - وتحت مقعد السائق مباشرة - توك، توك، توك!

أطفأت المحرِّك، ركضت إلى فتحة التفتيش - رولمانتان غير ثابتتين ذابتا بالكامل! نزلت إلى الأرض، وأمسكت بالعجلة، وللمرَّة الثانية أبكي خلال الحرب. أنا المذنبة: فقد رأيت بنفسي الزيت السيِّئ! خفت من الشتيمة. كان عليَّ أن أشتمه ردّاً على شتائمه، وسيقول: إنتيليجنتسيا عفنة.

سمعت أصواتاً ما. من هناك! مدير الكولخوز، مدير التموين، رئيس قسم التوجيه السياسي، وبالطبع، رئيسنا، رئيس العمَّال. وبسببه هو!

إنه يقف عاجزاً عن الحركة. لقد أدرك كلَّ شيء. لاذ بالصمت. يا لك من أحمق! أ... أمّكَ...

أدرك مدير التموين كلَّ شيء: «كم؟».

* «اثنتان». أجبته.

حسب قوانين زمن الحرب فإن هذا يعني محاكمة. تحت بند "الإهمال وإلحاق الضرر".

التفت رئيس قسم التوجيه السياسي إلى رئيس العمَّال:

- «لماذا لا تحافظ على فتياتك العاملات؟ كيف يمكنني تقديم هذه الفتاة الصغيرة إلى المحاكمة!».

انتهت المسألة بشكل ما، بمجرَّد الحديث. لكن رئيس العمَّال لم يعد يشتم أمامي. وأنا بدوري تعلَّمتها... يا لك من أحمق! أ... أمّك... هذا ما نتج...

Twitter: @ketab_n

وفيما بعد، حلَّ حدث سار: عُثر على والدتنا. فقد جاءت إلينا، وعشنا من جديد حياة أسرة. فجأة قالت لي أمِّي: «أعتقد أن عليك أن تذهبي إلى المدرسة».

لم أفهم على الفور قصدها: «إلى أين؟».

- «من سينهي بدلاً منك الصفَّ العاشر؟».

بعد كلِّ ما حدث وما عشته، كان غريباً أن أجد نفسي ثانية على مقعد الدراسة. وأن أحلَّ المسائل وأقوم بكتابة الوظائف، وكتابة مواضيع الإنشاء، وحفظ أفعال اللغة الألمانية، بدلاً من أن أضرب الفاشيين وأقتلهم! وحدث هذا عندما اقترب العدوُّ من نهر الفولغا!

كان عليَّ أن أنتظر قليلاً: فبعد أربعة أشهر سأكمل على الأقل العام السابع عشر وليس الثامن عشر. وعندها لن يرفضني أحد ولن يعيدني إلى البيت. في لجنة المنطقة للشبيبة الشيوعية كلُّ شيء سار على ما يرام، أمَّا في إدارة التجنيد فقد اضطررت إلى أن أقاتل. بسبب العمر، وبسبب النظر. بيد أن الأولى ساعدت الثانية... وعندما دار الحديث حول العمر، لقَّبت مدير إدارة التجنيد بالبيروقراطي... وأعلنت الإضراب عن الطعام... جلست إلى جانبه، ولم أتحرَّك من مكاني طيلة يومين، رافضة قطعة الخبز وفنجان الماء المغلي الذي يعرضهما عليَّ. وهدَّدت بأنني سأموت من الجوع، لكنني قبل موتي سأكتب عن المذنب في موتي. من المستبعد أن يكون قد شعر بالخوف أو صدَّق، لكنه مع ذلك حوَّلني إلى لجنة طبية. وهذا كلُّه جرى في غرفة واحدة، على مقربة. وعندما فحص الطبيب عينيَّ، وأبعد ما بين يديه سلباً، ضحك مدير التجنيد، وقال إنني عبثاً جعت. وأشفق عليَّ. لكنني أجبت بأنني لا أرى بسبب الجوع. ابتعدت إلى النافذة، مقتربة من لوحة الأرقام لفحص الرؤية، وانفجرت في البكاء. بكيت طويلاً... إلى أن

Twitter: @ketab_n

حفظت الأسطر الأخيرة من اللوحة. ثمَّ مسحت دموعي وقلتُ إنني جاهزة لإجراء فحص النظر أمام اللجنة. ونجحت في الفحص.

في العاشر من نوفمبر/ تشرين الثاني في العام الثاني والأربعين، وبعد أن قمنا بتخزين المواد الغذائية بما يكفي لعشرة أيَّام، حسبما جاء في الأمر العسكري، صعدنا، نحن كنا خمساً وعشرين فتاة، إلى صندوق شاحنة مهترئة وأنشدنا أغنية "أُعطي الأمر"، مستبدلات عبارة "إلى الحرب الأهلية" بعبارة" دفاعاً عن وطننا". ومن كاميشين، حيث أدَّينا القَسَم سرنا على أقدامنا على الضفَّة اليسرى لنهر الفولغا إلى كابوستين يار. وهناك تمركز فوج الاحتياط. وهنا، كنا بين آلاف الرجال، فشعرنا بالضياع. وكان يفد مندوبون من مختلف الوحدات، من أجل أخذ حاجتهم من المقاتلين. وحاولوا ألَّا يلاحظونا. الجميع كان يمرُّ أمامنا مرور الكرام...

في الطريق، تصاحبت مع آنوشكا راكشنكو وآسيا باسينا. كلتاهما لم يكن لهما أيُّ اختصاص، وأنا كتبت اختصاصي غير حربي. ولذلك فعندما كانوا ينادون بطلباتهم من الاختصاصات، كنا نحن الثلاثة نخطو ثلاث خطوات إلى الأمام، مفترضات أننا في الموقع سنتقن بسرعة أيَّ اختصاص. لكنهم لم يلتفتوا إلينا.

ولكن، عندما خطونا الخطوات الثلاث ردَّاً على الإيعاز: «سائقون، سائقو جرَّارات، ميكانيكيون - ثلاث خطوات إلى الأمام!»، كان صاحب هذا الطلب ملازم أوَّل شاب لم يتجنَّبنا. كنت قد خطوت خمس خطوات وليس ثلاثاً، فتوقَّف: «لماذا تختار الرجال فقط؟ أنا أيضاً سائقة جرَّار!».

دُهش وقال: «غير ممكن. حسناً، ما هو نظام عمل الجرَّار؟».

- «واحد، ثلاثة، أربعة، اثنان».

* «أوَلم تحرقي الرولمانات؟».

Twitter: @ketab_n

اعترفت صراحة أنني أحرقت ذراع التوصيل كاملاً.

* «حسناً. آخذك. لصراحتك». وبعد أن هزَّ رأسه موافقاً تابع عمله.

وقفت صديقتاي معي، جنباً إلى جنب. تظاهر الملازم أوَّل أن هذا هو المطلوب. يا لك من! أ... أمّك...

عندما بدأ قائد الوحدة بالتعرُّف إلى العناصر الجديدة الرافدة، طرح على الملازم أوَّل السؤال التالي: «لماذا أحضرت هذه الفتيات؟».

استغرب الملازم أوَّل، وأجاب بأنه شعر بالشفقة عليهن: فقد يُفرزن إلى وحدة ما، ويقصفن رؤوسهن كطيور الحجل.

تأوَّه القائد قائلاً: «حسناً. واحدة إلى المطبخ، والثانية إلى المستودع، والأكثر تعليماً كاتبة في الأركان».

وصمت ثمَّ أضاف: «أشفق عليهن، فتيات جميلات».

الأكثر تعليماً كنت أنا، ولكن العمل كاتبة! وما علاقة جمالنا بالمسألة؟ فتناسيت الانضباط العسكري، وصحت قائلة: «نحن متطوِّعات! جئنا للدفاع عن الوطن. لن نذهب إلا إلى وحدة قتالية».

لسبب ما، انصاع العقيد على الفور، قائلاً: «حسناً، في وحدة قتالية. اثنتان إلى السيَّارات-المكنات، وتلك الثالثة، ذات اللسان الطويل إلى جمع المحرِّكات».

وهكذا بدأت خدمتنا في الورشة الميدانية المدرَّعة الرابعة والأربعين. كانت مصنعاً متنقِّلاً على عجلات. كانت توجد في السيَّارات مكنات مختلفة: فرز، حفر، تجليخ، خراطة؛ ومولِّدة كهربائية، وتزويد بالزيوت والشحوم، وتصليح الإطارات. وعلى كلِّ مكنة كان يعمل اثنان. كلٌّ منهما لمدة اثنتي عشرة ساعة، بدون أيِّ فرص للراحة. في فترات الغداء والعشاء والإفطار، يجري استبدال كلٍّ منهما بشريكه. وإذا ما اقترب دور الدورية

Twitter: @ketab_n

لأحد ما، يعمل الثاني أربعاً وعشرين ساعة متواصلة. كنا نعمل في الثلج وفي الأوساخ، وتحت القصف. ولم يعد أحد للحديث عن أننا جميلات. لكن، كانوا يشفقون على الفتيات الجميلات في الحرب أكثر من غيرهن. هذه حقيقة. كانوا يشعرون بالشفقة من دفنهن... ومن إرسال خبر الدفن إلى أمَّهاتهن... يا لكِ من... أ... أمّك...

كثيراً ما كنت أحلم في أثناء نومي... أنا أعرف أنني أرى الأحلام، لكنني لا أحفظها إلا نادراً. ويبقى مجرَّد إحساس أنني كنت في مكان ما... وعدت... ثانية واحدة في الحلم تتَّسع لما يشغل سنوات في الحياة. وفي مرَّة أخرى، يختلط عليَّ الأمر، أين الحلم، وأين الواقع... أظن، أن هذا حدث في زيموفنيكي، أتيت إلى سريري لأستلقي لساعتين، فبدأ القصف. يا لكَ من... أ... أمّك... الأفضل أن يقتلوني من أن يفسدوا عليَّ نومي لساعتين. انفجر شيء ما بقوَّة على مقربة، حتى أن البناء اهتز. لكنني مع ذلك تابعت نومي...

لقد انعدم الخوف عندي، ولم يظهر الإحساس بالخوف. أقسم أنه فقط بعد الغارات الأشد عنفاً، بدأت أسناني تصطكُّ من الخوف، حيث كانت فتحة فارغة. ولفترة غير طويلة. ولكنت اعتبرت نفسي الآن شجاعة، لولا أنني كنت مضطرَّة بعد عدَّة سنوات من الحرب بسبب آلام دائمة، شديدة، وغير مفهومة في مختلف أنحاء جسمي، إلى التوجُّه إلى المختصِّين. قال لي طبيب من أكثر أطبَّاء الأمراض العصبية خبرة، بعد أن سألني عن عمري، مستغرباً: «في الرابعة والعشرين من عمرك، دمَّرت جهازك العصبي اللاإرادي كلَّه! فكيف تنوين أن تعيشي؟».

أجبته بأنني أنوي أن أعيش حياة جيِّدة. أوَّلاً، أنا حيَّة! كم طمحت بأن أبقى على قيد الحياة! وبقيت على قيد الحياة، ولكن بعد مضيٍّ بضعة أشهر من حياتي بعد الحرب، التهبت مفاصلي، ويدي اليمنى لم تعد تعمل،

Twitter: @ketab_n

وأخذت تؤلمني بشدَّة، ونظري أصبح أسوأ بكثير، وتبيَّن أن كليتي تعاني من انخفاض شديد، وكبدي في حاجة إلى تعويض، واتَّضح على الفور أن جهازي العصبي اللاإرادي مدمَّر بالكامل. لكنني طيلة الحرب، كنت أحلم بأنني سأتابع دراستي. والجامعة أصبحت بالنسبة إليَّ مثل ستالينغراد ثانية. وقد تخرَّجت من الجامعة قبل عام واحد، وإلا لما بقيت لديَّ قوَّة على متابعة الدراسة. أربع سنوات في المعطف العسكري وحده شتاءً، وربيعاً، وخريفاً. وبالقميص العسكري الذي انمحى لونه... يا لك من...! أ... أمّك...

أنطونينا ميرونوفنا لينكوفا، تصليح سيّارات وآليات
في الورشة الميدانية المدرَّعة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كان المطلوب أن أكون جندياً...
ولكن كان بودِّي أن أكون جميلة أيضاً...

خلال بضع سنوات سجَّلت مئات الأحاديث... وعلى رفوف كتبي صنَّفت مئات أشرطة الكاسيت وآلاف الصفحات البريدية. أُصغي إليها، وأقرأها بانتباه شديد...

إن عالم الحرب ينكشف لي بصورة متزايدة، من الجانب غير المتوقَّع. سابقاً، لم أكن أطرح على نفسي الأسئلة: كيف يمكن للفتاة أن تنام عدَّة سنوات في الخندق في جزمتها، بصورة جانبية، أو أمام شعلة النار على أرض عارية، وأن تمشي بالجزمة والمعطف العسكري سنوات، وأخيراً، ألَّا تضحك ولا ترقص لسنوات؟ وألَّا ترتدي ثوباً صيفياً خفيفاً؟ وأن تنسى حذاءها وأزهارها؟ لقد كانت أعمارهن تتراوح بين الثامنة عشر والعشرين عاماً! لقد اعتدت التفكير، أن لا مكان لحياة الأنثى في الحرب. إنها مستحيلة، بل ومحظورة. لكنني أخطأت... وسرعان ما اكتشفت، وفي أثناء لقاءاتي الأولى؛ أن النساء، ومهما كان موضوع حديثهن، حتى عن الموت نفسه، كُنَّ دوماً يتذكَّرن الجمال (نعم!). لقد كان الجمال بالنسبة إليهنَّ جزءاً لا يتجزأ من وجودهن: «كانت ترقد في تابوتها... جميلة كالعروس...». (آ. سترويتسيفا، جندية مشاة) أو: «كان من المفروض أن يسلِّموني ميدالية، لكن قميصي الخارجي قديم. فخطتُ لنفسي قبَّة من الشاش. على الأقل

Twitter: @ketab_n

هي بيضاء... كان يبدو لي في تلك اللحظة أنني جميلة. لم تكن هناك مرآة، ولم أرَ نفسي. لقد دمَّروا كلَّ شيء كان لدينا...». (ن. يرماكوفا، عاملة لاسلكي). كُنَّ، بمرح ورغبة، يتحدَّثن عن خدعهن الأنثوية البريئة، عن الأسرار الصغيرة، والإشارات غير المرئية، سواء في حياة الحرب "الرجولية" وفي قضية الحرب "الرجولية"، فهنَّ على أية حال، كان بودِّهن أن يبقين كما هنَّ، وألَّا يبدِّلن طبيعتهن. وما هو غريب حقّاً أن ذاكرتهن قد احتفظت بكمية كبيرة من جزئيات حياة الحرب، والتفاصيل، والألوان، والأصوات. وقد اندمج في عالمهن الحياة والوجود، وتيَّار الوجود كان ذا قيمة بحدِّ ذاته، فهنَّ كُنَّ يتذكَّرن الحرب، كما يتذكَّرن فصول الحياة. لاحظت غير مرَّة كيف أن الأشياء الصغيرة في أحاديثهن، ليس كأفعال، كما الحياة، كانت تعلو على الأشياء الكبيرة، حتى على التاريخ. «من المؤسف حقّاً أنني في الحرب وحدها كنت جميلة... فهناك أمضيت أفضل سنواتي. إنها سنوات احترقت. وبعد الحرب، سرعان ما ترهَّلت وهرمت...». (آنَّا غالاي، رامية رشَّاش).

عبر مسافة سنوات عديدة، تضخَّم فجأة، بعض الأحداث، وأخرى تضاءلت. وتضخَّم الإنساني، الحميم، وأصبح بالنسبة إليَّ، وبالنسبة إليهنَّ أيضاً، الأكثر فضولاً، والأكثر أهمِّية وقرباً. إن الإنساني قد تغلَّب على اللاإنساني، وذلك فقط لأنه إنساني. «لا تخشَي من دموعي. ولا تشفقي. وليكن مؤلماً بالنسبة إليَّ، لكنني ممتنَّة لك، لأنني تذكَّرت نفسي صبية...». (ك. س. تيخونوفيتش، رقيب، مدفعية مضادَّة للطائرات).

حول الجزمة الرجولية والقبَّعة النسائية

عشنا في الأرض... كالمناجِذ... لكن بقيت عندنا بعض الحليّ. في

Twitter: @ketab_n

الربيع، تحضرين غصناً مزهراً وتضعينه أمامكِ فتفرحين، فقد لا تكونين غداً على قيد الحياة - هكذا كنا نفكِّر فيما بيننا. ويرسخ في ذاكرتكِ كلُّ شيء... أرسلوا لإحدى الفتيات من بيتها ثوباً صوفياً. كنا نحسدها، مع أنه لم يكن من المسموح ارتداؤه. أمَّا المساعد، فهو رجل، كان يثرثر: «كان الأفضل لو أرسلوا لك شرشفاً. أكثر فائدة من الثوب». لم يكن لدينا شراشف، ولا وسائد. كنا ننام على الأغصان، وعلى القش. ولكن كان لديَّ قرطان مخفيان. كنت في الليل ألبسهما على أذني وأنام معهما...

عندما أُصبت للمرَّة الأولى برضَّة الحرب الدماغية، لم أكن أسمع ولا أتكلَّم. فقلت في نفسي: إذا لم أسترجع صوتي فسأرمي بنفسي تحت عجلات القطار. كنت أغنِّي بصوت جميل وفجأة فقدت صوتي. لكن صوتي عاد إليَّ.

كنت سعيدة، ولبست قرطيَّ. حضرت إلى المناوبة أصرخ من الفرح: «الرفيق الملازم أوَّل، المناوبة الفلانية تقدِّم تقريرها...».

* «وما هذا؟».

- «ما هو؟».

* «اخرجي من هنا!».

- «ما المسألة؟».

* «اخلعي قرطيك على الفور! أيّ جندي أنت؟».

كان الملازم أوَّل جميل الطلعة. وكانت فتياتنا جميعهن مولعات به. كان يقول لنا: المطلوب في الحرب جنود وجنود فقط... كان المطلوب جندياً... ولكن، كان بودِّي أن أكون جميلة أيضاً... طيلة الحرب، كنت أخشى أن تُصاب رجلاي بالشلل. كانت لديَّ ساقان جميلتان. وماذا يهمُّ الرجل؟ فليس رهيباً بالنسبة إليه حتى إذا ما فقد رجليه. إنه على أية حال

Twitter: @ketab_n

بطل، عريس! أمَّا إذا ما أصيبت المرأة بالشلل، فإن قدر المرأة لا يقبل. القدر الأنثوي

ماريا نيقولايفنا شيلوكوفا، رئيس قسم الاتصالات

كنت أبتسم طيلة الحرب... كنت أعتقد أن عليَّ الابتسام قدر ما أستطيع، لأن على المرأة أن تكون متألِّقة. قبل إرسالنا إلى الجبهة، علَّمنا أستاذ متقدِّم في السنِّ قائلاً: «عليك أن تقولي لكلِّ جنديٍّ جريح إنك تحبِّينه. الحبُّ هو الدواء الأقوى عندكن. الحبُّ يحمي، ويعطي القوَّة للحياة». جريح راقد متألِّم، وهو يبكي، قولي له: «يا عزيزي. يا حبيبي...». «أنت تحبِّينني أيَّتها الأخت؟». (كانوا يدعوننا جميعاً نحن الصبايا بالأخوات). «طبعاً، أحبُّك. هيَّا اشفَ سريعاً». يمكنهم أن يغضبوا، أن يشتموا. ولا يحقُّ لنا ذاك أبداً. كانوا يعاقبوننا على الكلمة الجافية الواحدة عقوبات صارمة حتى الحجز.

كانت ظروفاً صعبة جدّاً، بالطبع... حتى الصعود إلى الشاحنة بالتنُّورة، حيث الرجال من حولك. وكانت صناديق الشاحنات عالية، وكذلك سيَّارات المستشفى الميداني. واصعدي إلى أعلى السيَّارة! حاولي...

فيرا فلاديميروفنا شيفالديشيفا، ملازم أوَّل. طبيبة جرَّاحة

أعطونا عربات تجارية من القطار... كان عددنا نحن الفتيات اثنتي عشرة فتاة، والباقي جميعهم رجال. نقطع عشرة إلى خمسة عشر كيلومتراً ويتوقَّف القطار. ونسير من جديد عشرة إلى خمسة عشر كيلومتراً، والطريق مسدود. لا مياه، لا حمَّامات... مفهوم؟

الرجال يشعلون النار في أثناء التوقُّف، ويخلعون ملابسهم، ويطردون القمل، ثمَّ يتدفَّؤون. وماذا بالنسبة إلينا؟ نركض بحثاً عن مكان مغطًّى،

Twitter: @ketab_n

ونخلع فيه ثيابنا. كانت عندي كنزة صوف تريكو يدوية، وكان القمل يعشعش في كلِّ ميليمتر منها، في كلِّ قطبة. تنظرين فيصيبك الإقياء. القمل أنواع: في الرأس، وفي الألبسة، وفي شعر العانة... وكان القمل لديَّ بأنواعه الثلاثة... ولا يمكنني مع الرجال، جنباً إلى جنب، شيُّها بالنار وطردها. هذا معيب. رميت الكنزة، وبقيت في فستان. في إحدى المحطَّات أعطتني امرأة غريبة لا أعرفها بلوزة وحذاءً قديماً.

سرنا بالقطار طويلاً، ثمَّ سرنا طويلاً مشياً على الأقدام. كان الجوُّ صقيعاً. كنت أسير دوماً، ماسكة المرآة في يدي: ألم يغزُ الصقيع وجهي؟ في المساء، رأيت أن خدِّيَّ قد تجمَّدا. كم كنت غبية! كنت أسمع أن الخدَّين عندما يتجمَّدان يصبحان بلون أبيض. أمَّا أنا، فقد أصبح خدَّاي بلونٍ أحمرَ قانٍ. فكَّرت في نفسي: فليبقيا متجمِّدين دوماً. ولكن في اليوم التالي أصبح خدَّاي أسوَدين...

ناديجدا فاسيليفنا ألكسييفا، جندية، عاملة تلغراف

كان عندنا كثير من الفتيات الجميلات... ذهبنا إلى حمَّام السوق. ويتبع الحمَّام صالون حلاقة. وبعد أن نظرت الواحدة منا إلى الأخرى، وجدنا أن جميع الفتيات قد زيَّنت حواجبها. عندما رآنا قائد الوحدة صرخ قائلاً: «أتيتنَّ للحرب أم لحفلة رقص؟». بقينا طيلة الليل نبكي ونمسح دموعنا. جاء في الصباح، وقال لكلٍّ واحدة منا: «يلزمنا جنود وليس سيِّدات. السيِّدات لا يعشن في الحرب». قائد صارم للغاية. وقبل الحرب، كان مدرِّس رياضيات...

أناستاسيا بتروفنا شيليغ، رقيب، ملَّاحة جوِّية

Twitter: @ketab_n

يبدو لي أنني عشت حياتين - حياة رجولية وأخرى نسائية...

عندما انتسبت إلى المدرسة الحربية، كان الانضباط العسكري سائداً: في التدريبات، وفي الصف، وفي الثكنة - كلُّ شيء حسب النظام العسكري. ولم تكن عندنا نحن الفتيات أية امتيازات. وكنتِ حيثما تواجدتِ تسمعين: «توقَّفن عن الثرثرة!»، «ثرثارات!». في المساء، تتطلَّعين إلى أن تجلسي، أن تخيطي، أن تطرِّزي شيئاً، أن تتذكَّري عملاً نسائياً... غير مسموح إطلاقاً. وبقينا بدون أهلنا وبيوتنا، بدون أعمال منزلية، فنشعر وكأن شيئاً ينقصنا. كانوا يعطوننا ساعة واحدة للاستراحة: كنا نجلس في قاعة المطالعة، نكتب الرسائل، نقف بحرية، نتحدَّث. ولكن لم يكن من المسموح لنا أن نضحك أو نتحدَّث بصوت عالٍ.

- «هل كان من المسموح ترديد أغنية؟».

* «أبداً، ممنوع».

- «ولماذا ممنوع؟».

* «ممنوع. انتظمي في الصف. وردِّدي أغنية، إن تلقَّيت الأمر العسكري: غنِّ أغنية!».

- «وبصورة عادية، عفوية، ممنوع؟».

* «ممنوع. ولكن ليس بلوائح الانضباط».

- «كان صعباً الاعتياد؟».

* «يبدو لي، أنني لم أعتد على هذا».

ما إن أغفو، فجأة: «استيقاظ، نهوض!». وكأن ريحاً قوية هبَّتْ على أسرَّتنا. وتشرعين في ارتداء ثيابك، وثياب المرأة أكثر من ثياب الرجل؛ فتسقط منك هذه أو تلك من ثيابكِ. أخيراً، الحزام في يدكِ - رَمَلاً إلى الخزانة وترتدين المعطف العسكري، وتسرعين إلى غرفة الأسلحة.

Twitter: @ketab_n

هناك تضعين الرفش في حقيبته، وتدخلينه عبر الحزام، وترتدين فوقه الجعبة، وتبكّلينه. تمسكين بالبندقية، وتؤمّنين البندقية راكضة نحو الدرج، وتنحدرين بكلٍّ معنى الكلمة إلى الأسفل. وفي الصف تضبطين ملابسك وهيأتك، ولهذا كلّه تُعطى دقائق معدودات.

أمّا على الجبهة... فجزمتي كانت أكبر من مقاسي بثلاث مرّات، فانحنت وامتلأت بالغبار الذي عشعش فيها. صاحبة الغرفة التي أسكنها قدّمت لي بيضتين: «خذي زوّادة في أثناء الطريق، أنت نحيفة لدرجة أنك سرعان ما تنهارين». أمّا أنا، فقد كسرت البيضتين، بخفّة بحيث لا تراني، ومسحت بهما الجزمة. بالطبع، كان بودّي أن آكلهما، لكن انتصر عندي الحسُّ النسويُّ - أن أكون جميلة. أنت لا تعرفين كيف يسحق المعطف العسكري المرأة، وكم هو ثقيل الوزن، مثله مثل كلّ الألبسة العسكرية الرجولية، والحزام، وكلّ شيء. وكنت أكره خاصّة، أن المعطف العسكري يضغط بقوّة على الرقبة، وكذلك الجزمة. لقد تغيّرت مشيتي وتغيّر كلُّ شيء عندي.

أتذكّر أننا كنا حزينات، طيلة الوقت كنا حزينات...

ستانيسلافا بتروفنا فولكوفا، ملازم، قائد فصيلة سلاح الهندسة

لم يكن من السهولة بمكان أن يجعلوا منا جنوداً... لم يكن بهذه البساطة...

استلمنا الألبسة العسكرية. قام المساعد بصفّنا: «أقدامكن مستقيمة إلى الأمام».

نصحّحها. مستقيمة إلى الأمام، ولكن نحن من الخلف، لأن قياس الجزمات أربعون وواحد وأربعون. المساعد: «أقدامكن!».

Twitter: @ketab_n

وبعد ذلك: «طالبات الضبَّاط، الصدر خطٌّ مستقيم، وإلى الأمام!».

لم نستطع بالطبع تنفيذ الوضعية، فصرخ بأعلى صوته: «ماذا وضعتن في جيوب قمصانكنَّ؟».

نحن نضحك.

- «توقَّفن عن الضحك!». صاح المساعد.

ومن أجل تدريبنا على طريقة تأدية التحية بصورة دقيقة وصحيحة، كان يرغمنا على أداء التحية للكراسي وللإعلانات والشعارات المعلَّقة. آه، كم تعذَّب معنا!

اقتادونا في إحدى المدن إلى حمَّام السوق. الرجال في حمَّام الرجال، والنساء في حمَّام النساء. وهناك النساء يصرخن، إحداهن تغلق الباب أمامنا: «الجنود قادمون!». لم يميِّزننا - صبايا نحن أم فتيان؛ فقد حلقنا شعورنا حلاقة رجولية، ولباسنا عسكري. وفي مرَّة أخرى، ذهبنا إلى التواليت، فاستدعت النساء الشرطي. فقلنا له: «وإلى أين نذهب؟».

عندها بدأ يصرخ على النساء: «إنهن فتيات!».

* «أية فتيات؟ إنهم جنود...».

ماريا نيقو لايفنا ستيبانو فا، رائد، رئيس سلاح الإشارة في كتيبة سلاح المشاة

أذكر الطريق وحده. الطريق... مرَّة إلى الأمام، ومرَّة إلى الخلف...

عندما وصلنا إلى جبهة بيلاروسيا الثانية، أرادوا إبقاءنا في أركان الفرقة، فأنتن نساء، ولماذا تذهبن إلى الخط الأوَّل؟ أجبنا: «لا، نحن قنَّاصات، أرسلنا إلى المكان المطلوب». عندها قالوا لنا: «نرسلكنَّ فقط

Twitter: @ketab_n

إلى فوج واحد، هناك عقيد جيِّد، وهو سيحافظ على الفتيات». قالوا لنا: «هناك قادة مختلفون».

استقبلنا هذا العقيد بالعبارات التالية: «أيَّتها الصبايا، كنَّ حريصات، يقظات. قدمتن لتحاربن، فحاربن، ولا تمارسن أيَّ عمل آخر. الرجال كثيرون من حولكن، ولا وجود للنساء. الشيطان وحده يعرف، كيف يمكنني أن أشرح لكنَّ هذا... إنها الحرب، أيَّتها الصبايا...». كان يدرك أننا فتيات في مقتبل العمر. عندما حلَّقت الطائرات للمرَّة الأولى. جلست وغطَّيت رأسي بيديَّ، ثمَّ فكَّرت في نفسي، وأشفقت على يديَّ. فأنا لم أكن بعد مهيَّأة للموت.

أذكر ذات مرَّة، كنا في ألمانيا... وكان المشهد مضحكاً! في إحدى البلدات الألمانية، وضعونا لقضاء ليلتنا في قصر مسكون. غرف كثيرة، صالات عديدة رائعة! كانت خزائن القصر تحوي الكثير من الألبسة النسائية الجميلة. اختارت كلُّ فتاة من فتياتنا الفستان الذي أعجبها. أعجبني كثيراً فستان أصفر اللون، وروب دي شامبر في غاية الجمال: طويل، خفيف... منفوش ذو وبر. وكان علينا أن ننام، كنا متعبات للغاية. كلنا ارتدينا هذه الفساتين والأثواب الجميلة ونمنا فيها. كلٌّ منا ارتدت ما أعجبها، وغفونا على الفور. أنا نمت بالفستان الأصفر وفوقه روب دي شامبر...

ومرَّة أخرى، في ألمانيا، دخلنا إلى ورشة مهجورة لصنع القبَّعات، اختارت كلُّ فتاة منا القبَّعة التي راقتها، ونمنا الليل كلَّه جالسات على المقاعد بقبَّعاتنا. نهضنا في الصباح، وتوجَّهنا إلى المرآة، ونظرنا إلى أنفسنا مرَّة أخرى... ثمَّ خلعنا قبَّعاتنا، وارتدينا قمصاننا وسراويلنا العسكرية. ولم نأخذ معنا أيَّ شيء؛ ففي الطريق حتى الإبرة كنا نشعر بها ثقيلة. وضعنا ملعقة في ساق الجزمة، وهذا كلُّ شيء...

بيللا إساكوفنا إتيتين، رقيب، قنَّاص

Twitter: @ketab_n

يا للرجال... كم هم... لم يكونوا يفهموننا دوماً...

لكننا كنا نحبُّ كثيراً قائدنا العقيد بتيتسين. كنا ندعوه "باتيي". لم يكن مثل القادة الآخرين. كان يفهم روحنا النسائية. في ضواحي موسكو، في أثناء الانسحاب والتراجع، الوقت الأصعب، كان يقول لنا: «أيَّتها الصبايا. نحن على مقربة من موسكو. سأجلب لكم معي حلاقاً نسائياً. زيِّنَّ حواجبكن ورموشكن، واعملن تسريحات نسائية. عيلى الرغم من أن هذا محظور، لكنني أودُّ أن تكنَّ جميلات. الحرب طويلة... ولن تنتهي بسرعة».

وأحضر معه حلَّاقة نسائية. عملنا تسريحات، وتزيَّنا. كم كنا سعيدات!

زينائيدا بروكوفيفنا غوماريفا، عاملة تلغراف

ركضنا فوق صقيع بحيرة لادوغا المتجمِّدة... في حالة الهجوم. وُوجِهنا هنا بإطلاق كثيف للنار. الماء المتجمِّد من حولنا، والجريح يسقط مباشرة إلى القاع. أنا أزحف، أضمِّد الجرحى، زحفت إلى جريح مصاب برجليه، لكنه يدفعني، ويزحف نحو كيسه العسكري. إنه يبحث في كيسه عن "H3"؛ يريد أن يأكل شيئاً قبل الموت على الأقل... ونحن عندما انطلقنا في الجليد، أخذنا معنا موادَّ غذائية. أريد أن أمدُّه، وهو يفتِّش في الكيس ولا يريد شيئاً آخر. كان الرجال لا يحتملون الجوع إلا بصعوبة شديدة؛ فالجوع بالنسبة إليهم أشد رهبة من الموت...

وإليكِ ما أتذكَّره عن نفسي... بداية، تخافين من الموت... ويقترن في نفسك الدهشة والفضول. وبعدها، لا هذا ولا ذلك - نتيجة التعب المنهِك؛ فأنتِ دائماً تبذلين قواك كلَّها، بل وتتجاوزينها. ويبقى في نفسكِ خوف واحد؛ من أن تكوني قبيحة بعد الموت. خوف الأنثى من أن تمزِّقها

Twitter: @ketab_n

قذيفة إلى قطع متناثرة... إنني أعرف هذه الحالة... وبنفسي جمعت أشلاء...

صوفيا كونستنتينوفنا دوبنياكوفا، مرشدة صحِّية

كنا نسير والمطر يهطل... نركض في الوحل، ويتساقط الناس في هذا الوحل. جرحى، قتلى. لا أريد أبداً أن أموت في هذا المستنقع. في مستنقع أسود. كيف يمكن لفتاة شابَّة أن ترقد في الأوحال؟ ذات مرَّة في غابات بريانسك في بيلاروسيا. هناك شجيرات الكرز الصغيرة. بيضاء سماوية. المرج كلُّه بلون سماوي. ما أجمل الموت هنا، بين هذه الألوان! الرقود هنا ممتع... غبية صغيرة في السابعة عشر من العمر... هكذا كنت أتصوَّر الموت...

كنت أظن: أن يموت الإنسان يعني أن يطير ويحلِّق إلى مكان ما. ذات ليلة، تحدَّثنا عن الموت مرَّة واحدة. لكننا كنا نخاف من أن نلفظ هذه الكلمة...

لوبوف إيفانوفنا أسمولوفسكايا، جندية، عنصر استطلاع

كان فوجنا نسائياً بالكامل... طرنا إلى الجبهة في أيَّار/ مايو في العام الثاني والأربعين...

قدَّموا لنا طائرة "بو-2"؛ طائرة صغيرة، بطيئة. كانت تحلِّق على ارتفاعات منخفضة فقط، وغالباً بطيران منخفض؛ فوق الأرض مباشرة! قبل الحرب، كانت الشبيبة تتعلَّم التحليق عليها في الأندية الرياضية، ولكن، لم يخطر بذهن أحد أنها ستُستخدم لأغراض حربية. كانت الطائرة تصميماً خشبياً، من خشب المعاكس المغطَّى بالنسيج، بل بالشاش.

Twitter: @ketab_n

وكانت تكفي طلقة واحدة مباشرة كي تحترق - وقد احترقت في الجو، قبل أن تهبط على الأرض، مثل علبة الكبريت. القطعة المعدنية الوحيدة فيها هي المحرك نفسه M-II. بعد ذلك، في أواخر الحرب أعطونا مظلَّات ووضعوا رشّاشاً في قمرة القيادة، وقبل هذا لم يكن هناك أي سلاح في الطائرة، كانت هناك أربع حوامل للقنابل تحت الأجنحة فقط. الآن يدعوننا بالكاميكاز، وربَّما فعلاً، كنا مثل طيَّاري الكاميكاز، أجل! كنا! لكن النصر كان أهم من حياتنا. النصر!

تسألين، كيف كنا نحتمل؟ سأجيبك...

قبل إحالتي إلى التقاعد، مرضت من الفكرة التالية وحدها: كيف سوف أعمل؟ ومن أجل ماذا بعد أن تجاوزت الخمسين سنة أنهيت الدراسة الجامعية الثانية؟ درست التاريخ. أمَّا في السابق فكان اختصاصي الجيولوجيا. بيد أن الجيولوجي الجيِّد يجب أن يكون دوماً في العمل الميداني، وليس لديَّ لهذا ما يكفي من القوَّة. قدم الطبيب لعندي، وعمل لي تخطيطاً للقلب، ثمَّ سألني: «متى عانيت من النوبة القلبية؟».

* «أي نوبة قلبية؟».

- «إن قلبك كله ندبات».

يبدو أن هذه الندبات أصابتني في أثناء الحرب. تهجمين على الهدف، وكلُّ شيء يرتجف عندك. جسدك كلُّه يُصاب بارتجاف شديد، لأن النار في الأسفل: الطائرات الهجومية تقصفك، والمدفعية المضادَّة للطائرات تطلق النار... بعض الفتيات اضطررن إلى مغادرة الفوج، لم يحتملن الخدمة فيه. كنا نطير ليلاً بصورة رئيسة. في فترة من الفترات، حاولوا إرسالنا بمهمَّات قتالية في ساعات النهار، لكنهم تخلَّوا عن هذه الفكرة على الفور. كانوا يطلقون النار على طائراتنا "بو-2" بالرشَّاشات...

Twitter: @ketab_n

كنا نقوم باثنتي عشرة طلعة جوِّية في الليلة الواحدة. لقد رأيت الطيَّار البطل الشهير بوكريشكين، عندما هبط من تحليق قتالي. لقد كان رجلاً قوياً، ولم يكن عمره عشرين أو ثلاثة وعشرين عاماً مثلنا: بينما كانوا يملؤون طائرته بالوقود، كان الفنِّيُّ يخلع عنه قميصه ويعصره عصراً. كان العرق يسيل منه كما لو كان تحت المطر. الآن يمكنك أن تتصوَّري ماذا كان يجري لنا. تحطِّين بالطائرة على الأرض، ولا يمكنك الخروج حتى من قمرة القيادة، كانوا يسحبوننا سحباً منها. ولا يمكننا حتى حمل اللوحة الطبوغرافية، كنا نجرُّها على الأرض.

أمَّا عمل فتياتنا - سدنة سلاح الطيَّارات! كان عليهن حمل أربع قنابل وزنها مئات الكيلوغرامات، وتعليقها بأيديكِ على جسم الطائرة. وهذا عمل مستمرٌّ طيلة الليل - طائرة تحلِّق، وأخرى تهبط. إن أجسامنا قد تعدَّلت بنيتها، لدرجة أننا لم نكن نساء طيلة الحرب. فلم تكن عندنا أية شؤون نسائية...لا دورات شهرية ولا غيرها... أنتِ بنفسكِ تدركين... وكثيرات منا من بعد الحرب لم يستطعن الولادة.

كنا جميعاً مدخِّنات. وأنا كنت أدخِّن، تشعرين وكأنكِ هدأت بعض الشيء. تحطِّين على الأرض ترتجفين بكامل جسمك، فتدخِّنين سيجارة وتهدئين. كنا نرتدي المعاطف الجلدية، والبناطيل، والقمصان، وفي الشتاء نرتدي أيضاً سترة الفرو. وبصورة عفوية، في سيرنا، وفي حركاتنا، ظهر عندنا شيء رجولي. وعندما انتهت الحرب، خاطوا لنا فساتين من قماش الكاكي. وأحسسنا فجأة أننا فتيات...

ألكسندرا سيميونوفنا بوبوفا، ملازم حرس، طيَّار

مُنحت منذ فترة قصيرة ميدالية... من الصليب الأحمر... ميدالية "فلورانس نايت نهيل" الدولية الذهبية. هنَّأني الجميع وأخذهم العجب:

Twitter: @ketab_n

«كيف استطعت جرَّ مئة وسبعة وأربعين جريحاً؟ وأنت تبدين فتاة ضئيلة في الصور الحربية». أجل، وربَّما جررت مئتي جريح، فمن كان يُحصي هناك؟ فهذا لم يخطر في ذهني أبداً، ولم نكن ندركه. المعركة في ذروتها، والجنود ينزفون دماً، وأنا عليَّ أن أجلس وأسجِّل وأحصي! لم أنتظر يوماً متى ينتهي الهجوم، كنت أزحف في أثناء المعركة وأتلقَّف الجرحى. فإذا كان مجروحاً بالشظايا، ولا أقترب منه إلا بعد ساعتين، فليس لديَّ ما أعمله، وينزف دم الجريح بالكامل.

جُرحت ثلاث مرَّات وأُصبت برضَّة الحرب الدماغية ثلاث مرَّات. في الحرب، كان كلٌّ منا يحلم بشيء ما: هناك من كان يحلم بالعودة إلى بيته، ومن كان يحلم بالوصول إلى برلين، أمَّا أنا فكنت أحلم بشيء واحد - أن أعيش حتى يوم عيد ميلادي، كي أكمل عامي الثامن عشر. لسبب ما، كنت أشعر بالرهبة من أن أموت قبل بلوغي العام الثامن عشر. كنت أرتدي البنطلون وعمرة الخدمة، وكانت ثيابي مهترئة دوماً، لأنني كنت أزحف دوماً على ركبي، وتحت ثقل الجريح. لم أكن أصدِّق أنه سوف يمكنني يوماً النهوض والسير على الأرض، وليس الزحف. كان هذا حلمي! ذات مرَّة، جاء إلى وحدتنا قائد الفرقة، فرآني وسأل: «ماذا يفعل عندكم هذا المراهق؟ لماذا تحتفظون به؟ كان من الواجب إرساله للمدرسة».

أذكر أنه كان ينقصنا الشاش والضماد... إنها جروح الرصاص الرهيبة، بحيث أنك تضعين للجرح الواحد علبة كاملة من الضماد. قطَّعت جميع ألبستي الداخلية واستخدمتها، وطلبت من زملائي الشباب: «اخلعوا كلاسينكم وقمصانكم الداخلية، الجنود يموتون عندي». خلعوها، وقطعوها قطعاً صغيرة. لم أكن أخجل منهم، وعشت بينهم وكأني صبي. نسير ثلاثة، نمسك بأيدي بعضنا البعض، والأوسط بيننا ينام ساعة أو ساعتين. ثمَّ نتبادل المواقع.

Twitter: @ketab_n

وصلت إلى برلين. وسجَّلت وكتبت على الرايخستاغ: «أنا صوفيا كونتسيفيتش، جئت هنا لأقتل الحرب».

أشاهد مقبرة جماعية، فأقف أمامها على ركبي. أمام كلِّ مقبرة جماعية... كنت أقف على ركبي...

صوفيا آداموفنا كونتسيفيتش، عريف، مرشدة طبيَّة في سرية الرماة

حول أصوات الفتيات وخرافات البحَّارة

كنت أسمع... هذه الكلمات... كالسُّم... هذه الكلمات كالأحجار... وكأن هذه كانت رغبة الرجال - الذهاب للحرب. وهل يمكن للمرأة أن تقتل؟ إنهن نساء غير طبيعيات، معيبات...

كلَّا، وألف كلَّا! تلك كانت رغبة إنسانية. كانت تدور رحى الحرب، وكنت أعيش حياتي العادية. فتاة صبية... لكن جارتي وصلتها رسالة -، زوجها جريح، وهو راقد في المستشفى العسكري. ففكَّرت في نفسي: «إنه جريح، فمن يحلُّ محلَّه؟». وصل أحدهم من الحرب فاقداً يده - ومن يحلُّ محلَّه؟ وصل ثانٍ بدون رجل - فمن يحلُّ محلَّه؟ لقد كتبت، ورجوت، وتضرَّعت أن يأخذوني إلى الجيش. فقد تربَّينا على أنه من دوننا لا يجب أن يجري شيء في بلادنا. علَّمونا محبَّة الوطن، والإعجاب به. وطالما أن الحرب قد بدأت، فنحن ملزمون بتقديم العون والمساعدة. كانت ثمَّة حاجة إلى الممرِّضات، إذاً، يجب رفد الجيش بالممرِّضات. كانت ثمَّة حاجة إلى عناصر مدفعية مضادَّة للطائرات، إذاً يجب رفده بهذه العناصر.

هل أردنا، نحن الفتيات، أن نكون شبيهات بالرجال؟ نعم. في الفترة الأولى قصصنا شعرنا الطويل وحلقناه بتسريحات قصيرة، حتى أننا عدَّلنا

Twitter: @ketab_n

خطواتنا. أمَّا فيما بعد، فلا، ثمَّ لا. ثمَّ تولَّدت عندنا رغبة شديدة في أن نتزيَّن ونتجمَّل. لا تأكلي السكَّر، كي توفِّريه لطعام الآخرين. كنا سعيدات عندما يتوفَّر لنا قدر من الماء لنغسل شعرنا. عندما كنا نسير سيراً على الأقدام، كنا نبحث عن الأرض الطرية الممهَّدة. أقدامنا كانت تتطلَّع إليها... أتفهمين؟ كنا نغسل أيدينا بالتراب... نحن فتيات، ولدينا خصوصياتنا... لم يفكِّر الجيش في هذا... كانت أقدامنا لا تزال طرية... حسن، لو كان المساعد رجلاً متوسِّط العمر ويدرك كلَّ هذه الأمور، ولا يأخذ من أكياس الفتيات الملابس الداخلية الإضافية، أمَّا إذا كان شاباً فبالتأكيد سيرمي الزائد جانباً. وأين هو الفائض بالنسبة إلى الفتيات، عندما يبدِّلن ألبستهن الداخلية في اليوم مرَّتين؟ كنا نقصُّ أكمام القمصان الداخلية، وعددها اثنان. والمجموع يكون أربعة أكمام...

كلارا سيمينوفنا تيخونوفيتش، رقيب أوَّل،
مدفعية مضادَّة للطائرات

قبل الحرب كنت أحبُّ كلَّ ما هو عسكري... رجولي... توجَّهت إلى مدرسة الطيران كي يرسلوا لي قواعد القبول. كانت البذلة العسكرية تليق بي. كنت أحبُّ الانضباط، والدقَّة، وإيجاز الأوامر العسكرية. وجاءني الجواب من مدرسة الطيران: «عليك أن تنهي الصفَّ العاشر أوَّلاً».

بالطبع، عندما بدأت الحرب، وبميولي هذه لم يكن في استطاعتي البقاء في البيت. لكنهم لم يسمحوا لي بالذهاب إلى الجبهة، بأيِّ شكل من الأشكال، لأن عمري ستَّة عشر عاماً. قالوا لي في إدارة التجنيد: ماذا سيقول عنا العدو، إذا كانت الحرب قد بدأت الآن، ونحن نأخذ إلى الجبهة فتيات غير راشدات؟

Twitter: @ketab_n

- «علينا أن نضرب العدو».

* «سيضربونه من دونك».

بدأت أقنعه بأنني طويلة القامة، وليس هناك من يقول عني إنني ابنة ستَّة عشر عاماً، بل أكثر بالتأكيد. أقف في المكتب، ولا أغادر، قائلة: «اكتب ثمانية عشر عاماً وليس ستَّة عشر». فأجاب: «أنت الآن تقولين هذا، وبعدها، كيف ستتذكَّرينني؟».

أمَّا بعد الحرب، فلم أعد أرغب في ما كنت أرغب فيه سابقاً، في أي اختصاص عسكري. كنت أحلم بأن أخلع عن جسدي كلَّ ما هو واق... أمَّا البنطلون، فما زلت حتى الآن أنظر إليه باشمئزاز. كان بودِّي أن أرتدي شيئاً ما، طبيعياً، نسائياً...

كلارا فاسيليفنا غونتشاروفا، مجنَّدة،
مدفعية مضادَّة للطائرات

أحسسنا بالحرب على الفور... أنهينا المدرسة الحربية، وفي اليوم نفسه، جاء إلى المدرسة "المشترون" - هكذا كنا ندعو موفدي الوحدات والقطعات لاختيار عناصر جديدة ورفد وحداتهم بها. وكان هؤلاء رجالاً دوماً، وكان يظهر عليهم بوضوح أنهم يشفقون علينا. كنا ننظر إليهم بعيون واحدة، وهم ينظرون إلينا بعيون أخرى: كنا نتأهَّب للخروج من الصفِّ إلى الأمام، ليأخذونا بسرعة، وليلاحظونا، كي نظهر قدراتنا وأنفسنا، أمَّا هم فكانوا متعبين، ولم ينظروا إلينا، عارفين إلى أين سيرسلوننا. الجميع كان يدرك هذا.

كان فوجنا رجولياً، لم يحوِ من النساء سوى اثنتين وعشرين امرأة. إنه فوج المدفعية البعيدة المدى السابع والثمانون. أخذنا معنا من بيوتنا

Twitter: @ketab_n

زوجين أو ثلاثة من الألبسة الداخلية، فمن غير الممكن أخذ الكثير. قاموا بقصفنا، ولم يبقَ معنا سوى ما نرتديه على أجسامنا، وما تمكَّنا من الهرب فيه. ذهب الرجال إلى معسكر الانتقال، فقدَّموا لهم ما يحتاجونه. أمَّا نحن فلم يقدِّموا لنا شيئاً. أعطونا قطعاً من القماش للفِّ القدمين، فخطنا منها كلاسين وحمَّالات للصدر. عرف قائد الفوج بذلك، فأنَّبنا.

مرَّ علينا نصف عام في الجيش... وبسبب الأعباء الثقيلة لم نعد نساءً... توقَّف عندنا كلُّ شيء... العادة الشهرية... الدورة البيولوجية... مفهوم؟ هذا شيء رهيب جدَّاً! من المرعب أن تفكِّري في أنك لن تعودي امرأة كما كنت أبداً...

ماريا نيستيروفنا كوزمينكو، رقيب أوَّل، قسم التسليح

كنا نسعى ونبذل جهدنا... لم نكن نريد أن نسمع من يقول عنا: «آه، إنهن نساء!». وكنا نثابر في عملنا أكثر من الرجال، فقد كان علينا أن نثبت أننا لسنا أسوأ من الرجال. كان الموقف منا - لفترة طويلة - متغطرساً، متعالياً، ساخراً: «ستبدع النساء في الحرب...».

وكيف يمكن للمرأة أن تكون رجلاً؟ من المستحيل أن تكون رجلاً. أفكارنا شيء، أمَّا طبيعتنا - بنيتنا البيولوجية - فهي شيء آخر...

نحن في المسير... مئتا امرأة في الأمام، ومئتا رجل في الخلف. الحر شديد. مسير طويل بخطى سريعة... ثلاثون كيلومتراً. ثلاثون! نحن نسير، وتترك أقدامنا لطخات حمراء على الرمل... آثار أقدامنا حمراء... وضعنا مأساوي، دموي... وكيف تخفي هذا؟ يسير الجنود من خلفنا، ويتظاهرون بأنهم لا يلاحظون أيَّ شيء... لا ينظرون إلى ما تحت أقدامهم... لقد جفَّت البنطلونات على أجسادنا، وأخذت تجرح أجسادنا كالزجاج. لقد

Twitter: @ketab_n

أحدثت جروحاً، ورائحة الدم تفوح من أجسادنا. ولم يعطونا بدلاً منها... كنا ننتظر عندما يعلّق الجنود قمصانهم على الشجيرات، فنأخذ منهم قميصين... وكانوا بعد ذلك يحزرون ويضحكون: «أيُّها المساعد، أعطِنا ألبسة داخلية أخرى. لقد أخذت الفتيات قمصاننا». لم يكن هناك ما يكفي من القطن والضمادات للجرحى... فما بالكِ بالألبسة الداخلية النسائية التي لم تظهر إلا بعد عامين؟ كنا نرتدي الكلاسين والقمصان الداخلية الرجولية، ونمشي بالجزمات فتنسلق أقدامنا فيها. ونسير... نحو المعبر، هناك عبَّارات. وصلنا إلى المعبر، وهنا بدأوا بقصفنا. كان قصفاً مرعباً. كان الرجال كلٌّ منهم يهرب حيث يستطيع. كانوا يدعوننا... لكننا لم نكن نسمع القصف، فنحن لا نفكِّر في القصف، نحن مسرعات نحو النهر، نحو الماء... الماء! الماء! وجلسنا في ماء النهر إلى أن انتقعنا وبردنا... تحت الشظايا... تلك هي المسألة... العار كان أسوأ من الموت. وقد استُشهدت عدَّة فتيات في ماء النهر...

ربَّما، المرَّة الأولى آنذاك، أردت أن أكون رجلاً... المرَّة الأولى...

وها هو النصر قد لاح. في الفترة الأولى، أسير في الشارع، ولا أصدِّق أنه النصر. النصر! نصرنا...

ماريا سيميونوفنا كاليبيردا، رقيب، سلاح الإشارة

حرَّرنا لاتفيا... كنا نقف بالقرب من داوغافبيلس. كان الوقت ليلاً، ونويت أن أستلقي وأنام. سمعت الحرس يخاطب أحداً: «قفْ! من أنت؟». وبعد عشر دقائق استدعوني إلى قائد الوحدة. دخلت إلى ملجأ القائد. كان يجلس هناك رفاقنا ورجل لا أعرفه باللباس المدني. لقد حفظت جيِّداً هذا الرجل. فطيلة سنوات الحرب، كنت أرى الرجال بالبذلة العسكرية فقط،

Twitter: @ketab_n

في المعاطف العسكرية، أمَّا هو فكان يرتدي معطفاً أسود اللون وقبَّة من فرو الدب.

- «نحتاج إلى مساعدتك» قال لي هذا الرجل. «على بعد كيلومترين من هنا، تلد الآن زوجتي. وهي وحدها. ولا أحد غيرها في البيت».

سألني القائد: «البيت يقع في المنطقة المحايدة. تعرفين بنفسك، المنطقة ليست آمنة».

* «امرأة تضع مولودها. عليَّ أن أساعدها».

أعطوني للمرافقة خمسة رماة رشَّاشات. حشوت حقيبة بالشاش والضمادات، أخذت معي قطع قماش جديدة للفِّ القدم من الفانيلا. وانطلقنا. كانت تُطلق النار باستمرار إمَّا قبلنا أو بعدنا. والغابة كثيفة ومعتمة، حتى أن القمر لا يُرى. وأخيراً ظهر خيال بناء ما. وقد تبيَّن أنها مزرعة. عندما دخلنا إلى البيت شاهدت المرأة. كانت جالسة على الأرض في ثياب قديمة مهترئة. أسدل الزوج ستائر النوافذ على الفور. ووضع اثنين من رماة الرشَّاشات في الساحة، واثنين أمام باب المنزل، وأمسك بالمصباح كي ينير لي. لم تكن المرأة تتحمَّل آلام المخاض، كانت تشعر بآلام شديدة.

كنت أرجوها دوماً: «اصبري، يا عزيزتي. الصراخ ممنوع. اصبري».

فقد كنا في المنطقة المحايدة. وإذا ما لاحظ العدوُّ أيَّ شيء أو صوت سيُمطرنا بالقذائف. ولكن عندما سمع الجنود صوت الطفل المولود، ردَّدوا بصوت خافت: «هوراه! هوراه!». لقد وُلد طفلٌ على الخطِّ الأمامي!

جلبوا لي الماء. لم يكن هناك أيُّ موقد لغلي الماء، مسحت الطفل الوليد بالماء البارد. ولففته بأقمشتي من الفانيلا. لا يوجد شيء في البيت سوى الخرق القديمة التي كانت الأمُّ ترقد عليها.

Twitter: @ketab_n

على هذا النحو تردَّدت على هذه المزرعة عدَّة ليال. وجئت آخر مرَّة قبل الهجوم، وقلت لها مودِّعة: «لن أستطيع القدوم بعد الآن. سأغادر».

سألت المرأة زوجها شيئاً باللغة اللاتفية. فترجم لي: «زوجتي تسأل: ما اسمك؟».

- «آنّا».

ردَّت المرأة بكلمات ترجمها لي الزوج: «إنها تقول: إن اسمك جميل جدّاً. وعلى شرفك سنسمي ابنتنا آنّا».

نهضت المرأة قليلاً - لم تكن قادرة بعد على الوقوف - وقدَّمت لي علبة بودرة متلألئة جميلة. كانت هذه، كما يبدو، أغلى شيء عندها.

فتحت علبة البودرة، وكانت رائحة البودرة هذه ليلاً، حيث تطلق النار من كلِّ جانب وتسقط القذائف... لقد كان هذا شيئاً غير عادي... حتى الآن بودِّي أن أبكي عندما أتذكَّر... رائحة البودرة، غطاء البودرة اللامع... الطفلة الصغيرة الوليدة... شيء بيتيٌّ عزيز، شيء من الحياة الحقيقية للمرأة...

آنّا نيقو لايفنا خرولوفيتش، ملازم حرس، مساعدة طبيب

امرأة في الأسطول... لقد كان هذا شيئاً محظوراً، بل وغير طبيعي. كان يُعتقد أنها تجلب الكارثة والشؤم للباخرة. وُلدت أنا بالقرب من فاستوف. في قريتنا، قبل وفاة والدتي، كانت النساء تمازحن أمِّي قبل وفاتها: ماذا أنجبتِ - بنتاً أم صبياً؟ وقد كتبت أنا بنفسي رسالة لوزير الدفاع السوفييتي فوروشيلوف كي يقبلوني في مدرسة لينينغراد التقنية للمدفعية. وبأمرٍ شخصيٍّ منه قبلوني فيها وكنت الفتاة الوحيدة.

أنهيت المدرسة الحربية، على أية حال أرادوا إبقائي على البر. عندئذ،

Twitter: @ketab_n

توقَّفت عن الاعتراف بأني امرأة. أنقذتني كنيتي الأوكرانية "رودنكو"[1]. لكنني ذات مرَّة كشفت عن نفسي.

كنت أنظِّف سطح المركب، فجأة سمعت ضجَّة، ألتفت: بحَّار يطرد قطَّة، لا يعرف كيف وصلت إلى المركب، حيث كانت تسود خرافة مفادها أن القطط والنساء تجلب الشؤم والهلاك في البحر. لم ترغب القطَّة في ترك المركب، فأخذت تموء وتناور مناوراتٍ يعجز عنها لاعب كرة قدم عالمي، وجميع من في المركب يضحكون. ولكن، في تلك اللحظة، عندما كادت القطَّة أن تسقط في الماء، خفتُ وصرخت بصوت قوي. ويبدو أن صرختي كانت عالية وحادة؛ أنثوية، لدرجة أن الرجال توقَّفوا عن الضحك. وساد الهدوء.

سمعت صوت القائد: «أيُّها المناوب، دخلت امرأة إلى المركب؟».

* «كلَّا، أبداً، أيُّها الرفيق القائد».

وساد الذعر من جديد. امرأة على القارب.

لقد كنت المرأة الأولى، الضابط النظامي في ملاك الأسطول البحري الحربي. كنت أسلِّح السفن ومشاة البحرية في الحرب. وعندها كُتب في الصحافة الإنكليزية أن مخلوقاً غريباً غير مفهوم – رجلاً أم امرأة – يحارب عند الروس في الأسطول. وأن هذه "الليدي المسلَّحة" لن يتزوَّجها أحد. لن يتزوَّجني أحد؟! أخطأت أيُّها السيِّد. سيتزوَّجني أجمل ضابط...

لقد كنت زوجة سعيدة، وبقيت أمَّاً وجدَّة سعيدة. ليس ذنبي أن زوجي

1 – الكنية باللغة الأوكرانية لا يتغيَّر آخرها، سواء كان المقصود مؤنَّثاً أم مذكَّراً مثل «رودنكو» هنا، حيث لا يعرف من كنيتها أنها امرأة، خلافاً للكنية باللغة الروسية، حيث يتغيَّر آخرها بحسب الجنس: مذكَّر أم مؤنَّث. فالكنية الروسية لرجل تكون مثلاً «ليرمانتوف»، بينما تصبح للمرأة «ليرمانتوفا». الكنية الروسية تفصح عن الجنس بعكس الأوكرانية. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

استُشهد في الحرب. أمّا أنا فقد أحببت ولا أزال أحبُّ الأسطول طيلة عمري...

تايسيا بتروفنا رودنكو-شفيليوفا. نقيب، قائد سرية في أسطول موسكو، حالياً متقاعدة برتبة مقدَّم

كنت أعمل في المصنع. في مصنع القاطرات بقريتنا ميخائيلشيكوفو بمنطقة كستوفسكي بمقاطعة غوركي. ما إن بدأوا باستدعاء الرجال وإرسالهم إلى الجبهة، حتى وضعوني على الماكينة لأقوم بعمل رجولي. ومنها نقلوني إلى ورشة الحدادة الحامية، حيث يصقلون سلاسل المراكب.

طلبت تحويلي إلى الجبهة، بيد أن رئاسة المصنع أبقتْني في المصنع بحجج وذرائع مختلفة. عندها كتبت إلى لجنة المنطقة للشبيبة الشيوعية، وفي شهر آذار/ مارس في العام الثاني والأربعين وصلتْني دعوة للذهاب إلى الجبهة. انطلقنا إلى الجبهة، عدَّة فتيات، وخرج لوداعنا سكَّان القرية كلُّهم. قطعنا ثلاثين كيلومتراً سيراً على الأقدام حتى وصلنا إلى مدينة غوركي، وفيها وزَّعونا إلى قطعات مختلفة. أرسلوني إلى الفوج 784 للمدفعية المتوسِّطة المدى المضادَّة للطائرات.

سرعان ما عيَّنوني الهدَّاف الأول. لكن هذا لم يكن كافياً لي، أردت أن أصبح ملقِّم الطلقات. حقيقة، كان هذا العمل يُعَدُّ عملاً رجولياً بحتاً: كان على الملقِّم أن يرفع طلقات وزنها ستَّة عشر كيلوغراماً وتهيئة نار كثيفة بمعدَّل خمس ثوانٍ لكلّ قذيفة. ولم يكن عبثاً أن عملت في ورشة الحدادة الحامية. بعد مضيٍّ عام، منحوني رتبة رقيب وعيَّنوني قائد السلاح الثاني، الذي كان يعمل فيه أربعة رجال وفتاتان. وبسبب النار الكثيفة، ارتفعت حرارة سبطانات المدفع إلى حدِّ الاحمرار، وأصبح من الخطورة بمكان

Twitter: @ketab_n

إطلاق النار، فاضطررنا، خلافاً لكلِّ القواعد، إلى تبريدها بشرشف منقوع في الماء. السلاح لم يحتمل هذه الحرارة، لكن المقاتلين احتملوها. أنا فتاة قوية، جلودة، لكنني أعرف أنني في الحرب قادرة على تقديم أكثر ممَّا أقدِّمه في وقت السلم. حتى من الناحية الجسدية. كانت تظهر عندي قوَّة كبيرة لا أعرف مصدرها...

عندما سمعت بالنصر من المذياع، رفعت الحالة إلى درجة الإنذار، وأعطيت أمري الأخير: «الاتِّجاه: خمسة عشر صفر صفر. زاوية الارتفاع: عشرة صفر. جهاز التفجير مئة وعشرون، الوتيرة عشرة!».

اقتربت بنفسي من مكان الإطلاق وبدأت بإطلاق أربع قذائف على شرف نصرنا بعد أربع سنوات من الحرب.

وعلى صوت القذائف ركض جميع من كان في موقع البطَّاريات، وكذلك قائد البطارية سلاتفينسكي. وقد أمر بحجزي على مرأى من الجميع بسبب سلوكي التعسُّفي دون أوامر، لكنه ألغى أمره فيما بعد. وهنا بدأنا جميعاً بإطلاق النار من أسلحتنا الفردية، احتفالاً بالنصر، وتبادلنا العناق والقُبل. وشربنا الفودكا، وأنشدنا الأغاني. بعد ذلك بكينا طيلة الليل والنهار...

كلافديا فاسيليفنا كونوفالوفا، رقيب، قائد سلاح المدفعية المضادَّة للطائرات

عندي على الكتف رشَّاش يدوي... ولا أعترف أبداً بأنه ثقيل. من سيعدُّني رقماً ثانياً؟ مقاتلاً ناقصاً يجب استبداله، يجب إرسالها إلى المطبخ. وهذا معيب. لا قدَّر الله أن أبقى طيلة الحرب في المطبخ. كنت سأبكي كثيراً...

Twitter: @ketab_n

- «وهل كانوا يرسلون النساء في مهمَّات قتالية مثل الرجال»؟

* «كانوا يسعون إلى حمايتنا ووقايتنا من الأخطار. كان من الواجب طلب المهمَّة القتالية أو استحقاقها. إظهار مقدرتكِ. كان لا بدَّ من الجرأة والاستبسال في الطباع من أجل مثل هذا العمل. وهذا بالطبع، لم تكن كل فتاة قادرة عليه. كانت تعمل عندنا في المطبخ فتاة اسمها فاليا. إنها دمثة، ناعمة، خجولة، لا يمكنك أن تتصوَّريها تحمل بندقية. على أية حال، كان يمكنها أن تطلق النار، لكنها لم تكن تسعى إلى الخروج بمهمَّة قتالية. أمَّا أنا؟ أنا كنت أتشوَّق. كنت أطمح وأحلم بالمهمَّة!

أمَّا في المدرسة، فقد كنت فتاة هادئة... غير ملحوظة...

غالينا ياروسلافوفنا دوبوفيك، مقاتلة في اللواء عشرين لفرسان الأنصار المسمَّى باسم ستالين

أمر عسكري: الوصول إلى المكان المحدَّد بعد أربع وعشرين ساعة...

الاتجاه: إلى المستشفى الميداني المتنقل رقم 713...

أذكر أنني وصلت إلى المستشفى العسكري بثوب من القماش الرقيق (ماركيزيت) وصندل نسائي، وكنت أرتدي سترة زوجي المطرية. أعطونا على الفور لباساً عسكرياً، لكنني رفضت استلامه: فكلّه كان أكبر من مقاسي بثلاث أو أربع نُمَر. أبلغوا رئيس المستشفى أنني لا أمتثل للانضباط العسكري، فلم يتَّخذ ضدِّي أية إجراءات، على أمل أنني سأبدِّل ثيابي بنفسي بعد بضعة أيَّام.

بعد بضعة أيَّام، انتقلنا إلى مكان آخر، وقصفونا قصفاً شديداً. اختبأنا في حقل البطاطا، وقبلها كان قد هطل المطر. يمكنكِ أن تتصوَّري كيف أصبح ثوبي الرقيق وصندلي النسائي!

Twitter: @ketab_n

في اليوم التالي ارتديت لباس الجنود، واللباس العسكري الكامل.

هكذا بدأ طريقي الحربي... حتى وصلت إلى ألمانيا نفسها...

في العام الثاني والأربعين، في الأيَّام الأولى من شهر كانون الثاني/ يناير، دخلنا إلى بلدة آفونيفكا في مقاطعة كورسك. كان الصقيع شديداً. وكان بناءان مدرسيان غاصَّين بالجرحى: كانوا يرقدون على الحمَّالات، وعلى الأرض، وعلى القش. لم يكن لدينا ما يكفي من سيَّارات الإسعاف والبنزين لنقلهم إلى المؤخَّرة. اتخذ رئيس المستشفى قراراً بتشكيل عربة خيل من آفونيفكا والبلدات المجاورة. في الصباح وصلت العربة. كان يقود الخيل نساء حصراً. وعلى الزحَّافات الجليدية وضعنا بطَّانيات من النسيج البلدي، وقطعاً من الجوخ، ووسائد، بل وحتى ريشاً في بعضها. حتى الآن لا يمكنني أن أتذكَّر دون دموع كيف كانت هذه المشاهد... اختارت كلُّ امرأة جريحها وأخذت تُجهِّزه للطريق، قائلة بحنان: «يا ابني العزيز!»، «يا حبيبي»، «يا عزيزي!». وأخذت كلُّ امرأة معها قليلاً من المأكولات البيتية، بما فيها البطاطا الساخنة. لقد ألبسن الجرحى ثيابهنَّ المنزلية، ووضعوهنَّ على الزلَّاجات. لا تزال ترنُّ في أذني تلك الصلاة، تلك الأدعية النسائية: «يا حبيبي»، «يا عزيزي الطيِّب...» حتى أن ضميري يؤنِّبني لأنني لم أسأل تلك النسوة عن أسمائهن وكناهن.

كما أذكر أيضاً كيف انطلقنا في بيلاروسيا المحرَّرة، وفي القرى، حيث لم نرَ أيَّ أثر للرجال. كانت النساء وحدهن يستقبلننا. النساء وحدهن بقين...

يلينا إيفانوفنا فاريوخينا، ممرِّضة

صمت الرعب وجمال المخيَّلة

وهل يمكنني العثور على تلك الكلمات؟ يمكنني أن أحدِّثكِ عن كيفية

Twitter: @ketab_n

إطلاقي النار. لكن، لا يمكنني أن أحدِّثك عن بكائي. هذا سيبقى خارج أقوالي. أعرف شيئاً واحداً: في الحرب، يغدو الإنسان رهيباً وغير مفهوم. وكيف يمكننا فهمه؟

أنت كاتبة. اخترعي شيئاً بنفسك. شيئاً جميلاً ما. بدون القمل، بدون الأوحال، بدون القيء... بدون رائحة الفودكا والدم... ليس شيئاً رهيباً كالحياة...

أناستاسيا إيفانوفنا مدفيدكينا، جندية، رامية رشّاش

لا أعرف... لا، أنا أفهم عم تسألين، لكن لغتي لا تكفيني... لساني... كيف أصِف؟ يجب أن يخنقني التشنُّج، كما يخنق نفسي: ليلاً أرقد في السكون وفجأة أتذكَّر. أختنق. تصيبني القشعريرة. هكذا...

أين يمكنني العثور على هذه الكلمات... يلزمني شاعر... مثل دانتي...

آنَّا بتروفنا كالياغينا، رقيب، مرشد طبيٍّ

يحدث أن أسمع موسيقى... أو أغنية... صوتاً نسائياً... وفيها أعثر على ما كنت أحسُّه. على ما يشبهه...

أشاهد أفلاماً سينمائية عن الحرب - غير صحيح، غير صادقة، أقرأ كتاباً - ليست هي الحقيقة. ليست هي... إنها شيء آخر. أبدأ نفسي بالحديث - أيضاً ليس هو. ليس بهذا القدر من الرعب، ولا بهذا القدر من الجمال. أتعرفين، كم يكون الصباح، أحياناً، جميلاً في الحرب؟ قبيل المعركة... أنتِ تنظرين وتعرفين أن هذا الصباح قد يكون صباحكِ الأخير. كم الأرض جميلة! والهواء! والشمس!

أولغا نيكيتشينا زابيلينا، جرّاحة حربية

Twitter: @ketab_n

في الغيتو كنا نعيش خلف الأسلاك الشائكة... حتى أنني أذكر، أن هذا حدث يوم الثلاثاء، لسبب ما، انتبهت فيما بعد إلى أن ذلك اليوم كان يوم الثلاثاء. الثلاثاء، ولا أذكر التاريخ والشهر. لكنه كان يوم الثلاثاء. بالصدفة، اقتربت من النافذة. على المقعد، مقابل بيتنا جلس صبيٌّ وصبية وكانا يتبادلان القُبَل. من حولهما الدمار وإطلاق النار، وهما متعانقان، يتبادلان القبل! لقد هزَّتْني هذه اللوحة السلمية...

من طرف الشارع الأخير، كان شارعنا قصيراً، ظهرت الدورية الألمانية. عناصر الدورية أيضاً رأتهما، فعيونهم مفتوحة. لم أستطع أن أدرك شيئاً... بالطبع، لم ألحق... صراخ. تحطيم. إطلاق نار... وأنا... بدون أيِّ تفكير... الإحساس الأوَّل - الخوف. رأيت فقط أن الصبيَّ والصبية قد وقفا، وها هما يسقطان. سقطا معاً...

ثمَّ مرَّ اليوم الأوَّل، والثاني... والثالث... وأنا أفكِّر في هذا المشهد. علينا أن نفهم، أنهما كانا يتبادلان القبل ليس في البيت بل في الشارع. لماذا؟ أرادا أن يموتا على هذا النحو... كانا يعرفان أنهما سيموتان على أية حال في الغيتو، وأرادا أن يموتا بطريقة أخرى. بالطبع، إنه الحب. وهل هو شيء آخر؟ وأيُّ شيء آخر... إنه الحب.

لقد حدَّثتكِ... حقيقة، لوحة جميلة. أمَّا في الحياة؟ في الحياة كنت أعيش الرعب... نعم... وماذا أيضاً؟ سأفكِّر الآن... إنهما كانا يناضلان... أرادا أن يموتا ميتة جميلة. أنا واثقة، أن هذا كان خيارهما...

لوبوف إدواردوفنا كريسوفا، مقاتلة في تنظيم سرِّي

أنا؟ أنا لا أريد أن أتكلَّم... لكن لا... باختصار... لا يصحُّ الحديث عن هذا...

إيرينا مويسييفنا ليبيتسكايا، جندية رامية مشاة

Twitter: @ketab_n

كانت تجول في المدينة امرأة مجنونة... لم تكن تغتسل أبداً، ولا تسرِّح شعرها. قتلوا أطفالها الخمسة. قتلوا الجميع. وكلَّ واحد قتلوه بطريقة. أطلقوا النار على الأوَّل في الرأس، وعلى الثاني في الأذن...

كانت تقترب من أيِّ إنسان في الشارع... وتقول له: «سأحدِّثك كيف قتلوا جميع أبنائي. من أيٍّ منهم أبدأ؟ مَن فاسينكا... أطلقوا عليه النار في أذنه. أمَّا توليك ففي رأسه... من أيٍّ منهم أبدأ؟».

كان الجميع يهرب منها. لقد كانت مجنونة، ولهذا كانت قادرة على الحديث...

أنطونينا آلبر توفنا فيوتوفيتش، ممرِّضة في قوَّات الأنصار

أذكر شيئاً واحداً... صاحوا: النصر! استمرَّ الصياح طيلة اليوم... النصر! النصر! النصر! لم أصدِّق في البداية، لأننا اعتدنا على أن الحرب هي الحياة. النصر! نحن انتصرنا... نحن كنا سعداء! سعداء!

آنّا ميخائيلوفنا بيريبيولكا، رقيب، ممرِّضة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أيَّتها السيِّدتان! هل تعرفان أن قائد فصيلة الهندسة يعيش شهرين فقط؟!

دائماً أتحدَّث عن شيء واحد... وبطريقة أو بأخرى أعود إليه...

في الغالب الأعمِّ أتحدَّث عن الموت، عن موقفهن من الموت؛ فالموت كان يحوم دوماً من حولهن. كان يحوم على مقربة منهن، وبصورة مألوفة، كالحياة. أحاول أن أفهم، كيف كان من الممكن البقاء على قيد الحياة أمام تجربة الموت هذه التي لا تنتهي؟ يشاهدن هذا يوماً بعد يوم. ويفكِّرن. وبصورة عفوية يقارنَّ، ويقسن على أنفسهن.

هل يمكن الحديث عن هذا؟ ما الذي يمكن التعبير عنه بالكلمات، وبمشاعرنا؟ وما الذي لا يخضع للتفسير؟ يظهر عندي قدر أكبر من الأسئلة، ويصلني قدر أقل من الأجوبة.

أحياناً، أعود إلى بيتي بعد اللقاءات بفكرة أن المعاناة هي الوحدة. العزلة الصمَّاء. ومرَّة أخرى، يبدو لي أن المعاناة هي نوعٌ خاصٌّ من المعرفة. ثمَّة شيء في الحياة الإنسانية من غير الممكن نقله والاحتفاظ به، وبخاصَّة عندنا. هكذا رُتِّب العالم، وهكذا تشكَّلنا نحن.

التقيت مع إحدى بطلات هذا الفصل في قاعة جامعة بيلاروسيا الحكومية. طوى الطلَّاب دفاترهم وأوراقهم بضجَّة وفرح بعد انتهاء

Twitter: @ketab_n

المحاضرة. «هل كنا مثلهم آنذاك؟». ردَّت على سؤالي الأوَّل بسؤال. «نعم، مثلهم، مثل طلَّابي. باستثناء أن الثياب اختلفت وزينة الفتيات كانت أبسط. خواتم حديدية، وأقراط زجاجية. صنادل مطاطية. لم تكن آنذاك بنطلونات الجينز هذه، وهذه المسجِّلات».

نظرت إثر الطلَّاب المستعجلين في الخروج من القاعة، وكان قد بدأ الحديث...

قبل الحرب، أنهيت الجامعة أن وصديقتي، وفي أثناء الحرب، أنهينا مدرسة الهندسة العسكرية. وذهبنا إلى الجبهة برتبة ضابط... ملازم... استقبلونا على النحو التالي: «أحسنتما، أيَّتها الفتاتان! حسناً، أنكما قدمتما، أيَّتها الفتاتان. ولكن، إلى أين سنرسلكما؟ ستبقيان عندنا في الأركان». هكذا استقبلونا في أركان سلاح الهندسة. عندها عدنا، وبدأنا البحث عن قائد الجبهة الجنرال مالينوفسكي. عندما ذهبنا ظهرت إشاعة في البلدة، أن فتاتين تبحثان عن قائد الجبهة. اقترب منا ضابط وقال: «أين وثائقكما الشخصية؟ أظهراها».

بعد أن رأى وثائقنا: «لماذا تبحثان عن قائد الجبهة، عليكما الذهاب إلى أركان سلاح الهندسة».

أجبناه: «عينُّونا قائدين لفصيلتين هندسيتين، ويريدون إبقاءنا في الأركان. ونحن نريد أن نكون قائدتين لفصيلتين هندسيتين، ولكن في خطِّ الجبهة الأوَّل وليس في الأركان».

عندها اقتادنا هذا الضابط ثانية إلى أركان سلاح الهندسة. وتحدَّثوا طويلاً هناك، واجتمع حشد كبير من الناس، وكلٌّ يقدِّم نصيحته، بل وبعضهم كان يضحك. ونحن تشبَّثنا برأينا، وقلنا إن تعييننا هو قائدتان

Twitter: @ketab_n

لفصيلتين هندسيتين، وعلينا أن نكون قائدتين للفصيلتين الهندسيتين. عندها غضب الضابط الذي رافقنا وقال: «أيّتها السيِّدتان! وهل تعرفان كم من العمر يعيش قائد فصيلة الهندسة؟ إن قائد فصيلة الهندسة يعيش شهرين فقط...».

* «نعرف، ولهذا نريد أن نكون في الخطِّ الأوَّل».

لم يبقَ أمامهم شيئاً آخر يفعلونه، فكتبوا لنا وثيقة التعيين: «حسن، إننا نرسلكما إلى الجيش الخامس المتقدِّم، غالباً، تعرفان، أن اسمه يدل عليه. إنه في الخطِّ الأمامي دائماً».

ومهما حاولوا زرع الخوف في نفسينا، فقد كنا مسرورتين: «نحن موافقتان!».

وصلنا إلى أركان الجيش الخامس المتقدِّم. كان يجلس هناك نقيب نبيه مثقَّف. استقبلنا استقبالاً جميلاً، ولكن ما إن سمع أننا عازمتان على أن نكون قائدتي فصيلتين هندسيتين، أمسك رأسه بيديه: «لا، لا! ماذا بكما؟ لنجد لكما عملاً هنا في الأركان. هل أنتما تمزحان؟ هناك رجال فقط، وفجأة قائدهم امرأة - إنه جنون. ماذا بكما، ماذا بكما؟!».

حاولوا معنا طيلة يومين بمختلف الوسائل، وبصورة مباشرة... حاولوا إقناعنا. لكننا لم نتراجع: فقط قائد فصيلة. لم نتراجع عن رأينا ولا خطوة واحدة. لكن هذا ليس كلَّ شيء. أخيراً... أخيراً استلمنا تعييننا. اقتادوني إلى فصيلتي... نظر الجنود إليَّ: واحد نظر باستهزاء، وآخر بحقد حتى، وثالث هزَّ بكتفيه - كلُّ شيء مفهوم على الفور. وعندما قدَّمني قائد الكتيبة: هذا هو قائد فصيلتكم الجديد. صرخ الجميع بصوت واحد: «أُو- أُو- أُو...». حتى أن أحدهم بصق: «تفوه!».

وبعد عام، عندما سلَّموني وسام النجمة الحمراء، رفعني الجنود

Twitter: @ketab_n

أنفسهم - من بقي منهم حيّاً - على الأكتاف في غرفتي تحت الأرض. كانوا فخورين بي.

إذا ما سألتِني: ما هو لون الحرب؟ سأقول لك: إنه لون الأرض. لمقاتل سلاح الهندسة... لون الأرض الأسود، الأصفر، القرميدي...

نسير في منطقة ما... نمضي ليلتنا في الغابة. نشعل النار، النار تشتعل، والجميع يجلس بهدوء، وهناك من غفا. أنا أغفو، ناظرة إلى النار، أنام بعينين مفتوحتين: فراشات ما، ناموس، بعوض تطير فوق النار، تطير حولها طيلة الليل، دون صوت ودون طنين، إنها تختفي في هذه النار الكبيرة. وغيرها تطير في إثرها... ونحن مثلها تماماً. نسير ونسير... نتداول كالتيَّار.

لم أُقتلْ بعد شهرين، بعد شهرين جُرحت. في المرَّة الأولى كان الجرح بسيطاً. ولم أعد أفكِّر في الموت...

ستانيسلافا بتروفنا فولكوفا، ملازم، قائدة فصيلة هندسة

من طفولتي... سأبدأ من طفولتي... وفي الحرب كنت أخاف أن أتذكَّر طفولتي أكثر من أيِّ شيء آخر. الطفولة تحديداً. لا يصحُّ للمرء أن يتذكَّر أرقَّ وألطف شيء في حياته... لا يصحُّ تذكُّر الأشياء اللطيفة... هذا محظور.

إذاً... في طفولتي حلق لي أبي شعري بالكامل، بماكينة الحلاقة، على الصفر. تذكَّرت هذا عندما حلقوا لنا، هنا، وتحوَّلنا فجأة من فتيات صبايا إلى مجنَّدات صغيرات. شعرت بعض الفتيات بالخوف... أمَّا أنا فقد اعتدت بسهولة. طبيعتي وفوضويتي. وليس عبثاً أن والدي كان يتأوَّه قائلاً: «ليست فتاة؛ بل صبياً يكبر عندنا». والذنب كلُّه يقع على شغفي، والذي سبَّب لي الورطات مرَّات عديدة مع أبي وأمِّي. في فصل الشتاء

Twitter: @ketab_n

قفزت من واد شديد الانحدار إلى نهر أوب المغطَّى بالثلوج. بعد عودتي من المدرسة، كنت آخذ بنطلون والدي القطني القديم وألبسه وأربطه من الأسفل بجزمتي. وأرتدي فوقه قميصاً قطنياً سميكاً، وأضع طرفه السفلي داخل البنطلون، وأربط نفسي بحزام بإحكام. وأضع على رأسي قبَّعة الفرو التي تغطِّي الأذنين، وأربط طرفيها تحت ذقني. وبهذا الشكل، أتقدَّم كالدب، وأتوجَّه إلى النهر. فأركض بكامل قوَّتي وأقفز من المنحدر إلى الأسفل...

آه! أيُّ إحساس جميل تعيشينه بينما تطيرين في الفضاء ثمَّ يختفي رأسك تحت الثلج! إنه شعور يأسر الروح! حاولت معي فتيات أخريات، لكن لم يتوفَّقن مثلي: إمَّا أن تنحرف رجلها، أو تضرب أنفها بثلج قاس، أو يحصل معها شيء آخر. أمَّا أنا فقد كنت أكثر مهارة من الصبيان.

لقد تذكَّرت طفولتي... لأنني لا أريد مباشرة الحديث عن الدماء... لكنني أدرك، أن هذا شيء مهم، مهم، بالطبع. أحبُّ قراءة الكتب. أنا أفهم...

وصلنا إلى موسكو في شهر أيلول/ سبتمبر من العام الثاني والأربعين... نقلونا طيلة أسبوع كامل على سكَّة حديدية دائرية حول موسكو. توقَّفنا في محطَّات: كونتسيفو، بيروفو، أوتشاكوفو، وفي كلِّ منها كانت تنزل الفتيات من القافلة. كان يفد "المشترون"، كما يُقال، القادة من مختلف الوحدات العسكرية وصنوف الأسلحة، ويشجِّعوننا على الالتحاق بصفة قنَّاصة، مرشدات صحِّيات، عاملات في سلاح الإشارة... لكن هذا كلَّه لم يكن يغريني. أخيراً لم يبقَ من القافلة سوى ثلاث عشرة فتاة. وضعونا جميعنا في عربة سكَّة حديدية واحدة. كان على السكَّة عربتان فقط؛ عربتنا وعربة الأركان. يومان كاملان ولم يأتِ إلينا أحد. كنا نضحك ونغنِّي: «لقد

Twitter: @ketab_n

نسونا، لقد رمونا». وبحلول نهاية اليوم الثاني، رأينا ثلاثة ضبَّاط يتوجَّهون إلى عربتنا مع قائد القافلة.

جاء "المشترون"! لقد كانوا ضبَّاطاً طويلي القامة، رشيقين، مشدودي الأحزمة، معاطفهم العسكرية أنيقة مناسبة لمقاساتهم، جزماتهم نظيفة، لامعة، مع المهاميز. يا للجمال! لم نرَ مثلهم أبداً. دخلوا إلى عربة الأركان، ونحن وضعنا آذاننا على الجدار لنسترق السمع ونعرف ماذا سيقولون. عرض قائد القافلة قائمة بأسمائنا، وقدَّم توصيفاً موجزاً: الاسم، المنطقة، التعليم. وأخيراً سمعنا: «جميعهن مناسبات».

عندها خرج قائد القافلة من عربته، وأمرنا بالوقوف في الصف. سألونا: «أترغبن في تعلُّم فن الحرب؟». طبعاً، وكيف يمكننا ألا نرغب؟ نرغب، بالطبع. نرغب جدَّاً، ونحلم بذلك! لم تسأل أيُّ فتاة منا: أين وفي أيِّ اختصاص؟ أمر: «الملازم أوَّل ميتروبولسكي. انقل الفتيات إلى المدرسة الحربية». وضعت كلٌّ منا كيسها العسكريَّ على كتفها، واصطففنا اثنتين في كلِّ صف، وقادنا الضابط في شوارع موسكو. محبوبتي موسكو... العاصمة... إنها جميلة حتى في الظروف الصعبة... عاصمتنا... كان الضابط يسير بسرعة، بخطى كبيرة، ولم نكن قادرات على مجاراته. فقط، في أثناء اللقاء في موسكو في الذكرى الثلاثين ليوم النصر، اعترف سيرغي فيودوروفيتش ميتروبولسكي لنا، طلَّاب ضباط مدرسة موسكو للهندسة العسكرية، كيف كان خجولاً من اقتيادنا في موسكو. كان يسعى إلى الابتعاد عنا كيلا يلفت الأنظار إلى هذا القطيع النسائي... نحن لم نكن نعرف هذا، وكنا نحاول اللحاق به رَمَلاً. كنا فتيات جيِّدات، غالباً!

إليكِ الحكاية... منذ الأيَّام الأولى للدراسة أخذت نوبتين، عقوبة، خارج دوري: إمَّا أن القاعة باردة، لا تناسبني، وإمَّا غير ذلك. تعرفين عادات المدرسة. لكنني حصلت على استحقاقي - نوبة حراسة، خارج

Twitter: @ketab_n

الجدول، ثمَّ نوبة أخرى... ثمَّ ثالثة فرابعة. في أثناء الخروج إلى الشارع، لاحظني طلَّاب الضبَّاط وبدأوا يضحكون: من ملاك الموظَّفين الدائمين. إنه أمر مضحك بالنسبة إليهم، أمَّا أنا فلا أحضر الدروس، ولا أنام ليلاً. أقف طيلة النهار أمام باب المدرسة بالقرب من الطاولة، وليلاً أمسح الأرضية الخشبية للثكنة بالمعجون. كيف كان يجري هذا آنذاك؟ سأشرح لكِ الآن... بالتفصيل... إنه ليس كما هو الآن، الآن ثمة فراشٍ متنوِّعة، مسَّاحات للأرضية الخشبية وما شابه ذلك. أمَّا آنذاك... بعد حظر التجوُّل مساءً تخلعين جزمتك، كيلا تلطِّخ الأرضية الخشبية. تلفِّين قدميك بقطع من معطف عسكريٍّ قديم، صانعة ما يشبه الخُفَّ المربوط بالخيط. تدلقين المعجون على الأرضية، تمسحينه بالفرشاة المصنوعة من خيوط الأسمال البالية وليس من خيوط النايلون، ثمَّ تبدئين بتحريك قدميك إلى أن تصبح الأرضية لامعة ومصقولة كالمرآة. هنا، وخلال هذه الليلة، تشبعين رقصاً! رجلاك تطنَّان وتنمِّلان، ظهرك لا تستطيعين تجليسه، العرق يغطِّي عينيكِ. في الصباح، ليست لديك القوَّة لتصرخي للفصيلة: «نـ...هـ...و...ض!». وفي النهار لن تتمكَّني من الجلوس، لأن الحارس يجب أن يبقى واقفاً عند الطاولة. ذات مرَّة حدثت معي حادثة... إنها شيء مضحك... أقف أمام الطاولة، للتوِّ كنت قد انتهيت من تنظيف الثكنة. كنت في حاجة ماسة إلى النوم، لدرجة شعرت أنني الآن سأقع. اتكأت إلى الطاولة وغفوت. فجأة سمعت، كيف أن شخصاً ما يفتح باب البناء، صحوت – وجدت أمامي مناوب الكتيبة. رفعت يدي وقدَّمت التقرير: «الرفيق المساعد، الفصيلة في وضعية الاستراحة». أمَّا هو فنظر إليه بعينيه الاثنتين، ولا يستطيع كتم ضحكته. وهنا حزرت، بما أنني عسراء، وبسبب السرعة فقد رفعت للتحية يدي اليسرى. حاولت استبدالها بسرعة باليد اليمنى، لكن جاءت محاولتي متأخِّرة؛ وعوقبت من جديد...

Twitter: @ketab_n

مضت فترة طويلة، ولم أكن أستوعب أن هذه ليست لعبة ما، وليست مدرسة عادية، بل مدرسة حربية، وتهيئة للحرب. وأن أمر الرئيس هو قانون للمرؤوس.

في الامتحان الأخير حفظت السؤال الأخير: «كم مرَّة في الحياة يخطئ المهندس الحربي؟».

* «المهندس الحربيُّ يخطئ مرَّة واحدة في حياته».

- «نعم، هكذا، أيَّتها الفتاة...».

أمَّا السؤال التالي، فكان عادياً: «أنت حرَّة، أيَّتها الطالب ضابط بايراك».

وها هي الحرب تبدأ. حرب حقيقية...

اقتادوني إلى فصيلتي. أمر عسكري: «الفصيلة، انتباه!»، ولم يفكِّروا في الفصيلة حتى بالوقوف. هناك من يرقد، وهناك من يجلس ويدخِّن، وهناك من يتمطَّى بيديه ويطقطق عظامه: «آخ!». عموماً، تظاهروا أنهم لم يروني. فقد شعروا بالانزعاج من أنهم، وهم الرجال-الاستطلاعيون، الذين شاهدوا كلَّ شيء، عليهم أن يخضعوا لفتاة في العشرين من عمرها. كنت أدرك هذا جيِّداً، واضطررت إلى إعطاء الأمر: «استراحة!».

هنا بدأ إطلاق النار... قفزت إلى الخندق، في معطف عسكريٍّ جديد، واستلقيت؛ ليس إلى الأسفل على الوحل، بل على الجانب، على ثلج لم يذُبْ. هكذا يحدث في سنِّ الشباب - المعطف العسكريُّ أغلى من الحياة. فتاة حمقاء! وبالطبع، جنودي يضحكون مني.

إذاً، ما هو الاستطلاع الهندسيُّ الذي كنا نقوم به؟ ليلاً، قام المقاتلون بحفر حفرة مزدوجة في المنطقة المحايدة. قبيل الفجر، نزلت أنا وقائد إحدى الوحدات في هذه الخلية، وقام المقاتلون بتمويهنا. وهكذا استلقينا طيلة اليوم، خائفين من إثارة أدنى ضجَّة. بعد ساعة أو ساعتين تتجمَّد يداك

Twitter: @ketab_n

ورجلاك، على الرغم من ارتدائك جزمة لبَّادية وسترة دافئة. وبعد أربع ساعات تصبحين كتلة ثلجية متدلِّية. الثلج يتساقط، فتتحوَّلين إلى امرأة ثلجية... هذا شتاءً... في الصيف، كنا نضطر إلى الاستلقاء في الحرِّ أو تحت المطر. طيلة اليوم نراقب كلَّ شيء ونرسم خريطة المراقبة للخطِّ الأمامي: في أية أماكن ظهرت تغيُّرات في القشرة الأرضية. إذا ما اكتشفنا درنات وكتلاً، وثلجاً ملوَّثاً، وأعشاباً مداسة أو قطرات ندى ممسوحة على العشب، فهذا ما هو مطلوب... هدفنا واضح... هناك عناصر هندسة ألمان زرعوا حقولاً من الألغام. وإذا ما أحاطوا المنطقة بأسلاك شائكة، فمن الضروري معرفة طول وعرض هذا الحاجز. وما هي الألغام المستخدمة - ضدَّ المشاة؟ ضد الدبَّابات؟ أم ألغاماً مفاجئة؟ وكنا نحدِّد نقاط العدوِّ النارية...

قبيل هجوم قوَّاتنا كنا نعمل ليلاً. ندرس كلَّ سنتيمتر في المنطقة، ونعمل ممرَّات في حقول الألغام... كنا نزحف دوماً في الأرض... على بطوننا... وأنا، كآمرة فصيلة، كنت أتنقَّل من فصيلة إلى أخرى. و"ألغامي" دائماً أكثر.

لديَّ حوادث وحالات كثيرة... إنها تكفي لفيلم سينمائي... لمسلسل متعدِّد الحلقات.

دعَونا الضبَّاط لتناول طعام الفطور. كنت أوافق أن عناصر سلاح الهندسة لا يحصلون غالباً على الطعام الساخن، وبصورة رئيسة كانوا يأكلون عشب المراعي. عندما جلس الجميع إلى طاولة المطبخ، انتبهت إلى الفرن الروسيِّ المغطَّى بباب صغير. اقتربت وبدأت أتفحَّص هذا الباب. أخذ الضبَّاط يمزحون، وكأن المرأة ترى الألغام حتى في القدر. أجبتهم مازحة، وهنا لاحظت أن في أسفل الفرن، في الجانب الأيسر من الباب، ثمَّة فتحة صغيرة. نظرت بانتباه ورأيت شريطاً رفيعاً جدَّاً يقود إلى

Twitter: @ketab_n

الفرن. التفتُّ إلى الجالسين بسرعة: «البيت ملغَّم، أرجو مغادرة المطبخ». صمت الضبَّاط، ونظروا إليَّ غير مصدِّقين، ومن يرغب في النهوض من على مائدة الطعام. رائحة اللحم تفوح، والبطاطا المشوية... كرَّرت ثانية: «أخلوا البناء بأسرع وقت!». وشرعت مع عناصر الهندسة بالعمل. نزعنا الباب الصغير أوَّلاً. قطعنا الشريط بالمقص... وهناك... هناك كانت عدَّة عبوات سعتها ليتر مغطَّاة بالميناء، ومربوطة بخيط! حلم الجندي! أفضل من الطنجرة. وفي أعماق الفرن صُرَّتان كبيرتان، ملفوفتان بورق أسود. عشرون كيلوغراماً من المتفجِّرات. تلك هي القِدر.

كنا نسير في أرض أوكرانيا، وكانت مقاطعة ستانيسلافسكايا، منطقة إيفان فرانكو حالياً. تلقَّت الفصيلة مهمَّة قتالية: نزع الألغام من معمل السكَّر بأسرع وقت. كلُّ دقيقة كانت غالية: فمن غير المعروف كيف تمَّ تلغيم المعمل، وإذا كانت الألغام مربوطة بساعة زمنية، فالانفجار قد يحدث بين دقيقة وأخرى. ذهبنا إلى بناء المعمل بخطى سريعة. كان الطقس دافئاً، وسرنا بثياب خفيفة. عندما بدأنا نعبر موقع المدفعية المضادَّة للطائرات البعيدة المدى، قفز جنديٌّ من الخندق وصاح: «الجو! طائرة "راما"!». رفعت رأسي وبدأت أبحث في السماء عن طائرة "راما". لم أكتشف أية طائرة. كلُّ شيء هادئ، ولا يسمع أي صوت. أين طائرة "راما"؟ وهنا طلب أحد عناصري أن يخرج من الصف. أنظرُ، إنه يتوجَّه إلى عنصر المدفعية ويصفعه صفعة على وجهه. ولم أستطع أن أفهم شيئاً، حتى صرخ عنصر المدفعية: «أيُّها الشباب عنصرنا يتعرَّض للضرب!». وخرج من الخندق جنود مدفعية آخرون وأحاطوا بعنصر الهندسة. أمَّا عناصر فصيلتي، ودون أن يفكِّروا طويلاً، رموا المجسَّات وأجهزة البحث عن الألغام وأكياسهم، وركضوا لدعم زميلهم. ونشب شجار. ولم أستطع أن أفهم ماذا حدث؟ لماذا أسرعت الفصيلة والتحمت في هذا الشجار؟ أنا أحسب كلَّ دقيقة

Twitter: @ketab_n

تمر، وفجأة حدث هذا الهياج والشجار. أعطي أمراً: «الفصيلة وقوف في الصف!». لا أحد يلتفت إلى أمري. عندها أمسكت بالمسدَّس وأطلقت في الهواء. خرج الضبَّاط من المخبأ بسرعة. وريثما هدأ الجميع، مرَّت فترة زمنية غير قصيرة. اقترب النقيب من فصيلتي وسأل: «من صاحب الرتبة الأكبر هنا؟». فرفعت له تقريري. فاستدارت عيناه، بل وارتبك أيضاً. ثمَّ سأل: «ماذا حدث هنا؟». لم يكن في إمكاني الإجابة لأنني فعلاً لا أعرف السبب. عندها خرج مساعد قائد الفصيلة، وروى له ما حدث. وهكذا عرفت معنى كلمة "راما"، وكم هي مهينة للمرأة. إنها بمعنى "عاهرة". شتيمة منتشرة بين عناصر الجبهة...

أتعرفين... بيننا حديث صريح صادق... لقد سعيت في الحرب إلى ألَّا أفكِّر لا في الحب، ولا في الطفولة. وكذلك في الموت. م...م...م حديثنا صريح... سبق أن قلت لكِ إنه كان لديَّ الكثير من المحظورات كي أبقى على قيد الحياة. وحظرت على نفسي كلَّ ما هو رقيق وحميم وناعم خاصَّة. حتى أنني حظرت على نفسي التفكير فيها. أذكر أنه، ولأوَّل مرَّة، وبمناسبة تحرير مدينة لفوف، أعطونا عدَّة أمسيات حرَّة. وهذا لأوَّل مرَّة خلال الحرب كلِّها... الكتيبة شاهدت فيلماً سينمائياً في دار السينما بالمدينة. في اللحظة الأولى، كان من غير المألوف لنا أن نجلس على مقاعد وثيرة، وأن نرى وضعاً جميلاً، وراحة وهدوءاً. قبل بداية العرض عزفت الأوركسترا مقطوعات موسيقية، وقدَّم الفنانون بعض المشاهد. في الردهة نظَّموا حفلة رقص. كانوا يرقصون رقصة "البولكا" و"كراكوفياك"، ورقصات إسبانية، ثمَّ اختتموا بالرقصات الروسية. تأثَّرت على نحو خاصٍّ بالموسيقى... حتى أنني لم أصدِّق أن إطلاق النار على مقربة منا، وأن علينا أن نعود قريباً إلى الخطِّ الأوَّل. وأن الموت ليس بعيداً عنا.

ولكن بعد يوم، صدر لفصيلتي الأمر بتنظيف الطريق المتقاطع من مكان

Twitter: @ketab_n

التمركز إلى السكَّة الحديدية. فقد تفجرت فيه عدَّة سيَّارات. الألغام... على طول الطريق ذهب عناصر استطلاع الفصيلة مع أجهزة البحث عن الألغام. كانت السماء تمطر رذاذاً بارداً من المطر. وقد تبلَّلنا حتى العظام. وانتفخت جزمتي وأصبحت ثقيلة، وكأن نعلها من الحديد. ربطت أطراف المعطف العسكري بالحزام، كيلا تتعثَّر قدماي بها. كانت تسير أمامي على المقود كلبتي "نيلكا". ما إن تعثر على قذيفة أو لغم، تجلس بالقرب منه، تنتظر، إلى أن يتمَّ انتزاع اللغم. صديقتي الوفية... وها هي "نيلكا" قد جلست... تنتظر وتنبح... وهنا يبلغونني بالتسلسل: «الملازم إلى الجنرال». نظرت أمامي: على طريق ريفي تقف سيَّارة "فيليس". قفزت عبر الخندق، وعلى الماشي نزعت أطراف المعطف من الحزام، وعدَّلت وضع الحزام والقبَّعة. ومع ذلك فقد كان شكلي رثَّاً.

ركضت إلى السيَّارة، فتحت بابها وبدأت تقريري: «الرفيق الجنرال، جئت بناء على أمرك...».

سمعت: «استرح...».

بقيت في وضعية الاستعداد. لم يلتفت الجنرال إليَّ، ومن خلال زجاج السيارة أخذ ينظر إلى الطريق. يشعر بالقلق، وينظر إلى ساعته كثيراً. أنا واقفة. يتوجَّه إلى مراسله: «أين قائد عناصر الهندسة؟».

حاولت تقديم تقرير من جديد: «الرفيق الجنرال...».

أخيراً التفت إليَّ وقال ضجراً: «وأيُّ شيطان جاء بك؟! أنا لم أطلبك».

أدركت كلَّ شيء وكدت أن أضحك. عندها كان المراسل أوَّل من فطن: «الرفيق الجنرال، ربَّما هي قائد عناصر الهندسة؟».

حدَّق الجنرال فيَّ: «من أنت؟».

* «قائد فصيلة الهندسة، أيُّها الرفيق الجنرال».

Twitter: @ketab_n

- «أنتِ! قائد فصيلة؟». قال ممتعضاً.

* «أجل، تماماً، أيُّها الرفيق الجنرال!».

- «وهؤلاء عناصرك يعملون؟».

* «أجل، تماماً، أيُّها الرفيق الجنرال!».

- «كفى تكراراً: جنرال، جنرال...».

خرج من السيَّارة، سار عدَّة خطوات إلى الأمام، ثمَّ عاد إليَّ. وقف، قاسني بعينيه. وقال لمراسله: «هل رأيت؟».

ثمَّ سألني: «كم عمركِ، أيُّها الملازم؟».

* «عشرون سنة، أيُّها الرفيق الجنرال».

- «من أين أنتِ؟».

* «من سيبيريا».

ثمَّ سألني طويلاً عدَّة أسئلة، واقترح عليَّ الانتقال إلى وحدتهم المدرَّعة. وامتعض لأنني كنت في هذا الشكل الرث: فهو لم يكن يسمح بهذا. يحتاج حاجة ماسَّة إلى عناصر الهندسة. ثمَّ اقتادني جانباً وأشار إلى الغابة، قائلاً: «هنا تقف آلياتي. أريد أن أمرِّرها على هذا الخطِّ الحديدي. لقد انتزعت القضبان والعوارض الحديدية، لكن الطريق قد يكون ملغَّماً. قدِّمي خدمة لعناصر الدبَّابات وتأكَّدي من الطريق. التحرُّك إلى الخطِّ الأوَّل من هنا أنسب وأقرب. أتعرفين ماذا تعني الضربة المفاجئة؟».

* «أعرف، أيُّها الرفيق الجنرال».

- «كوني بصحَّة، أيُّها الملازم. عيشي بالتأكيد حتى النصر. لقد بات قريباً، أتفهمين؟».

بالفعل، تبيَّن أن الخطَّ الحديدي كان ملغَّماً. وقد تأكَّدنا من ذلك.

كلُّ واحد كان يريد أن يعيش حتى النصر ليراه...

Twitter: @ketab_n

في تشرين الأوَّل/ أكتوبر من العام الرابع والأربعين، دخلت كتيبتنا، بقوامها الوحدة 210 المستقلَّة لنزع الألغام، مع الجبهة الأوكرانية الرابعة، إلى أراضي تشيكوسلوفاكيا. كانوا يستقبلوننا بسرور في كلِّ مكان. ويرمون الأزهار، والفواكه، وعلب الدخان... ونشروا السجَّاد على الأرصفة... وقد أثار ضجَّة كبيرة أنني فتاة تقود فصيلة من الرجال، وبخاَّصة عناصر الهندسة ونزع الألغام. كنت أقصُّ شعري كالفتيان، وأرتدي البنطال والسترة القصيرة، وعاداتي أصبحت رجولية، باختصار، كنت شبيهة بالمراهق. أحياناً، كنت أذهب إلى القرية على الحصان، هنا يصعب جدَّاً تحديد من هو هذا الفارس، لكن النساء بحدسهن، عرفن من أنا وأخذن ينظرن إليَّ. الحدس النسائي... كان مضحكاً... كان رائعاً! كنت آتي إلى الشقَّة، حيث عليَّ أن أنزل، وهنا أدرك أصحاب الشقَّة أن جليسهم المستأجر ضابط، لكنه ليس رجلاً. من الدهشة والاستغراب، كثيرون كانوا يقفون أمامي بأفواه مفتوحة... سينما صامتة! لكن هذا... آه... كان يروقني جدَّاً. كان يروقني أن أدهش الآخرين على هذا النحو. كذلك كنت في بولونيا. أذكر، في إحدى القرى امرأة عجوز مسحت على شعري وداعبته. لقد حدست: «ضابط – فتاة؟». اندهشت وقالت إنها تشفق عليَّ "هذه الصبية الشابَّة".

أمَّا الألغام، ففي كلِّ خطوة. كانت كثيرة جدَّاً. ذات مرَّة دخلنا إلى بيت. أحد العناصر لاحظ جزمة من جلد الكروم، موضوعة إلى جانب الخزانة. لقد مدَّ يده من أجل أخذها. صحت به: «لا تلمس!». وعندما اقتربت وأخذت أتفحَّص، اتضح أن الجزمة ملغومة. عثرنا على أشياء كثيرة ملغمة: كنبات، صوان للثياب، بوفيهات، دمى، ثريَّات... كان الفلاَّحون يرجوننا نزع الألغام من أكوام البندورة والبطاطا والملفوف. ومن أجل تذوُّق مربَّى الزلابية، اضطُرَّت الفصيلة في إحدى القرى إلى نزع الألغام من حقل القمح، والدرَّاسات من أجل درس الحنطة...

Twitter: @ketab_n

هكذا إذاً... اجتزت تشيكوسلوفاكيا، وبولونيا، وهنغاريا، ورومانيا، وألمانيا... ولكن لم يبقَ إلا القليل من الانطباعات في الذاكرة. بصورة رئيسة، أتذكَّر الصور الفوتوغرافية لتضاريس المنطقة. الصخور... الحشائش والأعشاب العالية... إمَّا أنها كانت فعلاً عالية، أو هكذا بدا لنا، لأنه كان من الصعوبة بمكان الانتقال والعمل بالمجسَّات وأجهزة البحث عن الألغام. الأعشاب ليست طرية طازجة بل قديمة، وأكواب "رعاة الحمام" البرِّية أعلى من الشجيرات... كما أتذكَّر كثيراً من الينابيع والوديان، وأحراش الغابات، والحقول الكبيرة المسوَّرة بالأسلاك الشائكة والقلائد المتعفِّنة. حقول الألغام التي نما فيها العشب، وأحواض الزهور المهملة، دائماً كانت تتواجد فيها الألغام. كان الألمان يحبُّون أحواض الأزهار. ذات مرَّة، في الحقل المجاور، كنا نحفر الأرض بالرفش بحثاً عن البطاطا، وعلى مقربة منه أخرجنا الألغام...

في رومانيا، في مدينة ديج، نزلت عند سيِّدة رومانية تتحدَّث اللغة الروسية بطلاقة. وقد تبيَّن أن جدَّتها روسية. كان لدى هذه المرأة ثلاثة أطفال. وزوجها استُشهد على الجبهة، في فرقة تطوُّعية رومانية. لكنها كانت تحبُّ الضحك والمرح. ذات أمسية، دعتني إلى أن أذهب معها للرقص، وعرضت عليَّ أثوابها. كان الإغراء كبيراً. ارتديت البنطال، والسترة وجزمة جلد الكروم، وفوق هذا كلِّه الثوب الشعبيَّ الروماني: وكان طويلاً، يتألَّف من قميص قماشيٍّ وتنُّورة ضيِّقة صوفية، وعلى الخصر يحيط بها شال أسود اللون. وعلى الرأس شال زهري اللون مع شرَّابات كبيرة. ويمكنني إضافة أنه وبسبب تسلُّقي الجبال وزحفي عليها، اكتسبت سمرة وصلت إلى درجة السواد، فقط على الصدغ كانت تظهر تجعيدات الشعر الأبيض، حتى أن جلد أنفي تقشَّر، بحيث كان من المستحيل تمييزي عن امرأة رومانية حقيقية، عن فتاة رومانية.

Twitter: @ketab_n

لم يكن هناك نادٍ في المدينة، وكانت تجتمع الشبيبة في بيت أحدهم. عندما ذهبنا إلى المكان كانت الموسيقى تعزف، وكانوا يرقصون. رأيت تقريباً جميع ضبَّاط كتيبتنا. في البداية خفت أن يعرفوني ويفضحوني، لهذا جلست بعيداً في الزاوية، دون لفت الأنظار إلى نفسي، حتى أنني كنت أغطِّي وجهي بوشاح، على الأقل كيلا يراني الجميع... أراقب عن بعد... ولكن بعد أن دعاني للرقص عدَّة مرات أحد ضبَّاطنا، وعرفني بشفتيَّ المحمرَّتين، وحاجبيَّ المرسومين، شعرت بالضحك والمرح. سررت من أعماق قلبي... أعجبني عندما يقولون عني إنني جميلة. سمعت عبارات المديح... رقصت ورقصت طويلاً...

انتهت الحرب، وبقينا بعدها عاماً كاملاً ننزع الألغام من الحقول، والبحيرات، والأنهار. في أثناء الحرب كنا نرمي كلَّ الألغام التي نعثر عليها في الماء، كان المرور هو المهم، والوصول إلى الهدف في الوقت المناسب. أمَّا الآن، فعلينا التفكير في شيء آخر، علينا التفكير في الحياة... لم تنتهِ الحرب بالنسبة إلى عناصر الهندسة إلا بعد انتهاء الحرب بعدَّة سنوات. لقد حاربوا مدَّة أطول من الجميع. وما يعني انتظار الانفجار بعد النصر؟ انتظار هذه اللحظة... الموت بعد النصر هو الموت الأشد رهبة. إنه موت مزدوج.

إليك البقية... هدية لي بمناسبة العام الجديد السادس والأربعين، قدَّموا لي عشرة أمتار من قماش الساتان الأحمر. ضحكت: «ولماذا هذا القماش لي؟ وهل بعد التسريح سأخيط لنفسي ثوباً أحمر؟ ثوب النصر». وكأنني كنت أقرأ في الماء... سرعان ما وصل الأمر بتسريحي... وكالعادة، نُظِّمت لي حفلة وداع كبيرة في كتيبتي. في أمسية الوداع، أهداني الضبَّاط شالاً كبيراً أزرق اللون، بقُطَب ناعمة. وكان عليَّ أن أسدِّد قيمته بأغنية عن الشال الأزرق. وغنَّيت لهم طيلة الأمسية.

Twitter: @ketab_n

وفي القطار، في أثناء العودة، ارتفعت حرارتي. وورم وجهي، حتى أنني لم أعد أستطيع فتح فمي. لقد نما لدي ضرس العقل... وأنا عائدة من الحرب...

أنّولينا نيقولايفنا لوتسكيفيتش -بايراك،
ملازم قائد فصيلة هندسة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

دعني ألقِ نظرة واحدة...

أمَّا الآن فثمَّة حديث عن الحب...

الحبُّ هو الحدث الشخصيُّ الوحيد للإنسان في الحرب. وكلُّ ما عداه، أحداث مشتركة، حتى الموت.

ما الذي شكَّل مفاجأة بالنسبة إليَّ؟ الذي فاجأني أنهم كنَّ يتحدَّثن عن الحبِّ بصراحة أقل من حديثهن عن الموت. دائماً، كن لا يثبتن شيئاً، وكأنهن يدافعن عن أنفسهن. في كلِّ مرَّة كنَّ يتوقَّفن عند سمة معينة، ويحرسنها بيقظة. كان ثمة توافق سري بيننا – أبعد من ذلك ممنوع. تُسدل الستارة. عن أيِّ شيء كن يدافعن؟ عن إهانات ما بعد الحرب وافتراءاتها. فقد عانين الأمرين! فبعد الحرب كان عندهن حرب أخرى، لا تقل رهبة عن تلك التي عدن منها. وإذا ما قررت إحداهن أن تكون صادقة حتى النهاية، وانطلق منها اعتراف يائس، فإنها تتبعه برجاء أخير في النهاية: «يمكنك تغيير كنيتي»، أو «في عصرنا هذا ليس من المتعارف عليه الحديث عن هذا بصورة علنية... إنه غير مقبول». وكنت قد سمعت أكثر من ذلك عن الرومانسي والتراجيدي.

بالطبع، هذه لم تكن الحياة كلَّها، ولا الحقيقة كلَّها. لكنها حقيقتهن. وكما اعترف بصدق أحد كتَّاب جيل الحرب: «عليك اللعنة أيَّتها الحرب،

Twitter: @ketab_n

أروع ساعة من عمرنا!». إن هذه هي كلمة السر، وهي مقطع محفور في حياتهن...

المرأة الشيطانة وأزهار أيّار/ مايو

الحرب صادرت حبِّي مني... حبِّي الوحيد...

المدينة تُقصف، ركضت لعندي أختي نينا، تودِّعنا. وكنا نظن أننا لن يرَ أحدنا الآخر. قالت لي: «سأذهب إلى المخافر الطبِّية، ولكن أين يمكنني العثور عليهم؟». وأذكر: أنظر إليها، وكان الطقس صيفاً، وقد ارتدت ثوباً خفيفاً، وأرى عندها على الكتف الأيسر، بالقرب من الرقبة، شامة مميَّزة. إنها شقيقتي، وأنا للمرَّة الأولى أرى شامتها. نظرت وفكَّرت في نفسي: «سأتعرَّف عليكِ أينما كنتِ».

تلك العاطفة القوية... ذلك الحب... إن القلب لينقبض...

من منسك نزح الجميع. كانوا يطلقون النار على الطرقات، فساروا في الغابات. في مكان ما تصرخ فتاة: «ماما، الحرب». وحدتنا تراجعت. نسير في حقل شاسع عريض، أزهار الجودار، وعلى الطريق كانت هناك عزبة ريفية واطئة. وصلنا إلى سمولنشينا... قرب الطريق كانت تقف امرأة، وقد بدا أن هذه المرأة أعلى من كوخها الصغير. كانت ترتدي ثوباً كتَّانياً، مزيَّناً بالنقوش الروسية الوطنية. كانت قد صالبت يديها على صدرها وتنحني للجنود المارِّين، وتقول: «فليعدكم الربُّ إلى بيوتكم!». أتعرفين، كانت تنحني لكلِّ واحد وتقول له هذه العبارة. كانت الدموع تذرف من أعين الجميع...

كنت أتذكَّرها طيلة الحرب... وثمَّة حادثة أخرى، حدثت في ألمانيا، عندما طردنا الألمان إلى الوراء، إلى أراضيهم. بلدة من البلدات

Twitter: @ketab_n

الألمانية... جلست على الطريق ألمانيتان بقبَّعتيهما النسائيتين الخفيفتين، وكانتا تشربان القهوة. وكأنه لم تكن هناك أية حرب... فكَّرت في نفسي: «يا إلهي، عندنا الأنقاض. عندنا الناس يعيشون على الأرض بكلِّ معنى الكلمة، يأكلون الحشائش والأعشاب، وأنتما تجلسان وتشربان القهوة». تسير سيَّاراتنا على مقربة منهما، محمَّلة بالجنود... وهما تشربان القهوة...

ثمَّ انطلقت فوق أراضينا... وماذا رأيت؟ بدلاً من القرية لم يبقَ سوى فرن روسي منزلي. يجلس رجل مُسنٌّ، ووراءه يجلس ثلاثة أحفاد، يبدو أنه فقد ابنه وكنَّته. يجمع الشيخ الجمرات لإشعال الفرن. علَّق معطف إلفرو، هذا يعني أنهم جاؤوا من الغابة. وفي الفرن لا يغلي أي طعام.

يا لها من عاطفة قوية! يا له من حبٍّ قوي!

توقَّف قطارنا. لا أذكر ما الذي حدث - إمَّا تصليح خطِّ السكَّة الحديدية، أو تبديل المحرِّك البخاري. أجلس مع ممرِّضة، وعلى مقربة منا اثنان من جنودنا يغلون العصيدة. اقترب منا، لا أدري من أين، أسيران ألمانيان، وطلبا طعاماً. وكان عندنا خبز. أخذنا رغيفاً وقسمناه بالمنتصف، وأعطيناه لهما. أمَّا الجنديان اللذان كانا يغليان العصيدة، فقد سمعتهما يقولان: «انظرْ، كم أعطت الطبيبتان من الخبز لعدوِّنا!»؟

وقالا ما شابه ذلك، مثل: وهل تعرفان الحرب الحقيقية؟ كانتا جالستين في المستشفى العسكري، ومن أين لهما أن تعرفا...

بعد فترة قصيرة، اقترب أسرى ألمان آخرون، ولكن هذه المرَّة نحو الجنديين اللذين كانا يغليان العصيدة. وهذا الجنديُّ الذي كان يعاتبنا من فترة قصيرة، قال لألماني أسير: «هل جعت؟ تريد أن تأكل؟».

أمَّا الأسير فكان يقف... وينتظر. قدَّم الجندي الثاني رغيفاً من الخبز لرفيقه وقال له: «حسناً، اقطع له قطعة».

Twitter: @ketab_n

قطع الجندي له قطعة من الرغيف. أخذ الألمان الخبز وبقوا واقفين، فهم يرون أن العصيدة تغلي.

- «حسناً، أعطِهم من العصيدة». قال جندي.

* «لكنها غير جاهزة بعد».

هل سمعتم؟

والألمان، وكأنهم يفهمون اللغة الروسية، يقفون. ينتظرون. وضع الجنود قطعة من الدهن في العصيدة، وأعطوا للألمان العصيدة بعلب السردين.

تلك هي روح الجندي الروسي. لقد أدانونا، وهما بنفسيهما قدَّما الخبز للألمان، كما قدَّما العصيدة بعد أن استوت، وبعد وضع قطعة الدهن فيها. هذا ما أذكره...

وأشعر بعاطفة مرهفة جدّاً... قويّة جدّاً...

الحرب انتهت منذ مدَّة طويلة... بدأت التحضير للذهاب إلى المنتجع... حدث هذا في أثناء أزمة الكاريبي. من جديد أصبح العالم في خطر. كلُّ شيء كان مضطرباً. أقوم بتهيئة حقيبة السفر، أخذت معي فساتيني، ووضعت البلوزات، يبدو وكأنني لم أنسَ شيئاً؟ أخذت حقيبتي الصغيرة الخاصة بالوثائق، وأخذت منها بطاقتي العسكرية وأنا أفكِّر: «إذا ما حدث شيء، فسأذهب فوراً إلى إدارة التجنيد».

وها أنا في المنتجع، على البحر، أستجمُّ، وحدَّثت أحدهم على طاولة الطعام في المطعم، أنني عندما سافرت إلى المنتجع، أخذت معي بطاقتي العسكرية. هذا ما قلته، دون أيِّ تفكير أو رغبة في البروز. فقال رجل جالس على طاولتنا، منفعلاً: «لا أبداً، إنها المرأة الروسية وحدها عندما تغادر إلى المنتجع، تأخذ معها بطاقتها العسكرية».

Twitter: @ketab_n

أذكر حماسته وابتهاجه، وإعجابه. نظر إليَّ زوجي نظرة. بهذه النظرة...

اعذريني على كلمتي الطويلة... أنا لا أعرف تنميق الكلام بالترتيب. الفكرة تقفز مباشرة على رأس لساني، العواطف تقفز...

أنا التحقت بالجبهة مع زوجي. كنا معاً نحن الاثنان.

لقد نسيت الكثير. مع أنني أتذكَّر كلَّ يوم...

انتهت المعركة... لم نصدِّق هذا الهدوء. لمس زوجي العشب بيده، كان العشب رطباً... ونظر إليَّ. نظر إليَّ بتلك العينين...

ذهبت مجموعة منهم بمهمَّة استطلاعية. انتظرناهم يومين... يومين كاملين لم أنم خلالهما... أغفو. أستيقظ لأنه يجلس على مقربة منا وينظر إليَّ. «استلقِ ونمْ».

- «أشفق على نفسي من النوم».

تلك العاطفة المرهفة... وهذا الحب... القلب يتمزَّق...

لقد نسيت الكثير. تقريباً كلُّ شيء نسيته. وكنت أظن، أنني لن أنسى. لن أنسى بأي حال.

كنا قد بدأنا السير عبر بروسيا الشرقية، وكان الجميع يتحدَّث عن النصر. لقد استشهد... استشهد في لحظة واحدة... من شظية... موت فوري خلال لحظة، ثانية واحدة. قيل لي إنهم جلبوه، أسرعت... عانقته... لم أسمح لهم بأخذه. بدفنه.

في الحرب كانوا يدفنون القتلى بسرعة: فإذا ما استشهد في النهار، وكانت المعركة كبيرة، يجمعون جميع القتلى، ويربطونهم من جميع الجهات ويحفرون حفرة كبيرة، ويرمون التراب فوقها في قبر جماعي. وفي بعض المرَّات يضعون فوقهم رملاً جافاً لوحده. وإذا ما نظرتِ طويلاً إلى هذا الرمل، فسيبدو لك أنه يتحرَّك، ويضطرب. إن هذا الرمل يترنَّح.

Twitter: @ketab_n

لأن هناك... بالنسبة إليَّ، هناك أحياء، منذ فترة قصيرة كانوا أحياء... إنني أراهم، وأتحادث معهم... لا أصدِّق... كلُّنا نسير ولا نصدق أنهم هناك... أين؟

لم أسمح لهم بدفنه هناك. أردت أن يبقى عندنا ليلة أخرى معاً. أن أجلس بالقرب منه. أنظر إليه... أتأمَّله...

صباحاً... قرَّرت أن أنقله إلى بيتنا في بيلاروسيا. وهي تبعد عدة آلاف من الكيلومترات. الطرق عسكرية... الفوضى... ظنَّ الجميع أنني بسبب هول الكارثة فقدت عقلي. «عليك أن تهدئي، عليك أن تنامي».

لا! لا! توجَّهت من جنرال إلى آخر، حتى وصلت إلى قائد جبهة روكوسوفسكي. في البداية، رفض... امرأة غير طبيعية! كم دفن من الشهداء في المقابر الجماعية! راقدين على أرض غريبة...

وطلبت مقابلته للمرة الثانية: «أتريد؟ سأركع أمامك على ركبي!».

* «إنني أفهمك... لكنه ميت الآن...».

- «ليس لديَّ أطفال منه. وبيتنا احترق. حتى صورنا الفوتوغرافية فُقدت. لا أثر منه. فإذا ما نقلته إلى الوطن، فسيبقى القبر على الأقل. وسيكون لديَّ مكان أعود إليه بعد الحرب».

لاذ الجنرال بالصمت. أخذ يسير في مكتبه جيئة وذهاباً. يسير.

- «أيُّها الرفيق المارشال: هل أحببت يوماً؟ إنني لا أدفن زوجي، أنا أدفن حبِّي».

يلوذ بالصمت.

- «في هذه الحالة، أنا أيضاً أريد أن أموت هنا. علام أعيش بدونه؟».

لاذ بالصمت طويلاً. ثمَّ اقترب مني وقبَّل يدي.

Twitter: @ketab_n

أعطوني طائرة خاصة لليلة واحدة. دخلت إلى الطائرة... عانقت الجثَّة... وفقدت وعيي...

يفروسينيا غريغوريفنا بريوس، نقيب، طبيبة

فرقت بيننا الحرب... زوجي في الجبهة. أنا، نزحت أوَّلاً إلى خاركوف، ومن ثمَّ إلى تاتاريا. حصلت على عمل هناك. ذات يوم، بدأوا يبحثون عني. كانت كنيتي قبل الزواج ليسوفسكايا. أخذ الجميع ينادي: «سوفسكايا! سوفسكايا!». فأجبت: «أنا!». قيل لي: «اذهبي إلى مفوضية الشؤون الداخلية، خذي إذن مرور، وتوجَّهي إلى موسكو». لماذا؟ لم يشرح لي أحد شيئاً، وأنا لم أعرف... الوقت حرب... في أثناء توجهي إلى موسكو، كنت أفكِّر في أن زوجي جريح ربَّما، ربَّما يستدعونني إليه. وكانت قد مضت أربعة أشهر لم أستلم منه أي خبر. وكانَ لديَّ قصد بأنني إذا وجدته بدون يَدين، بدون رِجلين، مقعداً، سآخذه وأتوجَّه معه إلى بيتنا. وسنعيش كيفما اتفق.

أصل إلى موسكو، أتوجَّه إلى العنوان المطلوب، وجدت لوحة كُتب عليها "اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البيلاروسي"، أي حكومتنا البيلاروسية، وقد اجتمع مثلي حشد كبير. نحاول أن نستفهم: «ماذا؟ لماذا؟ علام جمعونا؟»، فيقال: «ستعلمون كلَّ شيء». جمعونا جميعاً في قاعة كبيرة: جلس فيها على المنصَّة أميننا العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي البيلاروسي، الرفيق بونومارينكو والقادة الآخرون. سألوني: «هل تريدين العودة من حيث أتيت إلى موطنك؟». أنا جئت من بيلاروسيا، بالطبع، أريد العودة. وجَّهوني إلى مدرسة خاصة. يشرعون بإعداد كوادر من أجل إرسالها إلى مؤخَّرة العدو.

Twitter: @ketab_n

اليوم انتهينا من الدراسة، وفي صباح اليوم التالي أجلسونا في سيَّارة توجَّهت بنا إلى خطِّ الجبهة. ثمَّ سرنا سيراً على الأقدام. لم أكن أعرف ما هي الجبهة، وما هي المنطقة المحايدة. الأمر العسكري: «استعداد! الجاهزية-رقم واحد». «باخ!». أطلقوا الصواريخ. الثلج، أرى الثلج شديد البياض، وهنا شريط من الناس الزاحفين... هؤلاء كنا نحن، واحداً إثر الآخر. كان عددنا كبيراً. انطفأ الصاروخ، ليس هناك أي إطلاق. أمر عسكري جديد: «ركضاً!»، وركضنا. وهكذا عبرنا...

إلى فصيلي، فصيل الأنصار وصلتني بأعجوبة رسالة من زوجي. كم كان سروري عظيماً، بهذه المفاجأة، عامين كاملين لم أعرف عنه شيئاً. وفجأة - طائرة رمت بالمواد الغذائية لنا، وبالمعدَّات والذخيرة... وبالبريد. وفي هذا البريد، في هذا الكيس القماشي رسالة لي. وعندها توجَّهت بخطاب مكتوب إلى اللجنة المركزية. كتبت فيها سأعمل كلَّ شيء، شريطة أن أكون مع زوجي. وهذه الرسالة سلَّمتها للطيَّار، دون علم قائد فصيلنا. وسرعان ما علمت بخبر جديد: وصلنا عن طريق اللاسلكي - بعد تنفيذ مهمَّتنا القتالية ينتظرون مجموعتنا، كلَّ مجموعتنا الخاصَّة في موسكو. سيرسلوننا إلى موقع آخر... على الجميع الطيران، وفيدوسنكو بصورة إلزامية.

ننتظر الطائرة، الوقت ليلاً، والظلام دامس، كما لو أننا في برميل. ثمَّ بدأت تدور طائرة ما من فوقنا، وبعد ذلك وَجَّهت نحونا سيلاً من القنابل. لقد كانت طائرة "مستر شميت"، فالألمان تابعونا وعرفوا موقفنا، وذهبت الطائرة لتقوم بدورة أخرى. وفي هذا الوقت تماماً تهبط طائرتنا "واي-11"، وبالتحديد تحت شجرة عيد الميلاد، حيث كنت أقف على مقربة منها. ما إن حطَّت الطائرة على الأرض حتى بدأ على الفور بالإقلاع، لأنه رأى أن الطائرة الألمانية ستقوم بدورة، ثمَّ تعود لاستئناف إطلاق النار. أمسكت

Twitter: @ketab_n

بجناح الطائرة صارخة: «يلزمني الذهاب إلى موسكو! لدي موافقة!». شتم قائلاً: «اصعدي!». وهكذا طرت معه؛ نحن الاثنان. لم يكن هناك من الجرحى أحد...

في شهر أيّار/ مايو بموسكو، كنت أسير في الجزمة اللبّادية. حتى أنني حضرت إلى المسرح بالجزمة اللبّادية... وكانت رائعة. كتبت لزوجي: كيف سنلتقي؟ أنا ما زلت في الاحتياط... لكنهم وعدوني... فقد طلبت ورجوت: أرسلوني إلى الموقع الذي يخدم فيه زوجي، أعطوني على الأقل يومين كي ألقي عليه نظرة، ثمَّ سأعود، ووجِّهوني إلى الوجهة التي تريدونها. الجميع يهزُّون بأكتافهم. ومع ذلك قرَّرت أن أعرف، من خلال رقم الصندوق البريدي، أين يحارب زوجي، وسأذهب إليه. ذهبت أوَّلاً إلى اللجنة المنطقية للحزب، وقدمت لهم عنوان زوجي، ووثائقي باعتباري زوجته، وقلت أريد أن ألتقي به. أجابوني: هذا مستحيل، إنه في طليعة الخطِّ الأوَّل، عودي من حيث أتيت. وأنا كنت منهكة، وجائعة، وعليَّ أن أعود من حيث أتيت؟ ذهبت إلى الآمر العسكري. نظر إليَّ وأمر بإعطائي شيئاً من الملابس. أعطوني سترة عسكرية، وحزاماً لربطها. وبدأ بمحاولة إقناعي: «ماذا تقولين؟ هذا على درجة كبيرة من الخطر، أين زوجك؟».

أجلس وأبكي، وعندها أشفق عليَّ، وأعطاني إذناً بدخول الموقع. وقال: «تخرجين من هنا إلى الطريق العام. هناك سيكون منظِّم الحركة، وهو سيدلُّك على طريق الوصول إليه».

عثرت على الطريق العام، عثرت على منظِّم الحركة. أجلسني في سيَّارة، وأنا أتوجَّه إلى الموقع. وصلت بي السيارة إلى الوحدة، فاستغرب الجميع هناك، والجميع من حولي عسكريون، سألوني: «من أنتِ؟». لا يمكنني القول أنني زوجته، وكيف تقولين هذه الكلمة، والقنابل تقصف

Twitter: @ketab_n

من حولنا... أجبت: أخته. حتى أنني لا أدري، لماذا أجبت بأخته. فقيل لي: «انتظري، عليك السير إلى هناك ستَّة كيلومترات». كيف سأنتظر بعد أن قطعت هذه المسافة الكبيرة البعيدة؟ ومن حسن الحظ، في تلك اللحظة، جاءت سيَّارة من هناك من أجل جلب طعام الغداء. وكان في السيَّارة مساعد أحمر الشعر ووجهه ذو نمش. فقال: «آه، أنا أعرف فيودوسينكو. لكنه في الخندق نفسه».

رجوته. أجلسني في السيَّارة... لا وجود لأي شيء...غابة... طريق في الغابة... هذه كانت مفاجأة بالنسبة إليَّ: الخطُّ الأوَّل ولا وجود لأيِّ إنسان. نادراً ما يحدث إطلاق نار. وصلنا. يسأل المساعد: «أين فيدوسنكو؟».

أجابوه: «البارحة ذهبوا في مهمَّة استطلاعية، وطلع النهار، إنهم ينتظرون هناك حلول المساء».

ولكن ثمَّة لاسلكي. وقالوا له باللاسلكي: إن أختك وصلت لعندك. أية أخت؟ قيل له "شقراء حمراء". في حين أن أخته سمراء. ولكن بما أنها حمراء، فقد عرف على الفور "أخته" هذه. لا أدري من أين أتى، لكن فيدوسينكو زوجي سرعان ما ظهر، وكان لقاءً كبيراً، وكانت فرحة كبيرة...

بقيت عنده يوماً واحداً، في اليوم التالي، اتخذت قراري: «اذهب إلى الأركان وارفع تقريراً. أنا سأبقى معك هنا».

ذهب إلى القيادة، وأنا غير قادرة على التنفُّس: فماذا لو قالوا إن عليها المغادرة خلال أربع وعشرين ساعة؟ إنها جبهة، وهذا مفهوم. وفجأت رأيت القيادة: ضابطان برتبة مقدَّم وعقيد يتَّجهان إلى الملجأ. وكلٌّ منهما صافحني بيدي. ثمَّ بعد ذلك، وبما أننا في الملجأ، فقد شربنا قليلاً، وكلٌّ منهما قال كلمته، وأن هذه الزوجة التي عثرت على زوجها في الخندق هي زوجة حقيقية. ووثائقها معها. إنها امرأة حقيقية. اسمحوا لي بالنظر

Twitter: @ketab_n

إلى هذه المرأة! عبَّرا عمَّا في نفسيهما بهذه الكلمات، واستسلم الجميع للبكاء. إن تلك الأمسية أتذكَّرها طيلة حياتي... وماذا بقي لديَّ أيضاً؟

تم تعييني مرشدة صحِّية. كنت أذهب معه في العمليات الاستطلاعية. أطلق مدفع الهاون قذيفته، أرى أنه سقط. أفكِّر: قتيلاً أم جريحاً؟ أركض إلى هناك، والهاون يقذف، والقائد يصرخ: «أين تذهبين، أيَّتها المرأة الشيطانية؟!»

سأزحف نحوه. إنه حي... حي!

بالقرب من نهر الدنيبر، وفي أمسية بضوء القمر، سلَّموني ميدالية الراية الحمراء. وفي اليوم التالي، جُرح زوجي. كنا نسير معاً في مستنقع، ونزحف معاً. كانت الرشاشات تطلق النيران، ونحن نزحف دون توقُّف. جرح في أعلى قدمه. أصيب برصاصة متفجِّرة، وحاولي أن تضعي ضماداً، إنه الردف. لقد تراكم كلُّ شيء في الجرح، الأوساخ والتراب. وكنا قد خرجنا من الحصار. ليس هناك من مكان نأخذ الجرحى إليه، وليست لديَّ أية عقاقير طبية. كان ثمَّة أمل واحد، هو أن نخترق الحصار. وعندما اخترقنا الحصار، رافقت زوجي بنفسي إلى المستشفى العسكري، وإلى أن وصلنا إلى المستشفى، حدث معه تسمُّم عام في الدم. وكان عيد رأس السنة... دخل العام الرابع والأربعون... إنه يموت... كنت أدرك أنه ينازع... وقد كوفئ عدَّة مرَّات، وقد جمعت جميع أوسمته ووضعتها على مقربة منه... كان وقت جولة الأطبَّاء، وهو نائم. اقترب مني الأطبَّاء قائلين: «عليك الخروج من هنا. إنه الآن ميت».

فأجيب: «بصوت هادئ، إنه لا يزال حياً».

في هذه اللحظة كان قد فتح عينيه وقال: «غريب. السقف سماوي».

نظرت قائلة: «لا، ليس سماوياً، السقف أبيض يا فاسيا».

Twitter: @ketab_n

بدا له سماوياً... قال له جاره المريض في السرير المجاور: «فيدوسنكو، إذا ما بقيت حياً، فعليك أن تحمل زوجتك على راحتيك».

* «سوف أحملها». وافق زوجي.

لا أدري، ربَّما كان قد أحسَّ أنه يموت، لأنه أخذ يدي، وانحنى وقبَّلها؛ كما يقبِّلون للمرَّة الأخيرة: «لوبشكا، يا للأسف! الجميع يحتفل برأس السنة الجديدة، وأنا وأنت هنا... ولكن لا تأسفي سوف يكون لدينا كلُّ شيء».

وعندما بقي له بضعة ساعات من الحياة... حدث معه هذا الحادث السيئ، بحيث كان لا بدَّ من تغيير بياضات سريره... فرشت له شرشفاً جديداً نظيفاً، أعدت ربط ضمادة رجله، وكان لا بدَّ من جره إلى المخدَّة، فهو رجل، ووزنه كبير، أخذت أسحبه، وانحنيت بصورة منخفضة، وإنني لأشعر أن حياته ستنتهي بين دقيقة وأخرى... كان الوقت مساءً متأخِّراً، الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة عشرة... حتى الدقيقة حفظتها... وأردت نفسي، أن أموت أيضاً... لكنني كنت أحمل تحت قلبي طفلنا، وهذا وحده ما منعني. لقد عانيت كثيراً تلك الأيَّام. دفنت زوجي في الأوَّل من كانون الثاني/ يناير، وبعد ثمانية وثلاثين يوماً وضعت ابني. إنه من مواليد العام الرابع والأربعين. وعنده أولاد أيضاً. كان اسم زوجي فاسيلي، واسم ابني فاسيلي فاسيليفيتش، واسم حفيدي فاسيا... فاسيلك...

لوبوف فومينيتشنا فيدوسينكو، جندي، مرشدة طبِّيَّة

كنت أرى... كلَّ يوم... ولم يكن في استطاعتي أن أستسلم. رجل شاب، جميل يموت... كان بودِّي أن ألحق... أن أقبِّله قبل موته. أن أقدِّم له أي شيء نسائي ممكن، إذا لم يكن في استطاعتي تقديم أية مساعدة كطبيبة. على الأقل أن أبتسم له، أن أربِّت على يده... أن أمسك بيده...

Twitter: @ketab_n

بعد انقضاء سنوات طويلة على الحرب، اعترف لي أحد الرجال أنه يذكر ابتسامتي الشابَّة. وكان هو بالنسبة إليَّ جريحاً عادياً، حتى أنني لم أتذكَّره. وقال لي: إن هذه الابتسامة أعادتني إلى الحياة، من العالم الآخر، تلك هي الابتسامة النسائية...

فيرا فلاديميروفنا شيفالديشيفا، ملازم أوّل، طبيب جرّاح

وصلنا إلى الجبهة البيلاروسية الأولى... سبع وعشرون فتاة. كان الرجال ينظرون إلينا بإعجاب: «لسن غسَّالات، ولا عاملات لاسلكي، بل فتيات قنَّاصات. أوَّل مرَّة نرى مثل هذه الفتيات... إنهن فتيات رائعات!». المساعد في وحدتنا ألَّف قصيدة عنا. بما معناه، أن تبقى الفتيات مؤثِّرات مثل أزهار أيَّار، وأن لا تشلَّ الحرب أرواحهن.

عند توجُّهنا إلى الجبهة، أقسمت كلُّ واحدة منا: لن تكون هناك أية قصص حبٍّ أو روايات غرامية. كلُّ شيء سيكون إذا بقينا سالمات، بعد الحرب. أمَّا قبل الحرب، فلم يقبلنا أي شاب بعد. كنا ننظر إلى هذه الأشياء نظرة أكثر صرامة من الجيل الفتي الحالي. فقد كانت القبلة بالنسبة إلينا تعني الحبَّ الأبدي. كان هناك حبٌّ في الجبهة، بالرغم من كونه محظوراً، وإذا ما عرفت القيادة بذلك، كانت تنتقل أحد العاشقين إلى وحدة أخرى، عادة، أي تفصل بينهما. كنا نحافظ على الحبِّ ولا نظهره علانية. إننا لم ننفِّذ أيماننا الغليظة الطفولية... وكنا نحب...

أعتقد، أنني لو لم أحبّ في الحرب، لما بقيت حيَّة. الحبُّ أنقذني... نعم الحبُّ أنقذني...

صوفيا كريغيل، رقيب أوّل، قنّاصة

Twitter: @ketab_n

أنت تسألين عن الحب؟ لا أخشى قول الحقيقة... لقد كنت الزوجة الميدانية المغامرة. زوجة في الحرب. الزوجة الثانية، الزوجة غير القانونية. القائد الأوّل للكتيبة...

لم أكن أحبُّه. كان إنساناً جيِّداً، لكنني لم أحبَّه. ذهبت إليه في الملجأ بعد بضعة شهور. وماذا عليَّ أن أفعل؟ يحيط بي الرجال من كلِّ جانب، فالأفضل أن أقيم علاقة مع واحد من أن أخاف الجميع. لم يكن الأمر رهيباً في أثناء الحرب، كما هو بعدها، وبخاصَّة في فترة الراحة، حيث نبتعد لإعادة التشكيل. حيث يبدأ إطلاق النار، والرجال يصرخون: «أختي العزيزة! أختي العزيزة!»، وبعد المعركة كلٌّ يراقب الآخر... ولن تتمكَّني من الخروج من الملجأ طيلة الليل... هل حدَّثتك فتيات أخريات بهذا، أم لم يعترفن؟ أعتقد، شعرن بالخجل، ولذن بالصمت. إنهن فتيات فخورات! لكن هذا كان موجوداً، لأنه لم يرد أحدٌ أن يموت. وكان من المؤسف أن تموتي بينما أنت في ريعان شبابك... كما أنه من الصعب على الرجال البقاء أربع سنوات بدون نساء. بيوت الدعارة لم تكن موجودة في جيشنا، ولم يكونوا يعطوننا أيَّ حبوب مانعة للحمل. ربَّما كانوا يتابعون هذه المسألة في أمكنة ما، وليس عندنا. أربع سنوات... القادة وحدهم كان في إمكانهم السماح لأنفسهم بشيء من هذا، أمَّا الجندي البسيط فلا يمكنه ذلك. إنه الانضباط العسكري. لكنهم يلوذون بالصمت حيال هذه المسألة... ذكرى غير مريحة... أبداً.

أنا مثلاً، في الكتيبة، كنت المرأة الوحيدة، عشت في مهجع واحد تحت الأرض... مع الرجال. حدَّدوا لي مكاناً خاصَّاً منفصلاً، ولكن أيُّ مكان منفصل إذا كانت مساحة المهجع كلّه ستَّة أمتار؟ أستيقظ ليلاً، لأنني حرَّكت يديَّ أصيب واحداً على خدِّه، والآخر على يده. أصبت بجرح،

Twitter: @ketab_n

ونزلت في المستشفى العسكري، وهناك لوَّحت بيدي، وأصبحت لا مبالية. توقظني الحاضنة: «ماذا بك؟». ولمن تقصّي قصّتكِ؟

قُتل قائد الكتيبة الأوَّل بشظية من لغم.

قائد الكتيبة الثاني...

كنت أحبُّه. سرت معه في المعركة. أردت أن أكون إلى جانبه. أحببته، في حين أنه كان متزوِّجاً من زوجة يحبُّها، وله منها طفلان. كان يعرض عليَّ صورهم. وكنت أعرف، أنه بعد الحرب، إذا ما بقي حياً، فسيعود إلى أسرته، إلى كالوغا. وماذا في الأمر؟ لقد كانت عندنا تلك اللحظات السعيدة الرائعة! عشنا تلك السعادة! ها قد عدنا... معركة رهيبة... وبقينا أحياء. لن يتكرَّر معه من أي امرأة ما كان يحدث معنا! لن يتكرَّر! كنت أعرف، أنه لن يكون سعيداً من دوني. لن يستطيع أن يكون سعيداً مع أية امرأة، كما كنا سعداء في الحرب. لن يتمكّن... أبداً!

في أواخر الحرب، حمَلت منه. هذا ما أردته... لكن ابنتنا ربَّيتها أنا لوحدي، لم يقدِّم لي أية مساعدة. لم يحرِّك ساكناً إطلاقاً... لم يقدِّم لها هدية، ولم يكتب لها رسالة، ولا بطاقة بريدية. انتهت الحرب، وانتهى الحب. كما تقول الأغنية... ذهب إلى زوجته الشرعية، إلى أطفاله. وترك لي للذكرى صورته. لم أكن أرغب في أن تنتهي الحرب... هذا قول رهيب... أن يفتح المرء قلبه... أنا مجنونة. لقد أحببت. كنت أعرف أن حبِّي سينتهي بانتهاء الحرب. حبِّي له... ولكن، وعلى الرغم من كلِّ شيء، أنا ممتنَّة لتلك المشاعر التي منحني إيَّاها، والتي عرفتها معه. لقد أحببته طيلة حياتي، وحملت مشاعري وحافظت عليها عبر السنين. لم تعد عندي حاجة إلى الكذب. لقذ أصبحت امرأة عجوزاً هرمة. أجل حملت مشاعره عبر السنين! ولست نادمة على هذا.

Twitter: @ketab_n

ابنتي كانت تعاتبني: «وعلام تحبينه؟». وأنا أحبُّه... عرفت منذ فترة قصيرة أنه تُوفِّي. بكيت بكاءً كثيراً. حتى أنني بسبب هذا اختلفت مع ابنتي: «لماذا تبكين؟ لقد مات بالنسبة إليك منذ زمن طويل». وما زلت أحبُّه حتى الآن. وأتذكَّر الحرب، باعتبارها أحلى فترات حياتي. لقد كنت سعيدة هناك...

ولكن، أرجوك، لا تكتبي كنيتي. من أجل ابنتي...

صوفياك. مرشدة طبية

في أثناء الحرب...

أحضروني إلى الوحدة... في الخطِّ الأمامي، استقبلني قائد الوحدة بقوله: «اخلعي قبَّعتك الشتوية من فضلك». استغربت... خلعتها... في إدارة التجنيد حلقوا شعرنا قصيراً كالشباب، وبينما بقيت في المعسكرات الحربية، إلى أن وصلت إلى الجبهة، استطال شعري قليلاً. وبدأ يتجعَّد، وشعري أجعد، مثل شعر الخروف الصغير... الآن لا يمكنك أن تخمِّني هذا لأنني أصبحت متقدِّمة في السن... وها هو ينظر إليَّ طويلاً، وقال لي: «عامين لم أرَ امرأة... أريد أن أتأمَّل».

بعد الحرب...

عشت في شقَّة جماعية. كانت جاراتي مع أزواجهن، إنهن يزعجنني، ويسخرن مني: «ها- ها- ها... حدِّثينا، كيف كنت تشر... مع الرجال هناك». يسكبن الخلَّ في طنجرتي بالبطاطا. أو يضعن ملعقة كبيرة من الملح... ها- ها- ها...

تسرَّح قائدي من التعبئة والجيش. قدم لعندي، وتزوَّجنا، وتسجَّلنا في دائرة الأحوال المدنية، وعملنا كلَّ شيء، باستثناء العرس. وبعد عام ذهب

Twitter: @ketab_n

إلى امرأة أخرى. ذهب إلى رئيسة مطعمنا في المصنع: «تفوح منها رائحة العطور، وتفوح من قدميك رائحة الجزمة والجوارب».

وهكذا أعيش وحدي وحيدة. ليس لديَّ أحد في هذا العالم كله. شكراً لك، لقدومك لعندي...

يكاتيرينا نيكيتيتشينا سانيكوفا، رقيب، رامية بندقية

أمَّا زوجي... حمداً لله أنه في العمل وليس هنا. فقد أمرني بصرامة... إنه يعرف أنني أحبُّ الحديث عن حبِّنا... وكيف خِطت ثوب الزفاف خلال ليلة واحدة من الشاش والضماد. أنا لوحدي. أمَّا الضماد والشاش فقد بقيت أنا وزميلاتي نجمعه طيلة شهر كامل. الضمادات من قماش القنِّب... كان عندي ثوب زفاف حقيقي! بقيت صورته: أنا في ثوب الزفاف، وفي الجزمة، لكن الجزمة غير ظاهرة في الصورة، لكنني أذكر جيِّداً أنني كنت أرتدي الجزمة. أمَّا الحزام، فقد صنعته من قبَّعة... كان حزاماً رائعاً. ولكن ماذا حلَّ بي؟ أنا أتحدَّث على مزاجي... وزوجي أمرني ألَّا أتحدَّث عن الحبِّ بكلمة واحدة، ولا عن الحرب. إن زوجي صارم. علَّمني على الخريطة... يومين علَّمني، أين موقع كلُّ جبهة من الجبهات... وأين وحدتنا... سأحضر الآن، كنت أكتب ما يقوله. سأقرأ عليك...

لماذا تضحكين؟ آه، كم جميل أنك تضحكين! أنا نفسي كنت أضحك... لكن، وأية مؤرِّخة أنا! الأفضل أن أريك صورتي في ثوب الزفاف من الضمادات.

كيف أُعجب بنفسي في الصورة... في الثوب الأبيض...

أناستاسيا ليونيدوفنا جارديتسكايا، عريف، مرشدة طبيِّة

Twitter: @ketab_n

الصمت المريب في السماء والحلقة الصباحية

خرجت من كازان إلى الجبهة وكنت فتاة في التاسعة عشر من العمر...

بعد نصف عام، كتبت لأمِّي، بأنهم يقدِّرون عمري خمسة وعشرين أو سبعة وعشرين عاماً. كلَّ يوم نعيش في الخوف، في الرعب. الشظية تطير، ويبدو لك وكأنها تأخذ جلدكِ معها. ويموت الناس. يموتون كلَّ يوم، كلَّ ساعة، بل وتشعر وكأنهم يموتون كلَّ دقيقة. لا تكفي الشراشف لتغطية الموتى. كنا نلفُّهم بألبسة الجنود الداخلية. كان صمت مريب يسيطر على الخيام. لا أذكر أبداً مثل هذا الصمت. عندما يموت الإنسان فهو ينظر دوماً إلى الأعلى، ولا ينظر أبداً إلى الجانب، أو إليكِ، عندما تكونين بجانبه. إنه ينظر فقط إلى الأعلى... وكأنه ينظر إلى السماء...

وقد قلت لنفسي إنه لا يمكنني سماع كلمة واحدة عن الحب في هذا الجحيم. ولن يمكنني تصديقها. وها قد مضت عدَّة سنوات في الحرب، ولا أذكر أية أغانٍ. حتى أغنية "المخبأ" لا أذكرها. لا أذكر أغنية واحدة... أتذكَّر فقط عندما خرجت من البيت إلى الجبهة، كانت يزهر الكرز في حديقتنا. نظرت من حولي، ويبدو أنني صادفت في طريقي بساتين كرز في الطرقات الأخرى قد أزهرت في أثناء الحرب. لكنني لا أذكر... كنت في المدرسة دائمة الضحك، وهنا لا أبتسم أبداً. إذا ما رأيت إحدى الفتيات تنتف حواجبها أو تدهن شفتيها بالحمرة، كنت أمتعض كثيراً. كنت أرفض بصورة قطعية: كيف يمكن هذا؟ كيف أنه في مثل هذا الوقت تسعى إلى أن تحوز على إعجاب الشباب؟

الجرحى من حولنا بالمئات. أمَّا القتلى فوجوههم صفراء-خضراء. فكيف يمكنك التفكير في الفرح؟ كيف يمكنك التفكير في سعادتك؟ لا أريد أن أجمع بين هذا والحب. هذا الوضع هنا... كان يبدو لي أن الحبَّ

Twitter: @ketab_n

سيموت على الفور في مثل هذا الوضع. وأي حبٍّ يمكن أن يقوم بدون احتفالات وبدون جوٍّ جميل؟ ستنتهي الحرب، وستكون الحياة جميلة، وسيحضر الحب. أمَّا هنا... هنا - لا. فجأة قد أستشهد، وذلك الذي سيحبُّني سيعاني ويتألَّم. إنني أشفق عليه. تلك كانت العواطف التي تسيطر عليَّ...

إن زوجي الحالي كان يهتمُّ بي ويتابعني. التقينا في الجبهة. أمَّا أنا فلم أكن أرغب حتى في لإصغاء إليه: «لا، لا. عندما تنتهي الحرب، عندها يمكننا الحديث عن الحب». لا أنسى أبداً عندما عاد ذات يوم من المعركة، وسألني: «ألا توجد لديك كنزة نسائية ما؟ ارتديها، من فضلك، أريد أن أراك في كنزة نسائية». ولم يكن لديَّ أيُّ شيء من هذا سوى السترة العسكرية.

وقد قلت لرفيقتي أيضاً، هي أيضاً تزوَّجت في الجبهة: «لم يهدِني وروداً، ولم يتابعني باهتمامه، وفجأة يطلب الزواج! وهل هذا حب؟». ولم أكن أؤيِّد عواطفها.

انتهت الحرب... كانت الواحدة منا تنظر إلى الأخرى، ولا تصدِّق أن الحرب انتهت، وأننا بقينا أحياء. الآن سوف نعيش... وسوف نحب... لكننا نسينا هذا كلَّه... لم نتعلَّم. عدت إلى بيتنا. ذهبت مع أمِّي لأخيط فستاناً. الفستان الأوَّل لي بعد الحرب.

اقترب دوري في ورشة الخياطة، فسألوني: «أي موديل تريدين؟».

* «أنا لا أعرف».

- «كيف إذاً، جئت إلى ورشة الخياطة، ولا تعرفين الفستان الذي تريدينه؟».

* «لا أعرف...».

طيلة خمس سنوات، لم أرَ فستاناً واحداً. أمَّا ما يقولون في ورشة

Twitter: @ketab_n

الخياطة: من أشكال، وفتحات... وخصر منخفض... وخصر عال... فهذا كلُّه لا أفهمه. اشتريت حذاءً بكعب عال، سرت به في الغرفة ونزعته. وضعت الحذاء في الزاوية وأنا أفكِّر: «لن أتعلَّم أبداً السير بالكعب العالي...».

ماريا سيليفيرستوفنا بوجوك، ممرِّضة

أريد أن أتذكَّر... أريد أن أقول إنني شعرت بالعاطفة الجميلة بصورة استثنائية في أثناء الحرب. ولا يمكنني التعبير بأية كلمات عمَّا عاملنا به الرجال من إعجاب وابتهاج. لقد عشت معهم في ملجأ أرضي واحد، ونمنا في الخيام ذاتها، وكنا نتوجَّه معاً لتأدية المهمَّات ذاتها، عندما تجمَّدت من الصقيع، لدرجة أنني سمعت كيف تجمَّدت الدمعة على عيني، وكيف لساني يجمع في حلقي، وأنني أكاد أفقد توازني. فطلبت من زميلي: «ميشا، افتح معطف الفرو، دفِّئني». وأخذ يدفِّئني قائلاً: «كيف؟ هكذا أحسن؟ أسهل؟».

لم أجد مثل هذا في حياتي كلِّها. كان من المستحيل التفكير في شيء شخصي عندما كان الوطن معرَّضاً للخطر.

- «هل كان هناك حب؟».

* «نعم. كان، كان هناك حب. والتقيته... ولكن، اعذريني، قد لا أكون محقَّة في رأيي، وهذا ليس طبيعياً تماماً، لكنني في أعماق روحي أدين هؤلاء الناس. كنت أعتقد أن الوقت ليس وقت ممارسة الحب. فالشرُّ والكراهية من جميع الجهات تحيط بنا. أعتقد أن كثيرين كانوا يرون هذا الرأي...».

- «وكيف كنت قبل الحرب؟».

Twitter: @ketab_n

كنت أحبُّ الغناء، والضحك. أردت أن أتعلَّم قيادة الطائرة. لم تكن هناك أية أفكار عن الحب! لم يكن الحبُّ بالنسبة إليَّ موضوعاً رئيساً في حياتي. كان الموضوع الرئيس هو الوطن. والآن، أعتقد، أننا كنا سذَّجاً...

يلينا فيكتوروفنا كلينوفسكايا، مقاومة في الأنصار

في المستشفى العسكري... كانوا كلُّهم سعداء. كانوا سعداء لأنهم بقوا أحياء. ملازم في العشرين من عمره كان يعاني لأنه فقد رجله. لكن هذا، وسط الكارثة الشاملة، كان يبدو سعيد الحظ. فهو حي يُرزق، وإن كان فقد رجله، فهو حيٌّ وهذا هو الأساس. وسوف يحبُّ مستقبلاً، وستكون لديه زوجة وسيكون لديه كلُّ شيء. بمقاييسنا اليوم، فقدان أحد الساقين كارثة، أمَّا في تلك الأثناء، فجميعهم كانوا يقفزون على رجل واحدة، ويدخِّنون، ويضحكون. إنهم أبطال عموماً! أليس كذلك؟!

- «وهل أحببتِ هناك؟».

* «طبعاً، لقد كنا فتيات في مقتبل العمر. فما إن يصل إلى المستشفى جرحى جدد، بالتأكيد كلُّ ممرِّضة تعشق أحدهم. صديقتي عشقت ضابطاً برتبة ملازم أوَّل في العشرين من عمره، كان جسمه مليئاً بالجروح. أشارت لي إليه، هذا هو. وأنا أيضاً بدوري، قرَّرت أن أعشقه. عندما خرَّجوه من المستشفى، طلب مني إهداءه صورة فوتوغرافية. وكانت لديَّ صورة واحدة التقطناها بالقرب من المحطَّة. تناولت الصورة كي أقدِّمها له، لكنني فكَّرت في نفسي: قد لا يكون هذا حبّاً، وأنا أهديه صورتي؟ وها هم ينقلونه بالسيَّارة، فمددت له يدي، بقبضتي المغلقة التي وضعت فيها الصورة، ولم أجرؤ على فتح قبضتي وتقديم الصورة. هذا هو الحبُّ كله...

ثمَّ جاء بافليك، أيضاً ملازم. كان يشعر بالكثير من الألم، ولهذا كنت

Twitter: @ketab_n

أضع له قطعة من الشوكولا تحت المخدَّة. وعندما التقينا، بعد الحرب، بعد عشرين عاماً، أخذ يشكر صديقتي ليليا دروزدوفا على قطعة الشوكولا. استغربت ليليا وقالت: «أي شوكولا؟». عندها اعترفت بأنني أنا كنت أضع الشوكولا... فقبَّلني... قبَّلني بعد عشرين عاماً...

سفيتلانا نيقولايفنا لوبيتش، مساعدة طبيِّة

ذات يوم بعد حفلة غناء موسيقية... في المستشفى العسكري الكبير... اقترب مني كبير الأطبَّاء وطلب مني قائلاً: «هنا يرقد في قاعة خاصَّة جريح من عناصر الدبَّابات، جروحه خطيرة. ولا يستجيب لأيِّ علاج تقريباً، ربَّما قد تساعده أغنيتك».

ذهبت إلى قاعة الجريح. مهما عشت لن أنسى هذا الإنسان، الذي خرج بأعجوبة من دبَّابة تحترق، واحترق من رأسه حتى رجليه. كان يرقد، مادَّاً رجليه، دون أيِّ حركة على السرير، بوجه أسود، وبلا عينين. سيطر التشنُّج على حنجرتي، ولم أستطع السيطرة على نفسي بضع دقائق. ثمَّ بدأت أغنِّي بهدوء ونعومة... وأرى أن وجه المريض قد تحرَّك قليلاً. حتى أنه همس بشيء ما. انحنيت وسمعته يقول: «غنِّ أيضاً». غنَّيت له أغنية ثانية وثالثة، وغنَّيت أغنياتي المخصَّصة للحفلة كافَّة، إلى أن جاء كبير الأطبَّاء وقال: «أظنُّ أنه قد غفا...»

ليليا ألكسندروفسكايا، فنَّانة

عندنا قائد كتيبة والممرِّضة لوبا سيلينا. أحبَّ أحدهما الآخر! وهذا ما شاهده الجميع... كان ينطلق في المعركة، وكانت هي تقول إنها لن تسامح نفسها إذا ما استشهد بعيداً عن أنظارها، وإذا لم تره في تلك الدقيقة

Twitter: @ketab_n

الأخيرة. «فليكن، فليقتلونا معاً نحن الاثنين. بقذيفة واحدة يقضون علينا». كانا عازمين على الموت معاً أو على الحياة معاً. لكن حبَّنا لم يكن يستمرُّ لليوم وللغد، بل كان لليوم فقط. كلُّ واحدة منا كانت تعرف أنها تحبُّ الآن، ولكن بعد دقيقة، قد لا تبقين أنت أو حبيبك حيَّين. في الحرب، كان كلُّ شيء يحدث بسرعة أكبر: حتى الحياة أو الموت. فخلال بضع سنوات عشنا هناك حياة كاملة. لم يكن في استطاعتي أبداً أن أشرح هذا لأيٍّ كان. هناك - زمان آخر...

في إحدى المعارك جُرح قائد الكتيبة جُرحاً بليغاً، أمَّا لوبا فكان جرحها سطحياً في الكتف. وتقرر إرساله إلى المؤخرة، ولوبا كانت حاملاً، فأعطاها قبل رحيله رسالة: «اذهبي إلى والديَّ. مهما حدث، أنت زوجتي. وجنينك سيكون ابننا أو ابنتنا».

بعد فترة، راسلتني لوبا وقالت إن والديه لم يستقبلاها، ولم يعترفا بطفلها. أمَّا قائد الكتيبة فقد استشهد.

حزمت حقائبي عدَّة مرَّات، وفكَّرت عدَّة سنوات، في أن أسافر إليها وأحلَّ ضيفة عندها. ولكن لم أتمكَّن. لقد كنا صديقتين حميمتين. لكن المسافة بعيدة جدّاً؛ إنها تقيم في آلتاي. ومنذ مدَّة وردت رسالة تقول إنها تُوفِّيت. والآن يدعوني ابنها إلى زيارة قبرها...

أريد زيارة قبرها...

نينا ليونيدوفنا موخاي، رقيب أوَّل، ممرِّضة

يوم النصر...

تهيَّأنا للذهاب إلى لقائنا التقليدي. وها أنا أخرج من الفندق، فسمعت أصوات فتيات تخاطبني: «أين أنت، يا ليليا، أين كنت؟ لقد بكيناكِ كثيراً».

Twitter: @ketab_n

وقد تبيَّن أن رجلاً كازاخستانياً اقترب منهن سائلاً: «من أين أنتن أيتها الفتيات؟ من أي مستشفى عسكري؟».

* «وعمَّن تبحث أنت؟».

- «كلَّ عام أحضر إلى هنا وأبحث عن أختي، ممرِّضة. كانت قد أنقذت حياتي. لقد أحببتها. وأريد العثور عليها».

فضحكت الفتيات: «وكيف ستبحث عن أختك الآن؟ لقد أصبحت جدَّة».

- «كلا...».

* «ولكن لديك الآن زوجة؟ أطفال؟».

- «لديَّ أحفاد، لديَّ أطفال، لديَّ زوجة. لكنني فقدت روحي... ليس لديَّ روح...».

وهنا قالت لي الفتيات، وبدأنا نتذكَّر معاً: أوليس هذا الكازاخستاني مريضي؟

أحضروا إلى المستشفى صبياً كازاخستانياً. في مقتبل العمر. أجرينا له عدَّة عمليات جراحية. كان لديه سبعة أو ثمانية شقوق في الأمعاء، وكان يُعَدُّ ممَّن فقدنا الأمل في شفائهم. وقد رقد طويلاً غير مبال، لدرجة أنني رصدته على الفور. وما إن تتوفَّر لديَّ دقيقة واحدة من الوقت حتى أركض نحوه وأستفسر عن صحَّته: «كيف أحوالك؟»، وكنت بنفسي أعطيه الإبر الداخلية، وأقيس حرارته، فتحسَّن وضعه الصحِّي، وأخذ يتماثل للشفاء. لم نكن نحتفظ بالجرحى طويلاً بعد الشفاء، فنحن في الخطِّ الأول. نقدِّم لهم الخدمة الطبِّية العاجلة، وننتزعهم من براثن الموت، ثمَّ نحوِّلهم إلى مستشفيات المؤخرَّة. وها قد حان موعد نقله من مستشفانا.

كان راقداً على النقَّالة، فأعلموني أنه يدعوني: «أختي العزيزة، اقتربي مني».

Twitter: @ketab_n

* «ماذا؟ ماذا تريد؟ إن وضعك جيِّد. سوف يرسلونك إلى المؤخَّرة. كلُّ شيء سيكون جيِّداً عندك. اعتبر نفسك حيّاً معافى».

فرجاني قائلاً: «أرجوك رجاءً حارّاً، أنا وحيد عند والديَّ. وأنت أنقذت حياتي». وأعطاني هدية، خاتماً صغيراً.

أمَّا أنا فلم أكن قد لبست خاتماً، ولسبب ما لم أكن أحبُّه. فرفضت: «لا أستطيع قبول هديتك، لا أستطيع».

وهو يرجوني، والجرحى وقفوا إلى جانبه: «خذي الخاتم، إنه يهديك الخاتم من أعماق قلبه».

* «لكن هذا واجبي، أتدركون ذلك؟».

وأخيراً، أقنعوني. حقيقة، بعد فترة، أضعت هذا الخاتم. فقد كان كبيراً على إصبعي، وذات مرَّة غفوت، وأطاحت بي السيَّارة، حيث سقط الخاتم هناك في مكان ما. شعرت بالأسف الشديد.

- «وهل عثرت على هذا الرجل؟».

* «لم نلتق منذ تلك الأثناء. لا أدري، ربَّما يكون هو؟ لكنني بحثت عنه مع الفتيات طيلة اليوم».

في العام السادس والأربعين، حضرت إلى بيت أهلي. فسألوني: «سترتدين البذلة العسكرية أم المدنية؟ بالطبع، سأرتدي البذلة العسكرية. حتى أنني لا أفكِّر في خلعها. ذهبت مساء إلى حفلة الرقص في نادي الضبَّاط. وأنت الآن ستسمعين، كيف كانوا ينظرون إلى فتيات الحرب.

ارتديت الحذاء، والفستان، أمَّا المعطف العسكري والجزمة العسكرية فأودعتهما في غرفة المشجب.

اقترب مني شابٌّ عسكريٌّ ودعاني للرقص: «أنت غالباً لست من هذه البلدة. أنت فتاة عالية الثقافة».

Twitter: @ketab_n

وأمضى الأمسية كلَّها معي، ولم يبتعد عني. انتهت حفلة الرقص، فقال لي: «أعطني رقم معطفك في المشجب».

انطلق إلى الأمام، وفي غرفة المشجب أعطوه الجزمة وأعطوه المعطف.

- «هذا ليس لي...».

اقتربت منه: «لا، هذا لي».

- «لكنك لم تقولي لي إنك كنت في الجبهة».

* «وهل سألتني؟».

فشعر بكثير من الحرج. ولم يعد يقوى على رفع عينيه نحوي. أمَّا هو نفسه، فقد عاد للتو من الحرب...

* «ولماذا أُصبت بالدهشة؟».

- «لم يكن في إمكاني أن أتصوَّر أنكِ كنت في الجيش. أنت تدركين: فتاة الجبهة...».

* «ما أدهشك أنني وحدي؟ بدون زوج ولست حاملاً؟ لا أرتدي سترة مبطنة، ولا أدخِّن سجائر "كازبك" ولا أشتم الشتائم الروسية؟».

لم أسمح له بمرافقتي.

ودوما أفتخر بأنني كنت في الجبهة. وكنت أدافع عن وطني...

ليليا ميخائيلوفنا بوتكو، ممرِّضة جراحة

قبلتي الأولى...

الملازم نيقولاي بيلوخفوستيك... آه، انظري! لقد احمرَّت وجنتاي. في حين أنني الآن جدَّة. في تلك الأثناء كانت سنوات الصبا والشباب.

Twitter: @ketab_n

كنت أعتقد، بل كنت واثقة، أنني لن أعترف لأحد، حتى لصديقتي التي أعشقها. أحببته إلى ما فوق رأسي. إنه حبِّي الأوَّل، وقد يكون... الأخير؟ ومن يعرف... كنت أفكِّر في نفسي: لم يكن هناك أحد في السرية لم يعرف بحبِّي له. لم يعجبني أحد مثله من قبل! وإذا ما أعجبني، فإلى حدٍّ ما. أمَّا هو... كنت أسير وأفكِّر فيه باستمرار. ما هذا؟ لقد كان حبّاً حقيقياً. لقد أحسست به، وبجميع علاماته... آه، انظري، أشعر بالخجل، احمرَّت وجنتاي!

لقد دفنَّاه... كان يرقد في خيمة مطرية، وقد أصيب للتو. أطلق الألمان النار علينا. علينا الدفن بسرعة... الآن مباشرة. أشجار البتولا القديمة، اخترنا تلك الشجرة التي كانت تقف بعيدة عن شجرة البلُّوط القديمة. إنها الأكبر. خلفها... لقد بذلت جهدي كي أحفظ مكان الدفن، كي أعود فيما بعد وأعثر عليه. هنا نهاية القرية، وهنا مفرق... ولكن، كيف أحفظه، إذا ما احترقت إحدى أشجار البتولا أمام أعيننا... كيف؟ بدأنا مراسم الوداع... قيل لي: «ابدئي أنت!». وانقبض قلبي، وأدركت أن الجميع يعرف قصَّة حبِّي. الجميع يعرفون... واهتزَّت الفكرة في رأسي: ربَّما هو يعرف أيضاً؟ ها هو...إنه راقد... الآن سينزلونه إلى الحفرة... وسيهيلون عليه التراب... لكنني فرحت فرحاً شديداً من هذه الفكرة، حول أنه هو قد يعرف. فجأة قد أحوز على إعجابه؟ وكأنه لا يزال حيّاً وسيجيبني بشيء ما... تذكَّرت، عندما أهداني في عيد رأس السنة شوكولا ألمانية. لم آكلها شهراً كاملاً؛ كنت أحملها في جيبي.

إنني أتذكَّر هذا طيلة حياتي... أتذكَّر هذه اللحظة... القنابل تتطاير... هو... يرقد في الخيمة المطرية... هذه اللحظة... وأنا أشعر بالفرح... أقف وأبتسم بيني وبين نفسي. إنني غير طبيعية. أشعر بالفرح، لأنه قد يكون عارفاً بحبِّي له...

Twitter: @ketab_n

اقتربت وقبّلته. لم أقبّل سابقاً رجلاً أبداً في حياتي.... لقد كانت القبلة الأولى...

لوبوف ميخائيلوفنا غروزد، مرشدة طبية

حول وحدة الرصاصة والإنسان

قصّتي قصّة منفصلة... الصلاة وحدها تطمئنني. أصلّي على روح ابنتي....

أذكُر المَثَل الذي كانت أمّي تحبُّ تكراره: «الرصاصة غبية، القدر وغد». كان لديها هذا المثل الصالح لكلِّ كارثة. الرصاصة وحيدة، والإنسان وحيد، الرصاصة تطير، حيث تريد، أمّا القدر فيُوجِّه الإنسان كما يريد. هنا وهناك، هناك وهنا. الإنسان ريشة، ريشة عصفور. لن تعرف أبداً مستقبلك. لم نُعطَ مثل هذه القدرة... ولا يسمح لنا بالنفوذ إلى الأسرار. امرأة غجرية قرأت لي حظّي، عند قدومنا من الحرب. اقتربت من المحطَّة، واقتادتني إلى زاوية... وعدتْني بالحبِّ الكبير... كانت لديَّ ساعة ألمانية في يدي، نزعتها وأعطيتها للمرأة الغجرية التي تنبّأت لي بهذا الحبِّ الكبير. لقد صدَّقتها.

أمّا الآن، أو ليس عليَّ أن أبكي ذلك الحب؟

هيَّأت نفسي للحرب بمرح وسرور، على الطريقة الشبيبية، مع الجميع. كنا نسافر في عربات البضائع من القطار، وقد كتب على كل عربة بالزفت الأسود: "40 شخصاً – ثمانية جياد". في حين أننا كنا في العربة نحو مئة شخص.

أصبحت قنّاصة. وكان في إمكاني أن أصبح عاملة اتصالات، مهنة مفيدة – عسكرية ومدنية، كما أنها مهنة نسائية. ولكن قيل لي: عليك

Twitter: @ketab_n

إطلاق النار؛ فأطلقت النار. كنت أطلق النار جيِّداً. لديَّ وساما البطولة، وأربع ميداليات. خلال أعوام الحرب الثلاثة.

صاحوا بنا: النصر! أعلنوا النصر! أذكر أن الفرح هو الشعور الأوَّل الذي شعرت به، وشعرت في اللحظة ذاتها بالخوف! بالذعر! بالذعر! فكيف سأعيش لاحقاً؟ أبي استشهد بالقرب من ستالينغراد. أخواي الاثنان الكبار مفقودان دون أي أثر منذ بداية الحرب. بقيت أمِّي وأنا، امرأتان. فكيف سنعيش؟ جميع فتياتنا كنَّ يفكِّرن في هذا السؤال... نجتمع في الملجأ... كانت أحاديثنا تدور حول أن الحياة تبدأ الآن. الفرح والخوف. في السابق، كنا نخاف من الموت، أمَّا الآن فنخاف الحياة... كلاهما مرعب. حقيقة! نتحدَّث ونتحدَّث، ثمَّ نجلس ونصمت.

هل سنتزوَّج أم لا؟ هل سنتزوَّج عن حبٍّ أم بدون حب؟ كنا نقرأ مستقبلنا على أزهار البابونج. ونرمي بأكاليل الورود في النهر، ونوقد الشموع... أذكر، قيل لنا إن ساحرة تعيش في إحدى القرى. فتراكض الجميع نحوها، بمن فيهم بعض الضبَّاط. أمَّا الفتيات فذهبن إليها جميعهن. كانت تقرأ المستقبل على الماء، بواسطة حركات يديها. وفي مرَّة أخرى، سحبنا الأوراق، البطاقات من آلة الموسيقي المتشرِّد. وقد كان نصيبي بطاقات سعيدة... فأين هي سعادتي؟

كيف استقبلنا الوطن؟ لا يمكنني تذكُّر هذا دون أن أنوح... انقضى أربعون عاماً، وما زالت وجنتاي تحرقانني. الرجال لاذوا بالصمت، أمَّا النساء فكنَّ يصرخن بنا: «نحن نعلم، ماذا كنتن تمارسن! تغرين الشباب... وتغرين رجالنا... شرامـ... كلبات حربية...»، كُنَّ يوجهن إلينا الإهانات بطرق مختلفة... فقاموس الشتائم الروسية واسع وغني...

يرافقني شاب من ساحة الرقص، شعرت فجأة بوجع وقلبي يطرق بعنف. أمشي، أمشي، وأجلس على كومة ثلج. «ماذا بكِ؟». «لا، لا شيء،

Twitter: @ketab_n

أفرطت في الرقص». إنهما جرحاي الكبيران. الأوَّل هو الحرب، والثاني عليَّ أن أتعلَّم الرشاقة والنعومة. وأن أكون ضعيفة، ورقيقة الحاشية. أمَّا قدماي فقد كبرتا في الجزمة العسكرية بقياس الأربعين. غير مألوف بالنسبة إليَّ أن يعانقني أحد ما. اعتدت أن أكون أنا نفسي مسؤولة عن نفسي. كنت أنتظر كلمات الدلال وعبارات الحنان، لكنني لم أكن أفهمها. إنها تبدو لي وكأنها عبارات للأطفال. في الجبهة بين الرجال كانت الشتائم الروسية الكبيرة هي الدارجة، وقد اعتدت عليها. كانت صديقتي تعلِّمني، وهي تعمل في المكتبة، وتنصحني: «اقرئي أشعار سيرغي يسينين».

لم أتأخر في الزواج. بعد عام واحد تزوَّجت أحد المهندسين في معملنا. كنت أحلم بالحب. وأردت أن يكون لديَّ بيت وأسرة، وأن تظهر في البيت رائحة الأطفال الصغار. الحفاضات الأولى شممتها، وشممتها ولم أشبع من رائحتها. إنها روائح السعادة النسائية... لا توجد في الحرب روائح نسائية، وجميع الروائح فيها رجولية. الحرب تفوح بالرجولة.

عندي طفلان... صبيٌّ وبنت. الصبيُّ هو الأكبر. إنه صبيٌّ جيِّد، ذكي. تخرَّج من معهد هندسة العمارة. وها هي ابنتي الصغيرة... لم تستطع المشي على قدميها حتى عامها الخامس، ونطقت بكلمتها الأولى "ماما" في السابعة من عمرها. وحتى الآن تنطق كلماتها نطقاً خاطئاً مشوَّهاً؛ فتقول "ميمو" بدلاً من "ماما"، و"بيبو" بدلاً من "بابا". إنها... حتى الآن، ما زلت أعتقد إن ثمة خطأ ما. إنها في مستشفى المجانين... للعام الأربعين في هذا المستشفى. وبعد تقاعدي، أذهب لعندها كلَّ يوم. إنها خطيئتي...

منذ سنوات عديدة، أشتري لها في الأوَّل من أيلول/ سبتمبر كتاباً جديداً لتعليم القراءة. وأقرأ معها كتاب القراءة طيلة الأيَّام. أعود من عندها أحياناً إلى بيتي، ويبدو لي أنني فقدت القدرة على القراءة والكتابة والحديث. وأن هذا كلَّه لست في حاجة إليه. ولماذا أحتاجه؟

Twitter: @ketab_n

لقد عاقبني القدر... علام؟ ربَّما لأنني قتلت. هكذا أفكِّر أحياناً... في الشيخوخة ثمَّة وقت كثير... أفكِّر باستمرار. في الصباح، أقف على ركبتي، وأنظر من النافذة. وأرجو الله... وأتضرَّع إليه وأسامح الجميع... لا أحتفظ بأي حقد على زوجي، لقد سامحته منذ وقت طويل. عندما ولدت ابنتنا... نظر إلينا... بقي فترة قصيرة، ثمَّ خرج ولم يعد. خرج مهدِّداً: «وهل المرأة التي تذهب إلى الحرب امرأة طبيعية؟ كي تتعلَّمي إطلاق النار؟ ولهذا أنت غير قادرة على ولادة طفل طبيعي». إنني أصلِّي من أجله...

وقد يكون هو على حق؟ هكذا أفكِّر أحياناً... إنه إثمي...

كنت أحبُّ الوطن أكثر من أيِّ شيء في الدنيا. لقد أحببت... ومن يمكنني أن أحدِّثه به الآن؟ ابنتي... ابنتي وحدها... إنني أتذكَّر الحرب، فتظن ابنتي أنني أقص عليها قصص الأطفال. قصص أطفال رهيبة...

لا تذكري كنيتي. ما من داعٍ...

كلافديا س. قنَّاصة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

حبّات البطاطا الصغيرة...

لقد كانت هناك حرب أخرى...

في هذه الحرب، لم يشرْ أحد على الخارطة، أين تمرُّ المنطقة المحايدة، وأين يبدأ خطُّ الجبهة. لم يستطع أحد هناك إحصاء جميع الجنود، ووحدات السلاح. كانوا يطلقون النار من المدافع المضادّة للطائرات، ومن الرشّاشات، ومن بنادق الصيد، ومن البواريد القديمة. لم تكن هنا استراحات ولا هجومات أساسية. كثيرون كانوا يحاربون بمفردهم، ويموتون بمفردهم. لم يكن الجيش وحده يقاتل، بالفرق، والكتائب، والسرايا، بل كان الشعب كلُّه يحارب؛ الأنصار ورجال المقاومة السرِّية: رجالاً وشيوخاً ونساءً، وأطفالاً. وقد دعا الكاتب الكبير تولستوي هذه العاصفة المتعدِّدة الوجوه بـ "هراوة الإرادة الشعبية" وبـ "الدفء الخفيّ للنزعة الوطنية"، وقد شكا هتلر (كما شكا نابليون قبله) من أن "روسيا لا تحارب حسب قواعد الاشتباك والقتال".

لم يكن الموت في هذه الحرب هو الخطر الأكبر، فالأرهب هو شيء آخر... لنتصوَّرْ جندياً على الجبهة، محاطاً بأسرته؛ بأطفاله، زوجته، والديه المتقدِّمين في السن. وعليه أن يكون كلَّ دقيقة جاهزاً لتقديمهم ضحية؛ أن يقدِّمهم للذبح. ليس للرجولة، كما ليس للخيانة من شهود عيان هناك.

Twitter: @ketab_n

في قرانا، في يوم النصر، الناس يبكون ولا يفرحون. كثيرون يبكون. «كم كان رهيباً! لقد دفنت جميع أقاربي وأهلي، لقد دفنت روحي في الحرب». (ف. غ. آندروسيك، مقاومة سرِّية).

يبدأن الحديث بهدوء، وفي الخاتمة يصرخ الجميع.

أنا شاهد عيان...

سأحدِّثكِ عن قائد فصيل الأنصار عندنا... لن أذكر كنيته، لأن أفراد أسرته ما زالوا على قيد الحياة. وسيشعرون بالألم عند قراءة ما سأقوله...

نقل عناصر الاتصالات إلى الفصيلة الخبر التالي: أخذوا أسرة الآمر إلى الغيستابو (البوليس السرِّي الألماني النازي)؛ زوجته وابنتيه الصغيرين وأمَّه العجوز. ونُشرت إعلانات في السوق الشعبية ووُزِّعت منشورات: إذا لم يستسلم قائد الفصيل، فسيُعدمون جميع أفراد أسرته. والفترة المحدَّدة للتفكير والتقرير يومان. وكان رجال البوليس النازيِّ يتنقَّلون بين القرى على درَّاجاتهم النارية، وينشرون دعاية مضادَّة بين الناس أن المفوضين الشعبيين الحمر لا يشفقون على أبنائهم وأطفالهم. إنهم وحوش. بالنسبة إليهم، ليس هناك من شيء مقدَّس. كانوا يرمون بالمنشورات من الطائرة فوق الغابة... أراد قائد الفصيل أن يسلِّم نفسه، أراد أن ينتحر. لم يتركوه وحيداً أبداً طيلة هذه الفترة. كانوا يتابعونه ويراقبونه. كان في إمكانه إطلاق النار على نفسه.

اتصل بموسكو. شرح الوضع والموقف. وحصل على التعليمات... في اليوم نفسه، عقد اجتماعاً حزبياً في الفصيل. واتُّخذ في الاجتماع القرار التالي: عدم الخضوع للاستفزاز الألماني. وهو، باعتباره شيوعياً، خضع للانضباط الحزبي والقرار الحزبي...

Twitter: @ketab_n

بعد يومين أرسل الفصيل جواسيس إلى البلدة. فجلبوا الخبر الرهيب التالي: لقد علّقوا جميع أفراد أسرته على أعواد المشانق. في المعركة الأولى بعد هذا الحدث، استُشهد القائد... قُتل بطريقة غير مفهومة. من قبيل المصادفة. أعتقد، إنه هو أراد أن يموت...

دموعي تترافق مع الكلمات... كيف يمكنني إقناع نفسي، بأن الحديث ضروري وواجب؟ وكيف يمكن تصديق ذلك... الناس يريدون أن يعيشوا بهدوء وسلام، وليس بالمعاناة والإصغاء إلى أقوالي... (ف. كوروتايفا، مقاومة في الأنصار).

وأنا، بدوري، أقنع نفسي، بأن عليَّ متابعة الطريق...

سلة اللغم واللعبة المزغبة

لقد نفَّذتُ المهمَّة المطلوبة... ولم يعد في وسعي البقاء في البلدة، وذهبت إلى الفصيل. أُخذت أمِّي بعد بضعة أيَّام إلى الغيستابو. تمكَّن أخي من الهرب، أمَّا أمِّي فأخذوها. مارسوا ضدَّها التعذيب في التحقيق للسؤال عن ابنتها. بقيت عامين كاملين هناك. طيلة عامين كاملين، كان الفاشيون يقتادونها مع النساء الأخريات ويضعوهن في الصف الأول، عند قيامهم بعملياتهم... كانوا يخشون من ألغام الأنصار والمقاومة، ودائماً كان يضعون السكّان المحليين في الصفوف الأولى. فإذا كانت هناك ألغام فستنفجر فيهم ويبقى الجنود الألمان أحياء. إنها الدرع البشرية... طيلة عامين كاملين كانوا يقتادون أمِّي بالطريقة نفسها...

وقد حدث غير مرَّة: نجلس محاصرين مختبئين، وفجأة نرى النساء الروسيات يسرن وخلفهنَّ الجنود الألمان. يقتربن أكثر، فترى أمَّكِ بين النساء. لكن الأشد بشاعة ورهبة هو انتظار أن يصدر قائد الفصيل أمراً بإطلاق النار. الجميع ينتظر برعب هذا الأمر، لأنهم يهمسون فيما بينهم:

Twitter: @ketab_n

«ها هي أمِّي»، وآخر يقول: «وها هي أختي»، وهناك من تعرَّف على طفله أيضاً... كانت أمِّي تسير دوماً في شال أبيض اللون. كانت طويلة القامة، وكانت أوَّل من نميِّزها بين الآخرين. ولا أتمكَّن نفسي من ملاحظة ذلك، حتى ينبِّئونني: «هناك أمُّك تسير...». يصدر أمر بإطلاق النار، عليكِ أن تطلقي النار، دون أن تعرفي بنفسك على من تطلقين النار، وفي رأسكِ فكرة واحدة، أن تبقي تنظرين بثبات إلى الشال الأبيض. هل ما زالت حية، هل سقط الشال؟ الجميع يهربون، منهن من يسقط، وأنت لا تعرفين، هل قُتلت أمُّك أم لا؟ يومين وأكثر أحياناً، أسير شاردة، لا أعرف نفسي بنفسي، إلى أن يخبرنا جواسيسنا في القرية بأنها حية. بعدها أتمكَّن من العيش. وهكذا حتى الحالة التالية. يبدو لي، أنني لم أكن لأحتمل هذا الآن... لكنني كنت أكرههم... لقد ساعدتني الكراهية. لا يزال حتى اليوم في أذني صراخ الطفل الذي رموه في البئر. فهل سمعتِ يوماً هذا الصراخ؟ الطفل يسقط ويصرخ، وكأنه من تحت الأرض، من العالم الآخر. إن هذا ليس صراخ طفل وليس صراخاً إنسانياً... أو عندما ترين شابّاً روسياً مقصوصاً بالمنشار... من عناصرنا في المقاومة... وبعد هذا عندما تذهبين للقيام بمهمَّة، فإن قلبك يطالبك بشيء واحد: اقتليهم، اقتلي أكبر عدد منهم، أبيديهم بأقسى شكل ممكن. عندما رأيت الفاشيين الأسرى، أردت أن ألتحم بأيِّ واحد منهم. أن أخنقه، أخنقه بيدي. لو كان الأمر بيدي لما قتلتهم، لأن القتل هو الموت الأسهل بالنسبة إليهم. لما قتلتهم بالسلاح أو بالبندقية...

قبيل انسحابهم، حدث هذا في العام الثالث والأربعين، أطلق الفاشيون النار على أمِّي... وكانت لديَّ تلك الأمُّ التي هي نفسها باركتنا بقولها: «اذهبوا، يا أبنائي، عليكم أن تبقوا أحياء، بدل أن تموتوا هكذا. الأفضل أن لا تموتوا ميتة العاجز».

Twitter: @ketab_n

لم تكن أمِّي تنطق بالكلمات الكبيرة. كانت تعثر على الكلمات النسائية البسيطة. لقد كانت تريد أن نعيش ونتعلَّم، وبخاصَّة أن نتعلَّم.

وقد تحدَّثت النسوة اللواتي كُنَّ معها في الزنزانة، أنه كلَّما كانوا يأخذونها، كانت ترجونا: «آه، أيَّتها النسوة! أرجوكن شيئاً واحداً: إذا ما مُتُّ ساعدن أولادي!».

بعد الحرب، أخذتني إحدى هؤلاء النسوة إلى بيتها، إلى أسرتها، بالرغم من أنها كانت أمّاً لطفلين صغيرين. كان الفاشيون قد أحرقوا كوخنا، وأخي الأصغر استُشهد في فصيل الأنصار، أعدموا والدتي، والدي كان في الجبهة. وقد عاد من الجبهة جريحاً، ومريضاً. لم يعش طويلاً وسرعان ما تُوفِّي. وهكذا فمن الأسرة كلِّها أنا وحدي بقيت. وهذه المرأة هي ذاتها كانت بائسة فقيرة، ولديها طفلان، لهذا قرَّرت الخروج من بيتها، والسفر إلى جهة ما. أمَّا هي فقد كانت تبكي، ولا تسمح لي بالمغادرة.

عندما علمت أنهم أطلقوا النار على أمِّي فقدت وعيي وعقلي. ولم أعرف الهدوء أو السكينة. عليَّ أن... أعثر عليها... وقد أطلقوا عليهم النار، وسارت فوقهم آليات ثقيلة، سُوِّيت التربة مع الجثث في القبر الجماعي... أحفر في حقل كبير ضدَّ الدبَّابات... فقد أشاروا إليَّ بصورة تقريبية أين وفي أيِّ مكان كانت تقف. وركضت إلى هناك، وبدأت أحفر هناك، وقلبت الجثث بيديَّ. تعرَّفت على أمِّي من الخاتم في إصبعها... ما إن رأيت هذا الخاتم، صرخت صراخاً شديداً، ولا أذكر شيئاً غير ذلك. لا أذكر شيئاً... جاءت بعض النسوة، سحبن جثتها، ثمَّ غسلنها بالماء الذي يجمعنه بعلبة من الصفيح، ثمَّ دفنها. ما زلت أحتفظ بهذه العلبة.

أحياناً، في الليل، أرقد وأفكِّر: لقد استشهدت أمِّي ليس بسببي. لا، ليس بسببي... لو أنني خفت على أهلي وأقربائي، لما ذهبت للقتال، وإذا ما سلك هذا المسلك ثالث ورابع لما كان عندنا ما هو موجود الآن. لكن

Twitter: @ketab_n

أن أحدِّث نفسي... أن أنسى... كيف كانت أمِّي تسير... وكيف صدر الأمر... أنا أيضاً أطلقت النار في ذلك الاتجاه الذي ظهرت منه. شالها الأبيض... لن تعرفي أبداً كيف من الصعب العيش مع هذا كلِّه. ومع مرور الزمن تزداد صعوبة العيش. أحياناً، ليلاً، صوت ضحكة فتية أو صوت فتي تحت النافذة، فتشعرين برجفة كبيرة، وأنك غير قادرة على التنفُّس. رائحة الحريق تخنقكِ... ولا تعرفين رائحة الجسد الإنساني الحار المحترق، وبخاصة في الصيف. له رائحة من القلق والحلاوة. وأنا الآن، أعمل في اللجنة التنفيذية المنطقية عملاً، يلزمني، إذا ما حدث أي حريق، أن أذهب إلى مكان الحريق، وأصيغ وثيقة بما حدث. ولكن، إذا ما قيل لي إن مزرعة احترقت في مكان ما، وقُتل فيها حيوانات، فأنا لا أذهب لهناك أبداً، لأنني غير قادرة على ذلك... فاحتراق الحيوانات يذكِّرني بتلك الرائحة، رائحة احتراق الناس... ليلاً، تستيقظين، وتركضين لتجلبي العطر، ويبدو لك أن الرائحة هي رائحة العطر. في كلِّ مكان...

بقيت فترة طويلة أخاف من الزواج. خفت أن أُرزق بأطفال. وفجأة تندلع الحرب، وأذهب أنا إلى الجبهة. فماذا يحلُّ بالأطفال؟ الآن، أحببت قراءة الكتب عن الحياة بعد الموت. فماذا هناك؟ بمن سألتقي هناك؟ أريد الالتقاء بأمِّي وأخاف من هذا اللقاء. عندما كنت شابَّة، لم أكن أخاف، وقد تقدَّمت في السن...

أنطونينا ألكسييفنا كوندراشوفا، عنصر استطلاع ونصيرة في لواء بيتوشسكايا للمقاومة

انطباعي الأوَّل... رأيت ألمانياً للمرَّة الأولى. وكأن هناك من يضربني، جسدي كلُّه يؤلمني، كلُّ خلية. كيف ظهر الألمان هنا؟ الكراهية كانت

Twitter: @ketab_n

أقوى من الخوف على الأهل والأقارب والأحبَّة، ومن الخوف من الموت. بالطبع كنا نفكِّر في أهلنا وأحبَّتنا، ولكن لم يكن لدينا خيار آخر. العدوُّ جاء إلى أرضنا جالباً الشر... سنقاومه بالنار والسيف...

عندما أصبح من المعروف، على سبيل المثال، أن من المفترض اعتقالي، هربت إلى الغابة، إلى الأنصار، رجال المقاومة. خرجت من البيت تاركة أمِّي وحدها وعمرها خمسة وسبعون عاماً. اتَّفقنا على أن تتظاهر بأنها عمياء، طرشاء، ولن يمسُّوها بسوء. بالطبع، أنا هكذا طمأنت نفسي.

في اليوم التالي، ما إن خرجت، انقضَّ الفاشيون على بيتنا. تظاهرت أمِّي بأنها عمياء، ولا تسمع جيِّداً، كما اتفقنا. ضربها الفاشيون ضرباً مبرحاً، وهم يحقِّقون معها ويسألونها عن ابنتها. لقد مرضت أمِّي طويلاً...

يادفيغا ميخائيلوفنا سافيتسكايا، من عناصر المقاومة السرية

هكذا سأبقى أنا... هكذا، كما كنت آنذاك. ساذجة، نعم، رومانسية، نعم، حتى وإن شاب شعري... فهذه أنا!

صديقتي كاتيا سيماكوفا كانت عنصر ارتباط للمقاومة والأنصار. عندها ابنتان صغيرتان، أعمارهما نحو ستٍّ أو سبع سنوات. كانت تمسك بيديها هاتين الفتاتين، وتسير في المدينة وتحفظ أين وما هي التقنية العسكرية الموجودة في المدينة. يصرخ عليها الخفير الألماني، فتفتح فمها وتصرخ، وتتظاهر بأنها غبية لا تفهم. هذا تكرَّر عدَّة مرات... لقد ضحَّت الأمُّ بابنتيها...

كما كانت عندنا زاجارسكايا وعندها ابنتها فاليريا. كان عمر ابنتها سبع

Twitter: @ketab_n

سنوات. كان المطلوب تفجير مطعم. تقرَّر وضع اللغم في الفرن، ولكن لا بدَّ من إحضار اللغم. قالت الأم إن ابنتها ستحمل اللغم. وضعت اللغم في السلَّة، وفوقه طقمين من ملبوسات الأطفال، ولعبة مزغبة، وعشرين بيضة وقطعة من الزبدة. على هذا النحو حملت الفتاة الصغيرة اللغم إلى المطعم. يقال إن غريزة الأم هي الأقوى. لا، الفكرة أقوى! والعقيدة أقوى! هكذا أعتقد... بل إنني واثقة من أنه لو لم تكن مثل هذه الأم، مثل هذه الفتاة، لما تمكَّنوا من نقل اللغم إلى المطعم، ولما حقَّقنا النصر. نعم الحياة شيء رائع، شيء جميل! ولكن ثمَّة أشياء أغلى من الحياة...

ألكسندر إيفانوفنا خراموفا، أمينة لجنة الحزب السرِّية في مقاطعة أنتوبولسك

كان عندنا في فصيل الأنصار الأخوان تشيموكي... نصبا كميناً في قريتهما المحاصرة، كانا يطلقان النار في سقيفة قام الألمان بإحراقها. وبقيا يطلقان النار إلى أن نفدت ذخيرتهما... ثمَّ خرجا محروقين... وضعوهما على عربة، وساروا بهما في شوارع القرية، كي يعرضاهما، وكي يتعرَّف عليهما أهلهما أو أقرباؤهما، كي يكشف عنهما أحد معارفهما...

كانت القرية كلُّها واقفة تراقب المشهد. كما وقف والداهما، ولم ينطق أحد بحرف واحد. أيُّ قلبٍ كان عند الأم حتى تحتمل هذا المشهد ولا تصرخ، ولا تستجيب؟ لكنها، كانت تعرف، إذا ما بكت فسيحرقون القرية كلَّها. ولن يقتلوها وحدها فحسب، بل سيقتلون الجميع. فمن أجل جنديٍّ ألمانيٍّ واحد مقتول أحرقوا القرية كلَّها. كانت تعرف، أن ثمَّة مكافآت على كل شيء، لكن أسمى نجمة بطولة لا تفي حقَّ هذه الأم... لقاء صمتها...

بولينا كاسبيروفيتش، من فصيل الأنصار

Twitter: @ketab_n

انتسبنا إلى فصل الأنصار نحن الاثنتان؛ أنا وأمِّي... أمِّي كانت تغسل للجميع ثيابهم، وتهيِّئ لهم الطعام. وعند الضرورة تقف في المحرس. خرجت ذات مرَّة بمهمَّة قتالية، في حين قيل لأمِّي إنهم شنقوني. عندما عدت بعد بضعة أيَّام، ورأتني أمِّي، أصيبت بالشلل، وفقدت قدرتها على النطق لعدَّة ساعات. كان عليها أن تعيش هذا كلَّه...

التقطنا في الطريق امرأة فقدت وعيها. لم تكن قادرة على المشي، كانت تزحف وتظن أنها ميتة. كانت تحسُّ أن الدم يدور في جسدها، لكنها قرَّرت أنها تحسُّ به وهي في عالم آخر، وليس في هذا العالم...

وعندما استطعنا إخراجها من غيبوبتها، وعادت إلى وعيها لفترة قصيرة، سمعنا منها كيف أطلقوا النار عليهم، اقتادوها للإعدام رمياً بالرصاص هي وخمسة أطفال. وبينما كانوا يقتادونهم إلى عنبر، كانوا قد قتلوا الأطفال، وهم منتشين مسرورين... بقي الطفل الأخير، وهو طفل رضيع. أشار الضابط الفاشيُّ لأمِّه بأن ترميه، وسيطلق هو النار عليه. وقد رمت الأمُّ طفلها نحو الضابط بحيث تقتله بطفلها... وكيلا يتمكَّن الضابط من إطلاق النار... كانت تقول إنها لا تريد العيش، ولا يمكنها أن تعيش في هذا العالم بعد كلِّ ما حدث، وإنها ستعيش في العالم الآخر... لا تريد العيش...

لم أرغب أبداً في أن أَقتل، لم أولد من أجل أن أقتل. كنت أرغب في أن أصبح معلِّمة، لكنني رأيت كيف أحرقوا القرية... لم يكن في استطاعتي أن أصيح، أو أن أبكي: توجَّهنا في مهمَّة استطلاعية، واقتربنا بالذات من هذه القرية. كان في استطاعتي فقط قضم أصابعي، وقد بقيت على يديَّ ندبات حتى الآن. كنت أقضم أصابعي حتى الدم، حتى اللحم. أذكر، كيف كان الناس يصرخون... وكيف كانت تخور الأبقار... وتصيح الدجاجات...

Twitter: @ketab_n

كان يبدو لي أنها جميعها تصرخ بأصوات إنسانية. كلُّ ما هو حي يحترق ويصرخ.

ليس هذا ما أقوله أنا، إن مصيبتي هي التي تقول...

فالنتينا ميخائيلوفنا إيلكيفيتش، عنصر اتصال في فصيل الأنصار

كنا نعرف... كان الجميع يعرف بأن علينا أن ننتصر...

فيما بعد، ظن الناس، أننا تركنا والدنا، وكانت لديه مهمَّة من لجنة الحزب المنطقية. لم يتركه أحد، ولم تكن هناك أية مهمَّة. نحن بأنفسنا قرَّرنا أن نقاتل. لا أذكر أبداً إن كان هناك ذعر ورعب في أسرتنا. كانت هناك مصيبة كبيرة - هذا صحيح، ولكن لم يكن هناك أي ذعر، فالجميع كان يؤمن بأن النصر سيكون إلى جانبنا. في اليوم الأوَّل الذي دخل فيه الألمان إلى قريتنا، عزف والدي على الكمان نشيد "الأممية". كان بودِّه أن يفعل شيئاً تعبيراً عن رفضه وتمرُّده...

مضى شهران أو ثلاثة... أو...

لقد كان هذا صبياً يهودياً... ربطه الجندي الألماني بدرَّاجته، وكان الصبي يركض من ورائه كالكلب: «بسرعة! بسرعة!». يقول الألمانيُّ ضاحكاً... إنه ألمانيٌّ شاب... سرعان ما شعر بالملل فنزل عن درَّاجته وقال للصبي: «اركعْ على ركبتيك... ازحف على أربعْ، كالكلب... اقفز... أمسكها! أمسكها!». ورما له بعصا: «أحضرها!». نهض الصبيُّ وأحضر له العصا بيديه. غضب الألماني... وأخذ يضربه، ويشتمه، ويشير كيف عليه أن يفعل: أن يقفز على أربعة، وأن يحضر العصا بأسنانه. وحمل الصبيُّ العصا بأسنانه...

Twitter: @ketab_n

لعب هذا الألمانيُّ ساعتين مع الصبي. ثمَّ ربطه من جديد إلى الدرَّاجة، وتوجَّها إلى الخلف. كان الصبيُّ يركض كالكلب... باتجاه الغيتو...

وأنت تسألين لماذا بدأنا نقاتل؟ لقد تعلَّمنا إطلاق النار...

فالنتينا بافلوفنا كوجيمياكينا، مقاتلة في فصيل الأنصار

كيف أنسى... الجرحى كان يأكلون الملح بالملعقة... المقاتلون في الصفِّ يقدِّمون أنفسهم. يذكر المقاتل كنيته، يخرج من الصفِّ ويقع مع بندقيته من شدَّة ضعفه؛ من جوعه.

كان الشعب يساعدنا. ولولا مساعدته لما ظهرت حركة الأنصار، حركة المقاومة السرِّية. كان الشعب يحارب معنا. أحياناً كان يقدِّم دموعه، لكنه دوماً كان يضحي: «يا أبنائي، سوف نبكي معاً. سوف ننتظر النصر».

يقدِّمون آخر حبَّات البطاطا الصغيرة، ويقدِّمون الخبز. ويجمعون لنا أكياس الفطر من الغابة. يقول أحدهم: «أنا سأعطي هذه الكمِّية»، وآخر يقول: «وأنا هذه». «وأنت إيفان؟». «وأنتِ ماريا؟». «مثلي مثل الآخرين، ولكن عندي أطفال».

ومن نحن بدون السكَّان المحلِّيين؟ جيش كامل في الغابة، لكننا لولاهم لكنا هلكنا ومتنا. فهم كانوا يبذرون البذار ويحرثون الأرض، ويرعوننا ويرعون أطفالنا، ويؤمِّنون لنا اللباس طيلة سنوات الحرب. كانوا يحرثون الأرض ليلاً، حيث لا تُطلق النار. أذكر أننا وصلنا إلى إحدى القرى، حيث كانوا يدفنون رجلاً عجوزاً. لقد قُتل ليلاً، كان يبذر الذرة. وكان ممسكاً بحبوب الذرة في أصابعه، بحيث لم يستطيعوا فتح يده. ودفنوه مع حبَّات الذرة...

Twitter: @ketab_n

كان لدينا السلاح، كان في وسعنا الدفاع عن أنفسنا. وماذا بالنسبة إلى السكَّان؟ إذا ما أعطوا الخبز لرجال الأنصار، يحكم عليهم الألمان بالإعدام رمياً بالرصاص. لقد أمضيت ليلتي عندهم وذهبت، وإذا ما بلغهم من مخبر بأن فتاة من الأنصار نامت في هذا الكوخ، كانوا يطلقون النار على جميع سكَّانه. وفي هذا الكوخ امرأة بدون زوج، مع ثلاثة أطفال صغار. لم تكن تطردنا عندما نحضر لعندها، وتشعل المدفأة، وتغسل ثيابنا... وتقدِّم كلَّ ما لديها: «كلوا يا بنات». أمَّا البطاطا في الربيع فهي صغيرة مثل حبَّات الحمُّص. نحن نأكل والأطفال يجلسون على الموقد ويبكون؛ فحبَّات الحمُّص هذه هي الأخيرة...

ألكسندرا نيكيفوروفنا زاخاروفا، قائد فصيل الأنصار للفوج 225 في مقاطعة غومل

المهمَّة الأولى؛ أحضروا لي مناشير. قمت بخياطتها في الوسادة. أمِّي هيَّأت السرير، ولمست الوسادة. فتحتها ورأت هذه المناشير. وبدأت تبكي: «أنت تقتلين نفسك وتقتلينني». لكنها ساعدتني فيما بعد.

كثيراً ما كان يأتي إلينا عناصر ارتباط الأنصار. يضعون الحصان على العربة، يدخلون لعندنا. وهل تظنين أن الجيران لم يلحظوا ذلك؟ لقد رأوا وأدركوا. قلت لهم إنه من عند أخي من القرية. لكن الجميع كانوا يعرفون جيِّداً أنه ليس لديَّ أخ في القرية. إنني أعبِّر عن شكري الجزيل لهم، وعليَّ أن أنحني احتراماً لجميع سكَّان شارعنا. كلمة واحدة فقط كانت تكفي للقضاء علينا، على الأسرة كلِّها. كانت تكفي إشارة واحدة بالإصبع باتجاه بيتنا... ولكن لم يقم أحد بذلك... إطلاقاً... لقد أحببت الناس في الحرب كثيراً، بحيث لا يمكنني أبداً أن أتخلَّى عن حبِّهم...

Twitter: @ketab_n

بعد التحرير... أصبحت أسير في الشارع وألتفت يمنةً ويسرة: لم يعد في استطاعتي ألا أخاف، لم يعد في استطاعتي السير بهدوء في الشارع. أمشي وأعدُّ السيَّارات، إلى محطَّة القطار.. ولم أتخلَّ عن هذه العادة زمناً طويلاً...

فيرا غريغوريفنا سيدوفا، مقاتلة في الأنصار

بدأت أبكي... دموعي تسبق لساني...

دخلنا إلى كوخ، ولم يكن فيه أيُّ شيء، مقعدان خشبيان مستويان عاريان، وطاولة. أظن أنه لم تكن هناك أكواب لشرب الماء. لقد أخذوا كلَّ شيء من بيوت الناس، باستثناء أيقونة في الزاوية، ومنشفة عُلِّقت عليها.

يجلس الجدُّ مع الجدَّة. أحد عناصر الأنصار، نزع جزمته، وكانت لفافتا قدميه مهترئتين، بحيث لم يعد في وسعه تدويرهما. والمطر يهطل، والأرض موحلة، والجزمة مثقوبة. تقترب هذه الجدَّة من الأيقونة، وترفع عنها المنشفة، وتعطيها له: «يا بنيَّ، كيف ستمشي بدونِ لفافة؟».

لم يكن هناك أيُّ شيء آخر في هذا الكوخ...

فيرا سافرونوفا دافيدوفا، مقاتلة في الأنصار

في الأيَّام الأولى... نقلت جريحين إلى خارج القرية... إحداهما كان جريحاً في رأسه، أمَّا الجنديُّ الثاني فكانت شظية في ساقه. تمكَّنت بنفسي من إخراج الشظية، وطهَّرت الجرح بالكيروسين (زيت الكاز) لعدم وجود شيء آخر لديَّ. وكنت أعرف أن للكيروسين خاصِّية المطهِّر...

قمت برعايتهما، حتى تمكَّنا من الوقوف على قدميهما. ذهب الأوَّل إلى الغابة، ثمَّ ذهب الثاني. وقبل أن يذهب الثاني، أراد على الفور عند ذهابه أن يقبِّلني في قدمي: «أختي العزيزة! لقد أنقذت حياتي».

Twitter: @ketab_n

لم يكن هنا اسم أو أي شيء آخر - يدعو أحدنا الآخر أختي... أخي.

تجتمع النساء في المساء عندي في الكوخ: «يقال إن الألمان احتلُّوا موسكو».

* «أبداً، مستحيل!».

ومع هؤلاء النسوة، نهضت بالكولخوز بعد التحرير، حيث عيَّنوني رئيسة للكولخوز. كان معنا أيضاً أربعة رجال هرمين وخمسة فتيان تتراوح أعمارهم بين عشرة إلى ثلاثة عشر عاماً. هؤلاء كانوا الحرَّاثين عندنا. كان لدينا عشرون حصاناً جميلاً، لكنها كانت في حاجة إلى العلاج. وهذا هو كلُّ اقتصادنا. لم يكن لدينا عجلات ولا عربات ولا مشابك. لقد كانت النساء تحرث الأرض بالرفوش، وتسلفنها بالأبقار والثيران، وتفككن البراغي واللوالب بأذيال الثيران، وما إن يرقدن حتى يصعب إيقاظهن. أمَّا الفتيان فكانوا يحرثون في النهار، وفي الأمسيات يحلُّون العقد، الطعام كان واحداً للجميع، البراسناكي. أنت لا تعرفين ما هي البراسناكي: بذور الحمِّيض، وبعض الأعشاب، والبرسيم المقروص. وكلُّ هذا يُسحق بالهاون ثمَّ يُخبز في الموقد على شكل براسناكي... أشبه بالخبز المر...

في الخريف، حلَّ وقت التوزيع: يجب قطع خمسمئة وثمانين متراً مكعباً من الخشب. ومع من؟ أخذت صبياً في الثانية عشرة من عمره وصبية عمرها عشر سنوات. والنسوة الأخريات بالطريقة نفسها. وسلَّمنا كمية الحطب المطلوبة...

فيرا ميتروفانوفنا تولكاتشوفا، عنصر اتصال في فصيل الأنصار

يتحدَّث يوسف غيورغوفيتش ياسيوكيفيتش وابنته ماريا - في أثناء

Twitter: @ketab_n

الحرب عنصرا اتصال في فصيل بتراكوف التابع للواء روكوسوفسكي للأنصار

يوسف غيورغيفيتش:

قدَّمنا كلَّ شيء من أجل النصر... الأكثر قرباً وقرابة. أبنائي كانوا يحاربون في الجبهة. قاموا بإعدام أبناء أختي لتواصلهم مع الأنصار. قام الفاشيون بإحراق أختي، أمِّهم، في كوخهم نفسه... ويروي الشهود أن أختي بقيت واقفة كالشمعة وهي تمسك بالأيقونة إلى أن غطَّاها الدخان. وبعد الحرب: عندما تشرق الشمس، يبدو لي أن شيئاً يحترق...

ماريا:

كنت فتاة صغيرة، في الثالثة عشر من عمري. كنت أعرف أن أبي يساعد الأنصار، وأدرك ذلك. كان يأتي لعندنا أشخاص ليلاً. فيتركون بعض الأشياء ويأخذون معهم أشياء أخرى. كثيراً ما كان أبي يأخذني معه، ويجلسني على العربة: «اجلسي ولا تتحرَّكي من هذا المكان». وعندما نصل إلى المكان المطلوب، يُخرج منه أسلحة أو منشورات.

ثمَّ بدأ يرسلني إلى المحطَّة. وعلَّمني ما الذي عليَّ أن أحفظه. فأجلس بهدوء وحذر بين الشجيرات، وأعدُّ عربات السكك الحديدية التي وصلت، وأحفظ حمولتها، وهو ظاهر للعيان: أسلحة، دبَّابات، جنود. وكان الألمان يطلقون النار على الأشجار القريبة مرَّتين إلى ثلاث مرَّات في اليوم.

- «أوَ لم تشعري بالخوف؟».

أنا فتاة صغيرة، أنتقَّل دوماً بحيث لا يلاحظني أحد. أمَّا ذلك اليوم... أنا أذكره جيِّداً... حاول والدي مرَّتين الخروج من المزرعة حيث كنا نعيش. في أسفل الغابة كان ينتظره رجال المقاومة. انطلق مرَّتين، وكان رجال الشرطة يرجعونه ولا يسمحون له بالمغادرة. بدأ يحلُّ الظلام.

Twitter: @ketab_n

وبدأ يناديني: «ماريـــــ...يكا...». أمّا أمّي فتجيبه: «لن أسمح للطفلة بالخروج!». وتجرُّني بعيداً عن والدي...

لكنني ركضت عبر الغابة، كما أراد. فقد كنت أعرف جميع الطرق فيها، لكنني حقيقة كنت أخاف من الظلمة. عثرت على رجال المقاومة، كانوا في انتظاري، وسلَّمتهم كلَّ ما طلبه مني أبي. وعندما عدت إلى البيت كان قد بدأ يطلع الفجر. فكيف أتجاوز دوريات الشرطة الألمان؟ درت حول الغابة عدَّة مرَّات ثمَّ سقطت في البحيرة، معطف والدي، والجزمة... كلُّ هذا غرق وسقط في الماء... تسلَّقت من ثقب في الجليد... وركضت حافية على الثلج... ومرضت مرضاً شديداً، وما إن وصلت إلى السرير لم أستطع النهوض منه. ساقاي أُصيبا بالشلل. لم يكن هناك أطبَّاء وأدوية في ذلك الحين. كانت أمّي تعالجني بمنقوع الأعشاب، وتضع الطين عليهما.

بعد الحرب، أخذوني إلى الأطباء، ولكن كان قد مضى وقت طويل على إصابتي. وهكذا بقيت مستلقية... يمكنني الجلوس لفترة قصيرة، ثمَّ أستلقي وأنظر إلى النافذة... أتذكَّر الحرب...

يوسف غيورغيفيتش:

«إنني أحملها على الراحات منذ أربعين عاماً... إنها ابنتي... قبل عامين تُوفِّيت زوجتي. وقالت لي قبل موتها إنها سامحتني على جميع ذنوبي في فترة الشباب... باستثناء ذنبي بحقِّ ماريا... لم تسامحني. لقد أدركت هذا من عينيها... وأنا أخشى أن أموت وتبقى ماريا وحيدة. من سيحملها على يديه؟ من سيرسم الصليب في الليل، ويرجو لها الشفاء؟».

الأمَّهات والآباء

قرية راتينتسي في إقليم فولوجينسكي في مقاطعة منسك. ساعة

Twitter: @ketab_n

بالمواصلات عن العاصمة. قرية بيلاروسية عادية؛ بيوت خشبية، حدائق أمامية مزهرة، ديكة وأوزٌّ في الشوارع. الأطفال يلعبون بالرمل. النساء العجائز أمام بسطاتهنَّ الخشبية. قدمت لعند إحداهن، لكن الشارع كلَّه اجتمع من حولي. تحدَّثنا طويلاً وبصوت واحد.

كلٌّ واحدة تحدَّثت عن قصَّتها، لكنها كلَّها قصَّة واحدة؛ حول كيف كُنَّ يحرثن الأرض، ويغرسن، ويخبزن الخبز للأنصار ورجال المقاومة، وكيف كُنَّ يحافظن على الأطفال، ويتردَّدن على الغجريات وقارئات الحظ، ويفسِّرن أحلامهن، ويطلبن الحماية من الرب. وكُنَّ ينتظرن عودة أزواجهنَّ من الحرب.

تمكّنت من تسجيل الأسماء الثلاثة الأولى: يلينا آداموفنا فيليتشكو، يوستينا لوكيانوفنا غريغوريفيتش، ماريا فيودوروفنا مازورو. وبعد ذلك لم أستطع معرفة الأسماء بسبب البكاء...

آه، يا ابنتي! حبيبتي، لا أحبُّ يوم النصر. إنني أبكي! آه، كم أبكي! عندما أفكِّر في أنه سيعود. السعادة من خلف الجبال، أمَّا الكارثة فخلف ظهرك...

الألمان أحرقونا. وأخذوا كلَّ ما لدينا. بقينا نحن على الحجر الرمادي وحده. جئنا من الغابة. البيت عارٍ من كلِّ شيء. لم يبقَ سوى القطط. وماذا كنتم تأكلون؟ صيفاً، أذهب وأجمع الثمار البرِّية والفطر، فكوخي مليء بالأطفال.

انتهت الحرب، وذهبنا إلى المزرعة التعاونية. كنت أحفر الأرض وأحصد وأدرس. كنت أجرُّ المحراث على كتفي بدلاً من الحصان، لم يكن عندنا جياد، وقد قتلهم الجائعون، وأطلقوا النار على الكلاب.

Twitter: @ketab_n

كانت أمِّي تقول لي: ما إن أموت، لا أدري ما سيحصل لروحي، أمَّا يداي فستستريحان. ابنتي كان عمرها عشر سنوات، كانت تحصد معي. جاء رئيس الورشة ليرى كيف أن هذه المرأة الصغيرة تنفِّذ الخطَّة بحلول المساء. ونحن نجني ونقطف، وتغيب الشمس خلف الغابة، ونحن ننتظر أن تشرق وتعلو ثانية. كان النهار لا يكفينا. كنا ننجز في اليوم الواحد عملاً مضاعفاً، ولم يدفعوا لنا شيئاً، كانوا يضعون إشارة على الأيَّام التي نعمل فيها. تذهبين طيلة فصل الصيف إلى الحقل، ولا تحصلين في الخريف على كيس واحد من الطحين. لم يكن لدينا ما نطعمه للأطفال سوى البطاطا التي تربوا عليها...

وها هي الحرب قد انتهت. وبقيت أنا وحيدة. أنا – البقرة، وأنا – الثور، أنا ربَّة المنزل، وأنا الفلاح. يا للحياة البائسة!

الحرب كارثة... لا يوجد في كوخي سوى الأطفال. ولا وجود لمقعد، ولا خزانة. لقد تعرَّينا من كلِّ شيء. كنا نأكل ثمار البلُّوط، والأعشاب في الربيع... ذهبت ابنتي إلى المدرسة، وتلك المرَّة الأولى التي اشتريت لها فيها حذاءً. كان تريد أن تنام فيه، ولم ترغب في خلعه ليلاً. هكذا عشنا! الحياة تنتهي، ولا ترغب في تذكُّر شيء. إنها الحرب وحدها...

سَرَت شائعة تقول إنهم اقتادوا أسرانا إلى مكان معيَّن، ومن يعترف هناك بمن يخصُّه يمكنه أخذه. نهضت النسوة عندنا، تراكضن إلى المكان المحدَّد! في المساء، بعض النسوة جلبن من لهنَّ من أبناء أو أهل، وبعضهن جلب غرباء، وتحدَّثن عمَّا رأين، بحيث يستحيل التصديق: الناس يتعفَّنون أحياء، يموتون من الجوع، اقتطعوا جميع أوراق الشجر... الأعشاب

Twitter: @ketab_n

أكلوها... يلتقطون الجذور من التربة... ذهبت أنا في اليوم التالي، لم أجد ابني، ففكَّرت في نفسي: فلأنقذْ ابن غيري. راقني صبيٌّ أسمر اللون، اسمه ساشا، مثل اسم حفيدي. عمره ثمانية عشر عاماً.. قدَّمت للألماني الشحم والبيض، وأقسمت، فقال: «خذيه». رسمت علامة الصليب، وصلنا إلى البيت، كان ضعيفاً جدّاً، لم يستطع أكل بيضة واحدة. لم يمضِ شهر على هؤلاء الأشخاص الذين أخذناهم، ظهر شخص لئيم، كان يعيش معنا مثل الجميع، وعنده ولدان... ذهب إلى الحاكم الألماني، وصرَّح أننا أخذنا أشخاصاً غرباء، وأن الألمان سيأتون في اليوم التالي على الدرَّاجات النارية. علينا أن نرجوهم، ونركع على ركبنا، لكنهم خدعونا وقالوا إنهم سينقلونهم إلى منطقة أقرب إلى بيوتهم. لقد أعطيت طقم الجد لساشا... ظننت أنه سوف يعيش...

بيد أنهم نقلوهم إلى خارج القرية، وأطلقوا عليهم جميعاً النار بالرشَّاشات... إنهم فتيان شباب، جيِّدون! وقرَّرنا أن ندفن كلَّ من كان عندنا، وهم تسعة أشخاص. خمسة منهم كانوا يمدُّون برقابهم، وأربعة ينظرون من حولهم حتى لا يهاجمهم الألمان. كان من المستحيل رفعهم من أيديهم، فقد كان الحرُّ شديداً، وبقوا راقدين أربعة أيَّام... ونخشى استخدام الرفوش في البحث عنهم. نضعه على الطاولة ونجرُّه. وأخذنا معنا الماء، وربطنا أنوفنا، كيلا نسقط نحن في الحفرة... قمنا بحفر قبر كبير في الغابة، وصففناهم جنباً إلى جنب... وغطَّينا رؤوسهم بالشراشف... وأرجلهم...

عام كامل بقينا نذكرهم ونبكي عليهم: وكلٌّ منا كانت تفكِّر: وأين زوجي أو ابني؟ هل هم أحياء؟ لأنكِ قد تنتظرين قدومه من الحرب، ولا تنتظرينه أبداً من تحت التراب... آه... آه... آه.

Twitter: @ketab_n

كان زوجي جيِّداً، طيِّباً. تمكَّنا من العيش معاً عاماً ونصف العام. عندما ذهب إلى الجبهة، كنت أحمل ابنتي في بطني. إنه لم ينتظر ولادتها، فقد ولدت بدونه. هو ذهب صيفاً، وأنا ولدتها خريفاً.

كنت أمسك بها، وأرضعها من ثديي، وعمرها نحو سنة. أجلس على السرير وأرضعها... طرق على النافذة: «لينا، أحضروا الوثيقة... باسم زوجك...». النسوة لم يسمحن لموزِّع البريد بالدخول، وهنَّ قمن بإخباري، وكما كنت واقفة، كما كنت أمسك بابنتي، بدأ الحليب يتساقط من ثديي على الأرض. وصرخت الرضيعة صرخة قوية؛ فقد شعرت بالخوف. ولم تعد ترضع من ثديي أبداً. وقد قالوا لي إن هذا قد حدث في عيد السبت القويم. في نيسان... كانت الشمس قد بدأت تضيء... قرأت في الورقة أن زوجي إيفان استُشهد في بولونيا. وقبره بالقرب من مدينة غدانسك. استُشهد في السابع عشر من آذار/ مارس في العام الخامس والأربعين... ورقة صغيرة ناعمة... كنا قد بدأنا ننتظر النصر، وسيأتي رجالنا قريباً. وقد أزهرت الأشجار في الحدائق...

ابنتي، بعد الرعبة التي أصيبت بها، مرضت فترة طويلة إلى أن ذهبت إلى المدرسة. عندما يُقرع الباب بقوَّة أو يصرخ أحد بقوَّة منه - إنها مريضة - كانت تبكي طيلة الليل. لقد تعذَّبت معها طويلاً، نحو سبعة أعوام لم تعرف عيناي النوم. وقد غطَّاهما السواد.

قيل لنا: النصر! بدأ الرجال يعودون إلى بيوتهم. لكن العائدين كانوا أقل من الذاهبين. كانوا نصف من ذهب. أخي يوزيك كان أوَّل من عاد من الحرب. حقيقة، لقد عاد مشلولاً. وكان عنده ابنة مثل ابنتي. مرَّت أربعة أعوام ثمَّ جاء العام الخامس، وأخذت ابنتي تتردَّد إلى بيت أخي، وذات مرَّة، جاءت راكضة تبكي: «لن أذهب إليهم بعد الآن». فسألتها: «لماذا تبكين؟». أجابت: «إن أولتشكا - اسم ابنتهما أولتشكا - يأخذها أبوها

Twitter: @ketab_n

ويجلسها على ركبتيه ويعطف عليها. وليس عندي أب. أنا عندي أم فقط».
تعانقنا...

واستمرَّت هذه الحالة عامين أو ثلاثة أعوام. ذات مرَّة، ركضت ابنتي من الشارع نحوي وهي تقول: «سأبقى في البيت؟ فقد يأتي أبي، وأنا في الشارع مع الأطفال الآخرين، ولن يعرفني. فهو لم يرني أبداً». لا يمكنني أن أطردها من الكوخ إلى الشارع لتلعب مع الأطفال. كانت تجلس على هذا النحو أيَّاماً طويلة. كانت تنتظر أباها. ولم يعد أبوها أبداً...

عندما ذهب زوجي إلى الحرب، بكى بكاءً شديداً، لأنه يترك أطفالاً صغاراً. كان يشفق عليهم. وكان الأطفال صغاراً بحيث أنهم لم يعرفوا أن لديهم أباً. والأهم أنهم جميعاً كانوا صبياناً. الأصغر كنت أحمله على يديَّ. وقد أخذه مني وضمَّه إلى صدره، وأنا أركض وراءهما، وقد بدأوا يصرخون: «الجميع إلى الصف!». وهو غير قادر على ترك ابنه، فوقف في الصف مع ابنه... صرخ به العسكري، وهو يذرف الدموع على ابنه. جميع الحفاضات أصبحت رطبة. ركضتُ مع الأطفال خلفه إلى ما بعد القرية، ركضنا نحو خمسة كيلومترات، وكانت معنا نساء أخريات. بدأ أبنائي يتساقطون، وأنا أحمل الصغير بين يديَّ بصعوبة كبيرة. أمَّا زوجي فولوديا فكان يلتفت صوبنا، وأنا أركض وأركض. وقد أصبحت الأخيرة... ورميت بالأطفال على قارعة الطريق، وألحق بزوجي مع ابني الصغير وحده...

بعد عام جاءت إخبارية: زوجك فلاديمير غريغوريفيتش استُشهد في ألمانيا، بالقرب من برلين. وأنا لم أرَ قبره. عاد أحد جيراننا من الحرب، سليماً معافى، وعاد الثاني بدون ساقين. شعرت بالأسى الشديد: لو عاد زوجي، وإن كان بدون ساقين، المهمُّ أن يكون حياً. لكنت حملته على الراحات...

Twitter: @ketab_n

بقي عندي ثلاثة أبناء... الربطات والحُزَم كنت أحملها فوق ظهري، والحَطَب من الغابة أحمله، وكذلك البطاطا والتبن. كلُّ شيء حملته بنفسي... المحراث كنت أربطه على كتفي، وكذلك المسلفة كنت أحملها. وهل تستغربين؟! عندنا تجدين بين كل كوخين أو ثلاثة أكواخ أرملة أو جندياً. بقينا نحن من دون رجال. ومن دون جياد. فقد أخذوا الجياد كلَّها في أثناء الحرب. وكذلك أنا... لقد كنت طليعية. وقد مُنحت مرَّتين شهادتَي تقدير. وفي إحداهن أعطوني أيضاً عشرة أمتار من قماش الدمُّور. وكان فرحة كبيرة بالنسبة إليَّ! فقد خِطت قمصاناً لأبنائي الثلاثة.

بعد الحرب... كبُر أبناء أولئك الذين استشهدوا، ونموا، إنهم الفتيان في الثالثة عشرة والرابعة عشرة من أعمارهم، وقد أخذوا يفكِّرون في أنهم أصبحوا راشدين، وأرادوا أن يتزوَّجوا. لا وجود للرجال، أمَّا النسوة فما زلن شابَّات...

ولو سألوني: أعطنا بقرة على ألا تكون هناك حرب، لأعطيتها! كيلا يعرف أولادي ما حدث لي. في الليل والنهار، لا أسمع سوى بالكوارث...

أنظر إلى النافذة، وكأنه جالس هناك... يحدث أن يظهر أحياناً، مساءً... لقد هرِمت، لكنني أراه شابَّاً دوماً. كما كان يوم أرسلته إلى الجبهة. وإذا ما تحقَّق هذا الحلم، فهو أيضاً شاب. وأنا أيضاً شابَّة...

لقد أُرسلت إلى جميع النسوة أوراق نعي، أمَّا أنا فقد أرسلوا إليَّ ورقة "مفقود، لم يُعثر له على أثر" كُتبت بحبر أزرق. في السنوات العشر الأولى، كنت أنتظر كل يوم. والآن أنتظر. طالما الإنسان على قيد الحياة، فيمكنه أن يأمل، ويعلق الأمل على كلِّ شيء...

Twitter: @ketab_n

وكيف يمكن للمرأة أن تعيش وحيدة؟ إنسان حضر، ساعدني أو لم يساعدني. المصيبة واحدة. كلٌّ يرمي كلمة... الناس يتعارفون، والكلاب تتكاثر... لو ألقى زوجي إيفان نظرةً إلى أحفاده الخمسة.

في المرَّة القادمة سأجلس خلف صورته الشخصية، وسأطلعه على صورهم. سأتحادث معه...

آه... آه... آه... يا ربَّنا... يا رحيم...

بعد الحرب مباشرة رأيت حلماً: أخرج إلى باحة الكوخ، وزوجي يسير في الباحة ببذلته العسكرية... وهو يناديني، ويناديني. نهضت من تحت اللحاف، فتحت النافذة، بهدوء كامل، حتى الطيور لم تكن تسمع. إنها نائمة. الهواء ينتقل بين أوراق الشجر... يصفِّر...

صباحاً، أخذت عشر بيضات وذهبت إلى الغجرية.

صاحت الغجرية على الورق: «لم يعد له وجود. لا تنتظري عبثاً. إنها روحه تتردَّد وتحوم حول البيت». وقد توافقت معه على الحب، على الحبِّ الكبير...

علَّمتْني إحدى العرَّافات: «البسي ثوباً أسودَ واجلسي مقابل مرآة كبيرة. وسيظهر منها... لا داعي لأن تلمسيه أو تلمسي ثيابه. فقط تحدَّثي معه...». جلست الليل كلَّه... جاء مع أولى تباشير الصباح... لم يقل أيَّ شيء. بقي صامتاً ودموعه تسيل. ظهر نحو ثلاث مرَّات على هذا الشكل. أناديه - يحضر، يبكي. وتوقَّفت عن ندائه واستدعائه. أشفق عليه...

Twitter: @ketab_n

وأنا أنتظر اللقاء مع زوجي... سوف أحدِّثه صباحاً ومساءً. لا أريد منه أي شيء - فقط فليجلس وليسمعني. هو يبدو أنه مثلي أنا، قد هرِم.

أرضي العزيزة... أبحث عن البطاطا، عن جذر الشمندر... إنه هناك... وسرعان ما سآتي لعنده... تقول لي أختي: «أنتِ، انظري في السماء وليس في الأرض. إلى الأعلى». هذا هو كوخي... على مقربة... ابقي عندنا. كلّما أمضيتِ ليلة هنا ستعرفين أكثر. الدم دم وليس ماء، ومن المؤسف إراقته، في حين أنه يُراق. إنني أرى في التلفزيون... كلَّ يوم...

يمكنك عدم الكتابة عنّا... والأفضل احفظي... هَأنذا معكِ قد تبادلت الحديث والبكاء. وأنت عندما تنوين مفارقتنا ووداعنا، ألقِ نظرة إلينا وإلى أكواخنا. لا تكتفِ بنظرة واحدة كالغريبة، بل انظري مرَّتين. كصاحب البيت. ولا يُطلب منك أكثر. ألقِ نظرة...

حول الحياة القصيرة والفكرة الكبيرة

كنت دوماً أثق... كنت أثق بستالين... كنت أثق بالشيوعيين. أنا نفسي، كنت شيوعية. كنت أؤمن بالشيوعية... وعشت من أجلها، وكافحت وعشت من أجلها. بعد تقرير خروتشوف إلى المؤتمر العشرين للحزب، عندما تحدَّث عن أخطاء ستالين، مرضت، واستلقيت في السرير. لم يكن في استطاعتي التصديق بأنها الحقيقة. في الحرب، أنا أيضاً كنت أصرخ: «من أجل الوطن! من أجل ستالين». لم يكن يرغمني أحد... كنت أؤمن بذلك.... إنها حياتي أنا...

ها هي...

حاربت في صفوف الأنصار عامين. في المعركة الأخيرة، جُرحت

Twitter: @ketab_n

في ساقي، وفقدت وعيي، وكان الصقيع شديداً، عندما استيقظت، شعرت أن يديَّ متجمِّدتان. هما الآن يدان حيتان، جيِّدتان، أمَّا آنذاك فكانتا سوداوين... وساقاي أيضاً كانتا متجمِّدتين. وربَّما، لولا الصقيع، لتمكَّنت من إنقاذ ساقيَّ، فقد كانتا مدمّاتين، وأنا بقيت مستلقية فترة طويلة. عندما عثروا عليَّ وضعوني مع الجرحى، وضعونا جميعاً في مكان واحد، كانت أعدادنا كثيرة، والألمان يحاصروننا من جديد. يبتعد فصيل الأنصار... ويقتحم... أمَّا نحن فقد تركونا كما الحطب، كما الزلاجة، ولا وقت لديهم للنظر إلينا، وللشفقة علينا، الجميع يذهبون إلى أعماق الغابة، يختفون. نقلونا من مكان إلى آخر، ثمَّ أعلموا موسكو عن جرحي؛ فقد كنت نائبة في مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي. كنت إنسانة مهمة، كانوا يفتخرون بي. وأنا من القاع نفسه، فلَّاحة بسيطة. من أسرة فلَّاحية. وقد انتسبت إلى الحزب في عمر مبكِّر...

فقدت الساقين... بتروا الساقين... أنقذوني هناك في الغابة... كانت العملية في أكثر الظروف البدائية. وضعوني على طاولة العمليات، حتى اليود لم يكن موجوداً... وبمنشار عادي قطعوا الساقين الاثنتين... وضعوني على الطاولة، ولا وجود لصبغة اليود. وساروا مسافة ستة كيلومترات إلى فصيل أنصار آخر، من أجل إحضار اليود، وأنا راقدة على طاولة العمليات، ومن دون مخدِّر... ومن دون بديل المخدِّر - زجاجة الفودكا المنزلية. لم يكن هناك أي شيء متوفِّر، سوى منشار النجَّارين....

اتصلت بموسكو كي يرسلوا إليَّ طائرة. هبطت الطائرة من الأعلى ثلاث مرَّات، ودارت عدَّة مرَّات، ولم تستطع الهبوط. كانوا يطلقون النار من حولها. في المرَّة الرابعة، تمكَّنت من الهبوط والتوقُّف، لكن قدميَّ كانتا قد بُترتا. ثمَّ في إيفانوف، وفي طشقند، أعادوا عملية البتر أربع مرَّات. وللمرَّة الرابعة كانت تبدأ الغنغرينا تستشري. كانوا يبترون في كلِّ مرَّة

Twitter: @ketab_n

قطعة صغيرة؛ وكانت النتيجة أن البتر مرتفع جدّاً. للمرَّة الأولى أخذت أبكي وأنتحب... تصوَّرت كيف سأزحف على الأرض، لن أتمكَّن من السير، لكنني سأزحف. وأنا نفسي، لا أعرف، ما الذي ساعدني، وجعلني أتماسك... وكيف أقنعت نفسي بنفسي... بالطبع، التقيت بأناس طيِّبين للغاية. هناك كثير من الناس الطيِّبين. كان عندنا طبيب جرَّاح، هو نفسه مبتور القدمين، وكان يتحدَّث عني بقوله إن الأطبَّاء الآخرين قد أبلغوه: «أنا أنحني احتراماً أمامها. كم أجريت عمليات بتر للقدمين للرجال، لكنني لم أرَ مثل هذه. إنها لم تطلق صرخة واحدة». نعم لقد صمدت... تعودت أن أكون قوية أمام الناس...

عدت بعد ذلك إلى ديسنا؛ إلى بلدتي. عدت مع عكَّازتين.

الآن، أنا أسير بشكل سيِّئ، لأنني أصبحت عجوزاً هرمة. أمَّا آنذاك، فقد كنت أركض في المدينة وفي كلِّ مكان سيراً على الأقدام. كنت أذهب ركضاً إلى جلسات الجراحة التجميلية. وأتوجَّه إلى المزارع التعاونية. وضعوني في منصب نائب رئيس اللجنة المنطقية التنفيذية لنواب الشعب، للقيام بعمل كبير. لم أكن أجلس في مكتبي. كنت أنتقل دوماً بين القرى والحقول. حتى أنني كنت أغضب، إذا شعرت بشيء من المراعاة. كانت أعداد رؤساء الكولخوزات المتعلِّمين قليلة، وإذا ما كان هناك مشروع مهم ما، فكانوا يرسلون من اللجنة التنفيذية بدلاً من رؤساء الكولخوزات. ففي أيَّام الاثنين كانوا يستدعوننا إلى اللجنة التنفيذية ويعطوننا المهمَّات، حسب المكان المناسب. أجلس صباحاً، أنظر في النافذة، الجميع يتدفَّقون إلى اللجنة التنفيذية لنوَّاب الشعب، ولا أحد يتَّصل بي. وأشعر بشيء من الألم، كان بودِّي أن أكون مثل الجميع.

أخيراً، رنَّ جرس الهاتف. السكرتير الأوَّل يتَّصل: «فيكلا فيودوروفنا. تفضَّلي إلى مكتبي». كم كنت سعيدة آنذاك! رغم صعوبة التنقُّل الكبيرة

Twitter: @ketab_n

بالنسبة إليَّ للانتقال بين القرى، فقد سبق أن أرسلوني لمسافات تزيد على عشرين وعلى ثلاثين كيلومتراً، حيث يحدث أن يتطلَّب الأمر السير على الأقدام. أذهب إلى مكان ما في الغابة، أقع ولا يمكنني النهوض. فأضع حقيبتي كي أرتكز عليها، أو أتشبَّث بشجرة، وأنهض وأتابع سيري. كنت أحصل على راتب تقاعدي، وكان يمكنني أن أعيش عليه بمفردي فقط. لكنني أردت العيش أيضاً للآخرين. فأنا شيوعية...

ليس لديَّ شيءٌ من ممتلكاتي. أوسمة وميداليات وشهادات. الشقَّة التي أسكنها للدولة. الشقَّة كبيرة، لأنها تخلو من الأطفال، ولهذا تبدو كبيرة... أمَّا الأسقف فيها فهي عالية. أعيش في الشقَّة مع أختي. فهي أختي، وأمِّي، وممرِّضتي... صباحاً، لا يمكنني الاستيقاظ بنفسي...

نعيش نحن الاثنتين، نعيش الماضي. عندنا ماضٍ جميل. الحياة قاسية، لكن حياتي جميلة وشريفة، ولا أنقم على نفسي بشيء. خلال حياتي كلِّها... عشت حياة شريفة.

فيكلا فيودوروفنا ستروي، من عناصر الأنصار والمقاومة

إن الزمن هو الذي جعلنا كما كنا عليه. لقد أظهرنا أنفسنا ومقدراتنا. ولن يأتي مثله أبداً. لن يتكرَّر. عندها فكرتنا كانت شابَّة فتية، ونحن كنا شباباً. لقد تُوفِّي لينين في الأمس القريب. ستالين لا يزال حياً... بأيِّ فخر كنت أرتدي "فولار الطلائع"، ورمز منظمة الشبيبة الشيوعية!

وها هي الحرب. وها نحن... بالطبع، سرعان ما ظهرت المقاومة السرية عندنا في جيتومير. وقد كنت هناك على الفور، حتى أنه لم يطرح عليه سؤال: أذهب أم لا، مخيف رهيب أم لا؟ لم يُطرح هذا الأمر للنقاش...

Twitter: @ketab_n

بعد بضعة أشهر تمَّ رصد مجموعتنا السرِّية للمقاومة. فقد ظهر خائن بين المجموعة، واعتقلني الغيستابو. كان وضعي رهيباً بالطبع، وهذا بالنسبة إليَّ أشد رهبة من الموت. كنت أخاف التعذيب... وفجأة قد لا أحتمل العذاب؟ هكذا كان يفكِّر كل واحد من مجموعتنا عندما يكون بمفرده... فأنا، على سبيل المثال، منذ طفولتي لم أكن أحتمل الألم. لكننا لم نكن نعرف أنفسنا بعد، لم نكن نعرف كم نحن أقوياء!

في الاستجواب الأخير، والذي بعده تم إدراج اسمي للمرَّة الثالثة في قائمة الذين سيعدمون رمياً بالرصاص، ولدى المحقِّق الثالث، الذي قال إنه مؤرِّخ من حيث الاختصاص، حدث الأمر كما يلي... أراد هذا الفاشيُّ أن يفهم لماذا نحن على هذا النحو، ولماذا كانت أفكارنا هي الأهم بالنسبة إلينا. وكان يقول: «الحياة فوق الأفكار». أنا، بالطبع، لم أوافقه على هذا الرأي، فكان يصرخ ويضرب. «ماذا؟ ما الذي يرغمكم على أن تكونوا على هذا النحو؟ وأن تستقبلوا الموت بهدوء؟ لماذا يعتقد الشيوعيون أن على الشيوعية أن تنتصر في العالم كلِّه؟». كان يسألني. كان يتكلَّم اللغة الروسية بطلاقة رائعة. وقرَّرت أن أقول له كل شيء، فقد كنت أعرف أنهم سيقتلونني على أية حال، فليعرفوا أننا أقوياء. بقي يسألني نحو أربع ساعات، وأنا كنت أجيبه، حسبما أعرفه، وحسب دراستي للماركسية اللينينية في المدرسة وفي الجامعة. آه، ما الذي حدث له! أمسك رأسه بيديه، أخذ يركض ضمن الغرفة، وكان يقف وكأنه مغروس كالوتد في الأرض، وينظر طويلاً إليَّ، لكنه للمرَّة الأولى لم يضربني...

أنا كنت أقف أمامه... وقد اقتلع نصف شعري، وقبلها كانت لديَّ ضفيرتان سميكتان. جائعة... بداية، كنت أحلم بقطعة صغيرة من الخبز، ثمَّ قبلت بالفتات، وفيما بعد، كان عليَّ العثور على هذا الفتات. كنت أقف أمامه، وعيناي تنظران نحوه بشرارة... لقد أصغى طويلاً إلى حديثي.

Twitter: @ketab_n

كان يصغي دون أن يضربني... ولم يكن خائفاً، فقد كان في العام الثالث والأربعين، لكنه بدأ يشعر بشيء ما... بخطر ما. أراد معرفة أي خطر؟ وأجبته. ولكن عندما غادرت مكتبه، أدخلني في قائمة الذين سيُعدمون بإطلاق النار...

في عشية إطلاق النار، أخذت أتذكَّر حياتي؛ حياتي القصيرة.

كان أسعد يوم في حياتي، عندما عاد والدي ووالدتي إلى البيت، بعد أن ابتعدا عدَّة عشرات من الكيلومترات تحت القصف، وقرَّرا البقاء في البيت. لا ترحلا، ابقيا في البيت. كنت أعرف أننا سنقاتل. كان يبدو لنا أن النصر سيأتي قريباً جدَّاً، بالتأكيد. إن أوَّل ما فعلناه هو أننا بحثنا عن الجرحى وأنقذناهم. كانوا راقدين في الحقول، بين الأعشاب، في الخنادق، أو يزحفون إلى حظيرة من الحظائر. خرجت لجمع البطاطا صباحاً، فعثرت على جريح في بستاننا. كان ينازع... ضابط شاب، لم يكن لديه القوَّة لينطق لي باسمه. كان يردِّد بعض الكلمات غير المفهومة... أذكر حالتي اليائسة. ولكن يبدو لي أنني لم أكن سعيدة أبداً، كما كنت في تلك الأيَّام... لقد اكتسبت والداً للمرَّة الثانية. قبل هذا كنت أظن أن أبي بعيد عن السياسة، لكنه كان بلشفياً غير حزبي. أمِّي فلَّاحة ضعيفة الثقافة. كانت تؤمن بالله. وكانت تصلِّي طيلة سنوات الحرب. ولكن، كيف؟ كانت تركع على ركبتيها أمام الأيقونة وتردِّد: «أنقذ الشعب! أنقذ ستالين! أنقذ الحزب الشيوعي من الطاغية هتلر». كلَّ يوم، في أثناء التحقيق لدى الغيستابو، كنت أتوقَّع أن يُفتح الباب ويدخل والدي وأمِّي... كنت أعرف أين وقعت، وكنت سعيدة أنني لم أخنْ أبداً؛ فقد كنا نخاف من الخيانة أكثر من خوفنا من الموت. عندما اعتقلوني، أدركت أنه بدأت فترة العذاب والآلام. كنت أعرف أنني قوية، من الناحية الروحية-المعنوية، أمَّا الجسد؟

لا أذكر التحقيق الأوَّل... أنا لم أفقد وعيي... مرَّة واحدة فقط فقدت

Twitter: @ketab_n

وعيي، حيث ربطوا يدي بحلقة من الحلقات. أظن أنني لم أصرخ، على الرغم من أنهم عرضوا عليَّ كيف يصرخ الآخرون. في التحقيقات التالية، فقدت الشعور بالألم، وأصبح جسدي كالخشبة. جسد من خشب. فكرة واحدة: لا! أمام أعينهم لم أمت. لا! فقط عندما ينتهي كلُّ شيء، ويقتادونني إلى الزنزانة، أبدأ بالشعور بالألم. لقد تحوَّلت إلى جرح، جسدي كلُّه أصبح جرحاً واحداً... ولكن سأحتمل. سأحتمل! كي تعرف أمِّي أنني أموت إنساناً مرفوع الرأس، ولم أخن أحداً. آه... ماما!

كان يستخدمون الضرب، ويعلِّقون أعواد المشانق. وكانوا دوماً يصوِّرونني عارية تماماً. يمكنك فقط أن تغطِّي صدركِ بيديك... لقد رأيت كيف فقد الجميع عقولهم... رأيت كولنكا الصغير، لم يبلغ العام الواحد من العمر، كنا نعلِّمه أن يقول «ماما»، رأيت كيف سحبوه من بين أيدي أمِّه، وأدرك بقوَّة عليا أنه فقدها إلى الأبد، وصاح للمرَّة الأولى في حياته: «ماما!». هذه لم تكن كلمة، بل لم تكن مجرَّد كلمة... أريد أن أقصَّ عليك كلَّ شيء... كلَّ شيء عن الناس الذين التقيتهم هناك؛ الذين ماتوا في أقبية الغيستابو. إن الجدران وحدها تعرف رجولتهم. والآن، بعد انقضاء أربعين عاماً، إنني أركع أمامهم على ركبتي ذهنياً. «الموت – أسهل شيء». هكذا كانوا يقولون. أمَّا الحياة... كم كنا نحب الحياة! كنا واثقين من أن النصر سيأتي، لكننا كنا نشك في شيء واحد. هل سنعيش حتى هذا اليوم العظيم؟

في زنزانتنا كانت هناك طاقة صغيرة، وعليها شريط. كان من الواجب أن تصعد على ظهر إحداهن حتى ترى – ليس قطعة من السماء؛ بل قطعة من السطح. ونحن كنا كلُّنا ضعفاء، بحيث لم يكن في وسع أيٍّ منا الصعود على ظهر الآخر. ولكن كانت عندنا الفتاة آنيا من سلاح المظلَّات. لقد أمسكوا بها عندما أسقطوا عناصر المظلَّات بالطائرة في مؤخَّرة العدو. وقد

Twitter: @ketab_n

حوصر قسم منهم وأُلقي القبض عليهم. وها هي ذي آنيا المغطَّاة بالدم، والتي تحمَّلت الضرب والتعذيب، تطلب فجأة: «ارفعوني لألقي نظرة على الحرِّية. أريد فضاء الحرِّية!».

أريد وكفى. رفعناها نحن جميعنا، فصرخت قائلة: «يا بنات هناك وردة...». وعندها طلب الجميع الارتقاء وإلقاء نظرة: «وأنا...»، و«أنا...». ومن أين جاءتنا القوَّة لتساعد الواحدة منا الأخرى؟ لقد كانت هناك زهرة الهندباء، وما الذي أوصلها إلى السطح؟ وكيف بقيت واقفة؟ لا يمكنني أن أفهم. كلُّ واحدة منا كانت تقرأ حظها على هذه الزهرة. وكما أظنُّ الآن، كلُّ واحدة منا تمنَّت: هل سأخرج حية من هذا الجحيم؟

كنت أحبُّ الربيع كثيراً... أحبُّ عندما يزهر الكرز بالقرب من شجيرات البنفسج، وتفوح روائح البنفسج منه... لا تستغربي أسلوبي الأدبي، كنت أنظم الشعر... أمَّا الآن فلا أحبُّ الربيع. إنها الحرب؛ وقفت بيننا، بيني وبين الطبيعة. عندما كان يزهر الكرز، كنت أرى الفاشيِّين في مدينتي جيتومير...

لقد بقيت حيَّة بأعجوبة... أنقذني الأشخاص الذين أرادوا شكر والدي. والدي كان طبيباً، وكان الطبُّ في تلك الأيَّام مهنة مرموقة سامية. أخرجوني من الصف، أخرجوني من الصفِّ ليلاً، عندما كانوا يقتادوننا للإعدام رمياً بالرصاص. وأنا من شدَّة الألم، لا أتذكَّر شيئاً، وسرت كما لو كنت في المنام... كنت أسير كما يوجِّهونني... ثمَّ أركبوني... وأوصلوني إلى البيت، وكانت الجراح تملأ جسمي، وتحوَّلت مباشرة إلى حساسية عصبية. حتى أنه لم يكن في استطاعتي سماع صوت بشري. ما إن أسمع صوتاً حتى أشعر بالألم. كان أبي وأمِّي يتحدَّثان همساً. وأنا كنت أصرخ دوماً، ولا أسكت إلا عند تدفُّق الماء الساخن. أمِّي لم تكن تتركني للحظة واحدة، وكانت ترجوني: «ابنتي، سأذهب إلى الموقد في البستان دقيقة

Twitter: @ketab_n

واحدة...». فكنت أمسك بها... وما إن أتركها أشعر فوراً بالآلام، وبكلِّ ما عانيته... ومن أجل صرف أنظاري عن وضعي، أخذا يحضران لي الورود: الأجراس التي أحبُّها... أوراق الكستناء... الروائح كانت تصرفني عن آلامي... أمَّا الثوب الذي كنت ألبسه عند الغيستابو، فقد خبَّأته أمِّي عندها. وعندما كانت تنازع، كان هذا الثوب تحت وسادتها، وحتى الساعة الأخيرة من عمرها...

رفعت رأسي للمرَّة الأولى عندما رأيت جنودنا. فجأة، أنا التي كنت مستلقية في سريري أكثر من عام، نهضت وخرجت إلى الشارع: «جنودي الأعزَّاء! أحبَّائي... لقد عدتم...». فحملني الجنود على أكفِّهم إلى كوخي. وعندما استيقظت في صباح اليوم الثاني والثالث، ركضت إلى دائرة التجنيد: «أعطوني عملاً أقوم به!»، فأخبروا والدي، جاء والدي وقال: «طفلتي، كيف جئت؟ من ساعدك؟». هذه الحماسة كانت تكفيني لبضعة أيَّام، ثمَّ بدأت الآلام والأوجاع... كنت أصرخ أيَّاماً طويلة. وكان الناس الذين يمرُّون قبالة كوخنا يرجون الله: «يا إلهي، خذ بروحها، أو ساعدها، كيلا تتألَّم!».

أفادتني الأطيان العلاجية في تسخالتوبو. أفادتني رغبتي الشديدة في الحياة؛ في العيش، وأكثر من أي شيء آخر. وكنت قد عشت... عندما كنت في الرابعة عشر من عمري، عملت في مكتبة. لقد كانت تلك سنوات الفرح الكبرى عندي. أمَّا الآن، فتحوَّلت الحياة إلى صراع ضارٍ ودائم مع الأمراض. مهما قلتِ، يبقى الهرم شيئاً شنيعاً. وكذلك الوحدة. فقد أصبحت وحيدة تماماً. فوالدي ووالدتي فارقا الحياة منذ فترة طويلة. وتلك الليالي الطويلة التي قضيتها بدون نوم، كم من السنوات مرَّت؟ وما يزال نومي رهيباً، أستيقظ والعرق البارد يغطِّيني. لا أذكر كنية آنيا... لا أذكر هل هي من بريانشينا أو من سمولنشينا. أذكر كيف كانت ترفض

Twitter: @ketab_n

الموت وتقاومه! تمسك رأسها بيديها البيضاويتين الكبيرتين وتنظر من النافذة عبر الأسلاك الشائكة وتصرخ: «أريد أن أعيش!».

لم أعثر على أهلها... ولا أدري لمن عليَّ أن أروي قصَّتها...

صوفيا ميرنوفنا فيريشاك، مقاومة سرِّية

بعد الحرب، عرفنا أوسفينتسيم، داخاو[1]... وكيف يمكن للمرأة أن تلد بعد هذا كلِّه؟ وأنا كنت حاملاً...

هنا، أرسلوني إلى القرية للتوقيع لإقراض الدولة الأموال اللازمة. فقد كان لا بدَّ من إعادة بناء المصانع والمعامل.

وصلت إلى المكان المطلوب، لا وجود للقرية، كلُّ شيء في الخنادق. الناس يعيشون في الخنادق. خرجت امرأة يصعب على المرء أن يرى لباسها الرهيب. دخلت إلى الخندق، يجلس أطفال ثلاثة جائعون. وكانت أمُّهم قد وضعا شيئاً من الأعشاب في الحساء الذي تعدُّه لهم.

سألتني: «جئت للتوقيع على القرض؟».

* «نعم».

- «ليس لديَّ نقود. ولكن عندي دجاجة. سأذهب لأسأل جارتي، رجتْني البارحة، إذا ما اشترتها سأعطيك نقوداً».

وأنا أحدِّثكِ الآن، عندي غصَّة في حلقي. أي أشخاص كانوا؟ لقد

---

1 - أوسفيتسيم: معسكر اعتقال نازي ألماني كبير في مدينة اوسفيتسينم Oswiecim في بولونيا، تم إعدام أكثر من 4 ملايين معتقل فيه. وقد حرَّره الجيش السوفييتي في بداية عام 1945.

- داكاي Dackau - أول معسكر اعتقال كبير في ألمانيا الفاشية. تأسس عام 1933 في مدينة داكاي، بالقرب من ميونيخ بألمانيا. ضم أكثر من 250 ألف معتقل، أعدم منهم نحو 70 ألفاً - المترجم.

Twitter: @ketab_n

قتلوا زوجها على الجبهة، وبقي عندها ثلاثة أطفال، ولا شيء عندهم سوى دجاجة، وهي تبيعها لتوفِّر المال للدولة! آنذاك كنا نجمع الأموال نقداً. إنها مستعدَّة لتقديم كلِّ شيء كي يعمَّ السلام، كي يبقى أولادها أحياء. أذكر وجه هذه المرأة، وأذكر أطفالها الثلاثة جميعهم...

كيف كبر هؤلاء الأطفال؟ بودِّي كثيراً أن أعرف... بودِّي العثور عليهم والالتقاء بهم...

كلارا فاسيليفنا غونتشاروفا، مدفعية مضادَّة للطائرات

Twitter: @ketab_n

ماما، ماذا تعني كلمة «بابا»؟

لا أرى نهاية لهذه الطريق. يبدو لي أن الشرَّ بلا نهاية. لم يعد في استطاعتي معاملته كما أعامل التاريخ. من يمكنه أن يجيبني: مع من أنا أتعامل - مع عصر أم مع إنسان؟ العصور تتبدَّل، أمَّا الإنسان؟ أفكِّر في تكرار الحياة البائس.

لقد كُنَّ يحدِّثنني كجنديات، كنساء. وكثيرات منهن كُنَّ أمَّهات...

حول تحميم الطفل، وحول الأمِّ الشبيهة بالأب

أركض، كنا بضعة أشخاص نركض... يطاردوننا من خلفنا. يطلقون علينا النار. وهناك أمِّي تقف الآن عند الرشَّاشات، لكنها ترى كيف نحن نركض... وأسمع صوتها. إنها تصيح. حدَّثني الناس فيما بعد كيف كانت تصيح. كانت تصيح: «حسناً أنك ارتديت ثوبك الأبيض يا ابنتي... لن تكوني في حاجة إلى ارتدائه لشخص آخر...». كانت واثقة من أنهم سيقتلونني، وكانت تشعر بالفرحة لأنني سأرقد في ثوب أبيض... وقبل هذا كنا نوينا زيارة القرية المجاورة. إلى عيد الفصح... إلى أقربائنا...

سيطر الهدوء... توقَّفوا عن إطلاق النار. أمِّي الوحيدة التي تصرخ... وربَّما كانوا يطلقون النار؟ أنا لم أسمع...

Twitter: @ketab_n

خلال فترة الحرب، استشهدت أسرتنا كلُّها. انتهت الحرب. وليس لديَّ من أنتظره...

لوبوف إيغوريفنا رودكوفسكايا، مقاومة في الأنصار

بدأوا يقصفون منسك....

ذهبت ركضاً إلى روضة الأطفال لأخذ ابني، أمَّا ابنتي فكانت خارج المدينة. وقد أكملت عامها الثاني، حيث كانت في روضة الأطفال الداخلية، ونُقلت روضتهم خارج المدينة. قرَّرت أن آخذ ابني وأتركه في البيت. ثمَّ سأذهب لأخذ ابنتي. أردت الإسراع لجمعهما معاً، في أسرع وقت.

أقترب من الروضة، فأرى الطائرات تغطِّي السماء، وهي تقصف في مكان ما. أسمع من خلف السور صوت ابني، لم يكمل العام الرابع بعد: «لا تخافي، قالت أمِّي أننا سنضرب الألمان».

ألقيت نظرة إلى خوخة الباب، كانت أعدادهم كثيرة، وكان هو على هذا النحو يطمئن الآخرين. وما إن رآني، بدأ يرتجف، ويبكي، لقد اتضح أنه عانى من خوف كبير.

أدخلته البيت، وطلبت من حماتي أن تهتمَّ به ريثما أذهب لإحضار ابنتي، ركضاً! في المكان الذي كان مقرَّراً أن تكون الروضة فيه، لم أعثر على أحد. وقد قالت لي نساء القرية إن الأطفال قد نُقلوا إلى مكان آخر. إلى أين؟ ومن؟ يُقال: ربَّما إلى المدينة. كانت معهم مربِّيتان، ولم ينتظرا وصول السيَّارة، فذهبوا سيراً على الأقدام. عشرة كيلومترات تفصلنا عن المدينة. وهم أطفال صغار تتراوح أعمارهم من سنة واحدة إلى سنتين. عزيزتي، لقد بحثت عنهم أسبوعين كاملين، في مختلف القرى. عندما

Twitter: @ketab_n

دخلت إلى أحد البيوت وقالوا لي إن أطفال الروضة فيه، لم أصدِّق. كان الأطفال راقدين مستلقين، خائفين، متوتِّرين، وقد ارتفعت حرارتهم. كالأموات... والمسؤولة عن رياض الأطفال كانت صبية في مقتبل شبابها، لكن شعرها قد أصبح أبيض اللون. وقد تبيَّن أن هذا الطريق الطويل حتى المدينة قطعوه سيراً على الأقدام، وقد تاهوا في الطريق، وتُوفِّي بعض الأطفال.

أسير بين الأطفال، ولا أستطيع التعرُّف على ابنتي. فطمأنتني رئيسة الروضة: «لا تيأسي، ابحثي. يجب أن تكون هنا. أنا أذكرها».

لقد عثرت على ابنتي إيلا من فردة حذاء واحدة... وإلا لما تعرَّفت عليها...

ثمَّ احترق بناؤنا. وبقينا في الشارع، بقينا فيما علينا من لباس. فقد دخلت الوحدات العسكرية الألمانية إلى المدينة، وليس هناك من مكان نأوي إليه، وقد بقيت مع الأطفال في الشارع عدَّة أيَّام. التقيت تامارا سيرغييفنا سينيتسا، كنا على معرفة بسيطة قبل الحرب. بعد أن استمعت إليَّ قالت: «تعالي لعندي».

* «إن أطفالي مصابون بالسعال الديكي، فكيف سنذهب لعندكم؟».

كان لديها أطفال صغار، ممَّا يسمح بانتقال المرض إليهم بالعدوى. وظروفنا صعبة، ولا وجود للأدوية، والمستشفيات مغلقة.

- «لا، تعالوا».

عزيزتي، وهل يمكنني نسيان هذا؟ تقاسمت معنا قشور البطاطا. وقد خِطتُ لابنها من تنُّورتي القديمة بنطالاً، أهديته له في عيد ميلاده.

لكننا كنا نتطلَّع إلى الصراع والقتال... كان يعذِّبنا البقاء بدون عمل. وكم كانت سعادتنا كبيرة عندما ظهرت فرصة للانضمام إلى العمل السرِّي

Twitter: @ketab_n

للمقاومة! بدلاً من أن نجلس مكتوفي الأيدي، منتظرين. لقد أرسلت ابني، وهو أكبر، من باب الاحتياط إلى حماتي. فاشترطت عليَّ قائلة: «سآخذ الحفيد، ولكن بشرط ألَّا تظهري في هذا البيت بعد الآن أبداً. فبسببك سيقتلون الجميع». ثلاثة أعوام لم أرَ ابني، كنت أخاف من الاقتراب من البيت. وبعد أن بدأ الألمان يتابعونني ويراقبونني، وهاجموا الأثر، أخذت ابنتي معي والتحقت بالأنصار. حملتها على يدي خمسين كيلومتراً. خمسين كيلومتراً... سرنا طيلة أسبوعين...

بقيت معي ابنتي هناك أكثر من عام... كثيراً ما أفكِّر: كيف عشت مع ابنتي هذه الفترة؟ اسأليني، لن أقول لك. عزيزتي، احتمال ما احتملناه كان مستحيلاً. من عبارة "حصار الأنصار" لا تزال حتى الآن تصطكُّ أسناني.

أيَّار/ مايو من العام الثالث والأربعين... أرسلوني مع آلة كاتبة إلى فصيل الأنصار المجاور (بوريسوفسكايا). كانت لديهم آلتنا الكاتبة بأحرف روسية، لكن الفصيل كان في حاجة إلى آلة كاتبة بأحرف ألمانية. ومثل هذه الآلة كانت عندنا فقط. وهذه الآلة حملتها بتكليف من اللجنة السرِّية للمقاومة من منسك المحتلَّة. عندما وصلت إلى هناك، إلى بحيرة باليك، بعدها ببضعة أيَّام بدأ الحصار. وهذا ما حصل معي...

لم آتِ إلى هذا الفصيل لوحدي، بل مع ابنتي. عندما كنت أذهب في عملية ليوم أو يومين كنت أترك ابنتي في أيدي الغرباء، وليس ثمَّة من أحد أتركها عنده لفترة طويلة. وبالطبع، أخذت ابنتي معي. وهكذا أصبحت وابنتي ضمن منطقة الحصار... لقد حاصر الألمان منطقة تواجد فصيل الأنصار... فيقصفونها بالقنابل من السماء، ويطلقون النار من الأرض... وإذا ما كان الرجال يحملون البنادق فقط، فأنا كنت أحمل البندقية، والآلة الكاتبة وابنتي إيلوتشكا. نمشي، أنا أتعثَّر، وهي من خلالي تسقط في المستنقع. نقف ونسير، وتسقط ثانية في المستنقع... وهذا استمرَّ شهرين

Twitter: @ketab_n

كاملين! وأقسمت بيني وبين نفسي، بأنني إذا ما بقيت حيَّة، فلن أقترب من المستنقع، ولا يمكنني أن أراه بعد الآن.

«أنا أعرف لماذا لا تستلقين عندما يطلقون النار. تريدين أن يقتلونا كلنا معاً». هذا ما قاله لي طفل، عمره أربع سنوات. لم تكن لديَّ قوة للاستلقاء، وإذا ما استلقيت فلن أنهض أبداً.

ويشفق عليَّ عناصر الأنصار مرَّة أخرى: «يكفي! هاتي ابنتك، نحن سنحملها».

لكنني لم أكن أثق بأحد. وفجأة قد يبدأ إطلاق النار. وفجأة قد يقتلونها من دوني، ولن أسمع شيئاً... وقد تضيع...

استقبلني قائد اللواء لوباتين: «يا لك من امرأة!» أُصيب بالذهول. «في مثل هذا الظرف، حملتِ الطفلة، ولم ترمِ الآلة الكاتبة. ليس أي رجل بقادر على هذا».

أخذ إيلوتشكا بين يديه، وأخذ يعانقها ويقبِّلها. قلب جميع جيوبه، وجمع لها فتات الخبز التي تفوح منها رائحة ماء المستنقع. واقتدى به المقاومون والأنصار الآخرون، فقلَّبوا جيوبهم وجمعوا لها فتات الخبز.

عندما انتهينا من حالة الحصار، كنت مريضة جدّاً، والدمامل تغطِّي جسمي، وكان جلدي يتساقط من جسمي. والطفلة على يديَّ... كنا ننتظر طائرة من الأرض الكبيرة، وقالوا إنه إذا ما أمكن الطائرة الهبوط فسيأخذون الجرحى من ذوي الجروح البليغة وقد يأخذون ابنتي. أنا أذكر تلك الدقيقة عندما أرسلتها بالطائرة. كان الجرحى يقتربون منها: «إيلوتشا، تعالي لعندي»، «تعالي لعندي. هنا المكان واسع...». كان الجميع يعرفها، وفي المستشفى العسكري كانت تغنِّي لهم: «آه، لو أعيش ليوم العرس والزواج».

Twitter: @ketab_n

يسألها الطيَّار: «مع من أنت هنا، يا صغيرتي؟».

* «مع أمِّي. بقيت هي خارج الطائرة...».

- «نادِ لأمِّك، كي تركب بالطائرة معك».

* «كلا، لا يسمح لأمِّي أن تطير. عليها أن تقتل الفاشيين».

هكذا كان أطفالنا. وأنا أنظر إلى وجهها، فأشعر بالتشنُّج. هل سأراها يوماً ما؟

سأروي لك أيضاً، كيف التقيت بابني... حدث هذا بعد التحرير. أتوجَّه إلى البيت الذي كانت تعيش فيه حماتي، أمَّا قدماي فكأنهما من القطن. وقد نبَّهتني النسوة الأكبر سنّاً في الفصيل: «إذا ما رأيت ابنك، فلا تعرِّفيه على نفسك بأنك أمُّه بأيِّ شكل من الأشكال، وهل تتصوَّري كيف عاش وعانى من دونك؟».

ركضت ابنة الجيران: «آه، ماما ليونا. إن ليونا حي...».

قدماي لم تطاوعاني، ولم تتحرَّكا: ابني حي. وحدَّثتني ابنة الجيران أن حماتي تُوفِّيتْ نتيجة إصابتها بمرض التيفوئيد، وأن الصبي ليونا أخذته الجارة.

دخلت إلى فناء بيتهم. ماذا كنت أرتدي؟ السترة الألمانية، البنطال الأسود المرتَّق، الجزمة القديمة. تعرَّفت الجارة عليَّ على الفور، لكنها بقيت صامتة. أمَّا ابني فهو جالس، حافٍ، رثُّ الثياب.

- «ما اسمك، أيُّها الفتى؟». سألته.

* «ليونا...».

- «مع من تسكن؟».

* «سابقاً كنت أسكن مع جدَّتي. وعندما تُوفِّيتْ، دفنتها. وكنت أحضر

Twitter: @ketab_n

إلى قبرها كلَّ يوم وأرجوها أن تأخذني إلى قبرها. فقد كنت أخاف النوم وحيداً...».

- «وأين أبوك وأمُّك؟».

* «بابا حي، يقاتل في الجبهة، أمَّا أمِّي فقد قتلها الفاشيون. هكذا كانت تقول جدَّتي...».

كان يجلس معي اثنان من الأنصار، حيث كانا قد دفنا رفاقهما. وهما يسمعان كيف كان ابني يجيب، ويبكيان.

هنا لم أتماسك أنا، وقلت: «ولماذا لم تتعرَّف على أمِّك؟».

فارتمى عليَّ: «بابا!».

أنا كنت في ثياب رجولية، وفي قبَّعة رجولية. ثمَّ عانقني صارخاً: «ماما!!!».

لقد كان ذلك الصراخ. وكانت تلك الحالة الهيستيرية... لم يَسمحْ لي شهراً كاملاً بالخروج من البيت، حتى إلى العمل. كنت آخذه معي. فقد كان لا يكفيه أن يرى أنني على مقربة منه، كان عليه أيضاً أن يمسكني ويلمسني. نجلس معاً لتناول طعام الغداء، فيمسك بي بيد، ويأكل باليد الأخرى. كان يناديني دوماً: «ماما...مامشكا!». وإلى الآن لا يزال يدعوني هكذا... مامشكا... مامولينكا...

عندما التقيت مع زوجي، لم يكفِنا أسبوع واحد للحديث عن كلِّ شيء. كنت أروي له نهاراً وليلاً...

رائيسا غريغوريفنا خوسينوفيتش، مقاومة في الأنصار

الحرب هي كلُّها وقت للدفن. كثيراً ما كنا نقوم بدفن رجال الأنصار

Twitter: @ketab_n

والمقاومة. فإمَّا أن يجد فصيل من الأنصار نفسه محاصراً، وإمَّا أن يستشهدوا في معركة. وسأروي لكِ إحدى قصص الدفن هذه...

حدثت معركة قاسية جدًّا. في تلك المعركة فقدنا الكثير من عناصرنا، وفي تلك المعركة أُصبت بجرح. وأعمال الدفن تجري بعد المعركة. عادة كانوا يردِّدون أقوالاً موجزة أمام القبر. القادة يلقون كلماتهم في البداية ثمَّ الأصدقاء. وهنا، كان بين المستشهدين شابٌّ محلِّيٌّ من المنطقة ذاتها، وحضرت أمُّه عملية دفنه. وأخذت تنوح وتبكي: «آه، يا ابني الحبيب! آه، لقد شيَّدنا لك بيتاً! وأنت وعدت بأنك ستحضر لنا خطيبتك الصبية! وأنت ستتزَّوج من الأرض...».

تشكيل الدفن واقف، والجميع صامت، ولا يمسُّون أمَّ القتيل. ثمَّ رفعت الأمُّ رأسها، ورأت أن ابنها ليس الوحيد المستشهد، وأن ثمَّة كثيرين راقدون إلى جنبه، فأخذت تنوح وتبكي على أبناء الآخرين: «وأنتم أيُّها الأبناء الأعزَّاء! إن أمَّهاتكم لا يرينكم، إنهن لا يعرفن أنهم سيدفنونكم في الخندق! والخندق بارد جدًّا. وأمامنا شتاء طويل. إنني أبكيكم بدلاً من أمهاتكم، وأشفق عليكم جميعاً. أيُّها الأبناء الأعزَّاء... الأحبَّة...».

وما إن قالت: «أشفق عليكم كلِّكم». و«أيُّها الأبناء الأعزَّاء». حتى بدأ جميع الرجال بالبكاء. ولم يكن في استطاعة أحد وقف هذا البكاء، ولم تكن لديه القوَّة لذلك. تشكيل الدفن ينوح ويبكي. وهنا صرخ الآمر: «التحية!». وتمَّت التحية على شكل طلقات نارية أسكتت الجميع.

إن ما أذهلني آنذاك، وما أفكِّر فيه الآن، هو عظمة قلب الأم. في مثل هذه الكارثة الكبيرة، عندما يُدفن ابنها، كانت تجد في قلبها حيِّزاً لكي تبكي أبناء الآخرين... وتبكيهم وكأنهم أعزَّاء وأحبَّة لها...

لاريسا ليونتيفنا كوروتكايا، مقاومة في الأنصار

Twitter: @ketab_n

عدت إلى قريتي...

يلعب الأطفال بالقرب من بيتنا. أنظر إليهم وأفكِّر: «أيُّهم ابنتي؟». الجميع متماثلون. وقد حلق الجميع شعورهم، كما كانوا يحلقون للأغنام على شكل صفوف. لم أعرف ابنتي بينهم، وسألتهم: «من منكم لوسيا؟». ونظرت فرأيت أحد الصبيان يرتدي قميصاً طويلاً قد ركض نحو البيت. كان من الصعب معرفة من الصبية ومن الصبي، نظراً لتشابه ثيابهم جميعاً. سألت من جديد: «من هي لوسيا بينكم؟».

فأظهروا لي بأصابعهم، مشيرين أنها تلك التي ركضت. وأدركت أنها كانت تلك ابنتي.

بعد بضع دقائق، كانت تمسك بيدها جدَّتها، إنها والدة أمِّي. أمسكت بها وتتَّجه نحوي: «تعالي، تعالي. سنعطيها لأمِّها، لأنها تركتنا».

كنت في بذلة عسكرية رجولية، أرتدي العمرة وأنا راكبة على الحصان. أمَّا الفتاة فكانت تتصوَّر أمَّها طبعاً، مثل الجدَّة، مثل النساء الأخريات. وهنا جاءكم جندي. لم تأتِ ولم تحتضني فترة طويلة، كانت تخاف. وهنا، سواء أغضبتِ أم لم تغضبي، لست أنا من ربَّاها واعتنى بها. لقد نمت وكبرت مع جدَّتها.

كهدية، جلبت معي ألواحاً من الصابون. وكان الصابون بمقاييس تلك الأزمنة هدية رائعة. وعندما بدأت تستخدمه، عضت قطعة الصابون بأسنانها. أرادت أن تتذوَّقه وتأكله. هكذا كانوا يعيشون. لقد كانت أمِّي تذكرني امرأة صبية شابَّة، لكنها وجدتني هرمة، طاعنة في السن. قيل لها إن ابنتك قد جاءت؛ فخرجت من الحديقة إلى الشارع. رأتني ففتحت ما بين أيديها وركضت. وأنا أيضاً، عرفتها، فركضت نحوها. ولم تتمكَّن من الوصول إليَّ، وقبل بضع خطوات سقطت على الأرض. فسقطت إلى جانبها؛ أقبِّل الأم، أقبِّل الأرض. وقلبي كان مليئاً بالحبِّ وبالكراهية...

Twitter: @ketab_n

أذكر كيف كان الألمانيُّ الجريح راقداً، ويتشبَّث بالأرض بيديه، كان يشعر بالألم الشديد، اقترب منه جنديٌّ روسيٌّ وقال: «لا تمس الأرض، إنها أرضي! اذهب إلى أرضك هناك، من حيث أتيت...

ماريا فاسيليفنا بافلوفيتس، طبيبة عند الأنصار

ذهبت إلى الحرب إثر زوجي...

تركت ابنتي عند حماتي، لكن حماتي سرعان ما تُوفِّيتْ. كانت لزوجي شقيقة، وهي أخذت ابنة أخيها. وبعد الحرب، بعد أن تسرَّحت من الجيش، رفضت إعادة ابنتي إليَّ. كانت تقول إنه لا يمكن أن يكون لك ابنة، طالما أنك رميتها صغيرة وذهبت لتحاربي. كيف يمكن للأمّ أن ترمي ابنتها، وبخاصَّة صغيرة وعاجزة مثلها؟

لقد عدت من الحرب، وكانت ابنتي قد أصبحت في السابعة من عمرها، وعندما تركتها، كانت في الثالثة من عمرها. لقد التقيتها فتاة صغيرة واعية. كانت فتاة صغيرة، لأنها لم تكن تجد الغذاء الكافي ولم تكن تنام بما فيه الكفاية، وبالقرب منا، كان يوجد مستشفى عسكري، فكانت تذهب إلى هناك، فتغنِّي وترقص، بالمقابل، كانوا يعطونها الخبز. لقد روت لي كلَّ شيء فيما بعد... في البداية كانت تنتظر أباها وأمَّها، ومن ثمَّ أمَّها فقط. فقد استشهد أبوها... وكانت تدرك كلَّ شيء.

كنت أتذكَّر كثيراً ابنتي في الجبهة، ولم أنسها ولا لدقيقة واحدة. كنت أراها في منامي. كنت شديدة الشوق إليها. كنت أبكي لأنني لا أقرأ لها الحكايات قبل النوم، ولأنها تنام وتستيقظ من دوني... ولأن هناك من يجدل لها ضفائرها غيري... لم أغضب من شقيقة زوجي. كنت أدرك أنها كانت تحبُّ أخاها حبّاً شديداً، فقد كان قوياً، جميلاً، يصعب التصديق أن

Twitter: @ketab_n

مثله يمكن قتله. وقد استشهد على الفور في الأشهر الأولى من الحرب... حيث تم تفجير وقصف طائرتهم على الأرض صباحاً. لقد كان الطيّارون الألمان في أشهر الحرب الأولى، بل وطيلة العام الأوّل، هم السادة في السماء والجو. وقد استشهد أخوها... ولم ترغب في إعطاء ما بقي منه. وأخيراً، كانت من بين النساء اللواتي يعتبرن الأسرة والأطفال أهم شيء في الحياة. وسواء أكان هناك قصف بالقنابل، أم إطلاق للنار عندها فكرة واحدة: كيف أنها لم تحمِّم هذا الطفل اليوم؟ لا يمكنني أن أدينها...

كانت تقول عني إنني ظالمة، لا أتمتع بروح نسائية... في حين أننا عانينا الأمرَّين في أثناء الحرب... بدون أسرنا، بدون أطفالنا... الكثيرات بقي أطفالهن في البيت ولست أنا وحدي. نجلس تحت المظلَّة، ننتظر المهمَّة القتالية. كان الرجال يدخِّنون، يلعبون الدومينو، أمَّا نحن، وطالما أنه لا يوجد صاروخ للإطلاق، كنا نجلس ونخيط المناديل. بقينا نساء، كما كنا. أتعرفين، ها هو ذا ملَّاحي. إنها امرأة، كانت تريد إرسال صورة إلى أسرتها. فربطنا منديلاً وجدناه عند إحدانا، على رقبتها، كي لا تظهر الرتبة والكتَّافيات، وغطَّينا السترة العسكرية بالشرشف. وكأنها ترتدي ثوباً. على هذا النحو تصوَّرت. وقد كانت هذه الصورة صورتها المفضَّلة...

تصادقت مع ابنتي... أصبحنا صديقتين طيلة الحياة...

أنطونينا غريغوريفنا بونداريفا، ملازم حرس. طيَّار متقدِّم

الطاقية الحمراء وفرحة الالتقاء بقطَّة في الحرب

لم أعتد الحرب إلا بعد فترة طويلة...

انتقلنا إلى الهجوم. وعندما انتفض الدم النازف من الشريان، لم أرَ هذا سابقاً، يتدفَّق كالنافورة، ركضت لاستدعاء الطبيب. أمَّا الجريح نفسه،

Twitter: @ketab_n

فكان يصيح بي: «إلى أين؟ إلى أين ذاهبة؟ اربطيه بالحزام!». عندها فقط أدركت الأمر واضحاً...

علام أشعر بالندم؟ أشعر بالندم على صبيٍّ واحد... صبي عمره سبع سنوات، بقي بدون أم. قتلوا أمَّه. كان الصبي جالساً على قارعة الطريق خلف أمِّه المتوفَّاة. إنه لم يدرك أن أمَّه لم يعد لها وجود، وكان ينتظر أن تصحو أمُّه، لكي تقدّم له الطعام...

لم يتخلَّ آمر وحدتنا عن هذا الصبي، وتبنَّاه قائلاً: «يا بنيَّ، ليس لديك أم، ولكن سيكون لديك آباء كُثر». وقد كبر ونما معنا، مثل ابن الفوج. منذ أن كان في السابعة من عمره. كان يجمع الطلقات لقرص الرشَّاش ب. ب. ش.

ستذهبينَ قريباً، وسوف يغضب زوجي. إنه لا يحبُّ هذه الأحاديث. ولا يحبُّ الحرب. لكنه لم يكن في الحرب، كان صغيراً، أصغر مني. ليس لدينا أطفال. ما زلت أتذكَّر هذا الصبي. كان يمكنني أن أتبنَّاه...

بعد الحرب، أصبحت أشعر بالشفقة على الجميع... نحو الإنسان... نحو الديك، نحو الكلب... وحتى الآن لا أتحمَّل آلام الآخرين. كنت أعمل في المستشفى، وكان المرضى يحبُّونني لأنني كنت ألاطفهم. عندنا حديقة كبيرة. لم أبعْ يوماً تفَّاحة واحدة، ولا ثمرة واحدة. أوزِّع كلَّ شيء على الناس... بقي عندي هذا الشعور منذ أيَّام الحرب... لديَّ هذا القلب...

لوبوف زاخاروفنا نوفيك، ممرِّضة

آنذاك لم أكن أبكي...

كنت أخاف شيئاً واحداً... أن يمسكوا برفاقنا - بضعة أيَّام من التوقُّع الشديد غير المحمول: هل سيتحمَّلون العذاب أم لا؟ إذا لم

Twitter: @ketab_n

يتحمَّلوا فستبدأ اعتقالات جديدة. بعد فترة من الزمن، غدا واضحاً أنهم سيعدمونهم. يعطوننا مهمَّة: الذهاب، ورؤية من سوف يعلِّقونه اليوم. تسير في الشارع وترى: لقد بدأوا بتحضير الحبل... لا يصحُّ البكاء، لا يصحُّ البقاء دقيقة إضافية، لأن الراصدين من جانب العدوِّ في كلِّ مكان. ومهما كانت كلمة الرجولة غير مناسبة هنا، كنا في حاجة إلى قوى روحية، من أجل أن نصمت، ونمرَّ بدون دموع.

آنذاك لم أبكِ...

لقد كنت أعرف على أيِّ شيء أُقدم، لكنني أدركت وأحسست بكلِّ شيء عندما اعتقلوني. أخذوني إلى السجن. ضربوني بجزماتهم، وبالسياط الجلدية. عرفت ماذا يعني "المناكير" الفاشي. يضعون يديك الاثنتين بأصابعهما العشرة على الطاولة، وتسقط آلة على يديك تغرز إبراً تحت الأظافر... وفي الوقت نفسه تنغرز آلة أخرى في أصابع القدمين... ألمٌ جهنَّمي! فتفقد الوعي على الفور. حتى أنني لا أذكره، أعرف أنه ألم رهيب، لكنني لا أذكره. كما شدُّوا جسدي على جذوع الشجر. قد أكون غير دقيقة، وقد يكون غير صحيح، ما سأقوله، ولكن إليكِ ما أذكره: هنا جذع شجرة وهنا جذع شجرة آخر، وأنتِ بينهما... وتبدأ بالعمل آلة تدور... وأنتِ تسمعين كيف تسحق عظامك وتتقلَّب... هل يستمرُّ هذا طويلاً؟ لا أذكر أيضاً... كما عذَّبوني على الكرسي الكهربائي... حصل هذا عندما بصقت في وجه أحد السفَّاحين... لا أذكر شابّاً كان أم مسنّاً. عرُّوني من ثيابي بالكامل، فاقترب هذا السفَّاح وأمسك بحلمة ثديي... لم أستطع عمل شيء سوى البصاق في وجهه... وبصقت في وجهه. فأجلسوني على الكرسي الكهربائي...

ومنذ تلك الأثناء، أتعامل بشكل سيِّئ مع الكهرباء. أذكر أن الكهرباء ترمي بي في كلِّ جانب... والآن لا يمكنني حتى الإمساك بالمكواة

Twitter: @ketab_n

الكهربائية.... لقد بقيت معي ردّة الفعل مدى الحياة، ما إن أبدأ بالكوي، حتى أشعر بالتيار الكهربائي يسري في جسمي كلِّه. ولا يمكنني فعل أيِّ شيء مرتبط بالكهرباء. ربَّما كنت في حاجة إلى علاج نفسي بعد الحرب؟ لا أدري. لكنني عشت حياتي هكذا...

لا أدري لِمَ شعرت اليوم بالحاجة إلى البكاء، وبكيت قليلاً. آنذاك لم أكن أبكي...

حكموا عليَّ بالإعدام شنقاً. ووضعوني في زنزانة المحكوم عليهم بالإعدام. كانت هناك أيضاً امرأتان. أتعرفين، إننا لم نبكِ، ولم نصب بالذعر: فقد كنا نعرف ماذا ينتظرنا ونحن متوجِّهات إلى المقاومة السرِّية، ولهذا بقينا صامدات بهدوء. كنا نتحدَّث عن الشعر، ونتذكَّر عروض الأوبِّرا المفضَّلة... تحدَّثنا كثيراً عن رواية تولستوي "آنا كارينينا"... عن الحب... حتى أننا لم نتذكَّر أطفالنا، كنا نخاف أن نتذكَّرهم، حتى أننا كنا نبتسم، الواحدة منا للأخرى، تشجيعاً لها. هكذا قضينا يومين ونصف... استدعونا في صباح اليوم التالي. فتودعنا وتبادلنا القبل من دون دموع. يبدو أنه لم يكن هناك أيُّ أثر للخوف، فقد اعتدت كثيراً على فكرة الموت، لدرجة أن الخوف اختفى من نفسي. وكذلك الدموع. كان هناك خواء كبير. لم أعد أفكِّر في أحد...

سرنا بالسيَّارة طويلاً، ولا أذكر كم من الوقت، فقد ودَّعت الحياة... لكن السيَّارة توقَّفت، وكان عددنا عشرين شخصاً، ولم نستطع النزول من السيارة، بسبب التعذيب الشديد، فرموا كلَّ واحد منا كالأكياس على الأرض، وأصدر الآمر أمره بالزحف إلى الأكواخ. وأخذ يحضر حبل المشنقة... كانت تقف على مقربة من أحد الأكواخ امرأة ترضع طفلها. وكما تعرفين... ظهرت الكلاب، والحرس، وتجمَّد كلُّ شيء، الجميع واقفون ولا أحد يمسُّ أيَّ شيء. رأى الآمر هذه اللوحة... فقفز

Twitter: @ketab_n

وأخذ الطفل من يد أمِّه. تعرفين... كان هناك عمود (طلمبة) لجرِّ الماء، فأخذ يضرب الطفل على العمود الحديدي... وتهشَّم دماغه وسقط منه الحليب... وأرى أن الأمَّ تسقط، وأدرك كلَّ شيء، فأنا طبيبة... لقد أدركت أن قلبها تفجَّر...

يقتادوننا إلى العمل، يقتادوننا في أنحاء المدينة، في الشوارع المألوفة. وما إن بدأنا ننحدر، وفي مكان واحد كانت هناك طلعة كبيرة، وفجأة سمعت صوت: «ماما، مامشكا!». وأرى: عمَّتي داشا واقفة، ومن الرصيف تركض ابنتي. كانتا تسيران بالصدفة في الشارع، وشاهدتاني. ركضت ابنتي سريعاً وارتمت على عنقي. ويمكنك أن تتصوَّري: كانت هناك كلاب مدرَّبة على الهجوم على الناس، ولكن لم يتحرَّك أي كلب من مكانه. عندما تقتربين من الكلب يهجم ويفترس، فهكذا دُرِّبوا، أمَّا هنا فلم يتحرَّك أيُّ كلب من مكانه. رمت ابنتي نفسها عليَّ، فلم أبكِ، بل قلت لها: «يا ابنتي! ناتاشنكا، لا تبكي. قريباً سأكون في البيت». الحرس أيضاً بقي واقفاً، وكذلك الكلاب، ولم يمسَّها أحد...

حتى آنذاك، لم أبكِ...

ابنتي في الخامسة من عمرها كانت تقرأ الصلوات والأدعية وليس الأشعار. العمَّة داشا كانت تعلِّمها كيفية الصلاة. كانت تتضرَّع وتصلِّي من أجل أبيها وأمِّها، كي نبقى أحياء.

في الثالث عشر من شهر شباط/ فبراير من العام الرابع والأربعين، أرسلوني إلى المنفى الفاشي... واقتادوني إلى معسكر الاعتقال كروازيت على شاطئ بحر المانش.

في الربيع... في يوم كمونة باريس، دبر لنا الفرنسيون هروباً جماعياً من معسكر الاعتقال. والتحقت بحركة المقاومة الفرنسية.

وقد فزت بميدالية "الصليب القتالي" الفرنسية...

Twitter: @ketab_n

بعد النصر، عدت إلى البيت... أذكر... في المحطَّة الأولى على أرضنا... خرجنا جميعاً من عربات القطار، وقبَّلنا أرضنا وعانقناها... أذكر: كنت أرتدي الرداء الأبيض، سقطت على الأرض، وبدأت أقبِّلها، وأضع على حضني حفنات من التراب. وأفكر، هل سأفارق تربتي وأرضي يوماً ما؟

وصلت إلى منسك، لم أجد زوجي. ابنتي عند العمَّة داشا. اعتقلت المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية (ك. ج. بي) زوجي، وهو في السجن... ذهبت إلى هناك... وماذا أسمع هناك... قيل لي: «زوجك خائن». وأنا مع زوجي عملنا معاً في المقاومة السرِّية. إنه رجل شريف شجاع. أدركت أن هناك وشاية ضدَّه... قلت: «كلا! زوجي لا يمكن أن يكون خائناً. أنا أثق به. إنه شيوعي حقيقي». فصرخ المحقِّق معي قائلاً: «اخرسي. أنت عاهرة فرنسية! اخرسي!».

إن كلَّ من عاش في الأراضي التي احتلَّتها ألمانيا، ووقع في الأسر، واقتيد إلى ألمانيا، ومكث في معسكر الاعتقال النازي كان موضع تهمة وشبهة. سؤال واحد يُطرح عليه: كيف بقيت حيّاً؟ لماذا لم تُستشهد؟ حتى الموتى والشهداء كانوا موضع شبهة... وهم أيضاً... ولم يأخذوا في اعتبارهم أننا كنا نقاتل، وضحَّينا بكلِّ شيء من أجل النصر. وانتصرنا... الشعب هو الذي انتصر! أمَّا ستالين فلم يكن يثق بالشعب. هكذا شكرنا وطننا، على حبِّنا، على دمائنا...

سعيت من أجله، كتبت إلى جميع الدوائر. أطلقوا سراح زوجي بعد نصف سنة. الفاشيون كسروا ضلعاً من ضلوعه، وعطَّلوا كليته... وعندما مكث في السجن هشَّموا له رأسه، وكسروا يده، وهناك شابَ شعره، وفي سجن البوليس السرِّي أصبح مقعداً بشكل كامل. رعيته سنوات طويلة، أنقذته من الأمراض. ولكن لم يمكنني أن أقول شيئاً مخالفاً، إنه لم يصغ

Twitter: @ketab_n

إليَّ... "لقد كانت خطيئة". وانتهى كلُّ شيء. وكان يعتقد أن المهم أننا انتصرنا. نقطة على السطر. وأنا كنت أثق به.

لم أبكِ... آنذاك لم أكن أبكي...

لودميلا ميخائيلوفنا كاشيتشكينا، مقاومة سرِّية

كيف أشرح للطفل؟ كيف أشرح له الموت...

أسير مع ابني في الشارع، والقتلى راقدون على الجانبين. أنا أقصُّ عليه قصَّة القبَّعة الحمراء والقتلى من حولنا. حدث هذا عندما عدنا من النزوح. ذهبنا إلى أمِّي، ووعيه غير طبيعي: يدخل تحت سريرها، ويجلس هناك أيَّاماً كاملة. كان عمره خمس سنوات، ولا يمكن طرده إلى الشارع....

لقد تعذَّبت معه عاماً كاملاً. ولم أحقِّق أي نجاح: ما هو السبب؟ لقد كنا نعيش في قبو، وعندما يسير أحد ما في الشارع لا نرى سوى جزمته. ذات مرَّة خرج من تحت السرير، ورأى جزمة ما في النافذة وبدأ يصرخ... بعدها تذكَّرت أن فاشياً قد ضربه بجزمته...

ومرَّت عنده بسلام. ذات يوم، كان يلعب في باحة البناء مع الأطفال، أتى مساء إلى البيت وسألني: «ماما، ما معنى كلمة بابا؟».

شرحت له: «إنه رجل أبيض، جميل، يحارب في الجيش».

وعندما تحرَّرت منسك. كانت الدبَّابات أول من دخل المدينة. وها هو ذا ابني يركض إلى البيت باكياً: «لا لوجود لبابا هناك! هناك كلُّهم سود ولا يوجد بيض...».

حدث هذا في شهر تمُّوز/ يوليو، وعناصر الدبَّابات كلُّهم شباب لفحتهم الشمس الحارَّة.

عاد زوجي من الحرب مقعداً. وعاد متقدِّماً في السنِّ وليس شابّاً،

Twitter: @ketab_n

ولاحت مصيبتي: فقد اعتاد ابني التفكير في أن أباه أبيض اللون، جميل، أمَّا زوجي فقد عاد مريضاً ومتقدِّماً في السن. ولم يعترف الابن بأبيه فترة طويلة، ولم يستطع تسميته. وقد اضطررت إلى تعويد أحدهما على الآخر.

يأتي زوجي متأخِّراً مساء من العمل، أقابله: «لماذا تأخرت هكذا؟ لقد شعر ديما بالقلق: أين أبي؟».

خلال سنوات الحرب الست (فقد شارك أيضاً في الحرب اليابانية) أقلع عن عادة وجود ابنه، وعن وجوده في البيت.

عندما أشتري له شيئاً، أقول له: «هذا اشتراه بابا، إنه يهتم بك...».

وسرعان ما أصبحا صديقين...

ناديجدا فيكنتيفنا خاتشنكو، مقاومة سرِّية

سيرتي الذاتية...

منذ أن كنت في التاسعة والعشرين من عمري، بدأت العمل في السكَّة الحديدية، مساعد ميكانيكي. في تلك الفترة، لم يكن هناك ميكانيكي للسكك الحديدية امرأة في الاتِّحاد السوفييتي. وأنا كنت أحلم أن أصبح ميكانيكية. يلوِّح رئيس مستودع القاطرات بيديه: «ما لهذه الفتاة، إنها في حاجة إلى مهنة رجولية بالتأكيد». وقد سعيت إلى تحقيق ذلك. فعند بلوغي العام الحادي والثلاثين، أصبحت المرأة الميكانيكية الأولى. أنتِ لا تصدِّقين، عندما كنت أنطلق في القطار على المحطَّات، يجتمع الناس ويتساءلون: «فتاة تقود القطار؟».

لقد كان قطارنا واقفاً في محطَّة التصليح. وأصبحت وزوجي نتردَّد بالدور إلى المحطَّة، لأنه كان عندنا طفل: فإذا ما ذهب هو إلى المحطَّة أبقى أنا مع الطفل، وإذا ما ذهبت أنا إلى المحطَّة يبقى زوجي في البيت. في

Twitter: @ketab_n

تلك الفترة بالذات، عاد زوجي، وكان عليَّ أن أذهب. استيقظت صباحاً، فسمعت ضجَّة غير عادية في الشارع، فتحت المذياع: «الحرب!».

توجَّهت إلى زوجي: «ليونا، انهض! الحرب! انهض، الحرب!».

ركض إلى محطَّة القطار، وعاد غارقاً في الدموع: «الحرب! الحرب! أتعرفين، ماذا تعني "الحرب"؟».

ما العمل؟ إلى أين سنذهب بالطفل؟

نزحت وابني إلى أوليانوفسك، إلى المؤخَّرة. أعطونا شقَّة تتألَّف من غرفتين، كانت شقَّة جيِّدة، حتى الآن ليس عندي مثلها. سجَّلت ابني في روضة الأطفال. كلُّ الأمور كانت على ما يرام. الجميع كانوا يعاملونني معاملة جيِّدة، وكيف! المرأة - الميكانيكية الأولى... إنك لن تصدِّقي، لم أعش هناك طويلاً، لم أكمل نصف السنة. ولا أستطيع العيش لاحقاً: كيف يدافعون عن الوطن، وأنا أجلس في البيت؟!

حضر زوجي: «ماذا ستفعلين يا ماروسا، هل ستبقين جالسة في المؤخَّرة؟».

* «لا» أجبته. «سنذهب».

في تلك الفترة، كان يجري تهيئة طابور الاحتياط الخاص لخدمة الجبهة. فتقدَّمنا بطلب إدراجنا ضمن هذا الطابور. كان زوجي ميكانيكياً متقدِّماً، وأنا كنت ميكانيكية. بقينا نسافر في عربة القطار الحديدية أربع سنوات، برفقة ابننا. وهو طيلة سنوات الحرب لم يرَ أحداً حتى القطَّة. وعندما أمسك بقطة بالقرب من مدينة كييف، كان قطارنا يتعرَّض لقصف شديد، خمس طائرات كانت تقصفه، وابني كان يعانق القطَّة قائلاً: «قطَّتي الحبيبة، كم أنا مسرور لأنني رأيتك! فأنا لا أرى أحداً. اجلسي وابقي معي. تعالي سأقبِّلك». إنه طفل... يجب أن يكون كلُّ شيء طفولياً عند

Twitter: @ketab_n

الطفل... كان يرقد مساء وهو يقول: «ماما العزيزة. عندنا قطَّة. عندنا الآن بيت حقيقي». إن مثل هذا لا يُختلق ولا يُلفَّق... لا تغفلي هذا المقطع. بالتأكيد، انشري بخصوص القطَّة...

كانوا يقصفوننا باستمرار، ويطلقون علينا الرشَّاشات. وكانوا يطلقون النار على القاطرة-المحرِّك، فالمهم بالنسبة إليهم أن يقتلوا الميكانيكي، وتدمير قاطرة المحرِّك. كانت الطائرات تنخفض بشدَّة وترمي قذائفها على القاطرة وعلى المحرِّك البخاري، حيث يجلس ابني. كنت أخاف على ابني، أكثر من أيٍّ كان. لا يمكنني وصف ذلك عندما قصفونا، فقد أخذته من المحرِّك إلى القاطرة البخارية. أمسك به وأضمُّه إلى صدري: «فليقتلونا بضربة واحدة». وهل يقتلوننا هكذا؟! لا، هذا واضح، أننا بقينا أحياء. وهذا أيضاً سجِّليه...

إن القاطرة البخارية هي حياتي، هي شبابي، هي أجمل شيء عندي في الحياة. وحتى الآن، كان بودِّي أن أقود قطاراً، لكنهم لا يسمحون لي الآن. فقد أصبحت كبيرة السن...

كم هو رهيب أن تملك الأسرة طفلاً واحداً! يا له من غباء شديد! وها نحن الآن نعيش... أنا أعيش مع أسرة ابني. إنه طبيب، رئيس قسم. شقَّتنا غير كبيرة. لكنني لا أذهب في إجازة إلى أيِّ مكان، ولا أسافر للاستجمام إلى أي منطقة... يصعب عليَّ وصف ذلك. لا أريد مفارقة ابني، ومفارقة أحفادي. إنني أشعر برعب شديد إذا ما فارقتهم يوماً واحداً. وكذلك ابني، لا يسافر إلى أي جهة. قريباً سيكمل عامه الخامس والعشرين في عمله، ولم يسافر أبداً ببطاقة استجمام. ويستغرب جميع زملائه في العمل أنه لم يطلب حتى الآن بطاقة استجمام واحدة.

يقول لي ابني: «الأفضل أن أبقى معكِ». وكنَّتي أيضاً تفكِّر مثله... لا

Twitter: @ketab_n

يمكن وصف ذلك... ليست لدينا فيلّا خارج المدينة، وذلك فقط لأننا لا نستطيع أن نفارق بعضنا حتى لبضعة أيّام. لا يمكنني العيش من دونهم ولا لدقيقة واحدة.

من كان في الحرب، يعرف ماذا يعني الفراق ليوم واحد. ليوم واحد فقط...

ماريا ألكسندروفنا أرستوفا، ميكانيكية

حول صمت من أصبح قادراً على الحديث

أنا حتى الآن، أتكلَّم همساً... حول... هذا... بهمس... بعد أكثرِ من أربعة عقود...

الحرب نسيتها... لأنني بعد الحرب أيضاً كنت أعيش في خوف وذعر. كنت أعيش في الجحيم.

لقد حلَّ النصر، وحلَّت الفرحة. وبدأنا بجمع الطوب والحديد، وبدأنا بتنظيف المدينة. كنا نعمل نهاراً، وكنا نعمل ليلاً، لا أذكر متى كنا ننام ومتى كنا نأكل. كنا نعمل ونعمل.

أيلول/ سبتمبر... كان دافئاً، أذكر كثيراً من الشمس، كثيراً من الفواكه، كثيراً من الخضار. كانوا يبيعون تفّاح "أنطونوفكا" بالدلاء. وفي هذا اليوم... كنت أنشر الغسيل على الشرفة... حفظت جميع التفاصيل، لأنه منذ هذا اليوم تغيَّر كلُّ شيء في حياتي. كلُّ شيء كان يهتز، كلُّ شيء كان ينقلب. أنشر الغسيل... البياضات والشراشف، هي كلُّها بيضاء عندي. ماما علَّمتْني كيف أغسل بأقدامي بدلاً من الصابون. كنا نذهب إلى النهر حفاة، وهناك كنت أعرف شيئاً واحداً. الغسيل... الجارة من الأسفل تناديني، تصرخ بصوت غريب: «فاليا! فاليا!». ركضت بسرعة إلى

Twitter: @ketab_n

الأسفل، والفكرة الأولى التي راودتني أين ابني؟ وتعرفين، في تلك الأثناء، كان الصبية يركضون بين الأنقاض، ويلعبون في الحرب، وكانوا يعثرون على قنابل يدوية حقيقية وألغام حقيقية. فينسفونها وينتسفون معها، يبقون بلا أيدٍ، وبلا أرجل... أذكر تماماً كيف لم نكن نسمح لهم بالابتعاد عنا، في حين أنهم صبية، فضوليون. تصرخين عليه: اجلس في البيت. وبعد خمس دقائق لا أثر له. كانوا ينجذبون إلى السلاح... خاصَّة بعد الحرب... أسرعت إلى الأسفل. نزلت إلى باحة البناء، وفي الباحة رأيت زوجي... حبيبي إيفان زوجي... فانشكا! عاد من الجبهة! حيّاً! أقبِّله وألمسه. أنظر إلى السترة العسكرية، إلى يديه. لقد عاد... لم تحملني قدماي. أمَّا هو... إنه يقف كأنه من حجر أو من كرتون. لا يبتسم، لا يعانقني، وكأنه متجمِّد. شعرت بالخوف: ربَّما هو، غالباً، فكَّرت، مصاب بالرجَّة الدماغية، وربَّما أطرش. ولكن لا بأس؛ المهمُّ أنه عاد. سأرعاه، وأعتني به، فقد تعبت من رؤية النساء الأخريات وكيف يعشن مع مثل هؤلاء الأزواج، ومع ذلك فقد كان الجميع يحسدونهن. كل هذا انصب على رأسي ضربة واحدة، في ثانية واحدة. ولم تعد قدماي تحملانني من السعادة. إنهما يرتجفان. إنه حي! آه، يا قدري النسائي الرائع!

اجتمع الجيران على الفور. الجميع مسرورون يعانقونه، أمَّا هو فكأنه من حجر. يلوذ بالصمت. الجميع لاحظ. قلت له: «فانيا... فانشكا...».

* «لنذهب إلى البيت».

حسناً، لنذهب. علَّقت يديَّ على كتفه... سعيدة! تسيطر عليَّ الفرحة والسعادة. مرفوعة الرأس! جلس زوجي على المقعد صامتاً.

- «فانيا... فانشكا...».

أتفهمين؟ ولم يستطع الكلام، وبكى.

Twitter: @ketab_n

- «فانيا...».

كانت لدينا ليلة واحدة. ليلة واحدة فقط.

في اليوم التالي، جاؤوا لأخذه، طرقوا الباب صباحاً. كان يدخّن وينتظر، كان يعرف أنهم سيحضرون. لم يحدِّثني إلا بالقليل... لم يتوفَّر الوقت... اجتاز رومانيا كلَّها، وتشيكيا، وأحضر معه الميداليات، لكنه عاد والخوف يسيطر عليه. وقد تمَّ التحقيق معه مسبقاً. كان عنده تفتيشان حكوميان. وقد وضعوا وصمتهم، غلامتهم الفارقة: «كان في الأسر». في الأسابيع الأولى من الحرب... أُسِر بالقرب من سمولنسك، وكان عليه أن يطلق النار على نفسه. كان يريد ذلك، أنا أعرف، كان يريد ذلك... لكن الطلقات نفدت، ولم يكن هناك ذخيرة للقتال، ناهيك عن الانتحار. أصيب بجرح في قدمه، وقد أُسر جريحاً. ولكن أمام عينيه، كسر المفوَّض السياسي رأسه بحجر... بعد أن فشل في إطلاق النار على نفسه بالرصاصة الأخيرة... أمام عينيه... الضابط السوفييتي لا يستسلم للأسر. ليس لدينا أسرى، لدينا خونة. هكذا كان يقول الرفيق ستالين، وقد تخلَّى عن ابنه الذي وقع في الأسر، ولم يعترف به. زوجي... صرخ فيه المحقِّقون: «لماذا أنت حي؟ لماذا بقيت حياً؟». لقد هرب من الأسر... هرب إلى الغابة إلى قوَّات الأنصار الأوكرانية، عندما حُرِّرت أوكرانيا طلب الالتحاق بالجبهة. استقبل يوم النصر في تشيكيا. رُشِّح لنيل الميدالية...

كانت لدينا ليلة واحدة فقط... لو كنت أدري... حتى أنه كانت لدي رغبة في أن أحمل، أردت أن أحمل ببنت...

أخذوه في الصباح... أنهضوه من سريره... أنا جلست خلف الطاولة في المطبخ، وانتظرت ريثما يستيقظ ابننا. كان ابننا قد أكمل العام الحادي عشر. كنت أعرف أنه سيستيقظ وأوَّل ما سيسأله: «أين بابا؟». فبماذا أجيبه؟ وكيف أشرح الأمر لجيراني؟ ولوالدتي؟

Twitter: @ketab_n

عاد زوجي بعد سبع سنين... انتظرته أنا وابني أربع سنوات في الحرب، وبعد النصر انتظرناه سبع سنوات أخرى من كوليما. من معسكر الاعتقال. انتظرناه إحدى عشر عاماً. وقد كبر ابننا...

تعلَّمت الصمت... أين زوجك؟ من هو أبوك؟ في كل استمارة من الاستمارات، كان هناك سؤال: هل كان أحد أقربائكم أسيراً؟ عندما كتبت لم يأخذوني للعمل في المدرسة التقنية، لم يثقوا بي في تنظيف أرضية البناء. لقد أصبحت عدوَّ الشعب؛ زوجة عدوِّ الشعب، زوجة الخائن. هكذا انقضت حياتي عبثاً... قبل الحرب كنت معلِّمة، أنهيت المعهد التربوي، أمَّا بعد الحرب فقد كنت أحمل الطوب للبناء. تلك هي حياتي... اعذريني لأنني لا أتحدَّث بصورة متَّزنة، وحديثي يأتي بصورة متقاطعة... إنني أسرع في الحديث... كم حدث معي... كم من الليالي كنت مستلقية لوحدي، وكنت أحدِّث أحداً ما عن حياتي! أمَّا في النهار، فكنت ألوذ بالصمت.

الآن، يمكن الحديث للجميع عن كلِّ شيء. أريد أن أسأل: من المذنب في أن ملايين الجنود والضبَّاط وقعوا في الأسر في الأشهر الأولى من الحرب؟

أريد أن أعرف... من الذي ضرب قيادة الجيش قبيل الحرب، وأعدم الضبَّاط القادة للجيش الأحمر، أو شهَّر بهم باسم: جاسوس ألماني، جاسوس ياباني؟ أنا أريد... من كان يثق بفرسان بوديوني[1] في تلك الفترة، عندما كان هتلر يتسلَّح بالدبَّابات والطائرات؟ من كان يؤكِّد لنا: «إن

1- المارشال سيميون بوديوني (1883-1973) بطل الاتحاد السوفييتي وقائد جيوش الفرسان والخيَّالة. ساهم مساهمة كبيرة في الحرب الأهلية وفي الحرب الوطنية العظمى؛ ولكن بولغ في تقدير قوَّة جيوشه في الحرب مع ألمانيا النازية. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

حدودنا مقفلة بالقفل...»، في حين أن الجيش ومنذ اليوم الأوَّل بدأ يعدُّ الذخيرة والرصاص...

أنا أريد... يمكنني الآن أن أسأل... أين حياتي؟ أين حياتنا؟ لكنني ألتزم الصمت، وزوجي يلوذ بالصمت. إننا حتى اليوم نشعر بالرهبة... إننا نخاف... من أن نموت ونحن خائفين. إنه درس مرير ومعيب...

فالنتينا يفدوكيموفنام. عاملة لاسلكي في المقاومة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إنها تضع يدها، حيث قلبها...

وأخيراً - جاء النصر...

إذا كانت الحياة تنقسم، بالنسبة إليهم سابقاً، إلى حرب وسلام، فإنها تنقسم الآن إلى حرب وانتصار.

من جديد عالمان مختلفان، وحياتان مختلفتان. وبعد أن تعلَّمنا الكراهية، كان علينا أن نتعلَّم الحبَّ من جديد. وأن نتذكَّر العواطف المنسية، والكلمات المنسية.

كان على إنسان الحرب أن يصبح إنساناً بلا حرب...

أيّام الحرب الأخيرة، حيث أصبح القتل مقززاً...

كنا سعداء...

اجتزنا الحدود - الوطن قد تحرَّر. أرضنا... لم أتعرَّف على الجنود، لقد أصبحوا ناساً آخرين. جميعهم يبتسمون. وقد ارتدوا قمصاناً نظيفة. ومن أين لهم الأزهار في أيديهم؟ لم أعرف أشخاصاً سعداء مثلهم. ولم أرَ مثلهم سابقاً. كنت أعتقد بأننا عندما ندخل إلى ألمانيا، لن تكون عندي شفقة عليهم، ولن أرحم أحداً منهم. كم من الكراهية تراكمت في صدورنا! وكم من المظالم! ولماذا عليَّ أن أشفق على طفله؟ ولماذا عليَّ أن أشفق

Twitter: @ketab_n

على أمِّه؟ لماذا عليَّ ألَّا أدمِّر بيته؟ إنه لم يشفق... لقد كان يقتل... لقد أحرق... وأنا؟ أنا... أنا... أنا... لماذا؟ لمـ...ا...ذا؟ كان بودِّي أن أرى نساءهم، أمَّهاتهم، الذين ولدوا هؤلاء الأبناء. كيف سينظرون إلينا في أعيننا؟ كان بودِّي أن أنظر إليهن في أعينهن...

كنت أفكِّر: ما الذي سيحدث معي؟ مع جنودنا؟ نحن نذكر كل شيء... كيف سنصمد أمام هذا؟ ما هي القوى التي نحتاجها كي نصمد؟ وصلنا إلى بلدة صغيرة. أطفال يركضون، جائعون، مساكين. يخافون منا... يختبئون... أنا التي أقسمت بأن أكرههم جميعاً... كنت أجمع من جنودنا ما تبقَّى من قطع السكَّر من أكياسهم، وأعطيها للأطفال الألمان. بالطبع، أنا لم أنسَ شيئاً... كنت أتذكَّر كلَّ شيء... لكنني لم أستطع النظر إلى عيون الأطفال الجائعين. منذ الصباح الباكر، كان يجتمع طابور الأطفال الألمان بالقرب من مطابخنا، كانوا يقدِّمون الصحن الأوَّل والثاني. كان لدى كلِّ طفل حقيبة قماشية معلَّقة على كتفه للخبز، وعلى حزامه صفيحة صغيرة للحساء ووعاء ما للوجبة الأساسية - العصيدة أو الحمُّص. نحن كنا نطعمهم، نعالجهم، بل وحتى نلاطفهم... عندما لاطفت للمرَّة الأولى... شعرت بالخوف... أنا! أنظر إلى طفل ألماني... لقد جفَّ ريقي من القلق... لكنني سرعان ما اعتدت. وهم اعتادوا.

صوفيا آداموفنا كونتسيفيتش، مرشدة طبِّيَّة

وصلت إلى ألمانيا... سرت من موسكو...

كنت مرشدة طبِّيَّة متقدِّمة في فوج الدبَّابات. كانت عندنا الدبَّابات "ت-34"، لقد احترقت بسرعة. بصورة رهيبة. إنني قبل الحرب لم أسمع حتى صوت إطلاق نار من البندقية. ذات مرَّة في مكان ما، كان يجري

Twitter: @ketab_n

القصف بعيداً، حيث كنا متوجِّهين إلى الجبهة. كان يبدو لي أن الأرض كلَّها ترتجف. كان عمري سبعة عشر عاماً، وكنت قد تخرَّجت لتوِّي من المدرسة التقنية المتوسِّطة. وهكذا حصل، لقد التحقت على الفور بالمعركة.

خرجت من الدبَّابة... حريق... السماء تحترق... الأرض تحترق... الحديد يحترق...الموتى راقدون هنا، أمَّا هناك فيصرخون: «أنقذونا... ساعدونا». سيطر رعب شديد عليَّ! لا أدري، كيف لم أهرب، كيف لم أخرج من ساحة المعركة؟ لقد كان الوضع رهيباً، لدرجة أن الكلمات لا تكفي للتعبير، المشاعر وحدها. سابقاً، لم أكنْ أحتمل، وحتى الآن أشاهد أفلاماً عن الحرب، ومع ذلك أبكي.

وصلت إلى ألمانيا...

أوَّل ما رأيته على الأرض الألمانية كان منشوراً جدارياً دعائياً على الطريق نفسها: «تلك هي، الحرب الملعونة!».

دخلنا إلى بلدة صغيرة... مصاريع الأبواب كلُّها مغلقة. لقد تركوا كلَّ شيء وهربوا على درَّاجاتهم الهوائية. كان غوبلز (وزير الدعاية الهتلري) يقنعهم بأن الروس سيأتون، وسوف يقطعون كلَّ شيء، ويفرمون كلَّ شيء، ويكسرون كلَّ شيء. تفتحين باب بيت من البيوت، لا أحد في البيت، أو الجميع راقدون، مقتولون أو مسمَّمون. الأطفال يرقدون. لقد تبادلوا إطلاق النار، أو قاموا بتسميم بعضهم بعضاً... ماذا كنا نشعر؟ كنا نشعر بالنصر لأننا انتصرنا الآن، وهم يشعرون الآن بالألم، كما شعرنا نحن. إنه الشعور بالانتقام. أمَّا الأطفال فكنا نشفق عليهم...

عثرنا على ألمانية عجوز.

قلت لها: «لقد انتصرنا!».

فبكت قائلة: «لقد استشهد ولداي في روسيا».

Twitter: @ketab_n

- «ومن المذنب؟ وكم استشهد من جانبنا!».

أجابت: «هتلر...».

- «هتلر لم يقرِّر بنفسه، إنهم أبناؤكن وأزواجكن...».

عندها لاذت بالصمت.

وصلت إلى ألمانيا...

أردت أن أكتب لأمِّي، أن أحدِّثها... لكن أمِّي ماتت في الحرب جوعاً. لم يكن عندهم شيئاً لا من الخبز ولا من غيره. أمَّا أخي فكان يرقد جريحاً في المستشفى العسكري. أختي وحدها انتظرتْني في البيت. وقد كتبت تقول إن قوَّاتنا عندما دخلت إلى مدينة أريول، كانت تمسك بجميع الفتيات المرتديات المعاطف العسكرية. كان يبدو لها أنني بالضرورة سأكون من بينهن. وأن عليَّ أن أعود...

نينا بتروفنا ساكوفا، ملازم، مرشد طبِّي

طرق النصر...

من غير الممكن أن تتصوَّري طرق النصر! كان يسير الأسرى المحرَّرون مع العربات، مع الشاحنات، مع الأعلام الوطنية. روس، بولونيون، فرنسيون، تشيكيون. اختلط الجميع فيما بينهم، وكلٌّ سار في اتجاهه. كان الجميع يعانقوننا ويقبِّلوننا.

التقوا بالفتيات الروسيات. أنا تحدَّثت إليهم، وهم حدَّثوني... إحداهن كانت حاملاً، الأجمل بينهن. كان قد اغتصبها صاحب المعمل الذي كانت تعمل عنده، وأجبرها على أن تعيش معه. كانت تمشي وتبكي، وتضرب نفسها في بطنها: «لن أحمل معي هذا الأجنبي إلى بيتي! لن أجلبه!». كانوا يحاولون إقناعها... لكنها شنقت نفسها... مع أجنبيها الصغير...

Twitter: @ketab_n

كان من الواجب الإصغاء إلى كلِّ شيء. الإصغاء وتسجيل كُلّ شيء. للأسف، لم يخطر آنذاك في ذهن أحد أن نصغي إلى هذه الأصوات. الجميع كان يكرِّر كلمة "النصر"، وما تبقى كان يبدو غير مهم.

سرنا مع صديقتي على الدرَّاجات. فالتقينا في الطريق امرأة ألمانية على درَّاجة، عندها ثلاثة أطفال، كما أذكر، اثنان في العربة، والثالث وراءها يمسك بتنُّورتها. كانت متعبة جدّاً. أتفهمين، أصبحت تسير على صفِّنا، وركعت على ركبتها وأخذت تطأطئ رأسها... هكذا... حتى الأرض... ونحن لا نفهم ما تقوله. وهي تضع يدها، حيث قلبها وتشير إلى أطفالها. عموماً، فهمنا أنها تبكي، وتنحني احتراماً وتشكرنا لأن أطفالها بقوا أحياء...

لقد كانت زوجة أحدهم. وزوجها، على الأغلب، كان يحارب على الجبهة الشرقية... في روسيا...

أناستاسيا فاسيليفنا فورونايفا، عريف المصابيح الكشّافة

عندنا أحبَّ ضابط فتاة ألمانية...

وصل الخبر إلى القيادة... فخفَّضوا رتبته وأرسلوه إلى المؤخَّرة. لو أنه اغتصبها، بالطبع، لا يكتبون الكثير عن هذا الموضوع عندنا، لكان الأمر طبيعياً، لكان قانون الحرب. فقد أمضى الرجال عدَّة سنوات بدون نساء، والكراهية، إضافة إلى ذلك. ندخل في بلدة صغيرة أو قرية، الأيَّام الثلاثة الأولى للسرقة و... طبعاً، بشكل غير مكتوب. أنتِ نفسك تفهمين... وبعد ثلاثة أيَّام، يمكن للمرء أن يتعرَّض للمحكمة العسكرية. وعلى نار حامية. لقد ثملوا ثلاثة أيَّام، وفجأة، الحب. اعترف الضابط بنفسه، في قِسمه، بالحب. والحب، بالطبع، هنا، خيانة... أن تحبَّ فتاة ألمانية، ابنة أو زوجة العدو؟ هذه... باختصار، أخذوا منه صورها وعنوانها بالطبع...

Twitter: @ketab_n

أنا أذكر، بالطبع، أذكر الفتاة الألمانية المغتصبة. كانت مستلقية، عارية، وقد وضعوا لها القنبلة اليدوية (الرمَّانة) بين رجليها... الآن هذا شيء معيب، ولكن في تلك الأثناء لم أشعر أنه معيب. كانت المشاعر تتغيَّر بالطبع. كنا نشعر بمشاعر معيَّنة في الأيَّام الأولى، وبمشاعر أخرى لاحقاً... بعد بضعة شهور... جاءت إلى كتيبتنا، إلى قائد الكتيبة، خمس فتيات ألمانيات. وقد بكين بكاء شديداً... وقد فحصهن طبيب الأمراض النسائية، فوجد جروحاً متقرِّحة متشقِّقة في أعضائهن التناسلية. وكانت كلاسينهن الداخلية مغطَّاة بالدماء... استمروا في اغتصابهن طيلة الليل. وقف الجنود في الطابور من أجل اغتصابهن...

لا تسجِّلي ولا تكتبي... أغلقي المسجِّل... إنها الحقيقة! الحقيقة! اصطفَّ عناصر الكتيبة صفَّاً واحداً. وقال الآمر للفتيات الألمانيات: اذهبن وابحثن، إذا ما عثرتن على أي واحد من الذين اغتصبوكن سنطلق عليه النار فوراً، بصرف النظر عن رتبته. إننا نشعر بالخجل! لكنهن جلسن يبكين... إنهن لم يردن... لم يردن سفك دماء جديدة. وهذا ما قالته الفتيات... وعندها أعطى القائد كل واحدة منهن رغيفاً كبيراً من الخبز. بالطبع، هذه هي الحرب... بالطبع...

وهل تعتقدين أن المسامحة كانت سهلة؟ أن تري بيوتاً بيضاء... كاملة... بأسقفها القرميدية وبأزهارها... أنا نفسي كنت أريد أن يشعر الألمان بالألم... بالطبع... أردت أن أرى دموعهم... من المستحيل أن تتحوَّل من شاركتْ في الحرب دفعة واحدة إلى إنسانة طيِّبة، مستقيمة، ومحبَّة للخير؛ مثلكِ الآن. أشفق عليهن. من أجل هذا كان لا بدَّ أن تمرَّ عشرات السنين...

آ. راتكينا، رقيب، عاملة لاسلكي

Twitter: @ketab_n

أرضنا الحبيبة تحرَّرت... أصبح الموت غير مقبول أبداً، وأصبح الدفن غير مقبول. لقد كانوا يموتون من أجل أراضي الغير، ودُفنوا على أراضي الغير. لقد شرحوا لنا أنه يجب التخلُّص من العدو، وأن العدوَّ لا يزال خطيراً... الجميع كان يدرك هذا... لكن الموت كان مؤسفاً للغاية... لم يعد هناك من يرغب في الموت...

لقد حفظت كثيراً من الرسوم الجدارية السياسية على طول الطرق، كانت كلُّها أشبه بالصلبان: «تلك هي ألمانيا الملعونة!». لقد حفظ الجميع هذا الرسم الجداري...

والجميع كانوا ينتظرون هذه اللحظة... الآن نحن سنفهم... سوف نرى... من أين جاءوا؟ أين هي أرضهم، وأين هي بيوتهم. أمن المعقول أنهم أناس عاديون طبيعيون؟ وأنهم كانوا يعيشون حياة عادية؟ في الجبهة، لم يكن في استطاعتي أن أتصوَّر أنني سأتمكَّن من قراءة أشعار الشاعر الألماني غينيه من جديد. وشاعري المفضَّل غوته... لم يكن في استطاعتي الإصغاء إلى موسيقى فاغنر... قبل الحرب، أنا تربَّيت في أسرة موسيقيين، وكنت أحبُّ الموسيقى الألمانية، باخ، بيتهوفن، باخ العظيم! لقد مسحت هؤلاء كلَّهم من عالمي. بعدها رأينا، وعرضوا علينا المحرقة... ومعسكر اعتقال أوسفينتسي، وجبال الألبسة النسائية وأحذية الأطفال... الرماد الرمادي العظمي... أخذوا ينقلونها إلى الحقول، تحت ثمار الملفوف، وتحت الخس... لم يعد في استطاعتي الاستماع إلى الموسيقى الألمانية... لقد مرَّ وقت طويل قبل أن أتمكَّن من العودة لباخ، وأن أعزف موتسارت.

أخيراً نحن على الأرض الألمانية... أوَّل ما أدهشنا – الطرق الجيِّدة. بيوت الفلَّاحين الكبيرة... أصص الزهور الكثيرة، الستائر الجميلة على النوافذ وحتى في العنابر. في البيوت مفارش الموائد بيضاء. الأوعية

Twitter: @ketab_n

المنزلية الثمينة، من الخزف الصيني. وهناك رأيت للمرَّة الأولى الغسَّالة الكهربائية... لم يكن في وسعنا أن نفهم: لماذا كانوا في حاجة إلى الحرب، إذا كانوا قد عاشوا هذه الحياة الجيِّدة؟ عندنا الناس يلجؤون إلى الملاجئ والخنادق، أمَّا عندهم مفارش الموائد البيضاء. القهوة يتناولونها بفناجين صغيرة... ولم أرَ مثلها إلا في المتحف. هذه الفناجين... لقد نسيت الحديث عن حادثة صدمتنا جميعاً... بدأنا هجومنا، وها هي الخنادق الألمانية الأولى التي استولينا عليها... نزلنا إليها، فوجدنا قهوة ساخنة في الأباريق الحافظة... رائحة القهوة... البسكويت... الشراشف البيضاء... المناشف النظيفة، أوراق التواليت... كلُّ هذا لم يكن متوفِّراً عندنا. أية شراشف؟ كنا ننام على القش، على أغصان الأشجار. وغير مرَّة كنا نعيش يومين إلى ثلاثة أيَّام بدون الطبق الساخن. وقد أطلق جنودنا النار على هذه الأباريق الحافظة... على هذه القهوة...

لقد رأيت في البيوت والمنازل الألمانية طقوم فناجين القهوة التي أطلقت عليها النار. وعلى أصص الأزهار، والوسادات... وعربات الأطفال... ولكن، على الرغم من كل شيء، لم نكن قادرين على أن نفعل بهم ما فعلوه بنا. وأن نرغمهم على أن يعانوا ما كنا قد عانيناه.

كان من الصعب علينا أن نفهم، من أين جاءت هذه الكراهية؟ كراهيتنا مفهومة، أمَّا كراهيتهم؟

سمحوا لنا بإرسال طرود بريدية إلى بيوتنا: صابون، سكَّر... هناك من أرسل الأحذية، فالأحذية الألمانية قوية، وهناك من أرسل الساعات والملبوسات الجلدية. الجميع كانوا يبحثون عن الساعات. لم يكن في استطاعتي فعل ذلك، كان لديَّ شعور بالقرف. لم أرغب في أخذ أي شيء من عندهم، مع أنني كنت أعرف أن أمِّي وأخواتي يعشن في بيت الغرباء؛ فقد أُحرق بيتنا. عندما عدت إلى البيت، حدَّثت أمِّي عن كلِّ هذا،

Twitter: @ketab_n

فعانقتني وقالت: «أنا أيضاً، لم يكن بودِّي أن آخذ أي شيء منهم. لقد قتلوا أباكم».

لم أمسك بمجلَّد أشعار غينيه إلا بعد الحرب بعشر سنوات. وكذلك أسطوانات الموسيقيين الألمان التي كنت أحبُّها قبل الحرب...

آغلايا بوريسفنا نيستيروك، رقيب، سلاح الإشارة

هذا حدث في برلين... حصلت معي الحادثة التالية: أسير في الشارع، فظهر قبالتي صبيٌّ يحمل رشَّاشاً، من منظمة فولكستروم النازية الإرهابية. وقد حَلَّت نهاية الحرب. آخر أيَّام الحرب. أصابعي كانت على زناد الرشَّاش، جاهزة. نظر إليَّ، ثمَّ غمزني وبكى. وأنا لم أصدِّق نفسي؛ ظهرت الدموع في عيني، وشعرت بالشفقة نحوه. صبيٌّ واقف مع هذا الرشَّاش الغبي... أخذت أدفعه باتجاه البناء المدمَّر، نحو المدخل: اذهب، اختبئ. فشعر بالخوف من أن أطلق عليه النار الآن. كانت القبَّعة فوق رأسي، ولم يكن يظهر ما إن كنت فتاة أم شابّاً. أمسك بي من يدي، وشرع بالبكاء! ربَّتُّ على رأسه بيدي. فانعقد لسانه. فالحرب ما زالت قائمة... أنا أيضاً انعقد لساني! فقد كنت أكرههم طيلة سنوات الحرب! سواء كان هذا عادلاً أم غير عادل، فمن العار القتل على أية حال، وبخاصَّة في أواخر أيَّام الحرب...

آلبينا ألكسندروفنا غانتيموروفا، رقيب أوَّل، استطلاع

أشعر بالأسف... لأن طلباً واحداً لم ألبِّه...

جُلب إلى مستشفانا العسكري جريح ألماني. أظنُّ أنه كان طيَّاراً. كان وركه مكسوراً، وبدأت الغنغرينا تنتشر. فشعرت بشيء من الشفقة عليه. إنه مستلقٍ ومتمسِّك بالصمت.

Twitter: @ketab_n

كنت أعرف قليلاً اللغة الألمانية. سألته: «هل أعطيك تشرب؟».

* «لا».

كان الجرحى يعرفون أن في هذه القاعة المنفردة يستلقي جريح ألماني. وهم يشعرون بالامتعاض عندما أتوجَّه نحوه: «أنت تحملين الماء للعدو؟».

* «إنه ينازع... عليَّ أن أساعده».

كانت ساقه كلُّها زرقاء اللون، وأصبح من المستحيل عمل أيِّ شيء؛ فالتسمم وانتقال العدوى يقضي على الإنسان بسرعة، ويحترق الإنسان بالكامل خلال بضع ليالٍ.

أقدِّم له الماء، وهو ينظر إليَّ وفجأة قال لي: «يسقط هتلر!».

هذا حدث في العام الثاني والأربعين. وكنا تحت الحصار الألماني بالقرب من خاركوف.

سألته: «لماذا؟».

- «يسقط هتلر!».

عندها أجبته: «أنت تعتقد بهذا الآن وتقوله لأنك ترقد هنا. أمَّا هناك فأنتم تقتلون...».

فقال: «أنا لم أطلق النار، ولم أقتل. لقد أرغموني على ذلك، ولكنني لم أطلق النار...».

* «الجميع هكذا يبرِّرون أفعالهم، عندما يقعون في الأسر».

وفجأة، طلب مني: «أنا أرجوك... رجاء حارَّاً، يا آنسة». وأعطاني مغلَّفاً من الصور الفوتوغرافية، وبدأ يريني: هذه صورة أمِّه، صورته، صورة إخوته، وأخواته... صورة جميلة. وعلى الجهة المقابلة كتب عنوان بيته، «أنت ستكونين هناك. ستكونين!»، وهذا ما قاله ألمانيٌّ أسيرٌ في العام

Twitter: @ketab_n

الثاني والأربعين بالقرب من خاركوف. «ضعيها هناك في صندوق البريد».

وقد كتب العنوان على صورة واحدة، ولكن كان هناك مغلَّف كامل. لقد حافظت على هذه الصورة فترة طويلة، لكنني عانيت بشدَّة في أثناء قصف شديد وفقدتها. وفقدت المغلَّف عندما دخلنا إلى ألمانيا...

ليليا ميخائيلوفنا بوتكو، ممرِّضة جراحية

أذكر معركة....

في تلك المعركة، أسرنا كثيراً من الألمان. وكان من بينهم جرحى. كنا نضمِّدهم، وكانوا يئنُّون، مثل شبابنا. وكان الحرُّ شديداً! عثرنا على إبريق الشاي، وأعطيناهم ليشربوا. كان المكان مفتوحاً، ويطلقون علينا النار. فوصلنا أمرٌ عسكري: احفروا خنادق على الفور، وقوموا بعملية تمويه.

بدأنا بحفر الخنادق. الألمان ينظرون إلينا. شرحنا لهم، كي يساعدونا في عملية الحفر، ويعملوا معنا. وعندما أدركوا المطلوب منهم، نظروا إلينا برعب شديد، فقد ظنوا أنه بعد أن ننتهي من حفر الخنادق والحفر، سوف نضعهم في هذه الحفر ونطلق عليهم النار. كانوا يتوقَّعون هذا... على المرء أن يرى بأية حالة مرعبة كانوا يحفرون الحفر... أن ينظر إلى وجوههم...

وعندما رأوا أننا نضمِّدهم ونقدِّم لهم الماء في الخنادق التي حفروها بأنفسهم، وطلبنا منهم أن يختبئوا فيها، لم يستطيعوا أن يستوعبوا، وأصيبوا بالارتباك... حتى أن أحدهم بكى... لقد كان هذا رجلاً متوسِّط العمر، وقد كان يبكي ولم يخفِ دموعه عن أحد...

نينا فاسليفنا إيلينسكايا، ممرِّضة

Twitter: @ketab_n

موضوع إنشاء وأخطاء الأطفال والكوميديا السينمائية

الحرب انتهت...

استدعاني النائب السياسي: «فيرا يوسيفوفنا، ستضطرِّين إلى العمل مع الجرحى الألمان».

ولكن كان لديَّ شقيقان قُتلا على أيدي الألمان.

* «لن أعمل».

- «أتفهمين، هذا ضروري».

* «لست قادرة؛ لقد قتلوا شقيقين لي، لا أستطيع رؤيتهم. أنا مستعدَّة لذبحهم وليس لعلاجهم. افهمني...».

- «لكن هذا أمر!».

* «إذا كان أمراً فسأنفِّذه. أنا إنسان عسكري».

لقد عالجت هؤلاء الجرحى، ونفَّذت كلَّ ما هو مطلوب، لكن هذا كان صعباً بالنسبة إليَّ؛ أن ألمسهم، أن أخفِّف من ألمهم. آنذاك، اكتشفت أولى شعرات الشيب في رأسي. في تلك الأثناء تحديداً. لقد عملت لهم كلَّ ما هو مطلوب، أجريت لهم العمليات، وأطعمتهم، وخفَّفت عنهم آلامهم، كلُّ شيء كما هو مطلوب. الشيء الوحيد الذي لم أكن قادرة على فعله هو الجولة المسائية. في الصباح، كنت أعيد تضميد الجريح، وأقيس له نبضات قلبه وضغطه، وباختصار، أتصرَّف كطبيب، أمَّا في أثناء الجولة المسائية فيجب الحديث مع المرضى، والسؤال عن صحَّتهم وعن أوجاعهم. وهذا ما لم أستطع القيام به. كان يمكنني تغيير الضماد، وإجراء العملية، أمَّا الحديث معهم فلم يكن في وسعي ذلك. وهذا ما قلته فوراً للنائب السياسي: «لن أقوم بالجولة المسائية...».

فيرا يوسيفوفنا خوريفا، جرَّاحة حربية

Twitter: @ketab_n

في ألمانيا... ظهر في مستشفياتنا العسكرية كثير من الجرحى الألمان... أذكر جريحي الألمانيَّ الأوَّل. بدأت عنده الغنغرينا. وقد بتروا له ساقيه... كان راقداً في قاعتي...

قيل لي مساءً: «كاتيا! اذهبي وانظري إلى جريحك الألماني».

ذهبت. ربَّما نزيف عنده أو شيء من هذا القبيل. كان مستيقظاً، راقداً. لا يوجد ارتفاع في حرارته أبداً.

نظر إليَّ طويلاً، ثمَّ أخرج مسدساً صغيراً وقال: «خذي...».

كان يتحدَّث بالألمانية، ولم أعد أذكر، لكنني فهمت حسب معلوماتي المدرسية من دروس اللغة الألمانية.

- «خذي»، قال لي. «كنت أنوي قتلك، أمَّا الآن، فاقتليني أنتِ».

بمعنى أننا أنقذناه. هو كان يقتلنا، ونحن أنقذناه. ولم يكن في استطاعتي أن أقول له إنه ينازع...

خرجت من قاعة المستشفى وفجأة لاحظت الدموع في عينيَّ...

يكاتيرينا بتروفنا شاليغينا، ممرِّضة

كان من الممكن أن يحدث لقاء... كنت أخشى هذا اللقاء...

عندما كنت أدرسُ في المدرسة التي تركِّز على اللغة الألمانية، حلَّ ضيوفاً على مدرستنا تلاميذُ ألمان. في موسكو، كنا نذهب معهم إلى المسرح، ونغنِّي معاً. أُعجبت بصبيٍّ ألماني، كان يجيد الغناء، وقد تصادقنا معاً، حتى أنني أحببته... وطيلة الحرب كنت أفكِّر: ماذا لو قابلته وتعرَّفت عليه؟ أمن المعقول أنه مع هؤلاء؟ أنا عاطفية جدًّاً، وانطباعية منذ طفولتي. يا للرعب!

ذات مرَّة، أسير في الحقل، بعد المعركة التي انتهت مؤخَّراً... وقد

Twitter: @ketab_n

جمعنا جرحانا، وبقي الألمان... بدا لي وكأنه كان راقداً... شابٌّ يشبهه إلى حدٍّ كبير... على أرضنا... وقفت طويلاً أمامه...

ماريا أناتوليفنا فلير وفسكايا، موجِّهة سياسية

هل تريدين معرفة الحقيقة؟ أنا نفسي أخاف الحقيقة...

أحد جنودنا... كيف أشرح لك؟ استُشهد كلُّ من كان في بيته. هو كان عصبياً... وربَّما ثملاً؟ كلَّما اقترب النصر، كلَّما سكِروا أكثر. في البيوت والأقبية كان يمكن دوماً العثور على النبيذ. شربوا وشربوا الكثير. أخذ رشَّاشه واقتحم بيتاً ألمانياً، وأطلق النار على الجميع... لم يتمكَّن أحد من اللحاق به. ركضوا... لكن لم يبقَ أحدٌ حيٌّ في البيت، والجميع أصبحوا جثثاً... الأطفال راقدون... أخذوا منه الرشَّاش، وقيَّدوه. وهو يشتم قائلاً: «أعطوني الرشاش سأطلق النار على نفسي».

اعتقلوه وحكموا عليه بالإعدام رمياً بالرصاص. أنا أشفقت عليه، والجميع أشفقوا عليه. لقد حارب طيلة سنوات الحرب. ووصل إلى برلين...

هل يمكن الكتابة عن هذا؟ سابقاً، كانت ممنوعة...

آ. س. مدفعية مضادَّة للطائرات

كانت الحرب تنتظرني...

ما إن أكملت عامي الثامن عشر وصلني تبليغ: الحضور إلى اللجنة التنفيذية لمجلس نوَّاب الشعب في المنطقة، وإحضار مواد غذائية تكفي لثلاثة أيَّام، وغيارات من الألبسة الداخلية، وكوب وملعقة. وهذا ما كان يُدعى بالتعبئة على جبهة العمل.

Twitter: @ketab_n

نقلونا إلى مدينة نوفوترويتسك، بمنطقة أورينبورغ، وبدأنا العمل في مصنع. كان الصقيع شديداً لدرجة أن المعطف كان يتجمَّد في الغرفة ويغدو ثقيلاً مثل قرمة حطب. عملنا أربع سنوات بدون إجازات سنوية وبدون عطل أسبوعية.

انتظرنا طويلاً متى ستحلُّ نهاية الحرب. النقطة الأخيرة. في الساعة الثالثة صباحاً، ضجيج في السكن الجماعي. جاء مدير المصنع وباقي المسؤولين: «النصر!». وأنا لم أستطع النهوض من سريري، يجلسونني فأسقط ثانية. لم يستطيعوا النهوض بي طيلة اليوم.

بسبب الفرح، بسبب الانفعال القوي، أُصبت بالشلل. لم أنهض إلا في صباح اليوم التالي... خرجت إلى الشارع، كان بودِّي معانقة كلِّ عابر وتقبيله...

كسينيا كليمنتيفنا بيلكو، مقاتلة في جبهة العمل

النصر – يا لها من كلمة جميلة!

لقد سجَّلت توقيعي في الرايخستاغ... كتبت بالفحم الذي عثرت عليه: «انتصرتْ عليكَ فتاة روسية من ساراتوف». الجميع ترك أثراً على جدار الرايخستاغ... كلمات ما. اعترافات، لعنات...

النصر! صديقاتي تسألنني: «من تريدين أن تكوني؟». ونحن في الحرب جعنا لدرجة لا تُطاق... بحيث أردنا أن نأكل ولو مرَّة واحدة حتى الشبع. كان حلمي: عندما أحصل على راتبي الأوَّل بعد الحرب، سأشتري صندوقاً من البسكويت. من سأكون بعد الحرب؟ طبَّاخة، طبعاً. ولا أزال حتى الآن أعمل في المطاعم العامَّة.

السؤال الثاني: «متى ستتزوَّجين؟». بأسرع وقت ممكن... كنت أحلم

Twitter: @ketab_n

كيف سأقبِّل خطيبي، حبيبي. كنت أرغب رغبة شديدة في تقبيله... كما كنت أرغب كثيراً في الغناء. الغناء فقط، وهذا كل شيء...

يلينا بافلوفنا شالوفا، مسؤولة الشبيبة في فوج المشاة

لقد تعلَّمت إطلاق النار، ورمي الرمَّانات، ووضع الألغام، وتقديم المساعدة الطبِّية الأولية...

ولكن خلال أربع سنوات... خلال الحرب نسيت جميع قواعد اللغة. ونسيت البرنامج المدرسي كلَّه. كان في إمكاني فكُّ الرشَّاش بعينين مغلقتين، لكن موضوع الإنشاء عند انتسابي للمعهد العالي كتبته بأخطاء يرتكبها أطفال، وبدون فواصل تقريباً. وقد أنقذتني ميدالياتي القتالية، وقبلوني في المعهد. بدأت أدرس. أقرأ الكتب ولا أفهم شيئاً، أقرأ الأشعار ولا أفهمها. لقد نسيت جميع هذه الكلمات...

وقد أخذت تراودني ليلاً كوابيس: قوَّات الأمن الخاصَّة النازية، عواء الكلاب، الصرخات الأخيرة، عندما يموت الإنسان يهمس بأشياء غير مفهومة، وهي أرهب من الصراخ. بدأ يعود كلُّ شيء إليَّ. يُقاد الإنسان إلى الإعدام... الخوف مزروع في عينيه... ويبدو، أنه لا يثق حتى اللحظة الأخيرة، لا يثق. وثمَّة فضول أيضاً... ثمَّة فضول. يقف أمام الرشَّاش وللمرَّة الأخيرة يغلق عينيه بيديه. يغلق وجهه... وعند الصباح يكون رأسي قد تضخَّم من الصراخ...

في أثناء الحرب لم أكن أفكِّر في شيء، أمَّا الآن فأفكِّر في كلِّ شيء. أعيد التفكير في كلّ شيء... وكلُّ هذا كان يتكرَّر ويتكرَّر... لم أكن قادرة على النوم... الأطبَّاء حظروا عليَّ متابعة الدراسة. لكن البنات، جاراتي في الغرفة وفي السكن الجامعي، قلن لي بأن أنسى الأطبَّاء، وفرضن إشرافهن

Twitter: @ketab_n

عليَّ. كلَّ أمسية، كُنَّ يأخذنني، بالدور فيما بينهن، إلى دار السينما لحضور فيلم كوميدي. «عليك أن تتعلَّمي الضحك، أن تضحكي كثيراً». وكُنَّ يأخذنني، سواء رغبت أم لم أرغب. كانت الأفلام الكوميدية قليلة، وقد شاهدت كُلَّاً منها مئة مرَّة على الأقل. وفي المرَّة الأولى التي ضحكت فيها بكيت...

لكن الكوابيس تراجعت. وتمكَّنت من الدراسة...

تامارا أوستينوفنا فوروبيكوفا، مقاومة سرِّية

حول الوطن وستالين وقماش الكتَّان الأحمر

حدث هذا في الربيع...

استُشهد الفتيان الصغار. لقد استُشهدوا في الربيع... في آذار/ مارس، نيسان/ أبريل... أذكر أنه في الربيع، في الفترة التي أزهرت فيها البساتين، وكان الجميع ينتظر النصر. وكان دفن الناس الموتى هو أقسى من أيِّ شيء آخر. حتى إذا ما سبق أن قالوا لك إنها وردت، اكتبيها ثانية. واحفظيها بقوَّة...

لقد بقيت في الجبهة عامين ونصف. قامت يداي بلفِّ أكثر من ألف ضماد، وغسلتا أكثر من ألف جرح... وضمَّدتا وغيَّرتا الضماد. ذات يوم ذهبت لتغيير وشاحي، فاتَّكأت على حافَّة النافذة ونسيت نفسي. صحيت وقد شعرت بأنني قد استرحت. يقابلني الطبيب ويبدأ بالإساءة إليَّ. وأنا لا أفهم شيئاً... لقد خرج لكنه قبل خروجه عاقبني بمناوبتين إضافيتين، وقد شرحت لي زميلتي سبب ذلك: لقد غبت أكثر من ساعة. وهذا يعني أنني نمت.

الآن صحَّتي سيئة، أعصابي متعبة. وعندما يسألونني: «وأية ميداليات

Twitter: @ketab_n

وجوائز عندك؟». أخجل من الاعتراف بأنه ليس لديَّ جوائز، ولم يجدوا الوقت الكافي لمكافأتي. وربَّما لم يتمكَّنوا من مكافأتي، لأننا كنا كثيرات، وكلٌّ منا كان يفعل ما يستطيع فعله... وهل من الممكن مكافأة الجميع؟ ولكن ثمَّة مكافأة كبيرة لدينا جميعاً، وهي 9 أيَّار/ مايو: يوم النصر!

أذكر حادثة موت غير عادية... لم يحاول أحدٌ أن يعرف الحقيقة، ولم يكن هناك من يهتمُّ بهذا... أمَّا أنا فأتذكَّر... مات عندنا نقيب في اليوم الأوَّل الذي دخلنا فيه الأرض الألمانية. وكنا نعرف، أن جميع أفراد أسرته قُتلوا في الأراضي المحتلَّة. لقد كان رجلاً شجاعاً، كان ينتظر هذا اليوم بشوق كبير... وكان يخشى أن يُستشهد قبل أن يرى هذا اليوم، وألَّا يعيش حتى ذلك اليوم عندما يرى أرض الألمان، وبؤسهم، وكوارثهم، وكيف يبكون، وكيف يعانون... أن يرى الأحجار المكوَّمة بدلاً من البيوت والمنازل... لقد مات دون سبب، ولم يكن جريحاً ولا مريضاً. وصل إلى الأرض الألمانية، ورأى كلَّ شيء... ومات.

وحتى الآن ما زلت أحياناً أتذكَّر: ولماذا مات؟

تامارا إيفانوفنا كورايفا، ممرِّضة

لقد طلبت نقلي إلى الخطِّ الأوَّل من القطار... على الفور... سارت الوحدة العسكرية وتوجَّهت نحوها. في تلك الفترة، كنت أتصوَّر أنني من الخطِّ الأوَّل سأعود إلى بيتي قبل يوم على الأقل ممَّا لو كنت في المؤخَّرة. لقد تركت أمِّي وحيدة في البيت. وتتذكَّر الآن فتياتنا: «إنها لم ترغب في أن تكون في سَرِية الخدمة الصحِّية».

حقيقة، أحضر إلى سَرِية الخدمة الصحِّية، أستحمُّ، آخذ ما توفَّر من الألبسة الداخلية، ومن جديد أعود إلى خندقي؛ في المواقع الأمامية. لم

Twitter: @ketab_n

أكن أفكِّر في نفسي. تزحفين، تركضين... وحيثما حللتِ رائحة الدم... لم أستطع التعوُّد على رائحة الدم...

بعد الحرب، عملت في قسم التوليد كقابلة. لكنني لم أبقَ هناك طويلاً... فترة قصيرة... عندي حساسية خاصَّة تجاه رائحة الدم، كان جسمي عاجزاً عن التواؤم معها. كم رأيت من هذا الدم في الحرب! بحيث أنني لم أعد قادرة على رؤيته. لم يعد جسمي قادراً على التواؤم معه. تركت العمل في قسم التوليد، وتركت العمل في "الإسعاف السريع". كان الشرى يغطِّي جسدي، وكنت ألهث وأتألَّم.

خِطت بلوزة لنفسي من قماش أحمر، وبعد يوم انتشرت بقع ما على ساعديَّ الاثنين. أورام نفطة. لم يكن جسمي يحتمل لا قماش الكتَّان الأحمر، ولا الورود والأزهار الحمراء، أو القرنفل. لا يقبل بأيِّ شيء أحمر اللون، وأي شيء بلون الدم... وحتى الآن لا يوجد لديَّ في البيت أي شيء أحمر اللون. لن تجدي شيئاً أحمر عندي. إن الدم الإنساني ساطع للغاية، ولم أجد مثل هذا اللون الأحمر الساطع، لا في الطبيعة، ولا في لوحات الفنانين والرسامين. عصير الرمَّان يشبهه قليلاً، ولكن ليس مثله تماماً. عصير الرمان اليانع...

ماريا ياكوفليفنا يجوفا، ملازم حرس، آمر فصيلة الخدمة الصحِّية

أوه - أو و وه! ها- ها -ها... الجميع يتأوَّهون ويتحسَّرون، كم أنا مزهرة، ملوَّنة، مزيَّنة! وأنا في الحرب كنت كذلك. أنا لست عسكرية. أرتدي أقراطاً وأساور وخواتم مختلفة... من حسن الحظِّ أن آمرنا ديمقراطي، كما يُقال الآن! تخرَّج من الجامعة وليس من الثكنة العسكرية. تصوَّري، إنه أستاذ مشارك. وبطرائق سلوكية جيِّدة... إنه في ذلك العصر طيرٌ نادر... طيرٌ نادرٌ حطَّ في أرضنا...

Twitter: @ketab_n

أنا أحبُّ الخواتم، وإن كانت خفيفة، رخيصة الثمن، ولكن بحيث تكون كثيرة على اليدين معاً. وأحبُّ العطور الجديدة. الدارجة. والحليَّ المختلفة الكثيرة والمتنوِّعة. في أسرتي كانوا دائماً يضحكون: «ماذا نُهدي المجنونة لينكا في عيد ميلادها؟ بالطبع، خاتم». بعد الحرب، خرط لي أخي خاتماً من قصدير علبة محفوظات. أمَّا العقد فقد صقله طويلاً من قطعة زجاجية خضراء من قارورة. وعقد آخر من قطع زجاج بُنِّية فاتحة.

ألبس كلَّ شيء على نفسي، كلَّ ما هو لامع، مثل العقعق. لا أحد يصدِّق إنني كنت في الحرب. أنا نفسي لا أصدِّق. وحتى في هذه اللحظة التي أجلس فيها معك ونتحدَّث، لا أصدِّق. أمَّا في مطمورتي فثمَّة وسام النجمة الحمراء... أجمل وسام... جميل، حقيقة! قدموه لي خصوصاً ها- ها- ها... إذا تحدَّثنا بجد، ومن أجل التاريخ، أجل؟ هذه الآلة تسجِّل عندك... إذاً، للتاريخ... سأقول هذا: إذا لم تكوني امرأة، فيستحيل عليك أن تعيشي الحرب وتبقي على قيد الحياة. لم أحسد الرجال في يوم من الأيَّام. لا في الطفولة، ولا في الشباب، ولا في الحرب. لقد كنت دوماً مسرورة من كوني امرأة. يقال إن السلاح-الرشَّاش، المسدَّس، شيء جميل فيه الكثير من الفكر البشري، والعاطفة. أمَّا بالنسبة إليَّ، فالسلاح لم يكن جميلاً في يوم من الأيَّام. لقد كنت أرى كيف ينظر الرجال بإعجاب إلى مسدَّس جيِّد. إن هذا لا أفهمه. فأنا امرأة.

لماذا بقيت وحيدة؟ كان لديَّ كثير من العرسان... لكنني أنا نفسي أدخل البهجة والفرح إلى نفسي. جميع صديقاتي شابَّات. أنا أحبُّ الشباب. إنني أخاف من الهرم أكثر ممَّا أخاف من الحرب. لقد جئتِ متأخِّرة... أنا الآن أفكر في الهرم، وليس في الحرب...

Twitter: @ketab_n

وهل آلتك هذه تسجِّل، نعم؟ للتاريخ، أليس كذلك؟

يلينا بوريسوفنا زفياغينتسيفا، جندية، قسم التسليح

أنا في بيتي... الجميع أحياء في بيتي... أمِّي أنقذت الجميع: جدِّي وجدَّتي، وأختي وأخي. وأنا عدت إلى بيتي...

بعد عام رجع والدنا إلى البيت. رجع بمكافآت عديدة، وأنا عدت بوسام وميداليتين. ولكن عندنا في البيت تأكَّدت قاعدة ذهبية - البطلة الرئيسة هي أمِّي؛ فهي أنقذت الجميع، أنقذت الأسرة وأنقذت البيت. كانت لديها الحرب الأشدَّ رهبة. أبي لم يكن يحمل أبداً الأوسمة ولا حاملاتها، كان يرى أن من المعيب أن يتفاخر أمام أمِّي، غير مناسب؛ فأمِّي لم تحظَ بأية مكافأة...

لم أحبَّ أحداً في حياتي كما أحببت أمِّي...

ريتا ميخائيلوفنا أوكونيفسكايا، جندية، اختصاص ألغام

عدت إنسانة أخرى... كانت لديَّ علاقة غير طبيعية مع الموت فترة طويلة، بل يمكنني القول إنها كانت علاقة غريبة...

أطلقوا في مدينة منسك حافلة الترام الأولى، وأنا كنت في هذه الحافلة. وفجأة توقَّفت الحافلة، وأخذ الجميع يصرخ، والنساء تبكي: «قتلتِ إنساناً! قتلت إنساناً!». وأنا أجلس وحيدة في الحافلة، ولا أفهم شيئاً، لماذا يبكي الجميع. لم يكن لديَّ أي شعور بأن هذا شيء مريع. كم من القتلى رأيت في الجبهة! لم أقم بأية استجابة. اعتدت العيش بين القتلى. القتلى دوماً إلى جانبي... بالقرب منهم يدخِّنون، ويأكلون، ويتحدَّثون. إنهم ليسوا في مكان بعيد ما، وليسوا في الأرض، كما في حياة السلم، بل هنا دوماً. معنا.

Twitter: @ketab_n

ثمَّ عاد هذا الشعور، وأصبحت أشعر بالرهبة إذا ما رأيت شخصاً ميتاً في التابوت. بعد بضع سنوات عاد إليَّ هذا الشعور، وأصبحت إنسانة طبيعية... مثل الآخرين...

بيللا إسحاقوفنا إيشتين، قنَّاصة

حادث ما قبل الحرب...

كنت في المسرح. في أثناء الاستراحة، عندما أُشعلت الأضواء، رأيت... رأيته كلَّه... وثارت عاصفة من التصفيق. كالرعد! كان يجلس ستالين في اللوج الحكومي. كان أبي معتقلاً، واختفى أخي الأكبر في معسكرات الاعتقال، وبالرغم من هذا كلِّه، شعرت بالكثير من السرور والبهجة، لدرجة أن الدموع تدفَّقت من عينيَّ. جمدت من السعادة! القاعة كلُّها... القاعة كلُّها نهضت! وقف الجميع يصفق طيلة عشر دقائق.

هكذا جئت إلى الحرب؛ لأحارب. وفي الحرب سمعت أحاديث هادئة... ليلاً كان الجرحى يدخِّنون في الردهة. من هو نائم، ومن هو غير نائم. تحدَّثوا عن توخاتشيفسكي، عن ياكير... الآلاف اختفوا! ملايين الناس! إلى أين؟ كان الأوكرانيون يروون كيف اقتادوهم بالقوَّة إلى المزارع التعاونية، وكيف كانوا يقمعونهم... وكيف نظَّم ستالين الجوع، وهم أنفسهم دعوا ذلك بالمجاعة الكبرى. لقد أُرغمت الأمَّهات اللواتي فقدن عقولهنَّ على أكل أطفالهنَّ... والأرض في أوكرانيا شديدة الخصوبة لدرجة أنك تغرس غصناً صغيراً فيتحوَّل إلى شجرة. وكان الأسرى الألمان يضعون التربة الأوكرانية في طرود بريدية ويرسلونها إلى بلادهم. إلى هذه الدرجة كانت التربة خصبة وغنية؛ إنها مغطَّاة بمتر من التربة السوداء، طبقة من الخصب. كانت هذه الأحاديث خافتة... أشبه بالهمس. لم تكن

Twitter: @ketab_n

هناك أية أحاديث من هذا النحو ضمن جماعات كبيرة، بل فقط شخص لشخص، والثالث فائض لأنه سيشي بهما...

سأروي لكِ نكتة... سأرويها لكِ كيلا نبكي... الوقت ليلاً. في الكوخ. المعتقلون يتحدَّثون مستلقين. يسأل أحدهم الآخر: «لماذا اعتقلوك؟». أحدهم يجيب: «من أجل الحقيقة»، وآخر يجيب: «من أجل والدي...». ويجيب ثالث: «من أجل الكسل». كيف؟ يستغرب الجميع. فيروي الثالث: «جلسنا مساء في جماعة نروي النكت. عدت إلى البيت متأخِّراً. سألتني زوجتي: نذهب الآن ونخبر أم صباحاً؟ أجبتها: في الصباح. أريد أن أنام. وفي الصباح حضروا لاعتقالي...».

شيء مضحك. ولكن لا رغبة لي في الضحك. علينا أن نبكي. أن نبكي.

بعد الحرب... الجميع انتظر أهله من الحرب، أمَّا أنا وأمِّي فكنا ننتظرهم من معسكر الاعتقال. من سيبيريا... ولكن كيف! لقد انتصرنا، لقد أثبتنا إخلاصنا، وحبَّنا. وسيصدِّقوننا على الفور.

عاد أخي في العام السابع والأربعين، أمَّا والدي فلم نعثر عليه... منذ فترة قصيرة ذهبت إلى صديقاتي في الجبهة في أوكرانيا. هُنَّ يعشن في بلدة بالقرب من أوديسا. في وسط البلدة ثمَّة نصبان تذكاريان: نصف سكَّان البلدة ماتوا من الجوع، وجميع الرجال استشهدوا في الحرب. وكيف ستحصي أعدادهم في روسيا؟ لا يزال الناس أحياء، اذهبي واسألي. فمثلك، يا عزيزتي، نحتاج إلى مئات لتوصيف جميع آلامنا، ودموعنا التي لا تُحصى، يا عزيزتي...

ناتاليا ألكسندروفنا كوبريانوفا، ممرِّضة جراحية

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

فجأة، رغبت في أن أحيا رغبة شديدة...

جهاز الهاتف يرنُّ ويرن. أسجِّل عناوين جديدة، وأستلم رسائل جديدة. ومن المستحيل التوقُّف، لأن كلَّ يوم الحقيقة لا تحتمل.

تامارا ستيبانو فنا أومنياغينا، رقيب حرس، مرشدة صحِّية.

آه، أنت جوهرتي....

طيلة الليل كنت أتذكَّر، وأجمع في ذاكرتي...

ركضت إلى دائرة التجنيد: تنُّورتي من الخيش، وعلى قدمي شبشب أبيض مفتوح، لكنه كالحذاء، ذو مشبك؛ كان دارجاً آنذاك. بهذه الهيئة؛ بالشبشب والتنُّورة، طلبت التوجُّه إلى الجبهة. أرسلوني. جلست على سيَّارة، ووصلت إلى الوحدة. إنها فرقة مشاة. كانت معسكِرة بالقرب من منسك، فقالوا لي: «وهل نحن في حاجة إليك هنا؟ فمن المعيب على الرجال أن تأتي فتاة في السابعة عشر من عمرها وتقاتل. وعلى هذا المنوال، وسنقضي قريباً على العدو، فاذهبي إلى أمِّك، أيَّتها الفتاة». أنا انزعجت بالطبع، لأنهم لا يأخذونني إلى الحرب. وماذا عليَّ أن أفعل؟ ذهبت إلى رئيس الأركان، وكان يجلس عنده ذلك العقيد الذي رفضني، وقلت له: «أيها الرفيق الآمر الأعلى، اسمح لي بعدم تنفيذ أمر الرفيق العقيد. على أية

Twitter: @ketab_n

حال، لن أعود إلى البيت. سوف أتراجع معكم. حيثما سأذهب، الألمان سيكونون قريبين». وهكذا لقَّبني الجميع فيما بعد بـ"الرفيق الآمر الأعلى". كان هذا اليوم السابع للحرب. بدأنا نتراجع...

سرعان ما تغطَّينا بالدماء. كان هناك عدد كبير جدّاً من الجرحى، لكنهم كانوا هادئين للغاية، وكانوا يصبرون على آلامهم، ولديهم إرادة قوية بالحياة. الجميع كانوا يريدون العيش حتى يوم النصر. كانوا ينتظرونه: ها هو ذا قريباً. أذكر أنني تغطَّيت بالدماء، حتى أن... شبشبي تمزَّق، كنت أسير حافية. فماذا رأيت؟ بالقرب من موغيليوف كانوا يدمِّرون المحطَّة. وكان ملاك العاملين هناك من الأطفال. بدأوا يقذفونهم من نوافذ العربات؛ أطفال صغار لا تتجاوز أعمارهم أربع سنوات. وعلى مقربة كانت هناك غابة، وهم يركضون باتجاه الغابة. وهنا ظهرت الدبَّابات الألمانية واتَّجهت صوب الأطفال. لم يبقَ أحد من هؤلاء الأطفال... من هذه اللوحة وحدها يمكن للمرء اليوم أن يفقد عقله. ولكن الناس كانوا صبورين، يتحمَّلون كلَّ شيء في الحرب، ولم يفقدوا عقولهم إلا بعد الحرب. الجميع مرضوا بعد الحرب. أمَّا في الحرب، فقد كانت تلتئم قرحات المعدة. تنام في الثلج، المعطف العسكري ضعيف، فتستيقظ صباحاً ولا وجود لأيِّ زكام.

ثمَّ حوصرت وحدتنا. لديَّ أعداد هائلة من الجرحى، ولا تقف أية سيَّارة من السيَّارات. والألمان يقتفون أثرنا، وها هم يضعوننا في دائرة مغلقة. عندها قدَّم لي ملازم جريح مسدَّسه قائلاً: «هل تعرفين كيف تطلقين النار؟». ومن أين لي أن أعرف؟ إنني فقط أرى كيف يطلقون النار. لكنني أخذت المسدَّس وذهبت به إلى الطريق من أجل إيقاف السيَّارات. هناك للمرَّة الأولى شتمت شتيمة روسية كبيرة. كفلَّاح... لكن السيَّارات لم تتوقَّف... للمرَّة الأولى أطلقت النار في الهواء... لمعرفتي بعدم قدرتنا على أخذ الجرحى على أيدينا. ولن نتمكَّن من حملهم. كانوا يطلبون منا:

Twitter: @ketab_n

«أيُّها الشباب، حاولوا ألَّا تتركونا هكذا». أطلقت الطلقة الثانية... فأصبت العجلات...«غبية! تعلَّمي إطلاق النار أوَّلاً». توقَّفت السيارات، وبعدها أخذوا الجرحى.

لكن الأكثر رهبة سيأتي لاحقاً. الأكثر رهبة هو ستالينغراد. أية ساحة معركة هناك؟ إنها مدينة؛ شوارع، أبنية، أقبية. وحاولي أن تُخرِجي من هناك جريحاً واحداً! لقد ظهرت كدمات كبيرة في جسمي، وبنطالي كلُّه مغطًّى بالدم، بالكامل. كان المساعد يؤنِّبنا: «أيَّتها الفتيات، ليست لدينا بناطيل بعد الآن، فلا تطلبن». وبناطيلنا تتجمَّد وتجفُّ وتصبح واقفة كالنصب من الدم، أكثر من النشاء، وقد تجرحين رجلكِ به. لم تكن هناك بقعة واحدة نظيفة في البنطال. وفي الربيع لا حاجة إلى استبداله. كان كلُّ شيء يحترق، في نهر الفولغا، على سبيل المثال، كان الماء يحترق. حتى في الشتاء لم يتجمَّد ماء النهر، بل كان يحترق. كلُّ شيء كان يحترق... في ستالينغراد لم يبقَ غرام واحد من الأرض لم يكن مخضَّباً بالدم الإنساني؛ الروسي والألماني. وبالبنزين... وبزيت السيَّارات... أدرك الجميع هناك أنه لم يعد هناك أي مجال لأيِّ انسحاب، ممنوع علينا الانسحاب، إمَّا أن نموت جميعاً. البلاد، الشعب الروسي، أو ننتصر. هذا أصبح مفهوماً للجميع، حلَّت تلك اللحظة. لم يكن أحدٌ يتكلَّم علانية، لكن كلَّ واحد كان يفهم هذه الحقيقة. الجنرال والجندي.

تتوارد إمدادات بشرية. شباب صغار، جميلون. قبيل المعركة تنظر إليهم، وتعرف أنهم سيُقتلون. لقد كنت أخاف من الوافدين الجدد. كنت أخاف من أن أحفظ وجوههم، وأتحدَّث إليهم. لأنهم ها هم قد وصلوا، وها هم لم يعد لهم وجود... تنظر إليهم قبل المعركة يومين أو ثلاثة أيَّام... إنه العام الثاني والأربعون؛ العام الأشد قسوة والأشد صعوبة. كانت هناك حالات، لم يبقَ فيها من أصل ثلاثمئة شخص، بحلول نهاية اليوم، سوى

Twitter: @ketab_n

عشرة أشخاص. وعندما كان يبقى منا هذا العدد، بعد أن تهدأ المعركة، كنا نتبادل القبل والبكاء، لأننا ما زلنا أحياء. لقد تآخينا جميعاً فيما بيننا، صرنا كلُّنا إخوة.

أمام عينيك يموت إنسان... وأنت تعرف، وترى، أنك لن تستطيع مساعدته في شيء، لم يبقَ من عمره سوى دقائق. تقبِّله، تلاطفه، تقول له كلمات لطيفة. ثمَّ تودِّعه. ولا يمكنك أن تقدِّم له أية مساعدة أخرى... إن وجوههم لا تزال حتى الآن في ذاكرتي. إنني أراهم جميعهم، جميع الشباب. لسبب ما الأعوام تنقضي، لكنني لم أنسَ أيَّ واحد منهم، ولم أنسَ أيَّ وجه من وجوههم. لم أنسَ أيَّ واحد منهم... أتذكَّر الجميع... وأرى الجميع... كان بودِّنا نحن أن نعمل لهم قبوراً بأيدينا، لكن هذا لم يكن ممكناً دائماً. كنا نتحرَّك، نغادر، وهم يبقون. وقد يحدث أن تضمِّدي له رأسه كلَّه، فيموت بين يديك وأنت تضمِّدينه، ويُدفن برأسه المضمد. وآخر، إذا ما استُشهد في ساحة المعركة، فإنه يموت وعيناه تنظران إلى السماء. أو يموت ويطلب منكِ: «أغلقي لي عينيَّ، يا أختي، ولكن بتؤدة». المدينة مدمَّرة، والبيوت والمنازل شيء رهيب، ولكن عندما يرقد الناس، الرجال الشبَّان... لا يمكنك أن تأخذ نفساً، أنت تهرب... تنقذ... ويبدو لك أنه ليست لديك قوَّة لأكثر من خمس دقائق، وأن الوقت لن يسعفك... لكنك تركض... شهر آذار/ مارس، الماء الأوَّل بعد الصقيع... من غير الممكن أن ترتدي الجزمة اللبادية، لكنني ارتديتها وانطلقت. بقيت أزحف بها طيلة النهار، وبحلول المساء أصبحت رطبة لدرجة أنني لم أستطع نزعها من قدمي. فاضطررت إلى تقطيعها. ولم أمرض... هل تصدِّقين، يا جوهرتي؟

عندما انتهت المعارك في ستالينغراد، كلَّفونا بمهمَّة نقل الجرحى الأكثر خطورة على المراكب والسفن إلى كازان وغوركي. كان هذا في

Twitter: @ketab_n

الربيع، آذار/ مارس، نيسان/ إبريل. ولكن كم كان هناك من الجرحى! وكانوا أيضاً على الأرض؛ في الخنادق، في الحفر، في الأقبية... كانت أعدادهم رهيبة جدًّاً، لا يمكنني وصفها. لقد كان هذا رعباً شديداً! كنا دوماً نفكِّر في أننا عندما أخرجنا الجرحى من ساحة المعركة، لم يبقَ منهم أحد، وأننا أرسلنا جميع الجرحى، ولم يبقَ من الجرحى في ستالينغراد نفسها، وعندما انتهينا، تبيَّن لنا أن هناك أعداداً أخرى لا يمكن تصوُّرها من الجرحى... على الباخرة التي ركبت فيها جُمع أولئك الجرحى الذين فقدوا أيديهم أو أرجلهم، ومئات من المصابين بمرض السل. كان علينا أن نعالجهم، أن نقنعهم بالكلمات الدافئة، وأن نطمئنهم بالابتسامة. عندما أرسلونا، وعدونا بأننا سنستريح من المعارك، وكان إرسالنا بمثابة شكر وتشجيع لنا. وقد تبيَّن أن هذا أشد رهبة من جحيم ستالينغراد. هناك، في ساحة المعركة، تجرِّين الجريح، تقدِّمين له المساعدة الطبِّية، وأنت على ثقة بأنهم سينقلونه إلى المستشفى. فتذهبين لتجرِّي جريحاً آخر. أمَّا هنا، فهم جميعاً أمام عينيكِ... هناك هم يريدون الحياة، يتشوَّقون إلى الحياة: «أسرعي، يا أختي، أسرعي يا عزيزتي!». أمَّا هنا فهم يرفضون الطعام، يريدون الموت. كانوا يرمون بأنفسهم من الباخرة. كنا نحرسهم. نحافظ عليهم. حتى أنني لعدَّة ليالٍ كنت أجلس بالقرب من نقيب كان قد فقد يديه، وأراد أن ينهي حياته بالانتحار. وقد حذَّرتُ الممرِّضة عدّة مرَّات، حيث غادرته لبضع دقائق، ورمى بنفسه من على ظهر السفينة...

نقلنا الجرحى إلى أوسول، بالقرب من بيرم. كانت هناك أبنية صغيرة نظيفة، معدَّة خصوصاً للجرحى، أشبه بمعسكر طلائع... كنا ننقلهم على الحمَّالات، وهم يمزِّقون الأرض بأسنانهم. كان يبدو لي أنني لو تزوَّجت بأي واحد منهم، لحملته على الراحات. نعود من جديد إلى السفن، وكانت فارغة، كان من الممكن أن نستريح، ولكن لم ننم. استلقت الفتيات فترة ثمَّ

Twitter: @ketab_n

بدأن بالبكاء. كنا نجلس كلَّ يوم ونكتب الرسائل للجنود. وتوزَّعنا مهمَّة الكتابة فيما بيننا، من سيكتب لمن. كنا نكتب ثلاث أو أربع رسائل في اليوم.

وإليكِ هذه المعلومة الصغيرة: بعد رحلتي هذه أخذت أُخفي في المعركة ساقيَّ ووجهي. كانت لديَّ ساقان جميلتان، وكنت أخاف كثيراً من أن يلحق بهما أي تشويه. كما كنت أخاف على وجهي أيضاً. تلك هي المعلومة...

بعد الحرب، لم أستطع طيلة عدَّة سنوات التخلُّص من رائحة الدم، فقد بقيت تتعقَّبني فترة طويلة. أبدأ بغسل ثيابي الداخلية، فأشمُّ هذه الرائحة، أبدأ بتحضير طعام الغداء - فأشمُّها من جديد. أحدهم قدَّم لي بلوزة حمراء هدية، وكانت في تلك الأثناء نادرة جدَّاً، حيث لم يكن هناك ما يكفي من هذا القماش الأحمر. لكنني لم ألبسها، لأنها حمراء. إن هذا اللون لم أعد قادرة على التعامل معه. لم يعد في استطاعتي الذهاب إلى المخزن التجاري لشراء المواد الغذائية، إلى أقسام، وبخاصة في الصيف... ولم يعد في وسعي رؤية لحم الدجاج، أتدركين، إنه أبيض شبيه باللحم البشري... كان زوجي هو الذي يذهب... في الصيف، لم يكن أستطيع أبداً البقاء في المدينة، كنت أسعى إلى السفر إلى مكان ما. ما إن يبدأ الصيف، حتى يتهيَّأ لي أن الحرب ستبدأ الآن. عندما كانت الشمس تصلي بحرارتها كلَّ شيء: الأشجار، البيوت، الإسفلت - لكلِّ هذا كانت رائحة، كلُّه كان يفوح، بالنسبة إليَّ، برائحة الدم. ومهما أكلت وشربت، لم أستطع التخلُّص من هذه الرائحة. حتى الشراشف والبياضات البيضاء، كانت تبدو لي أن رائحة الدم تفوح منها...

أيَّام أيَّار/ مايو من العام الخامس والأربعين... أذكر أننا قد التقطنا كثيراً من الصور لأنفسنا ولمن حولنا... كنا سعداء... التاسع من مايو - الجميع

Twitter: @ketab_n

يصرخ: «النصر! النصر!». كان الجنود يتزحلقون على العشب - النصر! وثملوا قليلاً... آه... آه... آه.

كما أطلقوا النار... كلُّ من كان لديه أيُّ شيء أطلق منه النار...

- «الآن، فوراً توقَّفوا عن إطلاق النار!». أصدر القائد أمره.

* «على أية جهة ستبقى الطلقات؟ وعلام إبقاؤها؟». لم نكن نفهم.

ومهما قال أيٌّ كان، كنت أسمع كلمة واحدة - النصر! وفجأة رغبت في الحياة رغبة شديدة! كم ستكون الآن بداية حياتنا جميلة! حملت على صدري جميع جوائزي وميدالياتي، ورجوت أن يلتقطوا لي صورة. لسببٍ ما أردت أن أتصوَّر بين الأزهار. وقد تصوَّرت في حوض للزهور.

في السابع من حزيران/ يونيو، كانت لديَّ مناسبة سعيدة، كان يوم عرسي. وقد نظَّمت لنا الوحدة العسكرية احتفالاً كبيراً. زوجي كنت أعرفه منذ فترة طويلة: كان نقيباً، قائد سرية. وقد أقسمنا بأننا سنتزوَّج بعد الحرب، إذا ما بقينا أحياء. وقد منحونا إجازة لمدَّة شهر...

ذهبنا إلى كينيشما، منطقة إيفانوفو، إلى والديه. لقد ذهبت بطلة، ولم أكن أفكِّر أبداً أن من الممكن استقبال فتاة الجبهة على هذا النحو. فكم قطعنا من الطرقات، وكم أنقذنا من أبناء الأمَّهات، وأزواج الزوجات. وفجأة... أتلقَّى تلك الإهانة، وأسمع تلك الكلمات المسيئة. قبل هذا، لم أسمع شيئاً سوى "أختي العزيزة"، "أختي الحبيبة". ولم أكن أية فتاة عادية، لقد كنت فتاة جميلة. وقد أعطوني بذلة جديدة.

جلسنا مساء نشرب الشاي، أخذت الأمُّ ابنها إلى المطبخ وأخذت تبكي. «بمن قررت الزواج؟ بفتاة الجبهة... لديك شقيقتان أصغر منك. فمن سيتزوَّجهما الآن؟». والآن عندما أتذكَّر هذا، أشعر برغبة في البكاء. أتتصوَّرين: أحضرت معي أسطوانة، كنت أحبُّها جدّاً. وهي تضمُّ أغاني بمثل

Twitter: @ketab_n

هذه الكلمات: يحقُّ لك أن تلبسي أكثر الأحذية الدارجة على الموضة... عن فتاة الجبهة. وضعت الأسطوانة على جهاز الحاكي، فاقتربت أخته من الأسطوانة وانتزعتها وحطَّمتها، بمعنى: لا يحقُّ لك أن تضعي أسطوانة. وقد أتلفوا جميع صوري في الجبهة... آه، يا جوهرتي الغالية، ليست لديَّ الكلمات من أجل وصف كلِّ هذا، لا أملك هذه الكلمات...

كنا نأكل ببطاقات تموينية اسمها "ليتري". كنت أذهب وزوجي لاستلام حصَّتنا بهذه "الليترات" من المواد الغذائية. ذهبنا إلى هناك. كان هناك مستودع خاص، والناس اصطفُّوا في الدور. اصطففنا في الدور وننتظر. وها هو دوري يقترب، وفجأة ينتقل الرجل الذي كان يقف خلف الطاولة إلى طرفي، ويهجم علي فيقبِّلني ويعانقني وهو يصيح: «أيُّها الشباب! أيُّها الشباب! لقد وجدتها! لقد رأيتَها. كم كنت أودُّ أن ألتقيها! كم كنت أود العثور عليها! أيُّها الشباب! إنها هي التي أنقذتني!». وزوجي واقف إلى جانبي. وهذا الجريح، كنت قد أخرجته من النار. من تحت القصف. وقد حفظني، وأنا؟ وهل يمكنني أن أحفظ الجميع، وكم كانت أعدادهم! وفي مرَّة أخرى في المحطَّة، صاح بي مُقعد: «أختي! لقد عرفتك». وبدأ يبكي. «كنت أظنُّ أنني سأركع أمامها على ركبتي عندما ألقاها...». وكان بساق واحدة...

نعم؛ عانينا الكثير نحن بنات الجبهة. كما عانينا الأمرَّين بعد الحرب، فبعد الحرب كانت عندنا حرب أخرى، وهي أيضاً حرب رهيبة؛ فقد أهملنا الرجال. ولم يحمونا. في الجبهة كان كل شيء مغايراً. تزحفين - تطير شظية أو طلقة... الشباب يحمونكِ... «استلقي، يا أختي!». يصرخ لك أحدهم، وهو نفسه يسقط فوقكِ كي يحميك بجسده. والرصاصة تصيبه هو... إنه ميت أو جريح. لقد أنقذوني ثلاث مرَّات على هذا النحو.

عدنا من كينيشما من جديد إلى وحدتنا. وصلنا وعرفنا أن وحدتنا

Twitter: @ketab_n

لم يُعَدْ تشكيلها، وسوف نقوم بنزع الألغام من الحقول. علينا أن نعطي الأرض للمزارع التعاونية. لقد انتهت الحرب للجميع، باستثناء خبراء الألغام، فهي مستمرَّة بالنسبة إليهم. فالأمَّهات عرفن أنه قد حلَّ يوم النصر... والأعشاب البرِّية كانت طويلة وعالية، والألغام موجودة في كلِّ جانب، وكذلك القنابل. ولكن يجب إعطاء الأرض للمزارعين، وأسرعنا في عملنا. في كلِّ يوم كان يستشهد بعض رفاقك. وكلَّ يوم، بعد الحرب، كان لا بدَّ من الدفن... لقد تركنا كثيراً من الناس هناك، في الحقول... كثيراً جدّاً... وبدأنا بتسليم الأرض للمزرعة التعاونية، فينطلق الجرَّار، لقد اختفى لغم في مكان ما، كما كانت هناك ألغام ضدَّ الدبَّابات، فيتفجَّر الجرَّار، ومعه سائقه. وكانت أعداد سائقي الجرَّارات قليلة. ولم يبقَ إلا القليل من الرجال. وعليك أن تري هذه الدموع في القرية بعد الحرب... النساء تبكي... الأطفال يبكون... أذكر؛ كان عندنا جندي، من منطقة روسيا القديمة، من هناك، ذهب لنزع الألغام من مزرعته التعاونية، ومن حقله، واستشهد هناك. وقد دفنته قريته هناك. لقد حارب طيلة سنوات الحرب، أربع سنوات، وبعد انتهاء الحرب، استشهد على أرضه، وفي حقله.

ما إن أشرع بالحديث ورواية ما جرى، حتى أُصاب بالمرض. أنا أروي وأتحدَّث، وفي داخلي برديَّة وكلِّي أرتجف. وأرى كلَّ شيء من جديد، وأتصوَّر كيف يرقد القتلى، كانت أفواههم مفتوحة، صرخوا بكلمات ما ولم يكملوها. وكانت أحشاؤهم مقلوبة. لقد كان القتلى الذين رأيتهم أكثر من الحطب وجذوع الأشجار... وكم كان هذا رهيباً! كم كان رهيباً عندما يصطدم رجل برجل وكُلّ منهم يحمل سلاحه وحربته... حربته العارية! وتبدئين بالتلعثم، لا يمكنك أن تلفظي الكلمة لفظاً صحيحاً. وتفقدين القدرة على الكلام. وهل يفهم هذا من لم يكن هناك؟ وكيف يمكن الحديث عن هذا؟ وبأيِّ وجه؟ أنتِ، أجيبيني؛ بأيِّ وجه على المرء أن

Twitter: @ketab_n

يتذكَّر؟ آخرون قد يمكنهم ذلك... إنهم قادرون على ذلك... أمَّا أنا، فلا. وأبكي. وهذا ضروري، ضروري كي يبقى. يجب نقل هذا إلى الآخرين. وعلى العالم أن يحفظ صراخنا، وبكاءنا...

أنا دوماً أنتظر عيدنا. يوم النصر... أنتظره وأخاف منه. أجمع خلال عدَّة أسابيع خصوصاً كثيراً من الغسيل، بحيث أغسل طيلة اليوم. عليَّ أن أكون مشغولة بشيء ما، عليَّ أن أمارس طيلة اليوم ما يشغلني. وعندما نلتقي، دائماً تنقصنا المناديل، تلك هي لقاءاتنا؛ لقاءات الذين حاربوا في الجبهة. بحر من الدموع... أنا لا أحبُّ الألعاب الحربية، ألعاب الأطفال الحربية: الدبَّابات... الرشَّاشات... من الذي اخترعها؟ إنها تنبش روحي. لم أشترِ ولم أُهدِ يوماً للأطفال ألعاباً حربية. لا لأطفالي، ولا لأطفال الآخرين. ذات يوم، أحضر أحدهم إلى بيتي طائرة حربية للأطفال ورشَّاشاً بلاستيكياً، فرميتهما على الفور في علبة الخردة. على الفور! إن حياة الإنسان هي هبة... هبة عظيمة! والإنسان نفسه ليس سيِّد هذه الهبة.

أتعرفين، ما هي الفكرة التي كانت عند الجميع في أثناء الحرب؟ كنا نحلم: «أيُّها الشباب، علينا أن نعيش... أية أيَّام سعيدة ستكون بعد الحرب! أية حياة سعيدة جميلة ستحل! إن الناس الذين عانوا الأمرَّين في أثناء الحرب، سوف يشفقون على بعضهم بعضاً، وسيحبُّ أحدهم الآخر. إنهم سيكونون أناساً آخرين». إننا لم نشك في هذا... لم نشك أبداً.

يا جوهرتي الرائعة... الناس، كما في السابق، يكره أحدهم الآخر، ويقتلون من جديد. وهذا أمر لا أفهمه إطلاقاً... ومن هذا؟ نحن... إننا نحن...

بالقرب من ستالينغراد... أجرُّ جريحين. أجرُّ الأوَّل وأتوقَّف، ثمَّ أجرُّ الثاني. وهكذا أجرُّهما بالتناوب، لأن ذوي الجروح البليغة لا يصحُّ

Twitter: @ketab_n

تركهم. وكلاهما ضُربت ساقاه من الأعلى ودماؤهما تنزف. هنا كلُّ دقيقة غالية الثمن. وبعد أن ابتعدت عن حقل المعركة، وأصبحت الرؤية أوضح، اكتشفت أنني أجرُّ جريحاً من عناصر الدبَّابات من عندنا وجريحاً ألمانياً... فسيطر عليَّ الرعب: هناك جنودنا يموتون، وأنا أنقذ الألماني! شعرت بحالة شديدة من الذعر... هناك في جوِّ المعركة وبين الدخان لم أستطع أن أميِّز... أرى إنساناً ينازع... إنساناً يصرخ... آه... كلاهما أصيبا بالحروق، وأصبحا أسودَي البشرة. لا فرق بينهما. أمَّا هنا، فقد انتبهت: ميدالية غريبة، ساعة يد غريبة، كلُّ شيء غريب. إنها البذلة العسكرية اللعينة. وماذا عليَّ أن أفعل الآن؟ أجرُّ جريحنا وأفكِّر: «هل أعود لأخذ الألماني أم لا؟». كنت أدرك بأنني إذا ما تركته، فسرعان ما سيموت بسبب النزيف... ورجعت، وزحفت لأجرَّه. وتابعت جرَّ الجريحين الاثنين...

إنها ستالينغراد... حيث جرت المعارك الأشد رهبة، والأقوى. آه، يا جوهرتي... لا يمكن أن يكون هناك قلبان، قلب للكراهية، وقلب للحب. للإنسان قلب واحد، وأنا دوماً أفكِّر كيف أنقذ قلبي.

بعد الحرب، بقيت أخاف من السماء فترة طويلة، حتى أنني أخاف أن أرفع رأسي إلى السماء. كنت أخاف رؤية الأرض المحروثة. أمَّا الغربان فكانت تطؤها وتحلِّق فوقها بهدوء. لقد نسيت الطيور الحرب بسرعة...

2004-1978

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سفيتلانا أليكسييفيتش

كاتبة وصحفية من بلاروس.

صدر لها عدة أعمال توثيقية أغلبها عن الحروب السوفيتية .أثارت كتاباتها جدلاً كبيراً في بلدان الاتحاد السوفيتي وتعرضت لعدة محاكمات قانونية بسببها.

حازت على عدة جوائز دولية أهمها جائزة السلام من معرض فرانكفورت 2013. وجائزة نوبل للآداب 2015، التي نالتها على «أعمالها المتعددة الأصوات التي تمثّل معلماً للمعاناة والشجاعة في زماننا.وهي تعمّق بأسلوبها الاستثنائي - الذي يقوم على تداخل دقيق بين صوت البشر - الفهم لعصر كامل».

د. نزار عيون السود

باحث وأستاذ جامعي ومترجم.

ولد في حمص عام 1954، وفيها تلقى تعليمه الثانوي.

تلقى تعليمه الجامعي في المعهد العالي للثقافة في لينينغراد، حيث حصل على درجة الماجستير في العلوم التربوية (1970) وحصل على شهادة الدكتوراه في العلوم النفسية (اختصاص علم نفس اجتماعي) في عام 1983. بدأ بممارسة الترجمة منذ عام 1972.

صدر له أكثر من 35 كتاباً تأليفاً وترجمة وتعريباً عن دور النشر السورية المحلية والعربية، من أهم مؤلفاته "نشوء وتطور الفكر النفسي الاجتماعي

Twitter: @ketab_n

عند العرب". ومن أهم ترجماته: "دراسات في الأدب والمسرح"، "التفكير والإبداع"، "مقدمة علم النفس الاجتماعي"، "القصة القصيرة الروسية الساخرة"، "دوستويفسكي دراسات في أدبه وفكره"، وغيرها.

أشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه. مارس التدريس الجامعي في الجامعات السورية العامة والخاصة وفي جامعات السودان والجزائر وعمان.

Twitter: @ketab_n

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

Twitter: @ketab_n

انشـأت سـفيتلانا أليكسـييفيش نوعـاً جديـداً مـن الأدب قائـماً علـى كتابـة روايـة مـن الأصـوات المتعـددة لشـهود مرحلـة مـا. حـازت عـلى عـشرات الجوائـز الدوليـة؛ أهمهـا جائـزة السـلام من معرض فرانكفورت للكتاب 2013. وجائزة نوبل للآداب 2015، التـي نالتهـا عـن مجمـل أعمالهـا المتعـددة الأصـوات التـي تمثـل معلـماً للمعانـاة والشـجاعة في زماننـا. وهـي تعمـق بأسـلوبها الاسـتثنائي - الـذي يقـوم عـلى تداخـل دقيـق بـين أصـوات البشر- فهم عصر كامل.

وقعت آلاف الحروب، قصيرة ومديدة، عرفنا تفاصيل بعضها وغابت تفاصيل أخرى بين جثث الضحايا. كثيرون كتبوا، لكن دوماً كتب الرجال عن الرجال. كلُّ ما عرفناه عن الحرب، عرفناه من خلال "صوت الرجل". فنحن جميعاً أسرى تصوُّرات "الرجال" وأحاسيسهم عن الحرب، أسرى كلمات "الرجال". أمَّا النساء فلطالما لذن بالصمت.
في الحرب العالمية الثانية شاركت تقريباً مليون امرأة سوفيتية في القتال على الجبهات كافة وبمختلف المهام.
تثير سفيتلانا أسئلة مهمة عن دور النساء في الحرب، لماذا لم تدافع النساء -اللواتي دافعن عن أرضهن وشغلن مكانهنَّ في عالم الرجال الحصري- عن تاريخهن؟ أين كلماتهنَّ وأين مشاعرهنَّ؟ ثمَّة عالمٌ كامل مخفيٌّ. لقد بقيت حربهنَّ مجهولة...
في كتابها الأول "ليس للحرب وجه أنثوي" تقوم سفيتلانا بكتابة تاريخ هذه الحرب؛ حرب النساء.

ISBN 978-9933-540-20-3
دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
9 789933 540203